ماجد شيحة

# إيلات

رواية

كيان
Kayan
KAYAN PUBLISHING

الأعمال الكامله

t.me/kotbhm

# إيلات

رواية

# إيلات

ماجد شيحة

رواية

# تقدمة

تمنيت كثيرًا أن أقول أن أحداث هذه الرواية ليست حقيقية، وهذا كذب، ربما تكون شخصيات روايتي غير حقيقية: هذه كذبة أيضا، أو أن الأحداث التي سردتها لم تمر بنفس الكيفية التي حدثت بها: كذبة أخرى، ولكن كما يقول أستاذ سمعان: كذبٌ في السرد خيرٌ من كذبٍ في الأحداث، أو لعله قال: الصدق واسع، نستطيع أن نقول كل شيء دون أن نكذب، دون أن يدري أ.سمعان أن هذه كذبة أيضا، ولكن كلمات الإهداء دائما هي أصدق ما يقال لأن العالم لن يخلو ممن نهدي إليهم كذباتنا، أهدي هذا العمل إلى أ.سمعان الحقيقي - كنص في عشق الفقه -، إلى إيلات - كنص في الحب -، إلى حسين (القاتل) الحقيقي - كنص في اكتشاف الذات -، هؤلاء الذين علموني أنه لا أفضلية لعقل على آخر، طالما انقطع مدد السماء.

من نافلة القول أن أقول أن أسماء الشخصيات لا علاقة لها بأحد من قريب أو بعيد، ولكن الأمر أشد تعقيدًا من هذه الأكذوبة.....

واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها

«أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفَع»، قالوا: «هذه المصاحف تُرفع! فكيف بما في صدور الرجال؟» قال: «يسري عليه ليلا فيصبحون منه فقراء، وينسون قول لا إله إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم»

حديث شريف

# الفصل الأول

# حسين - القاتل

(جزء كبير من الأجر الذي يناله منفذو القصاص ليس في المال الذي يأخذونه من حكوماتهم ولا في خدمة التاريخ البشري، بل في الرضا التام الذي يحوزونه عند تنفيذ القصاص دون كراهية)

من كتيب التعليمات

***

في منتصف نهار حار، ولم يكن مفعول حبوب الهلوسة التي ابتلعاها قد بدأ عندما قال حسين لصديقه إسحاق:

- سأقتلك يومًا ما.

الجلسة والجو والنوافذ المغلقة وضجيج الشارع الخافت المتسرب منها، كانت تشبه عشرات المرات السابقة التي تناولا فيها الغذاء وخلدا بعدها للراحة ثم ابتلعا الحبوب، لا شيء متغير عن ذي قبل، لا شيء مميز، حتى نبرة الصوت التي نُطقت بها الجملة المفزعة، نُطقت بينهما عشرات المرات، بالتبادل، سأقتلك إن تأخرت مرة أخرى، سأقتلك يا إسحاق لأنك ممل، سأقتلك بسبب طريقتك في الأكل، سأقتلك بسبب عينيك هاتين، ولكن هذه المرة كانت سأقتلك وفقط، سأقتلك فعلا.

**لا يعرف حسين لماذا قال هذه الجملة، كيف أفلتت منه، بهذه التلقائية الشديدة، بدون حقد وبدون كراهية وبدون سابق مهمة يُكلف بها، فهو مأمور بأن يكشف عن هويته لضحاياه قبل أن يضغط الزناد، لماذا قالها إذن بدون داع، وبكل وضوح وبشكل لا**

يقبل التأويل؟

صحيح أنها لم تكن المرة الأولى التي يدهمه فيها هذا الشعور، ولكنها كانت المرة الأقوى، لا تشبه الصخب بقدر ما تشبه الصمت، فطوال الوقت يملأ القتل حواسه كما تملأ صفارة قطار بعيد أسماع المنتظرين له على المحطة، ولكن عندما يشرع في القتل يدهمه هذا الشعور كقطار فعلي وصل إلى محطته، لا صوت، فقط صمت متآمر وحفيف ملابس السائرين يلون ذاكرته المؤقتة، وكان هذا يحدث كثيرًا، أن يرى وجهًا ما في الزحام، جالسًا في حديقة، في انتظار الترام، وجهًا في استقبال فندق، فحسين يتجول كثيرًا، ليس على قدميه، بل في سيارته، لا هدف له إلا أن يتأمل الناس، ليس الوجوه، بل الأجساد، يرتاح لحركة الجموع، ربما لأنه لم يعد مثلهم، ثم يحدث فجأة أن يجذب انتباهه وجهٌ ما، وجهٌ كأن إضاءة قوية مسلطة عليه، وجه مثل لقطة ملونة تتجول في مشهد كامل بالأبيض والأسود، ويجتاحه يقين أنه سيقتل صاحب الوجه يومًا ما، سُيكلف بمهمة لقتله، وعندما يدرك هذا يشعر براحة ونشوة وكشف، كأنه رأى ضلعًا في مستطيل مهيض الضلع فأعاده إلى نقطتي التحامه، كأنه.. ديني مهووس رأى حذاءً مقلوبا فعدله، لئلا يكون النعل إلى اتجاه وجه من يقدسه في السماء.

صديقه المذهول لم يضحك، لم يبتسم حتى، ابتلع ريقه، نكس رأسه، لا نظرة تصمد أمام نظرة قاتل أبدا عندما تستعر ذكرى القتل في عينه، وعندما رفع رأسه قال وهو يشير إلى بقايا الطعام المتخلفة عن مأدبتهما النهارية، محاولا تخفيف زخم الجملة بالدعابة:

- هل تقول أنك ستقتلني، الآن، بعد أن أكلنا سويًا؟

ولكن حسين لم ينتبه لنبرة المرح المصطنعة في صوت إسحاق وأجابه بلسان لا يتلعثم:

- لا ليس الآن، بعد سنة أو سنتين أو ثلاثة، ولكني سأقتلك.

أدرك إسحاق أن حسين مستمر في جده، وأن المرة الأولى كانت صادقة عن عمد، فسأله في حيرة:

- لماذا؟

- افهمني، ليس كراهية أو لسبب بعينه، سأقتل بعدك الكثير، وقتلت قبلك الكثير، إنها مهنتي.

ساد بينهما ذلك الصمت الذي لابد وأن يقطعه أحدهما، الصمت الذي لا يشي ولا ينم، صمت كتوم كصمت رجل عجوز على مقهى كل روادها من الفتيان، وكان حسين يشعر بعيني هذا العجوز يطلان من عينيه وبداخله أكبر رغبة عبثية في الوجود لإدهاش صديقه، كان التسلسل الطبيعي للحماقة، التقط حسين حقيبة الكتف الصغيرة التي لا تفارقه، من داخلها عالج شيئا ملفوفا بإهمال في كيس أسود من البلاستيك، شيئا أسود ولكن سواده أكثر أصالة وتكتما، أخرج طبنجته ووضعها بتراخٍ على سطح المنضدة، أعقب تصرفه هذا لحظة صمت، ثم ضحكة مجلجلة، وكأن تصرفه المسرحي هذا إذنًا منه بإنهاء الموقف السخيف، ضحك صديقه ومع آخر ذيول ضحكته وبحركة فجائية التقط حسين الطبنجة وصوبها إلى منتصف المنضدة وضغط الزناد، ولكن الخفقة السريعة من جفني صديقه وإن وشت بخوفه لم تجد لها رصيدا من جعجعة مُطلقها، كان المسدس فارغًا.

ابتسم إسحاق متوترا، ثم هز رأسه متفهما كالمستهزئ، لاحظ حسين استهزاءه، ولكنه لم يغضب، لقد تعود أن يضبط نفسه، فضلا عن أن يفسد المزاج الرائق الذي حصل عليه بهبة رؤيته النادرة ويظل أثرها يتردد في عروقه كمخدر فائق المفعول.

- أنت لا تصدقني؟

- لا بالعكس، أصدقك، أخبرني، كم قتلتَ اليوم بهذا المسدس؟

- واحد، غير مسموح لي بأكثر من واحد في كل مرة.

- وهل أطلقت رصاصاتك كلها على فرد واحد فقط؟

- لا أضع في خزنة الطبنجة عندما أكون ذاهبًا لأداء مهمة سوى رصاصة واحدة، أخاف أن يقاطع أحد مهمتي فأقتله هو أيضا، لا أريد أن ألوث نقاء مهنتي.

***

قاتل موظف، أيهما الصفة وأيهما الموصوف؟، تتطلب الإجابة قراءة للتاريخ، والتاريخ يقول أنها لم تعد مهنة مُشاعة في هذا الزمن الغريب، بلفظ أدق: لم تعد شرعية، حتى لو كانت الحكومة هي من تكلف بها، يسميها الموظفون الحكوميون في أوراقهم السرية: تكليفًا بالإعدام، يسمونها أحيانا أخرى قصاصًا، ولكن القصاص لم تعد كلمة ذات معنى، حتى لو أضافها رجال الدين والسياسة إلى عشرات المضافات الموحية لينكهوها وليخففوا من ثقلها: القصاص للمجتمع، للكادحين، للشرفاء، تظل كلمة الإعدام لا تفقد بريقها أبدا، لا تنحاز، حالة نادرة من الموت، حتى الانتحار في أشد حالاته نقاءً ينحاز لليأس والإحباط، أما الإعدام فهو حالة موت متواطَأ عليها، خاصة إذا اكتسب سرية لا ينبغي لها أن تُهتك إلا بالدم .

حسين فتى أسمر، طويل العنق، أسنان مفلوجة، عينان كبيضتيْ زُخ مهما درت حولهما لتستشف ما بداخلهما فلن تستطيع، صعيدي أبًا عن جد، اللهجة واللون، لا ينقصه إلا الشارب، وكثيرا ما فكر في إطلاقه، ولكن مدربيه في صالات الجمنازيوم حذروه، لا يحب المُحكِمين شواربهم، على أية حال ما فائدة شارب في جسد تعهده بحيث لا تنبت فيه شعرة واحدة!، عندما يخلع ملابسه أمام الحكام يبدو جسده مصلتا كسيف من البرونز، شهقات الإعجاب تستحق المجهود الذي يبذله يوميا في التدريب، تستحق أن يضحي بشاربه الذي أطره أبوه في لوحة العائلة باعتباره من الصفات المميزة لها، المتبقي من سيرة مخيفة لجد كان قاتلا بالأجر، أسطورة في مجاله

لدرجة أن المسميات التي اشتقها لتسمية مفردات مهنته ظل معمولا بها لسنوات طويلة في عالم القتلة المأجورين بمنطقته.

جده كان مولعا بالكلمات المفخمة، كسقط على أم رأسه، وحمي الوطيس، واختلط الحابل بالنابل، لذا جعل للقتل جملة مفخمة مشابهة، الزبون والزابن، الضحية هو الزبون، ومن يدفع للقتل هو (الزابن)، باعتبار القتل أمرا قدريا سيحدث حتى لو لم يطلق رصاصته، كل ما في الأمر أن قدر الزبون هو ما دفع الزابن مسلوب الإرادة إلى الذهاب للقاتل ودفع المال إليه لتحقيق قدر الزبون، من يناقش قاتلًا في اشتقاق خطأ؟، حتى لو كان فيه جانبٌ من الصحة.

كمسألة قدرية أيضا، كان من السهل تفسير قدر حسين كقاتل إذا نُسبَ لجده، ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة، فحسين من عائلة معظم أفرادها من العلماء، والعلماء لفظ يُطلَق في بلدته بالصعيد على جميع من أمسك مصحفًا ودرس للناس الفقه، إنها طريقة جيدة للتخلص من الأثر السيء لإرث الجد القاتل، أو ربما كان الجد هو من حاول التخلص من مشنقة الفقه الملتفة حول عنقه، وكذلك حسين، ولكن بطريقة مختلفة تماما عن جده، طريقة شرعية إن صح القول، فالآن، صار (الزابن) الحكومة كلها، مؤسسات الحكومة تحديدا، والتي وقعت على معاهدة دولية ما بجعل حبل المشنقة والزلاجة والخشبة متحفا أثريًا للزائرين، ثم جعلوا للموت هوية سرية يجول بها في البلد حاملا معه مسدسًا غير مرخص، وسيارة مشاوير خاصة، لا أحد يعرف أن حسين موظف رسمي، قام بنقل زبائن عدة إلى أماكنهم الأخيرة، قضاة ومشايخ ومديرين لمؤسسات كبيرة وبشر عاديين تماما لا يميزهم شيء، ما تهمتهم؟، لا يعرف إلا عند النفق المظلم، عندما يدخل هناك ويقوم بتمثيلية السيارة المتعطلة، يقرأ التهمة ويعرف لماذا سيطلق النار.

قال له صديقه:

- عرفت أنك لن تطلق النار على المنضدة رغم أنني لم أكن أعلم أن المسدس فارغ.

- كيف عرفت؟

- إطلاق النار بهذا القرب من الممكن أن يتلف سلاحك، القتلة الحقيقيون فقط يفعلون ذلك، لتلبيس الأمر على الطبيب الشرعي، كأنه انتحار.

سكت حسين متفكرا، لا يعرف إسحاق أن جثث ضحاياه لا تذهب الى المشرحة، ولا تُستخرج لها شهادات وفاة، رغم أن تخمينه ككُل كان في محله، فحسين أبدا لم يدربه أحد، لم يخبره أحد عن أضرار إطلاق النار عن قرب، عليه وعلى سلاحه، ولا عن تعريض نفسه بحماقة للاشتباك القريب، وهي الميزة الأولى في تفوق السلاح الناري عن الأسلحة البيضاء، لم يخبره أحد، وحتى لو أخبروه، وظيفته فطرية، لا تحتاج إلى مهارات، تحتاج إلى رغبة وإلى حياد، وفي هذا الزمن الذي يشبه استراحة محارب عجوز شرس - لا يُعلَم متى سيلتقط أنفاسه ومتى سيعود - كان من المستحيل الحصول على وظيفة مميزة مثلها.

كيف وصل به الأمر إلى ما وصل إليه، بمعنى آخر، لديه موهبة تواطأ العالم على رفضها بل وتجريمها، من ذا الذي يستطيع أن يتنبأ لقاتل أنه سيصبح قاتلا، حتى عمه الفقيه الأزهري الذي رباه رأى أن قلب حسين مهيأ للفقه كتهيؤ كوب نظيف للماء، وكثيرا ما ألح عليه أن يسعى للعمل في مجاله حتى ميعاد اختباره.

حسب توزيعه الجغرافي كان المبنى الذي سيُتم فيه حسين اختباره شقة حكومية قديمة أعدوها لاختبار الطلبة الذين نزحوا إلى القاهرة بعد إتمام دراستهم الثانوية، السلالم متآكلة والباب شبه مغلق، ولكن الأصوات في الداخل أنبأته أن المكان مُفعل، دفع الباب قليلا، بابًا ثقيلًا، لابد أن أي شخص غيره يحتاج إلى كلتا ذراعيه ليدفعه، المكان لا يشبه مكتب اختبار للوظائف الحكومية، يشبه أكثر عيادة

طبيب أسنان في منطقة راقية، عيادة تحتوي على ألم أرستقراطي خاص، الجدران مدهونة حديثا، والمقاعد في الاستقبال تشبه احتضانة راقية من الخلف، مرتفعة عند الربلتين ومنخفضة جدا عند الأرداف، بدت له المقاعد وسيلة تصنيف من المرحلة الأولى، غربلة خشنة، النوع الأول من الجالسين كان يسمح لانخفاض المقعد أن يحتوى ردفيه، متيحًا للارتفاع أن يُشبح ساقيه، كأنه يصطاد بهما في الفراغ!، أما النوع الثاني من الجالسين فكانوا يضعون ساقا فوق ساق مع تطبيق تفاصيل الجلسة الأولى فكان هذا يجعلهم أكثر اتساقا مع إعطاء إيحاء بالتفاخر الذي لا محل له من الاعراب، اثنان فقط من المُختَبرين تزحزحا إلى حافة المقعد ليُمكنا أقدامهما من الثبات على الأرض، كانت هذه الجلسة لتناسب حسين أكثر، ولكنه قرر بعد تسجيل اسمه أن يذهب إلى الشرفة وأن يقف هناك.

عبثا حاول استنطاق أي من النوافذ المفتوحة في البنايات المقابلة عن طبيعة السكان، لا ملابس على أحبال الغسيل ولا ظهر دولاب ولا رأس مشجب طويل، ولا منضدة عليها كأس من الكريستال أو كوب به حثالة شاي، كأن خلف شيش كل نافذة قناصًا يترصده بعدسة بندقية.

لم تطل وقفة حسين هناك، فعلى الفور أتى مسرعا أحد مرتدي المعاطف البيض من موظفي الاختبار بعد أن لمحه، ضغط حسين على زر سيجارته الإلكترونية ووضعها في فمه كذريعة لوقوفه في الشرفة، سأله الرجل:

- لماذا تقف هنا؟ ليس مسموحا لك.

- لم أكن أعلم، أردت أن أدخن.

- التدخين أيضا ممنوع.

رد حسين في ابتسامة واسعة:

- لا توجد لافتة.

أشار له الرجل أن يتبعه، مشى حسين خلفه، دخلا في غرفة مكيفة في نظام يحفظ الحميمية وُضعت على مسافات أجهزة تشبه أجهزة أطباء العيون، أجلسه على واحد منها، من الخلف وبكلتا يديه احتضن وجه حسين، كفين دافئتين لا رائحة لهما، جعل حسين يُمكن ذقنه من فجوة طرية الملمس بحيث لا تُفلت عيناه شاشة ضيقة أشعتها مريحة، في نهايتها منطاد ملون، المنطاد رأس وسط مساحة معشوشبة، مكان يصلح لأن يُدفن فيه المرء، أو يَدفن فيه الآخرين ..

جاءه صوت خافت من سماعات الجهاز، هل أنت جاهز؟، لم يجفل حسين، أجاب بثقة: نعم، شرح الصوت: قواعد الاختبار أن لا تجيب بصوتك بل بعينك، لكي تجيب ب نعم يجب أن ترفع المنطاد عن الأرض لأعلى بحركة طولية من مركز العين، أما النفي فيجب أن تزحزحه من مكانه بحركة عرضية مع الحفاظ عليه من الانقلاب؛ لعبة جيدة: غمغم حسين، قال الصوت: المهم في إجاباتك أن لا تسمح للمنطاد أن ينقلب أو للحبل الذي يثبته أن ينقطع، سيُنهي هذا اختبارك على الفور.

لا يتذكر حسين معظم الأسئلة، كانت سطحية ومتشعبة ومرهقة ومكررة، وبدأت عيناه تؤلمانه، وإليتاه تتبللان بالعرق رغم تيارات الهواء القادمة من التكييف تضرب أعطافه في موجات متتالية، مما جعل شعوره بالبرد مضاعفًا، ثم سمع نفثة صغيرة، وشم رائحة غريبة لم يشمها إلا في يوم الحادثة، عندما صعد طفل الأربع سنوات بمساعدة مقعد إلى رف الأنتيكات العالي واختلس طبنجة جده المخبأة في فازة ملونة هناك، استطاع حملها والنزول بها دون إثارة صخب يلفت الانتباه إليه، ومن البلكون صوب إلى رجل يمشي في الشارع وجذب الزناد فأصابه في كتفه، كان هذا الحادث سببا في

تغيرات جذرية في حياته، انفصال أبيه عن أمه لفترة طويلة وإرساله إلى عمه في الصعيد حيث عاش معه عشر سنوات كاملات، أخبروه هناك أن الرجل الذي أطلق عليه الرصاصة مات، وأنه ينبغي عليه أن يختبئ حتى تتوقف الحكومة عن البحث عنه، ولكنه عرف فيما بعد أن الرجل لم يمت وأنه مكث في المستشفى أربعة أيام فقط، وتم إرضاؤه بمبلغ كبير من المال، بينما استمر الطفل الذي أطلق رصاصة عليه في وهم الخوف من تبعات ما حدث، لم يكتسب من حياته مع عمه إلا السخط وتعود على إنكار الحادثة بشتى الطرق، إنكارها حتى بينه وبين نفسه، ربما لو تصرف أبوه وأمه بعقلانية أكثر، لم تتصرف أمه كسيدة طُعنت في مثاليتها ولم يتصرف أبوه كرجل صلب يستطيع أن يحل المشاكل رغم هذر النساء، لسنوات ظل يفكر في التصرف الأمثل، ربما لو طلبوا منه أن يندم أو يعتذر للرجل أو يزوره في المستشفى لكانت حالة الإنكار لم تنشأ قط، ولكن حتى في زيارات أبيه وأمه له كانت حالة الإنكار تتحسن فقط منساقة لتصريحاتهم المتجددة، قالوا له أن الرجل كان يتعارك مع أبيه، وأنه رآهما وتصرف بتلك الطريقة، ولكن الحقيقة كانت مخبأة بداخله كل هذه السنوات، جعلته تلك الرائحة يتذكر، لم ينس أصلا، ولكنها استحضرت الحادثة بتفاصيلها، والفارق أنه كان الآن مستعدا للاعتراف، لم يكن يصوب على كتف الرجل، بل رأسه، يده الضعيفة لم تحتمل القبض على الطبنجة فأمسكها بكلتا يديه وصوب، كان يريد قتل رجل لا تربطه به أي عداوة ولا يحمل له ضغينة، وعلى الرغم أنه لم يسمع سؤالًا إلا أنه أجاب، بصوت هامس وبإيماءة طولية لعينيه، نعم، كنت أنوي قتل الرجل دون كراهية بيني وبينه، عندئذ وبحبور كامل رفع المنطاد بعينه وترك الحبل يتمزق بينما سبح المنطاد خارج الكادر وسمع صفارة خافتة، لقد انتهى الاختبار.

***

أعطوه ظرفا، كان هذا أول ظرف يستلمه في حياته بصفته الوظيفية، ظل محتفظا به حتى بعد أن دأب على أن يحرق الأظرف ويتخلص من أثرها، بالظرف عنوان وميعاد، الميعاد بعد نصف ساعة، والمكان يستطيع أن يصل إليه سائرًا على قدميه دون أن يفوت الميعاد.

عندما وصل وللوهلة الأولى ظن أنه أخطأ في قراءة العنوان، كانت شقة في بناية فاخرة، فاخرة جدا، لدرجة أن مرآة البورسلين الأسود لأرضية المدخل أظهرت قبح ملامحه الصلبة بشكل مُزرٍ وبدا عنقه الطويل كعنق شهيد، دلف في مصعد مضمخ بالعطر وأرضيته مفروشة بسجاد أحمر، وعلى باب الشقة التي خرج من المصعد ليجده تجاهه اسم منحوت على لوحة نحاسية، اسم فقط بلا وظيفة.

ضغط على زر الجرس، لم يسمع صوته، ضغط عليه مرة ثانية، لم يسمع، ظن أنه متعطل فضم سلاميات يده اليمنى ليدق بها، ولكن الباب فُتح مفصحا عن رجل في سن الستين غالبا، وعندما رأى الظرف في يده تنهد ودعاه للدخول.

هذا رجل لا يزوره أحد، بهو الصالة يؤدي إلى غرف النوم المفتوحة والمطبخ والحمام، لا ستائر، والكنبة التي أجلسه عليها كانت في مواجهة تلفاز يعمل بالنظام القديم، نظام الهوائيات، قناة الوطن.

- أخيراً.

قال الرجل وهو يضع أمامه صينية عليها كوبان من سائل بارد لم يقربه حسين الذي قال:

- هل كنت تنتظرني؟

- طبعا، قالوا لي أنهم على وشك العثورعلى واحد، ولكن كما تعلم، لا يجب أن نصدق الحكومة حتى في شهادات الوفاة والميلاد، أخبرني، كيف عثروا عليك؟

- ذهبت للاختبار وطلبوا مني أن..

- الاختبار، سمعت أنهم طوروا الطرق القديمة في اختيار الأشخاص بنسبة لا تحتمل الخطأ أبدا، فيما مضى كان علي أن اخوض تدريبات عنيفة لإثبات كفاءتي، طبيعة المهنة متحركة كما ستعلم، كل شيء عليك، فيما مضى كانوا يأتون بالرجل إلى عرينك لتتعامل معه بطريقتهم، الصعق أو حبل المشنقة أو السم، أما الآن كان الله في عوننا.

لقد رأى أقارب له يتحدثون بحدة أكثر من هذه في مواضيع تافهة، حدة تصل لسحب أجزاء السلاح والتهديد بالقتل في مجالس مليئة برجال متأهبين كالصقور الجائعة، الآن هو في صالة شقة يلعب حولهما أطفال وتطش سيدة شيئا ما في المطبخ القريب ويحتسيان مشروبا باردا منعشا على شرف الطرق المفضلة للإعدام، لم يتفاجأ حسين ولم يتوتر، ربما اندهش قليلا بالتفاصيل، والتفاصيل تقول أن عليه العثور على سلاحه بنفسه، كل ما سيساعده به زميل العمل السابق العجوز هذا أنه سيسلمه جهازًا فائق السرية يحدد له مكان وطريقة استلام الظرف وميعاد التنفيذ في كل مرة، (المهمة التي سيفشل فيها سيتم خصم ٢٥٪ من مرتبه وكل مهمة يؤديها بنجاح عليها حافز ١٠٪ من مرتبه) سلمه العجوز كتيبًا سميكًا رغم تآكل أطرافه إلا أنه كان صامدًا وقابلًا للقراءة، الكتيب مكتوب بخط منمنم وعلى هامشه توجد ملاحظات قليلة بخط اليد، عنوان الكتيب: لا تكره، في لحظة إشراقة ذهنية وهو يغادر الشقة عرف لماذا اختاروه، لا تكره، لطالما شعر بالرغبة في قتل أشخاص لا تربطه بهم علاقة حب أو كراهية، كالحروب القديمة، بلا حقد.

***

حياة حسين تبعثرت خلال الشهر الذي مكثه منتظرا شاشة جهاز المهمات قبل أن يومض بمهمته الأولى، البدايات كلها مخزية خاصة

إذا بـدأت بعمـل مكتـبي كالقـراءة، قـرأ حسـين كتيـب التعليمـات صفحة صفحـة، وبينمـا يقـرأ كان التسـاؤل يتجسـد بداخلـه كخيبـة: كيف ستتحول هـذه الحـروف والكلمـات إلى رصاصـة وإدانـة مقنعـة لإطلاقها عـلى جسـد حـي.

الفصـل الأول كان يربـو عـلى الخمسـين صفحـة، العناويـن فيـه صيغت بهـذا الشـكل (في حـال إذا ضـاع هـذا الكتـاب عليـك أن تضغـط عـلى رقـم ١ مـن جهـاز المهمـات حتى تسـمع الصفـارة، في حـال ضيـاع جهاز المهمـات عليـك أن تتصـل بالرقـم أسـفل، التـصرف المطلـوب في حـال (١ - اكتشـاف هويتـك مـن قِبـل مـن سـيقع عليـه القصـاص، ٢ - في حالـة فـرار مـن سـيقع عليـه القصـاص، ٣ - في حـال إذا لـم يمـت بعد توقيـع القصـاص عليـه بشـكل مؤكـد(!)، ٤ - إذا احتـوى الظـرف عـلى ميعاديـن للقتـل، ٥ - في حـال إذا احتـوى الظـرف عـلى مـكان وميعـاد واحـد، ٦ - في حـال إذا احتـوى الظـرف عـلى مـكان وميعاديـن، ٧ - في حـال إذا احتـوى عـلى مكانـين دون ميعـاد، ....)، وهكـذا كل صفحـة بها شرح لحالـة طارئـة ينتهـي معظمهـا برقـم هاتـف يجـب عليـه أن يتصل بـه في حـال وقـوع الحالـة الطارئـة.

بينمـا يقلـب حسـين أوراق هـذا الفصـل كان الرعـب يتكـون بداخلـه كحالـة مـن عـسر هضـم، خمسـين حالـة طارئـة!، كـم مـرة عليـه أن يقتـل في حياتـه الوظيفيـة إن كانـت الحـالات الطارئـة خمسـين؟، وكلمـا توغـل أكـثر نتـج مـن هـذا الرعـب الـرديء نـوع مـن الخبـل الإحصـائي الشبيه بخبـل الفقهـاء المكرسـين الذيـن يطـاردون بفتاواهـم حـالات مسـتعصية الحـدوث، لدرجـة أنـه كان يقطـع قراءتـه كثـيرا ليبحـث عـن حالـة يعتقـد أنـه لـن يجدهـا، ولكنـه وجـد راحتـه القلبيـة عندمـا ابتكـر جـدولا لاكتشـاف ذلـك، ممـا لا شـك فيـه أن مؤلـف الفصـل الأول اسـتخدم جـدولا كهـذا، ولكـن التتبـع غـير الابتـكار، فالعمـل عـلى هـذا الجـدول بقـدر مـا كان ممتعـا للمؤلـف كان مؤلمـا جـدا ومربـكا لأعصـاب حسـين،

لم يدرك ذلك إلا عندما استيقظ ذات مرة مفزوعا من نومه بشعور أن لديه ذراعين يسار، أما الذراع اليمين فحالة وجودية فارغة، وعندما عاد إلى واقع الأمر خرج ليستنشق الهواء قبل أن يفقد عقله.

المهمة الأولى لم يتم تكليفه بها بواسطة شاشة الجهاز، بل بواسطة موظف البريد عند ذهابه لاستلام راتب الشهر الأول، سلمه الراتب في ظرف مغلق وطلب منه أن يضع توقيعه على ورقة ثم سأله:

- هل قرأت كتيب التعليمات؟

هز حسين رأسه بطريقة بدت لها خرقاء عندما تذكرها فيما بعد، كرر موظف البريد السؤال فأجابه بصوت قوي: نعم ، قرأته، فسحب ظرفًا آخر من أسفل الكونتر وأعطاه له.

فيما بعد أدرك حسين أن ما حدث في مكتب البريد كان مفيدا لإنقاذ أعصابه من الحالة الإحصائية وجحيم الاحتمالات، فعندما انطلق خارجا من الباب الزجاجي أخذ يفكر كأنه أصابته حمى.

- لابد أن هذا الموظف لا يعرف ما الذي فعله لتوه ولا يعرف معنى السؤال الذي ألقاه عليّ، ولا يخرج عن كونه موظف بريد لديه تعليمات ينفذها، سلم الظرف الأول ثم اسأله: هل قرأت كتاب التعليمات، فإن أجابك بنعم فسلمه الظرف الثاني.

عندئذ وبشكل فجائي تجمدت يد حسين على مقود سيارته، تجمدت أفكاره: وماذا لو أنه أجاب موظف البريد بلا، أو رفض الإجابة، أو أخذ ظرف المال وانصرف، هذه كلها احتمالات إحصائية، فهل درسوها جيدا، أم تركوه لاحتمال لا يعرف هو ولا يعرفون هم نتيجته، شعر حسين بنفس شعوره إذ اكتشف أنه كان يقف منذ قليل على حافة مهلكة، وهبطت قدمه تلقائيا تضغط على دواسة الفرامل لتتوقف سيارته فيمس خلفية سيارته مانع اصطدام سيارة سائق حذر.

وليجـد الخـلاص مـن أفـكاره السـوداوية خـرج مـن نهـر الطريق الغاضـب عليـه وفتـح الظـرف، في الظـرف وجـد ورقـة سُـجل عليها ميعـاد ومـكان تسـليم وتهمـة، هـذه الطريقـة في التكليـف بالمهام التي لـم تتكـرر بعـد ذلـك، وكانـت الخطـوات مُلزمـة حـتى لـو لـم يفهم التهمـة جيـدا، عندئـذ وبشـكل فجـائي وجـد فتحـة المتاهـة الـتي تـاه فيها طيلـة شـهر كامـل مـن القـراءة، عـثر عـلى الفهـم الـذي سـينقذه من خبـل الإحصـاء، بـل وأصبـح حسـين قـادرا الآن عـلى السـيطرة على هذا الخبـل، واسـتنتاج الهـدف منـه، ممـا جعلـه متيقنـا أن موظـف البريد كان سيسـلمه الظـرف الثـاني في جميـع الحـالات حـتى لـو أجابـه ب «لا»، كل مـا في الأمـر: كان لابـد مـن هـذا السـؤال للفـت انتباهـه إلى أهمية كتاب التعليمـات.

لـم يتبـادل مـع زبونـه الأول كلمـة واحـدة، أطلـق عليـه النـارفي ظهره قاصـدا موضـع القلـب ثـم اكتشـف أنـه أطلـق النارعـلى يمينـه الـذي هـو يمـين الرجـل أيضـا لا يسـاره، ولكـن زبونـه الأول كان كأنـه ينتظر المـوت، فلـم يسـتدر عندمـا ثقبـت الرصاصـة ظهـره وسـار بضع خطـوات للأمـام ثـم سـقط عـلى وجهـه في الظـلام وتمـزق الخيـط الـذي يخيـط روحـه بجسـده بالسـماء فانفرطـا، حـتى السـماء انفرطـت وأحس حسـين لانفراطهـا رجـة خفيفـة لـولا أن ثبتهـا صعـود الـروح اليهـا، وسمع لصعـود الـروح رفرفـة خافقـة اعتقـد يقينـا أنهـا أجنحـة المـلاك الـذي أتى لقبـض روح ضحيتـه، هـذه الرؤيـة جعلتـه يشـعر بالحقـد، ضغط عـلى أسـنانه وجـرح الظـلام بوميـض رصاصتـين متتاليتـين تجـاه الرفرفة، ثـم شـعر بقـوة قلبـه تتمـدد عـلى المـكان عندمـا سـكن الصـوت، وزفر الجسـد زفرتـه الأخـيرة في الأرض السـوداء.

مـن بـين جميـع مهـام القتـل الـتي كُلِّـف بهـا لـم يحصـل حسـين على زخـم الحالـة الأولى، اسـتلزم منـه الأمـر سـاعتين كاملتـين لتقـل نبضات قلبـه إلى النصـف وتكـف عـن الـدق كطبـل أفريقـي، في هـذا اليـوم وضع

حسين قاعدته الأولى في وظيفته: أن لا يضع في خزنة طبنجته إلا رصاصة واحدة، لكيلا يقتل (شخصًا) آخر خارج مهمته، يندرج تحت بند (شخص): الملاك الذي يشترك معه في قبض الروح..

***

فيما بعد استطاع حسين ترتيب الأمر ليبدو بشكل رسمي، توصيل لمكان تحدده الهيئة التي يعمل فيها زبائنه، سيارة حكومية يقودها قاتل، عندما يريدون إعدام شخص تُرسَل رسالة على جهازه بمكان الظرف وميعاد استلامه، على ظهر الظرف مكتوب العنوان الذي سيستلم منه المحكوم عليه بالإعدام، يقود به حتى يصل إلى النفق، لا يفتح الظرف إلا في النفق، قريبا جدا من منطقة الإعدام، قبل أن يطلق رصاصته يجب عليه أن يتلو التهمة على الشخص الذي سيرديه، ثم يحرق الظرف.

كتيب التعليمات لم يذكر شيئا عن الدفن أو مواراة القتيل، موظف الإعدام الذي سبقه أخبره أنه كان يكتفي بأن يصطحب الزبون إلى مكان بعيد عن مسكنه ويقتله ثم يسكب حمض الكبريتيك على وجهه ويلقيه في بيارة من بيارات الصرف الصحي المكشوفة في محطة بعيدة، أما هو فيدفن، يتخلص من حرارة القتل بالطقوس ليعود بريئا قادرا على ممارسة حياته من جديد، جسد لا يزال دافئًا وتربة لينة وسماء متراخية، عندما يحفر يشعر وكأن السماء تئنّ فوقه، وكأنه يغرس سلاح الرفش في أديم الأفق، وينثر منه خلف ظهره سحابا بلون التراب، كأنه يدفن جثة العالم، ومن قتلها فكأنما قتل الناس جميعا.

مهمات القتل التالية كانت مليئة بالأخطاء الفادحة التي وجد غفرانها مع الزمن، نتج منها ما نتج من تأويلات مرتبكة، وارتجافات يده المرتعدة، والأنفاس الثلجية لرئة لم تعتد بعد على حرارة الحدث، وعسر الهضم، والإسهال المريع، والبول الحامضي، ورغم كل هذه

المعاناة لم يستقم الأمر بعدها، تحول القتل إلى عملية ميكانيكية خالية من المعنى والمشاعر، ولشهور ظل حسين يحاول إقناع نفسه أن الطبيعة ساعدته على إنجاز مهمته الأولى، وأنه ربما أصاب برصاصتيه خفاشا أو شبحا، ولكن الرؤية التي حصل عليها كانت بمثابة دفعة ملهمة في المهام التالية حتى استقر على تعريف لما يقوم به ووصل إلى اليقين النهائي والدرجة التي استطاع منها أن يفكر في القتل بشكل مختلف، وكان الفضل في ذلك يعود إلى قراءة الفصل الثالث. الفصل الثالث الذي كانت متعة حسين الخاصة واقتناعه بمهنته مستمدة بالكامل منه، وكأنه جُعل خصيصا ليعادل حالة الإنكار التي خلقها بداخله الفصل الأول، وحالة الدهشة والجمود التي خلقها الفصل الثاني، لابد أن مؤلفته سيدة، هكذا سمح حسين لنفسه بالتخمين، طبيبة نفسية تحديدا، تحب صنف الميتافيزيقا الوادعة، ولابد أنها لم تكن في حالتها الطبيعية وهي تكتب هذا الفصل الكامل من السلام النفسي، عن الموت الذي هو مجرد انتقال، عن الكراهية التي يجب أن ننزه منها قصاصنا، والتهم التي تنفذ من خلالها رغبة المجتمع ونعود به إلى اتزانه المقدس، عن استقرار طاقة العالم بواسطة القتل الممنهج، لا عجب أن اسم الكتاب منسوج منه: لا تكره.

هل تكره يا حسين؟، حسنا، من تكرههم يجب عليك أن لا تقتلهم، القتل لمجرد الكراهية الشخصية تبديد وسخافة، لا تكره، فليس لحسين مطلق الحرية في الكراهية، هو موظف، يجب أن لا يحركه دافع إلا الظرف، حتى لو كان الزبون طالبا في مدرسة أو رضيعا في حجر أمه، عند النفق يعلم أن الزابن كان على حق، دائمًا الزابن على حق خاصة إذا كان الحكومة، فالحكومة تقتل للمصلحة العامة ويجب عليه أن يكون مثلها.

فيما بعد عرف حسين أن قراءة هذا الفصل من الكتاب كانت

هـي الخطـوة الأهـم في حياتـه، بالضبـط مثـل استلام الظـرف وقراءتـه كخطـوة أولى في مهمـة القتـل، فبعـد أن اسـتلم حسـين عملـه بهـذه الطريقـة الغريبـة قتـل أصنافًـا كثـيرة مـن البـشر، تهـم مباشرة لا سـذاجة فيهـا ولا إيهـام، ليـس مثـل التهـم القديمـة والـتي دارت حـول عبـارات مثـل (التآمـر عـلى النظـام، إدارة أجنـدة خارجيـة، الإرهـاب، سـب رئيـس الدولـة، التلبـس بجريمـة لا يعاقـب عليهـا القانـون ولكـن تجرمهـا السُـلطة، إثـارة الفتنـة الطائفيـة، التسـبب في إثـارة الفـوضى، تسريـب معلومـات ووثائـق للـدول الخارجيـة دون دليـل يدمغهـم بالإدانـة، الدعـوة لفكـر مبهـم لا طائـل مـن ورائـه، السـخرية مـن الثوابـت) هـذه التهـم المبهمـة، المجازيـة والـتي ذكرهـا كتيـب التعليمـات بنـوع مـن السـخرية يقـترب مـن التهكـم، إن كان يجـب عـلى المـرء أن يَقتـل لصحـة المجتمـع فيجـب عـلى الأقـل أن يعـرف سـبب قتلـه، السـبب الحقيقـي وليـس الملفـق.

عـلى مـدى سـنوات قيامـه بوظيفتـه صنـف حسـين كراهيتـه بشـكل جيـد يجعلـه مرتاحـا وهـو يطلـق رصاصاتـه، تصنيفـا يبعـده تمامـا عـن شـبهة القتـل الحـر، ليصبـح عنـده أولويـات في الكراهيـة، حـتى كراهيـة الأشـياء مـارس عليهـا تدريباتـه الذهنيـة، ليصبـح امتناعـه عـن كراهيتهـا نفـلا يحفـظ حـدود فـرض امتناعـه عـن كراهيـة البـشر، كراهيـة صيفيـة: مقاعـد السـيارة السـاخنة بعـد ركنتهـا طويـلا في الشـمس، وكراهية شـتائية: الطين الـذي يضطـره إلى غسـل سـيارته بشـكل مسـتمر والبطاريـة الـتي تفقـد شـحنتها في الصبـاح بسـبب الـبرودة، كراهيـة ربيعيـة: حبـوب اللقـاح، والفراشـات، والبعـوض، عندمـا يدهمهـم بزجـاج سـيارته المسرعـة يلتصقـون بهـا كالصمـغ فـلا يسـتطيع إزالتهـم بالصابـون السـائل وإنمـا بطـرف مديـة حـادة، كراهيـة خريفيـة: الغبـار والزوابـع الصغـيرة الـتي تُعمـي عليـه معالـم الطريـق.

كمـا أن هنـاك فارقًـا بـين كراهيـة الشـخص ذاتـه وكراهيـة أفعالـه، فهـو

يكـره الزبـون الـذي يتكلـم كثـيرًا، الـذي لا يهتـم بغلـق البـاب جيدًا خلفـه ويتركـه يشـخلل مثـل مـصراع نافـذة تالـف في يـوم ريـح، الذي يغلـق البـاب مرتـين مـرة واهنـة ومـرة ليسـتوثق، ويكـره أن يغلقـه بعنف، الـذي يحـب أن يجلـس بجانبـه في مقعـد السـائق، يكرهـه أكـثر إذا وضع أصابعـه عـلى أزرار الراديـو أو التكييـف أو الزجـاج لتشـغيلها أو ضبطها، هـذه كراهيـة يجـب الأخـذ عـلى يدهـا حـتى تسـتقيم حـتى لـو كانت كراهيـة أفعـال لا ذوات.

لهـذا ابتكـر حسـين طقوسـه الخاصـة عندمـا يسـتلم زبونـا، يضـع على المقعـد الأمامـي جاكـت بذلـة لا يرتديـه أبـدا ولكنـه يشـغل بـه المكان، يدفـس (مسـوجر) البـاب الأمامـي ويضـع في أذنيـه سـماعات (هيدفـون) لا تعمـل، وعندمـا يلـج الزبـون بـاب سـيارته يصيـح بصرامـة: انتظـر، لا تغلـق البـاب أنـا سـأغلقه، ثـم يسـأله بمجـرد أن تتحـرك بهمـا السيارة: هــل تفضـل نافذتـك مفتوحــة أم مغلقــة، هــل تريــد الاســتماع إلى شئ مـا مخصـوص، كل هــذا ليضمــن أن لا تنحــدر مشـاعره إلى كراهيـة الزبـون، وأن يظـل ملفـه الوظيفـي نظيفـا، أن لا تتدخـل عوامـل أخـرى في تعاملـه، الكراهيـة سـيئة خاصـة عندمـا يمتهـن مهنـة كمهنتـه، ليضمـن أن الرصاصـة الـتي سـتخرج مـن مسدسـه عندمـا تخـرج سـتكون خالصـة لله وللبلـد وللقمـة العيـش.

***

# إسماعيل - الكاتب

(فوجدا) فيها جدارا يريد أن ينقض (فأقامه)

سورة الكهف

***

بالمكان الذي وضعوني فيه لا يوجد ماء، إلا ما يحملونه في زجاجات للشرب، واللون الأخضر المتاح هو لون الجدران، جدران مدهونة بالأصفر وخطوط خضراء طولية، الهواء يتجدد بفعل غلق الباب وفتحه لأن النافذة الوحيدة مغلقة، قالوا لي أن الخروج إلى العالم خطر على حالتي النفسية، وأن أبسط الأشياء بداية من تاريخ اليوم في الجريدة يمكن أن يسبب لي مضاعفاتٍ عقلية.

قبل ثلاثة أيام سألتني الدكتورة عالية:

- هل أنت مرتاح، هل تأكل ما يقدمونه لك من طعام، هل تنام جيدا؟

أجبتها في الفواصل بين أسئلتها:

- نعم، نعم، نعم.

ثم ترددت قليلا قبل أن تقول، أميز صوتها عندما تردد في الهاتف:

- أخبرني، هل تحلم يا إسماعيل؟

- ليس كثيرا.

- وبماذا تحلم، بالقصر؟، بها، أم بالمدرسة، بزملائك في المدرسة، وبالأستاذ سمعان؟

- لو كنت أحلم بشئ لأخبرتك.

- وهل تتذكر كل ما تحلم به عندما تستيقظ؟

- بلا شك.

- وهل تحلم وأنت تعلم أنك تحلم؟

- تقصدين الأحلام الجلية؟

- ماذا تعرف عنها؟ أخبرني.

- ما يقوله أرسطو عنها: يحدث كثيرًا عندما يحلم الشخص أن يخبره شيء في وعيه أنه في حلم ليس إلا، يكون واعيًا أنه يحلم وهو يحلم.

سألتني في قلق:

- هل هذا يحدث لك؟

- ليس دائما، حلم واحد فقط.

- وما هو هذا الحلم؟

- لن تصدقيني.

- بل سأصدقك.

- أحلم أنكم تحلقون لي لحيتي وأنا نائم، وعندما أستيقظ تتهمونني بقتل رجل اسمه إسحاق.

- وهل تستيقظ عندئذ؟

- لا.. أستمر في النوم.

- لماذا؟

- لأنني لا أعرف رجلًا اسمه إسحاق.

***

لا أحتاج لأنام وأحلم بالقصر، فقط أغمض عينيّ فأراه، السور الحديدي، لا تندفع روحي هناك كالأثير أو أتخيل، ولكني أرى، كل الموجودات هناك كأنها صيغت من زجاج، وأنا، كأنني أقف خلف

ستارة صيفية من حرير، السياج الأول بعد السور الحديدي تتعاضد فيه شجر الكافور وشوك الشام (الأكاسيا)، والسياج التالي تُحني شجر التوت الحصرية رأسها خوفا من مقص البستاني النشط، غرف السنة التي تعس على أحواض الزهور، المطبخ والبدروم، الرائحة الحضرة للطعام تثير جوعك حتى لو لم تكن جائعا، والجدران الشبكية تجعلك تتخيل الخريف، والشتاء، والمرة الوحيدة التي نزل فيها ثلج من السماء.

لكن كل شيء كان بالأمس فقط، عندما طلبت مني إيلات أن اكتب لها نص في الحب، لا تزال كل كلمة قالتها لي طازجة في قلبي، لم تُحمل لي الورقة في طبق خزفي من أطباق الطعام، أو تُرسلها مع جبر، بل طلبت ذلك مني، شفهيا، ولا يعني هذا إلا أنها تريد أن أكتب لها النص دون أن أتعجل كتابته، يعني أيضا أنها لن تسامحني إن لم أكتبه كما تتوقع، فوق ما تتوقع.

عندما ولجت من الباب كان ظهرها إليّ، سعلتُ سعلة خفيفة لأنبهها إلى دخولي، شعرها المنسدل حتى حزام الثوب الطويل المصنوع من الشيفون الأبيض، وألق ذراعيها وعنقها من الخلف جعلا المساء مترددا في الدخول من النافذة، أذِنت للمساء بالدخول ولم تأذن لي، جعلتني أنتظر طويلا وهي واقفة هناك عند النافذة، تغرب الشمس عليها وتشرق هي على قلبي، فرحت بأبدية الانتظار خلفها رغم أن إصبعي المتقيح ظل ينبض فيه الألم بالتزامن مع دقات قلبي التي تسارعت في حضورها، الدم يحمل الألم إلى الأعصاب والتسارع يجعله مثل تيار كهربائي، وكنت أستطيع أن أقطع سريانه بأن أرفع كل ذراعي لأعلى فيهدأ الألم، طريقة مجربة، ولكني لم أفعل، كنت ملتذا بوجودي في شعاعها وكانت هذه طريقتي لأدفع ضريبة لذتي المحرمة.

لم تستدر لتقول، لم تمهد بتبرير طلبها، قالت فجأة:

- أريدك أن تكتب لي نصا في الحب يا إسماعيل، ولعتبر أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأطلب فيها منك نصا.

قالت ذلك وكأنها طلبته مني قبلا عشرات المرات، قبل أن نلتقي، وبعد أن التقينا، طلبته مني عندما استويت رجلا، وعندما كنت مراهقًا، وطفلا، وربما كلفت الملاك الذي وُكل بنفخ الروح في وأنا في الرحم أن يبلغني بذلك: اكتب لها نصًا في الحب، وكأن هذه هي المرة الأخيرة التي ستطلب فيها مني ذلك، فقد صرت قادرًا على فعل ما طلبته، صرت مكلفًا عن جميع الرجال أن أكتب لها نصها الأثير، قبلة الحياة الأخيرة للعالم المنتهي، رغم أن هذه الكلمة (مكلفا) لم يعد لها معنى في الزمن الذي ولدنا فيه، وكنت أعرف بالضبط نوع الحب الذي تريدني أن أكتب لها عنه، إنه الحب مُدبِرًا، الحب بعد أن صار رمادًا سحريًا ينتظر بعناد أول المطر لينتفض من جديد كالعنقاء، الحب الذي لم تشتهه يومًا وإن كفرت به كما يكفر المشتهي، كم أشفقت عليها من انتظار المطر في عصر مجدب، كأنني أشفق على تلك الدرقة القاسية التي تُحصن قلبها من الخدوش العابرة، وما أشد حماقتي عندما حسبت نفسي يوما ما أعمق من خدش عابر.

***

على باب إيلات، كنت أتذكر جدي، لا أتذكره من نسيان بل بوحي من التجربة المكررة، ساعيًا خلف الصوت الذي صاغه له الماء، كان جدي ضعيفا، قليلا، أعطته الحياة أكثر مما أعطتني: البيارات العشرين والعشب والأسماك، وأصابعه، كل ما حوله كان كافيا، كافيا له، ولي، لأولد في مخاض متعسر، ولأهزم ليونة ساقي الضعيفتين وأصعد الدرج، كافيًا لأتعلم القسمة التقريبية، وعدد الكواكب في المجرة الشمسية، وأكتب اسمي مرارا وتكرارا حتى أتقنته: إسماعيل إسماعيل إسماعيل.

من الصعب أن أتذكر المرة الأولى التي رأيت فيها وجه جدي، فأنا أعيش معه منذ ولدت، وجهه أصبح مُسلمة بصرية، ولكني أتذكر حدثًا بدأت أدرك فيه وجود وجهه في حياتي، يوم أيقظني مبكرا جدا، قبل ضوء الصبح، كان وجهه يحمل تعبيرا مختلفا، ظاهرا كأوضح ما يكون، فلمبة الصالة الكهربائية كانت مضاءة، كل اللمبات مضاءة، وفي يد جدي كان الكشاف مضاءً أيضا، وكأن ضوء الكهرباء المبهر غير كافٍ ليبصر، أو أن العتمة بداخله أصبحت أشد، ناولني الكشاف فحملته وتتبعته بالضوء وهو ينقل متاع العمل المعتاد إلى العربة التي تُدفع باليد: حقيبة العِدة الثقيلة ومشحمة يدوية تحمل ما لا يقل عن خمسة كيلو شحم متعدد الأغراض، ثم رفعني بين ذراعيه ليضعني أيضا فوق أشيائه فتشبثت بالمشحمة البرميلية كما يتشبث قرد بابون صغير بجذع شجرة، دفع الجد العربة وانطلق.

منذ ذلك الحين جفت حياتنا مثل مجرى نهر انقطع عنه الماء، عرفت أن جدتي ماتت، وأنه لم يعد ممكنا أن أُترَك بالبيت بينما جدي غائب بالعمل، صرت أصحبه يوميا، أنا كشافه وعيناه، وهو القوة الدافعة لقافلتنا الصغيرة، رغم أن جدي يحفظ عن ظهر قلب أو بالأحرى تحفظ قدماه جغرافية الطريق، لا أنبهه إلا عند وجود مستجدات (قرص روث طري، فرع شجرة ساقط، بركة ماء صغيرة)، وعندما تشح المستجدات أنقل له نشرة أخبار الطريق بصوتٍ تُرعده المطبات، أرنب بري يضرب بقدميه الخلفيتين قبل أن يمرق بين الأشجار أو يختبئ في حفرة تحت الأرض، ثعلب مار وقف يرقبنا في حذر، أو ثعبان خشخش وهو يندفع بين أوراق الشجر المبللة بالندى هاربًا من ضوء الانسان.

مع ضوء الشمس الأول الذي يظل - مع وجوده - لضوء الكشاف الفضل في كشف الطريق نكون قد وصلنا إلى أرض البيارات، عشرين بئرًا تستمد الماء من النهر البعيد من خلال قناة أرضية، آبار ضخمة

بأسوار أسطوانية عالية، تحدق إلى السماء في أرض فضاء لينة ينطق لون عشبها بالخصوبة الطرية، كلّ بئر متصلة بالقناة عن طريق بوابة حديدية، إذا صرخت في إحداها صعد الصوت من المتبقين كأرانب مذعورة، وإذا فاض الماء فيها روى أراضيَ بمد البصر.

أول ما نصل لأرض البيارات يقوم جدي بفتح البوابة الأساسية الكبرى، رفعها هي بالذات يتم عن طريق صندوق تروس يتغذى موتوره بألواح الطاقة الشمسية المشرعة فوق البوابة، يضغط جدي على زر التشغيل فيسود هديرٌ خافتٌ، يبزغ فتيلها نصف متر في الهواء ثم يرفع يده عن الزر فيتوقف عن صعوده، ضخم جدا كجذع شجرة يغري باحتضانه، يعاين جدي درجة جفاف الفتيل ثم يقرر، يأتي بالمشحمة، يفك التفاف خرطوم التشحيم حول الأسطوانة المليئة بينما أقوم بسحبه حتى ألصق مقدمة الخرطوم وبه (نبل) التشحيم المُسدس الرأس بفتحة التلقي في جراب الفتيل، ثم يضغط جدي الزر ويواصل الفتيل صعوده مزهوًا براقًا في أجزائه الحديدية المكشوفة، زلقًا بفعل الشحم الذي يندفع في مساره الثابت، بضغطات سريعة من جدي، يحمله الخرطوم إلى حيث تضغط يداي بقوة للسيطرة على دفقات الشحم المندفقة والتي تتلوى مثل دودة غاضبة فائقة القوة.

في انتظار مجيء المياه نقوم بمهمتنا التالية، يتهيؤ جدي لها بخلع ملابسه تماما مهما كان الطقس باردا، يطويها ويرصصها بعناية فوق يديّ المشرعتين تجاهه بينما ينبهني من وقت لآخر بالحفاظ على عيني مغمضة لئلا أرى عورته المغلظة، مع الثقل المضاف لآخر قطعة من ملابسه على رف ذراعيّ أنصت لصوت انضغاط العشب الأخضر تحت قدمي جدي وهو يبتعد ثم أسمع انزلاق أصابعه على الجدران صاعدا، عندئذ أفتح عينيّ وأهرع لأشاهد جزءًا من ظهره قبل أن تغيبّه الظلمة المكدسة في بئر الماء وهو يهبط سلالمه،

سلالم حديدية زلقة ممتدة على الجدران الخرسانية بشكل رأسي لمسافة خمسة أمتار تحت سطح الأرض، لا تعتاد عيناي على الرؤية في ظلام البيارة على الفور، بعكس جدي، كثيرًا ما تساءلتُ عن السر في اعتياد عينيّ جدي على الظلام بسرعة بعد ضوء الشمس المبهر، ربما هو شيء ملازم للكبار، ثبات الأعين على الرؤية القديمة، أرى جدي وهو يخوض سابحا في الماء البارد برفق محاذرًا أن لا يثير أسماك الشبوط والبلطي المحتجزة هناك في مخاضة الماء القليل، لم يصطد جدي السمك بالشباك قط ، يصطادها بيده، ينتشلها بضربة واحدة ويقذفها في الهواء بقوة واحتراف لتتجاوز ارتفاع البيارة وسورها وتسقط على العشب، السمكة الأولى مبهجة بشكل لا يوصف، تعكس ألوان الطيف على قشورها وتتنفس كأنها نزلت للتو من لعبة أفعوان الملاهي، يشغلني تأملها عن مطر السمك حولي، ثم أهرع لجمع الأسماك قبل أن يحملها تقافزها العنيف على العشب الأخضر إلى بئر أخرى، أعبئ بها الجوال المصنوع من الخيش...

كان جدي يعرف البيارات التي تحتجز الأسماك الأكثر، فرغم عشوائية اختياراته والفرص القليلة المتاحة لم تخيب توقعاته البطن الفارغ لجوال الخيش أبدًا، ومع ذلك دائما ما كان الوقت يدهمنا بينما صيحات جدي وأنفاسه تنتقل من بيارة لأخرى، قبل البيارة الثالثة أو الرابعة يهتز الهواء داخل البيارات إنذارا بتشغيل مضخة السحب البعيدة وتنفث البيارات القريبة رذاذا خافتا لا تكشفه إلا الشمس في انعكاسها عليه بأقواس من ألوان الطيف المرحة، وتسود رائحة كما لو أن كائنا مائيًا عملاقا غافيا استيقظ في القنوات وتجشأ خفية، يصعد جدي بسرعة ويرتدي ملابسه الداخلية ويُسرع ليتمم فتح البوابة الرئيسية بالكامل ثم يبدأ في فتح باقي البوابات بمقاديرها المضبوطة التي لا تُخطئ، حسب جدول يسير عليه بدقة شديدة، البيارات تمتلئ بالماء نهارا ثم ينخفض منسوبها ليلاً بعد إغلاق الجد للبوابة الرئيسية وإيقاف مضخة السحب البعيدة، تنسحب

المياه للخلف إلى منبعها من تفاوت البوابات عند القاع، لتترك السمك في مخاضة يسهل صيدُها، صيد اليوم التالي..

***

لم يتطلب العيش مع رجل مثل جدي إلا الاستيقاظ مبكرا ومهارة يدين لا تنزلق منهما الأسماك، بعد مهارة اليدين لا يأبه جدي بأي شيء آخر، دائمًا ما كان ينصحني:

- يا إسماعيل، لابد لك أن تبرع في اصطياد شيء بغض النظر عن فائدته،

لم يمثل السمك مصدر رزق معتبر مع المرتب الضئيل لجدي وفقط، بل كان الإثبات الدامغ على نظريته تلك، والتي ما فتئ يكررها على مسمعي، لابد أن تبرع في اصطياد شيء يا إسماعيل ولو كانت الزنابير اللاسعة، براعتك بدرجة كافية في اصطياد هذا الشيء كفيلة بجلب باقي الأشياء التي لم تبرع في اصطيادها إلى يدك.

جدي كان صادقا فيما يخصه، فرغم موت جدتي إلا أن حياتنا لم تخلُ من لمسة أنثوية، تحملها بائعات السمك اللواتي كن يتناوبن أيام الأسبوع مثنى مثنى، ثلاث بائعات، تأتي إحداهن اليوم ولا تأتي غدا، لتحل محلها زميلتاها في اليومين التاليين، بعد أن يُتم جدي رفع البوابات وضبطها تظهر في الأفق وهي تحمل قفتها الفارغة على رأسها، تسير بين البيارات حتى تصل إلينا، ودون أن تبادلنا كلمة واحدة تفترش الأرض بجانب الجوال المليء وتبدأ في إفراغ وفرز الأسماك منه إلى قفتها، تنزع بعض العشب الطويل من حولها وتغطيه تمامًا، تنهض وبمرونة فائقة تنحني وترفع القفة الثقيلة الممتلئة إلى رأسها وتعود من حيث أتت.

صفقة جدي كانت معروفة، يقايض جوال السمك بخدمات غسل الملابس وتنظيف البيت ووجبة ساخنة يومية، بعد الظهيرة نعود فنجدها على مائدتنا مغطاة تنتظر، بقايا التراب الناتج عن الكنس

والتنفيض لا تـزال عالقـة في الهـواء، المـلاءات تـم تغييرهـا بأخـرى، والملابـس الـتي كانـت متسخة مُنشرة عـلى الأحبـال تزغـرد بلمسـة أنثويـة لا تخطئهـا العـين، والأطبـاق المتبقيـة مـن وجبـة الأمـس لا يـزال المـاء يتساقط منهـا في (المطبقيـة) إلى حـوض الغسـيل، وطبـق كبـير للفاكهـة مـلئ مغطـى بشرشـف قمـاشي ملـون بجانـب رشـاقة السـكاكين، سـيدة مـرت مـن هنـا ولونـت الحيـاة، سـيدة اختلـس جـدي سـاعات مـن عمرهـا بـدلا مـن زوجتـه الـتي غابـت ولـن تعـود، والفضـل في ذلـك يعـود لمهارتـه في اصطيـاد السـمك بيديـه.

***

تـرك جـدي العنـان لأصابعـي في التجربـة، إلا أن أنـزل البـئر بهـا، ظـل حريصـا عـلى أن تمتلـك تاريخًـا أكـثر زخمـا مـن تاريخـي أنـا، مـا مـن مـرة رفعتهـا إلى عيـني في ضـوء أو ظـلام إلا ورأيـت عليهـا آثـار طفولـتي، ندبـات وخـدوش، طفولـة منفلتـة العيـار في القبـض عـلى مـا يشـغفها وإفلاتهـا عندمـا تمـل: خيـوط طائـرات ورقيـة، وذيـول رعاشـات المـاء وقواقـع حلزونيـة وديـدان أم أربعـة و أربعـين، أرى عليهـا أول آثـار الإثم الإيروتيـكي في اختلاسـات التحسـس للمواضـع الحميميـة سرًا، دهشـة وليـس شـهوة، فالشـهوة لـم تكـن قـد اسـتيقظت بعـد في غمدهـا.

هـذا التحسـس العابـث لـم يقلـل مـن جديـة أصابعـي وجدواهـا عندمـا اشـتدت، لا أنـسى أبـدًا المـرة الأولى الـتي غمسـت يـدي في الكارديـوم، أذهلتـني التجربـة، غلظتـه وسـماكته، كالشـحم ولكنـه أسـود، سـألت جـدي حائـرا:

- قارا

- لا، كارديوم يا بني، أثمن وأبقى من القار.

كـم مـرة غرفـت يـدي مـن الكارديـوم لتوزعـه عـلى الـتروس وحصائـر الـتروس في أبـواب البيـارات الضخمـة، الكارديـوم الأسـود الطيـب، ربمـا مئـات المـرات، ولـكل مـرة عذاباتهـا، إذ كان عـليّ أن أغسـل يـديّ

مـرارًا وتكـرارًا بالكيروسـين لـيزول اللـون وتبقـى رائحتـه لأيـام في يـديّ المشـققتين.

عندمـا تحتـد الشـمس تفـوح رائحـة الكارديـوم الصمغيـة في الهـواء، يصبح أكـثر لمعانا وتألقـا كذيـل فستان حسناء في ليلـة حافلة فاصلة، وعندمـا نحـرك الحصانـر وتمضـغ الكارديـوم بـين أسـنانها يُسمَع لـه صـوتٌ مثـل هسيس مـرور عجـلات سيارة بطيئـة ثقيلـة في طـين شتاء ثخـين.

مـا مـن نهـار صيـف احتـدت حرارتـه إلا وأيقظـت بداخـلي ذكـرى بيت جـدي ورائحـة العشـب عنـد البيـارات ونفـور قشـور السـمك عـلى ظهر كفـي بعـد جفافهمـا وأنـا عائـد معـه إلى البيـت، الصيـف في طفولتنا غـير الصيـف عندمـا نكـبر، الأشـياء تدخـل صيـف طفولتنـا ولا تخـرج، لا يُخرجهـا إلا الحـرارة وهـي تعيـد تشـكيل العالـم في وقـت الظهـيرة، تفتـح ممـرات سريـة بـين الصلـب والسـائل، بـين الـروح والجسـد، ومثل موجـة عـلى شـاطئ الدنيـا تلفحنـا الروائـح القديمـة، تتخللنـا لتنسـل منه حيواتنـا السـابقة وتلقيهـا عـلى سـاقينا مثـل ثيـاب قديمـة عثرنـا عليها في دولاب الطفولـة، نتحسـس الثيـاب بيديـن طفوليـة الشـعور، ونتذكر، التذكـر وسيلة جيـدة للقتـل البطـيء للذكـرى.

في هــذا القيــظ كانــت الأســماك تمــوت -إذا مــا تأخــرت البائعــة- البلطـي بكافـة أنواعـه كان هـو الأقـصر روحًـا، يلفـظ أنفاسـه سريعًـا مذهـولا بعينـين جاحظتـين فـوق العشـب، يليـه الأنـوم، جسـد ناعـم وشـكل غريـب ولا شـوك تقريبـا يجـرح الأيـدي إذا قبضـت عليهـا، وفـم مثـل خرطـوم الفيـل ومـوت يشـبه مـوت فتـاة معصوبـة الـرأس لوامـة لـم تـذق مـن الحيـاة متعـة، ثـم الكركـور جسـد زلـق وشـوارب طويلة يكركـر بأنفـه بمجـرد خروجـه مـن المـاء، الشـال أطـول روحًـا رغـم شـبهه بالكركـور إلا أن لـه ثـلاث شـوكات، اثنتـين في الجنـب وواحـدة في الظهـر، لطالمـا حـذرني جـدي مـن هـذه السـمكة، أخـبرني أنهـا سـمكة عنيـدة إذا

شعرت بالشص في فمها جذبت خيط السنارة ودخلت بين الصخور وشبكت أشواكها فيه واستحال على الصياد جذبها إلا بضياع الشص، لذا يسمونها سمكة الصخر، سمكة الشال الكبيرة يبدو فمها كفم غجرية ملئ بالأقراط، ملئ بالشص ينبئ عن عدد المرات التي فشل الصيادين في صيدها، أما القرموط فلا يموت إلا بضربة على الرأس، يظل يروغ منك بين العشب مثل كلب فقد سيقانه، باحثا عن الطين، القبح والسواد جعلاني أعتقد أن القرموط جنس ذكر، ذكور فقط، وبقية الأسماك إناث خاصة البلطي والأنومة، عندما أخبرت جدي باعتقادي هذا ضحك حتى سال الروال من فمه والدموع من عينه.

بعد أن يفرغ جدي من معايرة البوابات يقوم بفرز الأسماك، يضع الأسماك الأطول روحا في قاع الجوال، يقص ذيول الأسماك الكبيرة منها أولا، أخبرني أن هذا يجعلها تستسلم سريعا للموت، يلحدها ببعض العشب، ويرش عليه الماء، ثم يذهب للنوم في ظل البيارة الرئيسية، لم يكن نومه ثقيلا، ولكنه إذا أراد نام على الفور، كأنه أطفأ ضوء ردهته الداخلية بضغطة زر، في المقابل يوقظه أقل تغير في الأصوات المحيطة، وأصوات لا أسمعها، كنداء النداهات لي: إسماعيل، كم مرة استيقظ لينقذني في اللحظة الاخيرة بعد أن صار معظم جسدي متدليًا في البئر، يسمع أيضا خنين الأسماك الكبيرة التي لم تمت بقص ذيولها، تبعث في ذاكرته لحظة غرق من ذاكرة مرادفة، يرفص بقدميه، وبعينين حمراوين يستيقظ، يأتي عند الجوال ويركع على ركبتيه ويجس بيده اليسرى باحثًا عن السمكة التي لا يزال فمها ينبض، ليفرك خياشيمها بإصبعيه فتختنق سريعا، ثم يعود لنومه تحت الشجرة .

إذا نام جدي صعدت على سور أحد البيارات، استلقيت على بطني لأراقب دوامات الماء التي يشكلها جريان الماء في دخوله وخروجه

حسب اتجاه البوابات. يكتب الماء حكاية دوامية مغلقة بفرع شجرة أو زجاجة فارغة أو زبد أبيض. أقرأ الحكاية وأتساءل متى سيسمح لي جدي بالنزول مثله إلى البيارات لصيد السمك، أظل مستلقيا حتى تحمى حرارة الشمس المختزنة في السور معدتي كجدران فرن مشتعل. أشعر بالجوع فأذهب لإيقاظ جدي لنعود إلى البيت.

***

زيارتي الأولى لمحطة الرفع لا يمكن نسيانها، لم ينم جدي في هذا اليوم بعد خروجه من البيارات، كان قد لاحظ وجود نقاط صغيرة من الزيت طافية على سطح الماء، أمرني أن أنتظر بائعة السمك وعاد هو إلى البيت فأحضر شنطة العدة، وارتدى أفرولًا أزرق متسخًا، غادرنا أرض البيارات الخضراء في اتجاه آخر غير اتجاه البيت، حملتنا أراض عدة، طينية وأسفلتية، ومررنا ببيوت حيا جدي أصحابها واستضافونا على كوبين من العصير البارد أو اللبن الدافئ أو الشاي، وسبقتنا سيارات ضربت كلاكساتها تحية لجدي، وخرج أولاد القرى ليستقبلونا عند الدخول ويشيعونا ونحن نخرج، كانوا يتهامسون: البحار وابنه، كنت فخورًا فأمسكت بيد جدي كأنني أؤكد انتمائي له فشد على يدي وابتسم من عل.

لم أر السد، المحطة كانت في نهاية طريق مصفوف بالشجر من الناحيتين، بوابة عملاقة من الحديد فتح جدي بها بابًا مفصليًا صغيرًا يسع دخول رجل متكامل الجسد، بالداخل كان الهواء دافئا معبقًا برائحة السولار، ها هنا الكائن الذي يتجشؤ كل يوم عند البيارات، مشيت بحذر على أرض خرسانية زلقة بالشحم والريم الأخضر، أضاء جدي النور الكهربائي بضغطة على زر، فانكشف أمامي ما التبس علىَ رؤيته للوهلة الأولى، دائرتان من حديد عملاقتان ملامستان تقريبا للأرض، يربطان مضخة السحب العملاقة بموتورها عبر أحبال بلاستيكية مقواة، جسد المضخة وأنا أتحسسه في رهبة

كان بـاردًا في أجـزاء ودافئـا في أجـزاء، عـثر جـدي عـلى الجـزء الـذي يُسرب الزيـت فقـام بالربـاط عليـه حـتى طقطقـت المسـامير، وسـكب بعـض الزيـت مـن فتحـة صغـيرة أعـلى هـذا الجـزء حـتى قرقـر الزيـت فكـف.

رائحـة المـكان كانـت خليطًـا مـن الحديـد والرطوبـة والبلـل ورائحـة الأسـماك الكبـيرة النافقـة الـتي جـاءت وباتـت في غـرف ريشـة مضخـة المـاء أثنـاء خمولهـا، ثـم مزقتهـا في الصبـاح عندمـا دارت بـدون تدخـل البشر، دار جـدي في المـكان يتمـم عـلى ربـاط المسـامير الأخـرى وأخـذت أنـا جولـة، عـددت ثـلاث مـرات دارت فيهـا مضخـة السـحب الغاطسـة المغموسـة بالكامـل تحـت المـاء، كانـت تـدور أتوماتيكيـا إذا مـا ارتفـع منسـوب المـاء الجـوفي في المحطـة أعـلى مـن الأرض الخرسـانية، تسـحب المـاء بكفـاءة هائلـة إلى أعـلى السـد البعيـد لئـلا تـضرر الدوائـر الكهربيـة والإلكترونيـة، كان المـكان بأكملـه أشـبه بعبـادة هامسـة للمـاء، بهـا مـن الخلـط والزيـف مـا بهـا، ولكنهـا تعـترف بالقـوة الـتي تسـتطيع الميـاه أن تفعلهـا إذا مـا كفـرت بهـا تلـك العبـادة وتعطلـت - مثـلا - مضخـة الغاطـس فأتلفـت اللوحـة.

في الوقـت الـذي يصمـت فيـه هديـر المضخـة الغاطسـة وصـوت انسـحاب المـاء في المواسـير يسـيطر صـوت آخـر، منتظـم ضعيـف، كصـوت قبيلـة خياليـة مـن النمـل الكتبـة تخـط حكايـة الحيـاة، كان هـذا أكـثر مـا أبهـرني هنـاك، اللوحـة، بعـرض الصالـة وفي نهايتهـا بعيـدا عـن الرذاذ الـذي قـد يتنـاثر مـن تسريـب أو مـا شـابه، عـشرات اللمبـات الـتي تـضئ وتنطفـئ، وعـشرات الأرقـام تظهـر وتتبـدل، وفتحـات صغـيرة تتحرك بداخلهـا عـشرات المـؤشرات الحبريـة عـلى أسـطوانات مـن الـورق الرقيـق الدائـر في سرمديـة مغلقـة مغلفـة لا تطولهـا حـتى يـد جـدي إلا بسلم خشـبي، أخـبرني أنـه يـزور المحطـة كل عـشرة أيـام، يزيـل الريـم الأخـضر مـن فـوق الأرض الخرسـانية بمسّـاحة مـن الكاوتـش، ويطمـئن عـلى مناسـيب الزيـت، ثـم يقـوم بالعمـل الأهـم عـلى الإطـلاق، يـأتي

بالسـلم ويسـنده عـلى اللوحـة ويصعـد عـشر درجـات ليبـدل خزنات الحـبر وأسـطوانات الـورق ويضـع المسـتعمل منهـا في دولاب خشـبي صغـير بعـد أن يكتـب عليهـا تاريـخ اليـوم.

عندمـا فتـح الـدولاب أمامـي شـهقت وسـمعت جـدي يقـول خلفي فخـورا:

- هـذا هـو سـجل عمـل المحطـة، كل شيء يُسـجل، والأرقـام هـي الشـاهد الوحيـد عـلى كفـاءة فـني الصيانـة، جـدك يـا إسـماعيل.

عندمـا قـال جـدي ذلـك نظـرت إليـه فخـورا، فوجئـت بالتعبير المرتسـم عـلى وجهـه وعينيـه اللتـين خُطفتـا إلى السـماء، لـم أخمـن الفكـرة الـتي راودتـه عـن نفسـه إلا بعـد سـنوات، الفكـرة الـتي اسـتباحته للكفـر، ثـم عـادت بـه، كمـلاك قُصـت أجنحتـه وضاعـت قدرتـه عـلى الصعـود للسـماء.

***

## حسين - القاتل

من الصعب الوصول إلى حسين، أو لو تحرينا الدقة في اللفظ، من الصعب تخمين مكانه، فللوهلة الأولى يبدو وكأنه لا يستقر، وهذا وجود خادع، فعندما لا يكون نائما في الفندق، أو في صالة التدريب، أو مؤديا لمهمة من مهامه، لا يكون إلا في سيارته، يقودها بلا هدف ودون توقف، يفرد قبضة الشوارع المحكمة على سكانها ومساكنها، يدور ويلف ويخرج ويدخل كأنه في مهمة عبثية للبحث عن طرف الخيط الجغرافي الذي سيتفكك منه النسيج العابس لوجه المدينة، وعندما ينتقل اشتباك الشوارع إلى قلبه ينطلق إلى الطرق السريعة، يقود بسرعة جنونية، يُلقي مع دخان سيارته ما جمعه من بؤس، الطبنجة الثقيلة ملقاة في الدواسة ملفوفة كجرذ ميت في كيس أسود، يخلع حذائه طالما هي هناك، ورع في قلبه لا يُمكنه أن يدوس على سلاحه بحذائه، قدماه حافيتان، يتحسس المعدن البارد من وقت لآخر ببطن أطراف أصابعه، الطبنجة في الكيس الأسود تدب فيها الحياة بمداعبة أصابعه، تتحول من جرذ إلى أنثى، وللأنثى الجميلة على الذكر أن يبدأ طقوس التعري قبل أن تخلع قطعة واحدة من ملابسها، عندما يكون حسين حافيا والطبنجة تستجيب لمداعبات أصابعه يسب راكبي السيارات الأخرى الذين يسبقونه أو يضيقون عليه الخناق، يسبهم بطلاقة وبذاءة لم يعهدها في نفسه من قبل، نوافذه مغلقة والأنثى تتلمظ لمداعبة أصابعه والشبق مباح..

السلاح ليس أنثى، إنه رجل، امتداد للرجل، صلب قابل للحياة، وأحد اللحظات التي مهما تكررت لا يمكن لحسين نسيانها عندما ينزل من سيارته في النفق، يترجل حاملا الظرف إلى ما خلف غطاء موتور سيارته المرفوع، نفس الخطوات لا يتغير إيقاعها، ولكن الصدى

داخـل النفـق يمتلـك أذنـا موسـيقية وفمـا عابثـا، قـام الصدى بتغيير إيقـاع خطواتـه أكـثر مـن مـرة خـلال سـنوات مهنتـه، مـن إيقـاع الغلبة إلى إيقـاع التكريـس، مـن إيقـاع القـوي إلى ايقـاع المتبتـل، وعندما يصل إلى غطـاء السـيارة يكـون قـد تشبع بالكامـل بالطمأنينـة اللازمـة للقتل.

يرفـع الغطـاء ويتنشـق رائحـة المعـدن السـاخن بشـبق، تدحـر الرائحة مـا تبقـى مـن توتـره قبـل أن (يفـض) الظـرف، لـم يفهـم الكلمـة إلا عندما فـض أول ظـرف لـه، صـوت طيـتي ورقـة رأس الظـرف وهـو يقطعها دفـع بالدمـاء إلى عروقـه، واتجـه تفكـيره تلقائيـا إلى بـوز طبنجتـه الهامد في سـيارته، أسـفل الدواسـة، كأن دمـاءه المتحفـزة وجـدت طريقًـا لها إلى نسـيج المعـدن الأسـود لينتصـب، لحظتهـا يتذكـر حكايـات أبيـه عن الرجولـة القديمـة والليلـة الأولى في الـزواج.

***

للوصـول إلى حسـين يوجـد في كتيـب التعليمـات بنـد سـماه بنـد الرسالة الصفريـة، تصلـه رسـالة عـلى جهـاز المهمـات بميعـاد ومـكان، المختلف هـو وجـود الصفـر في نهايـة الرسـالة، الرسـالة تعـني أن يذهـب حسـين إلى المـكان في الميعـاد المحـدد وينتظـر التعليمـات، مجـرد اسـتدعاء أجـوف ربمـا للتأكـد مـن بقائـه عـلى قيـد الحيـاة أو جاهزيتـه للعمـل.

كانـت هـذه هـي المـرة العـاشرة في عمـل حسـين الوظيفـي الـتي تصل فيهـا الرسـالة الصفريـة، والمـرة السادسـة الـتي ينقـل فيهـا رجـلًا من مـكان إلى مـكان آخـر دون أن يعـبئ رصاصتـه، بـلا أظـرف وبـلا أمنيات أخـيرة، فقـط نـوع مـن الخدمـات المجانيـة خـارج نطـاق عملـه، حراسة جيـدة مـع قاتـل لا يقتـل إلا بالأمـر، المرافـق لـه يعـرف مهنتـه، وقد يضايقـه بالأسـئلة، وعـلى الرغـم مـن أنـه يحصـل في النهايـة عـلى إكرامية جيـدة إلا أن هـذه المهـام كانـت تضايقـه، فهـو شـبح بالنسـبة لهـم، مسـخ أسـطوري مـن قصـص الأطفـال، يتجـول في سـاعة الظهـيرة ليخطـف الصغـار والعاجزيـن ويعبئهـم في جـوال عـلى ظهـره ويذهب

بهـم إلى المجهـول، وعـلى الرغـم مـن خوفهـم منـه يطلـب بعضهـم هـذه التوصيلـة كنـوع مـن التأمـين، عبـور القنطـرة، فمـن يعـرف وجهـه لـن يُنفـذ في حقـه حكـم الإعـدام أبـدا، وهـذا هـو سـبب ضيقـه، أن يظن شـخص مـا في هـذا العالـم أنـه خـارج نطـاق القتـل الحكومـي حـتى لـو كان مـن رجـال الحكومـة.

ولكـن (د) كان رجـلًا مختلفًـا، رجـلًا حـرًا، فهـم حسـين هـذا مـن النظـرة الأولى، ليـس رجـل جيـش ولا شرطـة وإن كانـت سـيماه تـدل عـلى أنـه رجـل مـن الرجـال الذيـن يُحركـون الأمـور مـن خلـف الكواليـس، القيـادة الهادئـة والصمـت وعينـا السـائق اللتـان لا تتلصصـان أرخـوا أعصابـه، أظهـروا معدنـه المُحـب للرجولـة الحقيقيـة والتفـاني في العمـل، طلـب مـن حسـين توصيلـه إلى فيـلا هادئـة بالسـادس مـن أكتوبـر، ومـن ثـم سيعيده بعـد ثلاثـة أيـام إلى مـكان في وسـط البلـد ارتجـل عنـده وسـار عـلى قدميـه مبتعـدا، توقـف حسـين للغـذاء في مطعـم قريـب حـتى ينتفـي عنـه شـك أنـه يتتبـع رجـل الحكومـة السـري.

بعـد شـهر مـن قيـام حسـين بإعادتـه مـن فيـلا السـادس بـدأت معرفتهمـا عـلى نحـو شـخصي، في سـياق الحيـاة الطبيعيـة، كان يشـتري بعـض المنشـطات مـن صيدليـة شـهيرة عندمـا لفـت انتباهـه رجـل يرتـدي ملابـس أنيقـة يشـتري كميـة كبـيرة مـن العقاقـير دون أن يقـدم للصيـدلي كشـف طبيـب، حمـل الرجـل الأنيـق الأدويـة في حقيبتـين فتبعـه حسـين إلى الشـارع، سـار خلفـه حـتى رآه يدلـف إلى سيارة بهـا سـائق، وفي المقعـد الخلفـي رأى (د) جالسـا، أومـأ لـه برأسـه إيمـاءة لا تـكاد تُلحـظ، واسـتمر حسـين في سـيره دون أن يتوقـف .

في اليـوم التـالي دق الجهـاز بميعـاد ومـكان في رسـالة صفريـة، لا يحتـاج الأمـر لكثـير ذكاء ليعلـم حسـين أنـه (د)، وفي جـو السـيارة المغلـق عليهما تحولـت المـيزة الأهـم ل (د) إلى جحيـم: لا يتكلـم إلا إذا سـأله حسـين، وسـؤال مـن قبيـل: مـا الـذي تفعلونـه بهـذه الكميـة مـن العقاقـير لا

يمكن أن يوضع في سياق حديث طبيعي مع (د) إلا إذا أردت أن تضع فوهة مسدس عند رأسه قبل أن تسأله، ولكن (د) قال له قبل أن ينزل من السيارة:

- لو ضايقك أحد في الإدارة لا تتردد في أن تخبرني بذلك.

تماسك حسين لكيلا يبدو عليه أنه فوجئ، كان هذا هو البرهان الأول على أن (د) يعمل على رأس المنظومة التي توجهه.

- كيف سأفعل؟، سيادتك من يستطيع الوصول إليَ، لا أنا.

- اضغط مرتين على الزر الأبيض في جهاز استدعاء المهمات إن أردت أن تبلغني بشئ.

هذا هو البرهان الثاني، الزر الأبيض الذي لم يفلح حسين في أن يعرف له فائدة، حتى بعد أن غربل كتيب التعليمات جملة بعد جملة، وبعد غربلته لم يكن على حسين إلا أن يُخرج الجهاز ويتأمله، الأزرار التسعة والشاشة الصغيرة، وزر أبيض، زر غائر لا يمكن ضغطه عفواً، بل برأس مدبب كسن قلم، ويتساءل: متى يجب عليه أن يضغط هذا الزر، ومن يمكن أن يجيبه على تساؤله والجهاز ملكية مغلقة على موظفي الإعدام، يسلمه موظف إلى آخر بدون المرور بإجراءات تسليم واستلام، ولا يمكنه العودة إلى الموظف السابق ليسأله، فشيئان فقط يمكنهما أن يتسببا في فصل حسين من وظيفته بشكل تام، هكذا ذكر كتيب التعليمات، السعي للاتصال بموظف الإعدام السابق بعد استلام وظيفتك، والاحتفاظ بالأظرف التي تحتوي على الأسماء والتُهم، وإن كان حسين يلتزم بالتعليمات حرفيا فهذا لا يمنع الرغبة، عبارة (السعي للاتصال) في حد ذاتها جملة مبهمة، ماذا لو التقاه عرضا في مقهى أو شارع، ألا يمكنه أن يلقي عليه التحية، ويتصافحا، ويسأله حسين: ما فائدة الزر الأبيض؟

***

أدرك حسين من اللحظة الأولى أن (د) له علاقة بتحرير أظرف

الإعـدام، علاقــة تتعــدى كتابتهــا، وتتجـاوز مـا يفهمــه موظـف مـن الـورق المختـوم بختـم النسر، ليس كالموظفين الذين يقتلون عشرات المواطنين يوميًا بأوراقهـم دون أن يفهمـوا ذلـك، رغبة ورقيـة ليس إلا، رغبة يتداخـل معهـا شـظف العيـش وكـدر الزوجـة وفشـل الأولاد، ولكن (د) كموظـف يفهـم قـدرات الـورق المختـوم، يفهـم رغبتـه الكامنـة، يحترمهـا، يتجـاوز الروتـين، ويعمـل عـلى تنفيذهـا.

فذات مرة سأل حسين (د):

- هل يوجد موظفون للقتل غيري في الإدارة؟

لـم يُجـب (د)، ابتسـم فقـط، وفـرد أصابـع يـده اليمنى في وجه حسـين، ثـم ضمهـا وفردهـا، ثـم ضمهـا، عـدة مـرات حـتى توقـف حسـين عـن العـد في سره، فقهقـه (د):

- كل موظفـي الإدارة قتلـة يـا حسـين، بوجـه أو بآخـر، ولكـن أنـت المُنفـذ الوحيـد، أكـثر الموظفـين بُعـدا عـن فكـرة القتـل.

***

كانـت الجملـة العفويـة الـتي قالهـا حسـين لإسـحاق (سـأقتلك...) هـي قطعـة اللحـم الأولى في حيـاة نباتيـة طويلـة، ظـل حسـين خلالهـا يعتقـد أنـه عـلى قمـة الهـرم الغـذائي، المفـترس، سـمكة القـرش في البحـر والأسـد في الغابـة، ثـم جـاء (د) وأخـبره أنـه ليـس إلا منتجًـا، منتجًـا للقتـل، وأن مـن يتغـذى بالقتـل غـيره وكان هـذا الاكتشـاف مفزعًـا للوهلـة الأولى، اسـتغرق حسـين وقتـا لاسـتيعاب تلـك الصدمـة، سـنتين وعـدة أشـهر، وبعـد أن أصبحـت مشـاعر حسـين أكـثر اسـتقرارًا تجـاه القتـل ومـن يُكلفـون بـه قـام بتهديـد صديقـه الأقـرب.

ومـن حسـن حـظ العالـم أن حسـين لـه أصدقـاء كُـثر، أصدقـاء باهتـون إن صـح القـول، المدربـون في صـالات رفـع الأثقـال إن قالـوا لـه عـاش فقـد أصبحـوا أصدقائـه، كل شـخص تذكـر اسـمه بعـد علاقـة اعتياديـة فهـو صديـق أيضـا، وحـتى مـن ينـسى أسـمائهم فيخاطبهـم

باللقب الوحيد الذي يتطوع به لسانه: يا صديقي، نادل المقهى الذي يشرب فيه شاي الصباح، وبائع المخبوزات الذي يشتري منه السميط الذي يغمسه في شاي الصباح، وصاحب الصيدلية القريبة من فندقه الذي يسرب له المخدر ويتقاضى مقابل ذلك مالًا يصل لنصف راتبه، كلهم أصدقاؤه، ولكن صديقه الوحيد باعتبار المسرة والمضرة كان صديقه هذا الذي قال له بعد أن تناولا الغذاء البارد وحبوب الهلوسة: سأقتلك يوما ما.

فحسين - إذن - لم يقل ما يعتقده عقله، أو ما يحبه قلبه، ولا للتعبير عن ما يدور بداخله من هواجس تجعل إسحاق مرئيا بشكل واضح على خريطة دقيقة بداخله تخرجه من كونه صديقا إلى اعتباره زبونًا محتملا، فالهواجس لم يكن لها مكان في طبيعة مهنته، التهمة التي يضعونها في الظرف كل مرة واضحة مثل شمس الصيف، لا إبهام ولا إيهام، ومن المستحيل أن تُخدّع أو تخضع للاستقراء.

كان التهديد أكبر من مجرد مبالغة كلامية، لأن اللاشعور يمتلك لغة هي الأنقى من الشوائب، وحسين لا يملك ترف أن يفقد صديقه الوحيد الحقيقي مقابل مبالغة كلامية، لا شيء اسمه مبالغات كلامية ولا زلات لسان تكشف المخبوء، مما يضعه تاليًا أمام احتمال مفزع كثيرا ما فكر فيه، أن تجربة القتل غيرت حواسه وأطلقتها، حررتها، وأن ما احتمل فقدانه في عضو صار يطفر على أعضائه الأخرى، لسانه وجد لذة خاصة في أن يقول ذلك، لذة بذيئة، فالقتل محرابه وبذاءته، طهره وقذارة قلبه، ولسانه انخدع بلحظات الحرية التي وهبها إياه المخدر فانطلق يغترف من تلك المتعة ويصبها على نفسه، المتعة التي يجدها عندما يدوس على ثمرة ناضجة بحذائه أو بإطارات سيارته.

وبمجرد أن وصل حسين في تفكيره لتلك النتيجة مضى يتأمل بوز طبنجته المنبعج قليلا مثل متك زهرة، انبعاج لا يكاد يلحظه إلا

مُحب، وتأكدت شكوكه، فهذا الانبعاج لا يعود إلى أنه لم يتدرب على إطلاق النار، وإنما إلى طريقته في إطلاق النار، عندما يطلق النار يحب أن يكون السلاح ملتصقًا بالضحية، مثل الطعن، يعطيه النشوة الكاملة، ويمنع الروح من الخروج بسرعة، إبقائها قسرًا بالداخل لتزور زياراتها الأخيرة للأعضاء وتودعها، القتل بهذه الطريقة يعطيه فصلا كاملا من المتعة السريرية الكاملة والتي لا يعرف كيف يصفها.

لا عزاء للقدماء، خرجوا من الدنيا دون أن يتذوقوا الأجمل، لغبائهم، لا عزاء لهم.

تحت ضغط من إلحاحي بدأوا يخرجونني يوميا للتريض، ساحة مستطيلة مغلقة، الجدران مرتفعة ولكنها سمحت لشجرة أن تطل عليها من أعلى وتُسقط أوراقها الصفراء وأغصانها الجافة المتقصفة وزرق عصافيرها، كأنه جزء استقطعوه من شارع عام، توجد كنبة خشبية مظللة من ذلك النوع الذي يضعونه في أماكن انتظار الباصات وكابينة تليفون مفتوحة ليس به حرارة، لا تدب فيه الحرارة إلا عندما أطلب الحديث مع الدكتورة عالية.

في هذه الساحة استطعت أن أستعيد جزءًا من روحي، قبل المدرسة وقبل القصر، وأستعيد سؤالًا قديمًا كثيرًا ما راودني، لماذا فزع الناس من محو المصاحف إن كان العالم باقيًا على حالته، وأوراق الشجر والريح والماء تسجل نصا إلهيا لا يُرفع ولا يتبدل، الآن أعلم مدى سذاجة السؤال، أكان لابد أن أخوض رحلتي الغريبة لأفهم، أكان لابد من أن يدور رحى صدري بعجيج أسئلة أكبر لأكتشف.

قال لي جدي أنه عندما مُحيت المصاحف كان في سنوات شبابه الأولى، يعيش في المدينة الصغيرة قبل بناء السد، كان الفلاحون يسقون أراضيهم بمضخات صغيرة تُدار بالديزل ويحصدون الزروع بالمنجل، الليلة التي سبقت الأحداث كانت ليلة صيفية، سهر فيها من سهر حتى نام، ثم مرت الكارثة على أجساد النائمين بخطى خفيفة، شقة العائلة كانت تطل على شارع خلفي من نافذة الغرفة التي ينام فيها جدي، أيقظه الحر قبل منتصف الليل بقليل، قام وفتح النافذة، وفي ضوء الشارع الخافت المستمد من إضاءات مداخل البيوت رأى فراشات سوداء كثيرة وقد حطت على كل شيء، الجدران، وأحبال الغسيل، وضلف النوافذ المفتوحة، ساكنة، الحركة

الوحيدة التي أظهرتها كانت عندما فتح جدي النافذة فطار بعضها ثم عاد إلى مكانه.

أغلق زجاج نافذته وقبع خلفها منقبض الصدر، بعض الفراشات كانت تتحرك في قلق، تطير لأي صوت أو حتى تغير في اتجاه الهواء، أما مجموع الفراشات فكانت ثابتة وكأنها تنتظر شيئًا ما.

كان الهواء ثقيلا، والمدينة الصغيرة تتوقف تدريجيا في محطة الليل بعديد من الأصوات، تنهدات وأبواب تغلق ونداءات وتأوهات وصرخات، ثم حدث الشيء الذي تنتظره الفراشات، ازداد ثقل الهواء وكأن السماء أقعت بصدرها على الأرض، وفجأة وبلا مقدمات، وكأن زهرة عملاقة تفتحت في السماء، طاروا لأعلى جميعا، وهناك تبددوا إلى غبار أسود.

لم يستطع جدي العودة للنوم، ارتدى ملابسه ونزل إلى الشارع، لا شيء يدل على غرابة اللحظة، الليل المفتوح على مصراعيه بعد أن فكك حرارة النهار لم يستطع أن يغري أحدًا بالسهر، العجائز الجالسين في الشرفات وفوق الأسطح يحاربون الأرق حتى هذه الساعة ويتسلون بمراقبة حركة القليلين العائدين كلهم شعروا بما شعر به جدي الشاب المُجد في سيره، ما تخلف عن الكارثة، وغبار معلق في هواء المدينة من شدة خفته، أخبر منهم من أخبر ذويهم عندما استيقظوا في الصباح، قالوا أن الهواء كان شريرًا، وظل معبئًا حتى الصباح برائحة حبر طازج، تلك الرائحة التي تشمها لو قربت أنفك من صفحة جريدة جديدة، ولكن الرائحة واضحة جدا وقوية وكأن ألف ألف جريدة مطبوعة توًا خرجت في مظاهرة حاشدة عند مدخل الشارع.

بعد ساعة من السير المنفرد بدأ الغبار يساقط ببطء، عاد جدي أدراجه، بخطوات أثقل وبعينين لا صفاء فيهما، الشرفات والأسطح خلت من العجائز، والشوارع لم يعد فيها إلا أناس يعلم الله وحده

السبب الـذي جعلهـم يتأخـرون إلى مـا بعـد منتصـف الليـل في مدينـة ريفيـة، يسـيرون وقـد التصـق الغبـار بوجوههـم واختنقـت أنفاسـهم بـه، لا ينتبـه جـدي لمرورهـم إلى جـواره إلا مـن سـعالهم، وعنـد مداخـل بيوتهـم يبصقـون بصقـات سـوداء، كان الهـواء شريـرا بالفعـل، وطـوال طريـق عودتـه ظـل يسـمع أصـوات مدينـة بعيـدة تمامـا عـن الاسـتغراق في النـوم، مدينـة تسـتيقظ، نصـف جنـون ألقـي في يقظـة رجـال متعطشـين، والنصـف الآخـر ألقـيَ في نسـاء متمنعـات، أبـواب داخليـة تُغلـق بعنـف مفتعـل، ولـم يكـن الأمـر يحتـاج إلى خيـال واسـع لـيرى جـدي مـا يـدور خلـف الجـدران، حقائـب تُعبـأ للمغـادرة في الصبـاح الباكـر ورجـال يبيتـون خـارج غـرف نومهـم، ويخلـدون للنـوم سريعًـا بفعـل الإحبـاط.

كل الذيـن عـادوا إلى بيوتهـم في هـذا الوقـت كانـت لديهـم اليقظـة الكافيـة ليعطـوا أجسـادهم طقوسـه الكاملـة، غسـلوا وجوههـم وارتـدوا ثيـاب النـوم الخفيفـة، ميـاه الغسـيل نزلـت مـن عـلى وجوههـم وكأن مـذاب فيهـا سـناجًا أسـود، واختبـأ المـاء الأسـود في فتحـات مصفـاة الحـوض كـشيء شريـر.

ربمـا فكـر بعضهـم في الأمـر قليـلا قبـل أن ينـام، لمـاذا معظـم الشـوارع الـتي سـاروا فيهـا كان فضاؤهـا مضببـا بذلـك السـناج الأسـود، لعـل السـيارات أكـثرت مـن حـرق البنزيـن في هـذا اليـوم، أو مطبعـة انفجـرت مـن كـم الأخبـار الكاذبـة الـتي سـتطبعها في صحـف الصبـاح، والأرجـح أن الفلاحـين في القـرى البعيـدة الواقعـة حـول المدينـة ينتهـزون فرصـة الليـل لإحـراق القـش في غفلـة الحكومـة وموظفـي البيئـة، لا تفسـير آخـر لهـذا السـناج القاتـم الـذي علـق في الهـواء.

في الصبـاح أذاع التلفـاز الخـبر: نسـخ معيبـة مـن القـرآن تتسـبب في بلبلـة الـرأي العـام!!

***

لقـاءات متعـددة جمعـت بـين حسـين و(د)، في مقهـى منعـزل عـلى النيـل، وفي كل لقـاء تتضح صورة (د)، وتتبـدد الصـور الذهنيـة القديمـة لـه، كان (د) يطلـب طلبـين دفعـة واحـدة، يأتيـه فـتى المقهـى بصينيـة بهـا كـوب شـاي بـدون سـكر إضـافي وفنجـان قهـوة، وكزبـون دائـم ، يتبـادلان ابتسـامة مـن يعرفـان بعضهمـا جيـدا، ينـصرف فـتى المقهـى ويحسـو (د) مـن كـوب الشـاي أولا حسـوات سريعـة حـتى ينهيـه، ثـم يتكلـم وهـو يـشرب قهوتـه.

أثنـاء وقـوع الكارثـة كان (د) يسـكن في إحـدى حـارات القاهـرة الكـبرى، وفي إجازتـه الصيفيـة الـتي يعمـل خلالهـا في محـل لبيـع المنظفـات الصناعيـة، في صبـاح تلـك الليلـة اسـتيقظ (د) بذهـن ثقيـل، قـرر أنـه لـن يذهـب للعمـل، خـرج إلى الشرفـة ووقـف يحتـسي شـاي الصبـاح، فوجـئ بالمشـهد، وكأن الشـارع بـأسره شـب فيـه حريـق هائـل لـم يمـس منـه شيئًا ولكنـه تـرك الأثـر، واجهـات البيـوت وأسـقفها، ومقابـض الأبـواب ومصاريـع النوافـذ وزجاجهـا كلهـا بـلا اسـتثناء مغطـاة بالهبـاب الأسـود، سـار الموظفـون المبكـرون في الطرقـات يتأملـون بحـذر، دق جـرس الهاتـف، كان صاحـب المحـل يرجـوه أن يـأتي بسرعـة، ارتـدى (د) ملابسـه ونـزل، في طريقـه لاحـظ أن بائعـي اللـبن وموزعـي الخـبز والجرائـد يطرقـون الأبـواب ويسـلمون بضاعتهـم يـدا بيـد لتبرئـة أنفسـهم مـن تهمـة التعبئـة في زجاجـات متسـخة، أو أكيـاس غـير نظيفـة، وكالعـادة اشـترى (د) الإفطـار لنفسـه ولصاحـب المحـل.

كان هـذا الطعـام الوحيـد الـذي تنـاولاه طيلـة نهـار كامـل مرهـق، تلقـى (د) أول آثـار الكارثـة واقفـا في المحـل، دارت بـين تجـار المنظفـات الصناعيـة مكالمـات تليفونيـة سريعـة للاتفـاق عـلى توحيـد الأسـعار

وزيادتهـا، وقبـل الظهـر اضطـروا إلى تكـرار نفـس المكالمـات ليرفعـوا أسـعار البخاخـات الـتي تزيـل الزيـوت والشـحوم العالقـة واصفـرار السـيراميك والأحـواض والـتي يفضـل ارتـداء جوانـتي عنـد اسـتعمالها، وقبـل العـصر بعـد أن عـاد الرجـال مـن أعمالهـم بملابـس متسـخة رفعـوا أسـعار الشـامبوهات المنظفـة للموكيـت والسـجاد والمفروشـات ومسـاحيق الغسـيل الأتوماتيكيـة والعاديـة، قبـل الغـروب كانـا قـد باعـا أكـثر مـن ثلـثي بضاعـة الـدكان، غسـلا أيديهمـا وبينمـا يحتسـيان كوبـين مـن الشـاي دخـل عليهمـا صاحـب المكتبـة المجـاورة.

***

لـم يقـل (د) أنـه أول مـن انتبـه للكارثـة، هـو وصاحـب المكتبـة الـذي أنـزل معـه صفـين مـن المصاحـف ووجدوهـا بيضـاء، فخـبر الرفـع انتشر منـذ الصبـاح، أول مـن اكتشـفه هـم الذيـن أرادوا الفـوز بنفحـة إيمانيـة في بدايـة يومهـم، عندمـا فتحـوا مصاحفهـم وجدوهـا بيضـاء، خاليـة حـتى مـن أثـر الحـبر، ولكـن الكثيريـن منهـم لـم يجهـروا بهـذا الاكتشـاف عـلى الفـور.

المسـتوى التـالي مـن الاكتشـاف هـو مـا أذاع الخـبر، كان أشـمل وأعـم، وفي أماكـن لا يمكـن للنـاس إنكارهـا، المكاتـب الـتي اعتـاد أصحابهـا عـلى تعليـق لوحـات تحمـل بضـع كلمـات مـن القـرآن بحـروف مذهبـة، أو الذيـن لا يمتلكـون رفاهيـة شراء إطـار مزخـرف واسـتعاضوا عنهـا بـدس أوراق مكتوبـة بخـط اليـد أو مطبوعـة تحـت زجـاج المكاتـب، غـرف اسـتقبال الضيـوف، وصـالات الفنـادق والمحاكـم وأقسـام الشرطـة الـتي تمثـل تلـك اللوحـات جـزءًا روتينيـا مـن إكسسـواراتها: وإن حكمتـم بـين النـاس، وقـل اعملـوا فسـيرى، والمكاتـب الرئيسـية والفرعيـة للأحـزاب في المحافظـات والمراكـز الصغـيرة، كل الأحـزاب بـلا اسـتثناء، الدينيـة منهـا والـذي كان تعليـق تلـك اللوحـات جـزءًا مـن هويتهـا، والعلمانيـة الـتي تدفـع عـن نفسـها تهمـة معـاداة الديـن بتعليقهـا، كل هـذه الفضـاءات

بلا استثناء، كلها كلها، أصبحوا فوجدوها تحتضن الفراغ الملون أو الأبيض حسب نوع الخلفية، كأن من بروزها نسي أن يكتب فيها، لاحظ ذلك من لاحظ لأول وهلة وهرع لرؤيتها من غفل عن ملاحظتها، وانتشر الخبر في الشارع بين الناس مع مَقدِم الليل، مكالمة تليفونية أو إشارة من زائر جديد متلاحق الأنفاس أتى من الخارج، تبادلوه بخوف وتحفظ فيما بينهم خوفا من الإثم، وفي الأماكن المفتوحة بينما يختلسون النظر إلى السماء.

في اليوم الثالث بدأ الناس يشترون الكتب، اشتروا كتبًا في هذا اليوم كما لم يشتروا في أعمارهم كلها، الصحف الرسمية كانت السبب المباشر في انتشار هذه الحمى الشرائية بأخبار وتفسيرات علمية عن وجود مادة حديثة في حبر المطابع بها خطأ في تركيبتها الكيميائية أدت لاختفاء الطباعة، بعض الأذكياء الساخرين هرعوا إلى أرفف المكتبات وتصفحوا الكتب الحديثة فوجدوها كما هي، اشترى الناس الكتب فقط ليضموها كإثبات مع الصحف الكاذبة، أصابتهم لوثة إثبات الحقيقة، الشراء في البداية كان مُميزًا، مجرد أن الناس تذكروا فجأة الكتب التي يحتاجونها، على أن تكون طباعتها في العامين المنصرمين، بعد أن فرغت أرفف المكتبات لم يعد ثمة تمييز في الشراء .

في هذا اليوم سمع (د) تفسيرات أكثر من قدرته على التحليل، الصحفيون والكتاب وسائقو الباصات وبائعو الخضر والجرائد وأصحاب محلات الجملة والجالسون على المقاهي والزبائن العابرون للمطاعم الشعبية، الجميع بلا استثناء كان لديهم تفسيرٌ لما حدث، أجزاء من الحقيقة مع كثير من الكذب، وكان تطور التفسيرات رهينًا بالمناقشة والدحض، أحيانا تكتمل الحقيقة وتسعى ثم تموت، وكثيرا ما كانت تموت في مهدها، حتى أصحاب نظرية المؤامرة تلقفوا تفسير الظاهرة ووجوه الاعتراض عليها وأنتجوا تفسيرا محايدا

قائلين أن الحبر الذي طُبعت به المصاحف تم توريده بتخطيط من مخابرات الدول الكافرة للدول التي تقوم حكوماتها على خلفية دينية، أما الكلام المضحك عن تسليط أشعة متطورة عبر الأقمار الصناعية السابحة في فضاءات بلادنا على الصفحات المقدسة لتبديد ما سُجل فيها وجد أيضا من يقوله، والنتيجة المرجوة أن تعم الفوضى العارمة في تلك الدول فيسهل السيطرة عليها.

التفسير الوحيد الذي يفسر كل شيء بدا وكأنه لن يقال أبدا: الأحرف المقدسة اختفت لأنها رُفعت، الله عز وجل رفعها، قالته صحيفة صغيرة على استحياء: (الأحرف المقدسة مُحيت أم رُفعت، مؤامرة، أم عقاب وتمهيد ليوم القيامة) كان هذا هو العنوان الذي باع من الصحيفة آلاف النسخ وأعاد طبع العدد لعدة أيام متوالية، المقال الذي فتح صدره للجميع، للمؤمنين أن يقولوا أن هذا هو أوان رفعها، وأننا في نهاية الأيام، وأن القيامة بمعناها الحرفي قريبة، والعلمانيون الذين قالوا أن الحروب والتناحر على أساس امتلاك الحق المطلق سيصبح موضة قديمة، وأن علينا أن نُقيم أسس العالم من جديد على الحقائق الملموسة لا أوهام السماء، وأن المعجزة الوحيدة إن كان لنا أن نعترف بوجود معجزات هي محو القرآن، ولعل الله ملّ من نسب الترهات إليه فقرر أن يخرج عن صمته.

الحقائق التي أوردها المقال، الحقائق والأكاذيب على حد سواء، سببت ضجة، وتسببت في سحب نسخ الجريدة المتبقية من الباعة، فالحديث عن النهاية جعل الموظفين وأصحاب الورش والحرفيين يتدرجون في التوقف عن الذهاب إلى أعمالهم، والمحال التجارية تُغلق معظم أوقات النهار والليل.

لم تكن المدن الكبرى أفضل حالا من المدن الصغيرة النائية، في البداية امتلئت المساجد والزوايا بالمصلين الباكين، ثم اضطروا

للعودة إلى بيوتهم عندما سمعوا بالفوضى والغياب الأمني.

انطلق المنفلتون في الشوارع، قلبوا حاويات القمامة وأشعلوا النار في أشجار الأرصفة، ولم يطفئوها عندما امتدت إلى السيارات، من وقت لآخر كان يُسمع صوت تهشم زجاج، طلقة رصاصة مدوية، سرينة سيارة شرطة، وانعقد الدخان وصار مكونا رئيسيا للسماء، لا يكاد يمر يوم إلا وتقبض الشرطة على عدد هائل من مثيري الشغب ثم يضطرون للإفراج عنهم ليحل غيرهم محلهم، أصبح السير بدون سلاح في مكان مكشوف تعني الحماقة أو الرغبة في الانتحار والخلاص، كل أرقام السرقة والقتل كانت نتاج اليأس المجنون لعالم وصل إلى اليقين أنه يعيش أيامه الأخيرة بعد أن رُفعت الأقلام وجف الحبر من فوق الصحف.

رجال الحكومة في محاولة لتهدئة الأوضاع فكوا قبضتهم المحكمة عن كثير من رجال الدين غير الرسميين ليخرجوا على شاشات التلفاز ويتحدثوا إلى الناس محاولين بث الطمأنينة فيهم، قالوا أن ما حدث لعنة ستزول بزوال مسببها من ذنوب ومعاص تملأ الشوارع والبيوت ومكاتب الحكومة وأقسام الشرطة وصفوف الجيش، دليل ذلك وما يُثبته: الكلاب التي صارت ميالة للعض دون استفزاز، وفئران بدأت بالظهور في الشوارع بوضح النهار دون خوف، واختفاء الطيور في السماء عدا الغربان والجوارح منها، وقلة حصيلة الصيادين من السمك في البلاد الساحلية، وازدياد حالات الطلاق بشكل لا يقبل التشكيك.

شيخ الأزهر في لقاء تاريخي عاصف على قناة فضائية قال أن الرفع غير مكتمل وأنه مجرد تحذير للعصاة والآبقين، وأتى بدليل على ذلك، مصاحف كُتبت بطريقة برايل لم تُزَل نقوشها، قرأ منها مغمض العينين، وبعد أن انتهى من القراءة أخذ يدعو وارتجت المقاهي والبيوت حيث اجتمع الناس للمشاهدة بالتأمين، وبعد الدعاء قال

أن على أصحاب الديانات الاخرى أن يلهجوا أيضا بالدعاء من أجل درة الأديان، فسقوط الإسلام يعني سقوط هيبة الذات الإلهية في قلوب العوام وما يتبع ذلك من سقوط باقي الأديان، وأن الامر كما ينبغي أن يُقال: أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض.

المقربون من البابا قالوا أنه استاء من النبرة المتعالية لشيخ الأزهر والتي تخرج من نفس البوتقة التي يخرج منها كلام القتلة باسم الدين، وأن ما يُثار عن محو المصاحف أنه دليل على نقائها من التحريف والتبديل يمكن أن يرتد على صدور من أطلقه، بأن يُقال أن الله غضب من نسب الأكاذيب إليه، وفي عظته الأسبوعية التالية قال أن حتى الثيران تتوقف عن مناطحة صخرة التاريخ قبل أن تكسر قرونها، وأن العميان فقط هم من يفسرون كل شيء لصالحهم، فالكلاب تعض منذ أن نبتت لها أسنان ولن تتوقف حتى لو سقطت أسنانها، والغربان يجذبها لمعان زجاج البنايات الشاهقة أما العصافير فاسألوا عنها أهل الريف إن كانت قد اختفت أم لا، ثم قال متعاطفا أنه يجب على رفاقنا في الوطن التوقف عن التحدث بصيغة أنهم المقدمون في الحق، فالديانات الحقة لا تسقط بمحو صفحات ولا بموت رجال، ندعوهم إلى الثبات، ونقيم قداسًا للشكر لا قداسًا للدعاء.

وكما فتح التلفاز صدر برامجه لرجال الدين فتحها للعلمانيين، قالوا أنه من الملاحظ أن الفتنة دائمًا شرقية، وأن قليلًا من البلاد الإسلامية هي التي تضررت بالحادثة، فهل هذا سببه أنها تحتوي على ثلثين من مجموع الكتب الدينية في العالم أو أكبر من ثلثي مقدار الإيمان الذي يملأ قلوب أهلها المؤمنين بفطرتهم دون كتب ودون قراءة للكتب، بينما لم نسمع عن تلك البلبلة في بلاد الغرب، تدور نقاشات راقية هناك، فهل يجب علينا أن نُبتلَى بالدين مرتين، في وجوده وعند زواله.

***

عندما وصل (د) في حكاية الأحداث إلى هذه النقطة طافت برأس حسين ذكرى غائمة، ما حكاه له عمه عن هذه الليلة، استيقظ لصلاة الصبح كعادته، توضأ وبقدمين مبللتين سار من حوض الوجه إلى غرفة التدريس ليجلب قميصه وغطاء رأسه المخصصين للصلاة، عدة خطوات مشاها داخل الغرفة قبل أن ينتبه أنه يمشي على غبار أسود كالحبر، وأن الجدران وقميصه المعلق على المشجب، وعشرة أرفف مليئة بالكتب، كلها يغطيها ذروٌ أسود.

عم حسين كان رجل دين، ما حاول حسين أن يتصوره أكثر من مرة وفشل فيه هو كيف عاش رجل دين هذه الأيام الملتبسة، بعد وصلة الدعاء والبكاء والابتهال والاستغفار، ثم انصراف الناس عنهم لحماية بيوتهم.

بعد الرفع انسحب الدعاة انسحابا كاملا، أسماء شهيرة هجروا الشوارع والمساجد وإمامة الناس وخطب الجمعة، قالوا أن هذا هو العصر الذي لا يعيش فيه إلا رجال السوء، وأنه ينبغي على كل رجال الدين التقنع والمكوث في بيوتهم والبكاء حتى الموت، البكاء فقط، ندمًا لا فائدة منه، لا الصلاة ولا الدعاء، حتى الاستغفار لم يعد عبادة مرجوة، بل ومنهم من أضرب عن الطعام والشراب إلا نذرا يسيرا يقيمهم .

ثم أصدر الأزهر فتوى، قال فيها أنه طالما لم تخرج الشمس من مغربها فكل عبادة على حالها، بل ينبغي علينا أن نُكثر من العبادة الآن أكثر مما مضى لنرفع عن أنفسنا البلاء، ولكن الوضع كان مُرا، ولأول مرة انقلب الحال، فبعد أن كان رجال الدين يمتلكون سلطة الوصاية والحكم ببؤس الناس وتهارجهم صار الناس يرفضون وجودهم ويتعمدون البصق والتلفظ بألفاظ قبيحة في وجودهم أو عند مرورهم، ما نفع رجل دين في أيام رُفع فيها عن الناس

التكاليـف والعبـادات.

قال (د) قاطعا استرسال أفكار حسين:

- أخبرني يا حسين، هل تحب عملك؟

- لا يوجـد مـا يجعلـني أكرهـه، مرتـبي يزيـد سـنويا، ولـدي وقـت فـراغ كبـير أسـتغله جيـدًا.

- لـو أنـك تجلـس عـلى مكتـب في الإدارة لقدمـت طلبًـا بترقيتـك عـلى الفـور.

- لا أريد الجلوس على مكتب.

- الجلوس على مكتب تعبير مجازي.

ثـم كان بينهمـا مـدة مـن صمـت طويـل، غـرق خلالهـا حسـين في أفكار متشـعبة انتهـت بـه إلى أن قـال:

- هل يوجد موظفون للقتل غيري في الإدارة؟

لم يُجب (د)، ابتسم فقط، وقال:

- كلنـا قتلـة يـا حسـين، بوجـه أو بآخـر، ولكـن المُنفـذ للقتـل واحـد، غالبـا مـا يكـون أكـثر النـاس بعـدا عـن القتـل.

ابتلـع حسـين اعتراضـه مراعـاة للفـارق الوظيفـي، وقـال محـاولا إثبـات خطـأ (د):

- هل وظيفة كالقتل يمكن ترقيتها؟

- طبعا.

- كيف يمكن ذلك؟

- كما قلت لـك، أنـت اكـثر القتلـة بُعـدا عـن فكـرة القتـل، أنت مُنفذ فقـط، ولـن تـترق إلا بعـد أن تقتـل فعليـا، أن تقتـل كمـا نقتـل نحـن في الإدارة.

سأله حسين بحذر:

- ما هو العمل الذي تقوم به الإدارة؟

- استبدال مفاهيم، عمليات بتر لمعانٍ قديمة لو استمرت لتجسدت جسدًا بأكمله، الإدارة تجاهد لتمنع تكرار ما حدث بعد محو المصاحف.

- سأحاول أن أُحسن الظن بهذه الأهداف.

- هذا أفضل لقلبك يا عزيزي.

للمرة الثانية في جلسة واحدة انقطع الحديث، وقفت الكلمات، أطلت على هوة مليئة بالاحتمالات المتميعة، إن لم يقتلها التردي من علٍ قتلها التردد، ولكن (د) يعرف لماذا طلب لقاء حسين، ولماذا يستمر في لقائه، بدأب أعاد وصل الحديث مرة أخرى:

- قل لي: هل أعجبك الفصل الثالث من كتيب التعليمات؟

- جدا، للدرجة التي تجعلني أرغب بشدة في لقاء مؤلفه.

- ربما تكون التقيته ولم تنتبه يا حسين.

- مستحيل، كنت سأعرفه على الفور.

- أهنئك على هذه الثقة.

قال حسين بعد تردد:

- هل التقيته أنت؟

- مؤلف الفصل الثالث من كتيب التعليمات هو أحد أعضاء الإدارة الأوائل، لم يكن حينها يعلم بأنه سيدرج في كتيب إرشاد لقاتل حكومي.

- لماذا كتبه إذن؟

- كتبه ليقرأه أفراد الإدارة، ليتشبعوا بفكرته المختلفة عن القتل النظيف، كان أملا مستحيلا أن يُقنع خليطًا متناقضًا بفكرته دون أن يحرفوها، أطباء نفسيين، علماء في اللغة، والتاريخ، وزبانية حُكم

قدامى، وعالم دين.

- عالم دين واحد؟

- صدقني، لم يكن الأمر يحتمل أكثر من عالم دين واحد.

- ربما تكون متحاملا.

ابتسم (د) كأنه يتفهم انحياز حسين:

- (أ)، مؤلف الفصل الثالث، لنسمه أ، كان هو الشخص الوحيد الذي استطاع أن يكون رؤية حول ما حدث، ورغم شذوذ آرائه إلا أننا في نهاية المطاف كنا نلجأ اليها، كان يقول أن الانحراف عن الطريق المستقيم هو ما يُبقي للطريق المستقيم حدوده، المعصية هي ما أبقت للدين هيبته، وبالتالي فرفع الحروف سيجعل الوقت وقت إيمان مطلق، وأن على علماء الدين أن ينتبهوا إلى ردة الفعل، فالإيمان المطلق لا يعيش طويلا، ولكنهم لن يفعلوا.

- لماذا؟

- لشغف رجال الدين بالنصوص، لأنهم سيحاولون إحياء النصوص بحذافيرها وسيشغلهم هذا عن فهم ما يحدث.

- وهل فعلوا؟ أقصد رجل الدين الوحيد في الإدارة، هل فعل؟

- رجل الدين كان معجبًا بآراء (أ)، ولكنه في النهاية كرهه، (أ) لم يكن يهتم بالكراهية ولا بالحب بقدر ما يشغله نشر رؤيته بيننا، كان مؤمنًا بأنه إذا كانت هناك أيام متبقية لنا نحن، الشر الذي ستطلع عليه الشمس من مغربها فلنعشها في سلام ورفاهية، رفع الحروف جعله يؤمن بأن البشر بموجب كل الأديان وليس الإسلام فقط لم يعودوا مكلفين بالصلاة ولا بالتعبد، ليس لأننا في وقت البدل الضائع قبل صفارة الحشر والقيامة، بل بعد ذلك بكثير، انتهى ماتش الحياة.

كانت الفكرة في رأي حسين أوقح من أن يُعقب عليها، فلبث صامتا

مثل صنم.

- رجال الدين لديهم تفسير لما حدث.

- دور الإدارة الأول كان هو حث رجال الدين على الكلام مع الناس بغض النظر عن الكلام معنا، ولكنهم لم يتكلموا معنا ولا مع الناس.

- كان لديكم رجل دين نافع بالفعل.

- لم يصبح نافعا بعد أن اتضحت الخطوط الرئيسية للإدارة، أدخل رئيس الدولة تحسينات عدة إلى طريقة العمل وأشرف عليها بنفسه، كان العمل تطوعا دون أجر فأصبح بأجر كامل، وجُعل لكل عضو فينا مكتب في مؤسسة من مؤسسات الدولة المهيمنة، يتناسب مع مكانته ووظيفته، أصبحت الإدارة أقوى مما سبق ولم يكن ثمة أسباب للاستقالة إلا أنه استقال بأكبر قدر ممكن من الضجة المفتعلة.

- انتصر (أ)!

- كعضو في الإدارة فقط، ولكن انتصار رجل الدين كان أكبر، في الحياة الحقيقية، وبعيدا عن الإدارة استطاع بمجهود فردي تماما أن يهزمنا في معارك عديدة، لدرجة أن قرارات هامة لم يكن ممكنا لنا أن نتخذها دون موافقته.

- وأين هما الآن، رجل الدين و (أ)؟

- أقرب مما تتخيل، لو فتحت عينك جيدا لرأيتهما.

أفلتت من حسين ضحكة سريعة، حائرة، فقال (د) مشفقا:

- لا تقلق يا حسين، فالخطوة الأولى في حياة الإبصار هي التكريس، وأنت الآن مكرس في حياة واحدة، إذا خرجت منها أبصرت.

- أي حياة؟

- القتل.

- القتل مجرد وظيفة، عمل.

- كل قاتل يضع ملامحه الشخصية يا حسين، حتى الجزار، وانت لا تقتل من أجل المال، أنا أعرف ذلك.

ضحك حسين ضحكة من لا يفهم الكلام الكبير، ولا يستسيغه وقال:

- لنكن بسطاء يا سيدي.

- البساطة لها ثمن يا حسين.

- حتى لو كان سؤالًا بديهيًا؟

- يتوقف على نوع السؤال.

- سؤال بسيط مثل: كيف يمكن ترقية قاتل مثلي؟

- كما قلت لك، كل شيء له ثمن.

- وما هو الثمن؟

- أن تقتل يا حسين.

- ألست أقتل بما فيه الكفاية؟

- تقتل بلا كراهية، بتكليف، عليك أن تكره، أن تقتل بدون ظرف، بقرار نابع من نظرتك إلى الأمور وكيفية إدارتها.

- وكيف ستعلمون أن نظرتي صحيحة؟

- ليس مهما أن تكون نظرتك للأمور صحيحة كليا، بل أن تكون غير ضارة،لو أعطيتك اسمين، كما في قصة الخلق، رجل وأنثى، وعليك أن تقتل واحدًا منهما، هل تستطيع؟

هز حسين كتفه وكأن الأمر لا يشكل فارقا جوهريا، القتل هو القتل.

- ما السبب الذي سيجعلني أقتل واحدا منهما دون الآخر؟

- ستكون إهانة لذكائك لو قلت لك أن هذا هو الهدف من

تكليفك، أن تجد مبررات القتل، ولكن دعنا ننسى أنك طرحت هذا السؤال، وسأعطيك الاسمين، عليك أن تقرر من ستقتله منهما.

- حسنا، لنبدأ باسم الفتاة كما تقتضي اللياقة.

- إيلات حسن.

- اسم غريب.

- اسمها ليس أغرب صفاتها.

- والرجل؟

- سمعان الشنقيطي.

***

ساد صمت لم يكن ممكنا هتكه إلا بحادثة قطار في الناحية الأخرى من ضفة النيل، أو جنوح حوت إلى الشاطئ، ذكر اسم سمعان الشنقيطي كان يشبه جنوح حوت إلى شاطئ حوار لا ينتمي إليه، حتى لو لم يقترن بمشروع لقتله، فسمعان رجل الدين الحكومي المفضل، ذائع الصيت في وسائل الإعلام أكثر من ذيوع الماء في ثلاجة الفقير، وفي العصر الذي عاشه (د) كان سمعان أحد مُخَلصي العصر، في وقت تحول فيه ريموت التلفاز ومؤشر الماوس عند الناس إلى وسيلة للخلاص، واستعرت النقاشات الحامية حول نوع الإساءة التي سببت رفع الحروف، فانتقل نقاش البشر الخالد من الفشل في تنفيذ ملكوت الله على الأرض وتطبيق شرعه إلى الفشل في الحفاظ على شكل كلام الله من السخرية.

لا يوجد أحد لا يعرف سمعان الشنقيطي، كان نجمًا لامعًا بالفضائيات، سيرة حياة مشرفة لداعية.

بدايته، أقل ما يجب أن يُقَال عنها، رجل وهب حياته للدين، بالمعنى الحرفي، يعيش بين طلابه ويأكل مما يطبخونه ويشترك معهم في نفقته، لديه قدر هائل من الثقة والتواضع جعله قادرا

على إقناع أتباعه بالمستحيلات والغرائب، حتى عندما قال أن الطريقة التي يُفسر بها القرآن هي السبب في رفعه إلى السماء، فلا يجب أن يُفسر كلام الله إلا بكلام الله لا بكلمات بشرية، لأن كلمات البشر تحتوي على السخرية والمجاز والكذب، ثم قال أن كل أشكال الأدب عدا القليل من الشعر، مثل الرواية والقصة كلها أشكال مسيئة مشوهة لكلام الله يجب التخلص منها، لأنها قائمة على مضاهاة القرآن من تأليف الحكايات والعِبر بالخيال مما صرف الناس عن تلاوة القرآن والترنم به.

أتباعه الذين تجاوزوا المليونين ويزيدون أطلقوا عليه لقبا يتناسب مع نبض الكارثة (المُجدد)، مجدد الدين والزمان، دأب على إقامة حفلات للتطهر الذاتي في بيوت مريديه، تحث على الامتناع عن الذنوب بحرق الروايات ودواوين الشعر والصور الفوتوغرافية واللوحات المعلقة على الجدران، وقال أن هذا كفيل بإعادة الحروف المقدسة إلى المكان الذي يتم تطهيره، مقاطع الفيديو التي سجلت هذه الحفلات لم تزل موجودة، تسجل كيفية التطهير والنتيجة الساحرة وصيحات الدهشة الإيمانية العميقة، عادت الحروف المقدسة أيامًا قليلة برهانًا على كلامه ثم مُحيت مرة أخرى، كأنها لمسة من ملاك أو نفثة من شيطان.

ما قاله كان لامعًا، لامعًا جدا وقريبًا إلى النفس، خاصة من عاش في هذه الأيام، ولو استمر على طريقته الهادئة لظل عدد أتباعه في ازدياد خاصة أن الوقت والناس ورجال الحكومة القديمة كانوا يحتاجونه، لكنه لم يستمر، وقيل أن رجال الحكومة الثوريين دبروا المناظرة الأخيرة التي قامت بين سمعان الشنقيطي وبعض المثقفين الدينيين لعزل سمعان وإظهار شذوذ أفكاره وغرابتها.

بدأت المناظرة بمحاولة من المثقفين لإثبات أن الدين والأدب لا ينفصلان، فأيهما وُجد نشأ الآخر في إثره، كالنهر والأشجار على

شاطئه، وأن الأدب وُجد أولا وساعد على تقبل الناس لمعجزات الدين عن طريق الحكي والتصديق واللغة، رد عليهم سمعان الشنقيطي بلهجة مليئة بالتحدي: أنا لا أكره الأدب ولا أهاجمه، ولكني أمقت أنكم تقولون أن القرآن أدب، والله عز وجل أيضا يمقته، لأن الله عز وجل ليس كاتبا من كُتابكم، وفي الواقع أنتم تقصدون ذلك الأدب المليء بالتشبيهات المجازية الكاذبة، والقرآن الكريم منزه عن الكذب، سواء كان الكذب في ما رواه أو الكذب في الطريقة التي روى بها، ثم قال: لن أقول لكم أعطوني حدثًا واحدًا حكاه القرآن ولم يحدث بل أعطوني آية قرآنية بها مجاز وأنا على استعداد لو ثبت ذلك أن أقول أن القرآن لم ينزل من السماء ولم يأتِ من عند الله.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يجهر فيها سمعان بأفكاره بشكل كامل، وهذا ما نزع عنه سحر الواعظ الهادئ وجعله ينتقل للخطوة التالية في انحساره عن الجمهور: إنشاء مدرسة دينية ، قيل أن أتباعه جمعوا مالا هائلا لإقامتها على نفقتهم ، وقيل أن المال منحة حكومية بإيعاز من أمريكا، وقيل أن المال نفطي المنشأ، والدليل على هذا هي جذور سمعان اليمنية، الالتحاق بالمدرسة الناشئة كان بلا رسوم وظل هكذا حتى يومنا هذا، إقامة كاملة، وشهادة تجلب رضا الحكومة في وقت كان الدين هو الجواد الرابح، نوع واحد فقط من الدين، الذي يقول أن الحياة مستمرة، وأن رفع الحروف مرض مؤقت سيزول بزوال سببه، الروايات، وفي مسألة رفع الحروف كان الأدب خصما مريحا على أية حال، للدين وللحكومة.

سمعة مدرسة أ.سمعان كمؤسسة تعليمية قوية يقوم على رأسها رجل يطالب بتقويم الكُتاب وتنقية قلوبهم من وساخات المجاز كانت مفزعة، إقامة كاملة حتى لو كان بيتك على مرمى حجر، وهذا في حد ذاته مستحيل لأن أقرب مكان مأهول بالسكان يقع على مسافة نصف ساعة بالسيارة، تدريس شاق وفي كتب أجمع العالم

بأكمله أنها أصبحت أثرا من الآثار، في فكرها ومنهجها، والدراسة التي لا تؤهلك لأي شيء عدا التدريس في نفس المكان، أو الخروج للعالم بشهادة من مدرسة مخيفة يُقال أنها تفرض على روادها ارتداء قمصان بيضاء قصيرة وأغطية رأس مضحكة والتحدث بالفصحى.

قال (د) وهو لا يكاد يُفلت تعبيرات وجه حسين:

- أين رحت؟

- دارت برأسي افتراضات عدة، أولها أن رجل الدين في الإدارة هو سمعان.

لم يتفاجأ (د)، بل ابتسم وكأنه توقع هذا التخمين.

- وما دليلك على هذا الافتراض؟

- الشواهد كثيرة، الحكومة تسير على خطى سمعان، أو سمعان يسير على خطاها، التضييق على الكُتاب، وقانون تجريم كتابة الروايات التي يُقال أنها بصدد إصداره.

- حتى الآن الحكومة لم تمنع الروايات.

- ولكنها تحاصرها.

- كل هذه أوهام يا حسين، بمجرد أن تفتح عينك ستعلم أن الحكومة تحاصر أشياء كثيرة ليس أولها ولا آخرها الروايات.

تنهد حسين كأنه يخوض نقاشًا صعبًا ومفروغًا من نتيجته.

- إذن أنت تريدني أن أقتل سمعان؟

- لم أقل ذلك، خيرتك بين قتل سمعان وقتل شخص آخر.

صاح حسين متسخطا:

- ومن الشخص الآخر، تلك الفتاة؟، ما أهميتها، لم أسمع عنها من قبل، كأنك تخيرني بين أن أنفخ في الشمس أو أبحث عن عود كبريت منطفئ، كلا المهمتين أصعب من الأخرى.

- هذه محنتك أنت يا حسين، وهذا أقصى ما أستطيع أن أخبرك به، اسمين، لا ذنب لي أن أحد الأسماء معروف ومشتهر، قد تكتشف ببعض من البحث أن سمعان شخص آخر غير ما يروج لنفسه وغير ما تروج له وسائل الإعلام.

قام (د) ونظر إلى رأس حسين البائس بسخطه.

- والفتاة، إيلات، كيف أعثر عليها؟

- هل تعلم في أي قرن نحن؟، العالم ملئ بمصادر المعلومات يا حسين، لن تعجز عن ذلك، وعندما تقوم بمهمتك ثق أنك ستجدني بجوارك.

***

## إسماعيل- الكاتب

خُلقت من لحظة رهبة، فبذور الرجال تُخلق بظهور آبائهم في لحظات الرهبة والفزع والثبات والغيظ، أما بذور النساء فتُخلق في لحظات الفرح والشهوة ورقة القلب، ولن تكون اللحظة التي نتأت فيها بظهر جدي إلا لحظة نزوله الى بئر الماء أول مرة، الافتتان والسعي خلف السراب والرغبة في إنقاذ ما لا يمكن إنقاذه من العالم القديم والحنين إلى وجود جيل جديد لم يأتِ بعد.

حكى لي جدي عن ذلك، بسبب خوفه من نداهة الماء ظل شهورا يقاوم إغراء النزول لصيد الأسماك التي تضطرب في الماء الضحل كصيد سهل، سمع جدي اسمه سبع مرات، مدهونا بالود الكاوي لأعصاب الرجال، ربما لو كان اسمه في درجة موسيقية أخرى لاستجاب وهلك وحمل معه احتمال بذرتي إلى الفناء، ولكن النداهة لم تعرف كيف تُلحن اسم (عارف).

أما اسمي فكان من الدرجة القاتلة، ولسنوات ظل جدي يحذرني من صعود البيارة ودلدلة رأسي هناك، لا تُدلّ رأسك في البئر يا إسماعيل، ستسقط، فأجيبه مطمئنا: لا تخف يا جدي، لن أسقط، يواصل جدي تحذيراته ولا يأبه بتطميناتي: ستزل قدمك، الرأس أثقل من الجسد، ثم صارحني ذات يوم بمخاوفه، الأصوات يا إسماعيل، لو عكفت على الاستماع لها ستصيبك بالجنون.

أوامر جدي كانت صارمة، والفضول أقوى، في الأوقات التي أمنت فيها من رؤيته ذهبت فغمست رأسي في سكون البيارة، رأس مدلى كقارع في ناقوس جرس من حديد، لا يصخب الجرس إلا إذا صخب القارع، عندما يصيبني الملل أصرخ في البئر، هوووووه فيفط صوتي من الآبار الأخرى، أتحمس فأصرخ صرخة أخرى، ما بين صرختين

وذات مـرة سـمعت الصـوت، زقزقـة عصافـير، ظننـت أن انحسار منسـوب المـاء أغـرى بعـض العصافـير فدخلـت في القنـوات وبللت أجنحتهـا، ومـع الزقزقـة توهمـت سـماع خفـق أجنحـة مبللـة في الماء، تريثـت وأنصـت أكـثر وعندئـذ زال الوهـم، انثالـت الأصـوات ككثيب مـن رمـل، لـم يكـن صوتـا واحـدا، سـحرني تنوعهـا، موسـيقا تـروح وتجئ كالمـوج، ونُتَـف مـن خطبـة زعيـم ميـت مـن القـرن المـاضي في شعب مـن الأشـباح المحبطـين، وامـرأة تغـني، وصراخ طفـل رضيـع، وخفقات أجنحـة ملايـين مـن الفراشـات، وصـوت كطشطشـة الأرز في الزيـت عند تحمـيره، ودق كأنـه دق ملاعـق خشـبية في قـاع مـلئ بالمـاء، وكأن أشباح المـاء تلعـب في مـؤشر راديـو كـوني ممتـد في التاريـخ، أهـذا هـو الصوت الـذي جعـل جـدي يـنزل؟.

نـزل جـدي إلى البيـارة أول مـرة في ظهـيرة يـوم مـا قبـل أن أولـد، عندما حـكى لي لـم يكـن قـد نـسي اليـوم ولا اللحظـة، ارتعـاد يـده وانـزلاق قدمـه مرة تلـو أخـرى، ورائحـة المـاء، منسـوب المـاء في النيـل كان أقل مـن مسـتوى السـحب، يـوم مـن الأيـام النـادرة الـتي لا تـدور فيها مضخـة السـحب البعيـدة، والصـوت في البيـارات يكـون مضخمـا وأوضح مـا يكـون قبـل أن يعبئهـا المـاء.

كـم مـرة حاولـت أن أتمثـل إحسـاس جـدي الـذي عجـز عـن وصفه لي، رائحـة المـاء وارتعـاد ظهـره مـن الخـوف، والسـكون الـذي تضخمه جـدران البيـارة، في وجـود مـاء تـشرب بلايـين الأصـوات وهـو يجوب الأرض، الابتهـالات واللعنـات، الصرخـات والتنهـدات، المـاء الـذي حمل الـبرودة والحـرارة وغسـل البـشر وطهرهـم مـن خطاياهـم ثـم صعـد إلى الله في السـماء، كصفحـة بيضـاء، لا وشـاية ولا رقابـة، في البيـارات راودت جـدي أكـثر الأسـئلة جنونـا وأقـل الإجابـات شـفاء للصـدر، لمـاذا تخلى الله عـن البـشر، لمـاذا كرههـم، وهـل طلـب مـن المسـجلين أن يطـووا دفاترهـم ويصعـدوا، الصحـف الـتي تسـجل الذنـوب والحسـنات، هل

صار البشر عددا، يُضافون ويُطرحون، بينما الحياة فيهم لم تعد إلا مجرد دوائر متداخلة، دائرة التنفس، دائرة الدم، دائرة الهضم، والموت حيوان قبيح يخرج من باطن الأرض فيلتهم جزءًا من دائرة فيهم فيسقط الإنسان صريعا، يتركه يتعفن على وجه الأرض، وأن التعود فقط هو الذي يجعل الناس مستمرين في وضع أمواتهم تحت الأرض في توابيت أو أكفان.

اللحظة الكافية لخلقي كبذرة في ظهر جدي لم تكتمل بنزوله إلى البيارة، بالفزع الذي نجم عن تذكره أنه وحده، كنقطة من الحبر في بحر من الصمت الأبيض، لا ملائكة ولا شياطين، ولكن في زاوية بعيدة من قلب جدي ولدت شفقة على الأسماك التي أخذت تضطرب وتضرب قدميه بذيولها وتعضه في جنون بعد أن حبسها قلة الماء وانحساره، وكادت تختنق، ولا علاج لذلك، تقريبا، إلا ما فكر فيه للتو ووضعه حيز التنفيذ.

انحنى جدي وأخذ ينتشل الأسماك ويقذفها خارج البيارة، محاولاته الأولى لم تكن بالقوة والمهارة الكافيتين، كانت الأسماك تصطدم بالجدار وتعود إليه، إلى وجهه وعنقه وصدره، تسقط أسفل قدميه في مخاضة الماء، فيعاود انتشالها، عندئذ، أدرك جدي أن الحياة مستمرة، وابتهج لذلك، في لحظة البهجة الملتبسة تلك، طفوت من العدم إلى الحياة في ظهر جدي.

***

سألتني الدكتورة عالية:

- هل جربت النزول إلى البيارة؟

- لا، لم يسمح لي جدي بالتجربة، رغم إلحاحي، في كل صباح توعك فيه أو تكاسل رجوته: دعني أنزل بدلا منك إلى البيارات، كل شيء كان يتغير بيننا إلا رفضه.

- ولكنك نزلت يا إسماعيل.

- في البداية حاولت أن أفلسف رفض جدي.

- كيف؟

- قلت لنفسي أن بقائي في الأعلى وإيماني أن لكل مكان أهميته جعلني أكتسب معرفة جديدة، النوع الغالب في الأسماك التي تحتجزها البيارات رسالة من رسائل النهر، فعندما تكون القراميط كثيرة يكون منسوب الماء في النهر أقل مما يكون، قد يعلو منسوب الماء خلال ليلة واحدة، لكن إذا غلب الشبوط على بقية الأسماك فهذا يعني أن المنسوب يعلو باطراد وتثاقل، سمكة الشبوط أو المبروكة كما يسميها جدي أخت منسوبها، ماء قليل وقناعة بالحياة تشبه قناعة الفقراء، تنام على العشب بمجرد أن تفارق الماء، تقع في وهم الموت ولا يصدر منها نأمة واحدة، وعندما تتحرك تصدر منها حركة مريبة، مضحكة في أغلب الأحيان، رأيت إحداها ذات مرة تقضم العشب بجانب فمها كبقرة صغيرة، سمك البوري لا يأتي إلا إذا وصل المنسوب إلى أعلاه، سمك البوري لا يحب منسوب الماء القليل، ولو اخترت أن أكون سمكة سأختار أن أكون سمكة بوري.

ثم تنهدت كأنني تعبت من الكلام فقالت الدكتورة عالية همسا:

- أكمل يا إسماعيل، أريد أن أسمعك.

- اختصار الموضوع، لابد أن النهر عند بداية خلقه كان شيئًا زائدًا عن الماء، كما أن الكاتب شيء زائد عن الطين، قال الله لهما كن فكانا، لم يتوقف النهر عند كونه ماء فسبحت فيه الأسماك، والكاتب تجاوز كونه كلمة فخرجت منه الحكايات.

- متى نزلت؟

- كان متبقيا على اختباري مدة لا تزيد عن شهر، وإذا لم أنزل إلى البيارة قبل هذا الشهر فلن أنزل في حياتي، في لحظة لا أنساها قررت أن أضرب بتحذيرات جدي عرض الحائط.

وأنا أحكي للدكتورة عالية بكلمات مختصرة كان الصباح حاضرا في ذهني، ندى الفجر فيه يشبه الشيب على خصلات العشب الأخضر، وبركة واحدة مني تناثر الماء لأعلى ورسم أقواسًا صغيرة من ألوان الطيف، لم يحذرني جدي كما اعتاد أن يفعل: هذا الماء أسوأ من الصابون يا إسماعيل، قد تنزلق، أوليته ظهري، لم يعد يشركني في طقوس خلع ملابسه، يأمرني أن أستدير ويخلعها ويرصها لنفسه على جدار البيارة الرئيسية لكيلا يبللها الندى.

بعد لحظات أتى صوت جدي رنانا باردا من داخل البيارة: مبروكة يا إسماعيل، مبروكة صفراء سمينة لعينة، وقراميط كبيرة.

ثم بدأت الأسماك تقع حولي وجدي يخرج مسرعا من بيارة إلى أخرى، منحنيا يداري بكلتا يديه على عورته، ثم رأيته يهبط في البيارة الثالثة.

أهملت الأسماك وهي تنبض خياشيمها فوق العشب كقلبي الواجف، خلعت حذائي وصعدت على سور البيارة بقفزة واحدة، نصف متر هو ما يفصل بين سور البيارة وأول درجة في السلم الهابط، تشبثت بالجدار الزلق حتى أحست أصابع قدمي ببرودة حديد الدرجة الأولى، وظللت متشبثا لا أستطيع النزول ولا العودة، النصف متر بدا لي الآن وكأنه يطل على هاوية، دقائق طويلة علمت خلالها أن الشجاعة ومهارة اليد لم يخلقاني بقدر ما خلقني الخوف واللسان الملتات، حسدت نصف دستة من الكائنات الزاحفة لا يصل وزن أمهرها في الصعود إلى وزن العرق الذي فاض به ظهري.

كيف صعدت؟، هل رآني جدي وأنا أخرج، كلها أسئلة لا إجابة لها، ما أتذكره أنني وجدت نفسي مستلقيا على سور البيارة، ووجهي مغمور بالشمس، لن أنسى أبدًا هذه اللحظة، امتلكتها لعمر كامل، وتجولت فيها للأمام والخلف وكأنها بطول المسافة بين الشمس والأرض، الأصوات والروائح المصاحبة لها، كانت اللحظة لحظة

تشغيل مضخات السحب، ولكن الرائحة لم تشبه تجشؤ كائن مائي، بدا الأمر لي كما لو أن شخصا ما أزليا فتح أمام أنفي صندوقًا مغلقًا مليئًا بأشياء العالم القديمة، الأشياء التي لم تتغير في هذا العالم ولا يمكن تغييرها أبدا، شممت أول روائح البحار عندما حفرتها الجن لسيدنا سليمان وهو ميت فوق عصاه قبل أن تأكلها الأرضة، رائحة خشب شجرة بلوط حديثة القطع على كفي حطاب مرهق، دهم قلبي عشق السنونوات للطرق الأسفلتية، وحميمية الأماكن التي تخبئ فيها الدبابير اللاسعة أعشاشها، شعرت بسرمديتي وقدمي، ليست سرمدية نجم أو شمس وليست سرمدية الكائنات الأولية في تشابهها وتكرارها، بل سرمدية الدهشة في الأمور التي مهما تكررت لا تزال تدهشنا، كالمعارك الأزلية بين قبائل النمل، ورؤية ثعبان طائر فوق حصاد جديد لسنابل قمح في ظهيرة قائظة، ودهشة تفاصيل مطاردة ليلية.

نزلت من فوق السور ومشيت، ترنحت، كدت أن أسقط لولا أن ملت بجسدي الواهن بصعوبة إلى الخلف، تعامدت الشمس على ظهري وكأنها تدعمني، مثل كف مارد طيب لزج الأصابع، رأيت رعاش الماء يطير فوق رأسي عندما بدأت في الانحناء والهمس كأنما أصابني مس، نزلت من عيني الدموع بلا جهد وشعرت بالراحة التي بُعثت في قلبي، وعندما صعد جدي مسرعا رآني، لا يتحرك على مدى الرؤية إلا سمكة بلطي وحيدة تتقافز حولي أما أسماك المبروكة فمتناثرة تلفظ أنفاسها بين العشب والسماء، وكنت أشبهها، أصفر اللون ألتقط أنفاسي بصعوبة، في سلام وبعينين شاخصتين.

***

من الصعب أن أتمثل جدي في عصر كالذي عاشه بدون الكثير من الحيرة، والتردد، أما المشاعر المباشرة كالكراهية والحب فقد تبقى منها مخزون هائل كان على الجيل الذي نشأت فيه أن يستعملها

ويستنفذها، هذا يشبه أن تنفذ الفكة من جيبك ولا تجد في جيبك إلا المال ذا الفئة الكبيرة، بينما أنت مضطر للتعامل مع البضائع الصغيرة، لتأكل وتشرب وتعيش، الحيرة والتردد لازمان لنضع مشاعرنا في نصابها القديم، المتوارث، لنقول عن الكراهية أنها سيئة، والحب أنه جيد، ولكني أجزم أنه لا أحد من جيلي يستطيع أن يصف مشاعره هكذا، فقد يقول عن الكراهية أنها ضرورية، كالمشرط وكالقلم الأسود، بنفس ضرورية وجود جلد البشر والصفحة البيضاء، فالكراهية هي ما استخلصتني من جدي، الأمر أشبه بالولادة، انتزاع الضوء من شعلة بينما لا تزال دافئة حية.

تخيلت جدي مرارا - لا أنكر ذلك - طافيا في طرقات مدينته الصغيرة الغارقة في ذكرى الحبر والحروف التي هربت من الصفحات، العقول تتجه للهاوية عن عمد، والجميع قد انفتحوا أمام هواجسهم الصغيرة عندما وجدوا أن أكبرها لم تقتلهم، تُفتح نافذة مطلة على شارع عمومي ويسارع جدي بين خطواته قبل أن تنهمر منها شتائم لا حصر لها، يصعد سائق سيارة الرصيف محاولا دهس قطة بلا داع، يسير رجل عار تماما في وضح النهار ثم يجلس في ميدان الساعة ضاما فخذيه مبتسما للمارة وكأنه مؤسس المدينة.

ولكن جدي ضرب كل هذه التصورات في مقتل، أخبرني أنه بعد شهر واحد عادت الحياة في الشارع كما هي، وكان أي نقاش يدور حول الخراب نقاشًا يستفز الناس، رغم الحقيقة الماثلة، القيامة ستقوم، غدًا أو بعد غد، العالم يرقد تحت جهاز التنفس الصناعي.

بدأت الأشياء تتغير بسرعة لدرجة لا تسمح باستيعابها، البرامج وقنوات التلفاز ورجال الدين وشكل الحكومات وحدود الدول الجغرافية وطعم الملح والمزاج العام، حتى السماء تواطئت مع الأمر أو تواءمت، السحاب لم يعد متقنا، مثل قطن أبيض مندوف مُلقًى على أرض لم تذق الماء منذ دهور، لم يعد يحاكي أشكال

الكائنـات بـل بـدا أكـثر شـبها بضربـة فرشـاة غسـيل، وكأن مـن يُشـكله حكـم عـلى أعـين مـن تبقـى مـن البـشر بالجفـاف العاطفـي ولـو حـتى في سـحابة عابـرة.

لـم يكـن الأمـر مجـرد كتـاب أو ديانـة أو معتقـد، كان الأمـر متعلقًـا بالاطمئنـان، بانتظـار جـدي للمـوت كل ليلـة وهـو يوسـد رأسـه، وباليـوم الجديـد الـذي يهبـه الله للبـشر إذا أشرقـت الشـمس، أحيانـا كان يحلـو لجـدي أن يتخيـل نفسـه عـلى ديـن غـير الإسـلام، يهوديًـا أو مسـيحيًا، بالضبـط كمـا لـو كان زائـرا عابـرا مـات بأزمـة قلبيـة عـلى أريكتـه وفي بيتـه، ولكـن حـتى هـذا لـم ينقـذه مـن التـورط، فحـتى غـير المسـلمين أصابتهـم الـروح العامـة، انجرفـوا معهـا واعتـادوا كمـا اعتـاد النـاس عـلى الزهـد في ممارسـة الأمـور الفرعيـة المبهجـة، شراء الزهـور وري أصـص الـزروع والجلـوس في الشرفـات.

أصـاب النـاس هـوس شراء الأشـياء القديمة المسـتعملة (الأثـاث، أدوات المائـدة، أجهـزة راديـو)، الكتـب بشـكل خـاص اصطـادت هـوس العـدد الأكـبر مـن النـاس، اشـترى النـاس الكثـير مـن الكتـب دون أن يحبوهـا، وكأنهـا علاقـة اضطراريـة أنشـأها رفـع الحـروف، بعضهـم بـدأ يبيعهـا، والبعـض بـدأ يشـتريها، بـلا حـب وبـلا كراهيـة، فقـط قـرار وانحيـاز، وكأن مـن أرادوا الاسـتمرار في الحيـاة اشـتروا الكثـير مـن الكتـب، أو العكـس، أيًا كان، المحصلـة واحـدة، صـار الكتـاب القديـم أثمـن بكثـير مـن الكتـاب الجديـد، وكأن الكتـب القديمـة تحمـل سرا يحـاول الجميـع اكتشـافه، ليـس في العبـارات ولا الكلمـات ولا الفكـرة، بـل في الوجـود، في البقـاء.

لـم يسـتثن جـدي نفسـه مـن هـذا الجنـون، سـار في طرقـات المدينـة باحثًـا عـن كتـب قديمـة ليشـتريها، متحسسـا خطواتـه في طريـق مـزروع بألغـام الكسـاد والخسـارة، يعـبئ قلبـه بشـكاوى بائعـي الكتـب: لـم يعـد النـاس يشـترون الكتـب الجديـدة.

وكأن جـدي في مهمـة مقدسـة لا يعلـم الغـرض منهـا ولا مـتى ستنتهي،

تكدست الكتب في غرفته حتى ضاقت، لا يبيعها ولا يقرأها، وطالما أن التخيل في الديانة لم ينقذه فلينقذه التخيل في القراءة، يتخيل نفسه قارئًا، متعة شراء الكتب تشعره بآدميته، كأنها تفتح بابا خلفيا لمشاعره إلى مستقبل سيصنع لهذه الكتب أرفف، ويجعل للأرفف غرفة صغيرة وكرسيًا مريحًا، وعلى هذا الكرسي سيجلس ويدفع بقدميه في صدر العالم المترب ويقرأ.

يوميا كان يقوم بفرز رصيده من الكتب، يضعها حسب أحجامها في صفوف متساوية، ويفتش بين صفحاتها عن زهور ذابلة وعملات ورقية وقصاصات قديمة وإهداءات وهوامش، عالم لا ينفذ يحتسيه على مهل، وكأن الكلمات الجميلة من نصيب قارئ الروايات، والتأريخ أيضا، والتعليقات المجنونة التي تهدم تاريخا واضحا لتبني عبثا أو تهدم عبثا وتمجد أطلالا أثرية، الحياة على محك رواية، والكتب التي ظن كاتبوها أنها ستغير كافة المفاهيم فذهبت أدراج الرياح.

في وقت ما - أخبرني جدي - كان الناس يتهادون بالكتب ويؤرخون حياتهم بشرائها، (بعدد هذه الورقات والكلمات والأحرف سنوات أعشقك فيها) (إلى ابنتي العزيزة لتعلم أنني لم أنسَ أبدا كاتبها المفضل) (اشتريت هذه الرواية في اليوم الثاني من اعتصام التحرير (اعتصام الكرامة) يناير ٢٠١١)، (هذه الرواية كتبها نجيب محفوظ ليعلم القاصي والداني أن نجيب محفوظ لا يفهم في الرواية إلا كما يفهم فلاح مصري في الصينية أيام كونفوشيوس)، (هذه الرواية شهادة على عصر كامل) ثم علامة دهشة وبقلم آخر تعقيب آخر (لا أنصح بقراءة هذه الرواية إلا للابسي الحفاضات...).

حمل جدي هذه العلاقة المترددة بينه وبين الكتب إليّ، لأقول حُكمي، لأصرف لها الكثير من الحب أو الكثير من الكراهية، عشرة أجولة مبطنة بالمشمع المضاد للمطر، عثرت عليها في الدولاب القديم عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، مليئة بالكتب، كتب

في اللغـة وفي التفسـير، كتـب في علـم الحيـوان والنباتـات والاقتصـاد، كتـب في الخطـط الناجحـة للفـوز في لعبـة الشـطرنج والطقـوس الـتي يجـب عليـك أن تمارسـها لتصبـح بوذيًـا، ومجـالات أخـرى.

قمت بفـرز الأجولـة، صرفـت كثـيرًا مـن الحـب للكتـب الـتي تحتـوي على حكايـات، وكثـيرًا مـن الكراهيـة للكتـب الأخـرى، لـم أجـد مجـالا للـتردد، نقلـت الروايـات إلى غرفـتي ورصصتهـا أسـفل سريـري، وبـدأت أقرأهـا خفيـة عـن جـدي.

عندمـا بـدأت القـراءة اكتشـفت أن هنـاك مـا لا يقـل عن عـشر صفحات في البدايـة ومثلهـا في النهايـة، أُنتزعـت انـتزاع يـد قاسـية، كأنهـا يـد جـدي الـذي اعتـاد قـص ذيـول الأسـماك، لـم تشـغلني البدايـات كثـيرا، البدايـات يمكـن تخمينهـا أو تجاهلهـا، ولكـن النهايـات لا يمكـن تخمينهـا، قـص ذيـول الكتـب وزعانفهـا لا تجعلهـا تمـوت كالأسـماك، إنهـا تـترك أشـخاص الحكايـة متحركـين بداخـلي للأبـد، حـتى أقـوم بتأليـف نهايـة لهـم بنفـسي، كنـت آنـذاك بسـيطا، أشـعر باللـذة في إطفـاء شـمعة لإنهـاء حديـث بـين شـخصين منهكـين، أو قتـل شريـر بـين جماعـة مـن الطيبـين، أو قيـادة جماعـة مـن المغامريـن للعثـور عـلى كنزهـم.

وقـد قمـت بهـذا كثـيرا، بعـد كل مـرة قـرأت فيهـا أحـد كتـب جـدي هرعـت إلى حيـث البيـارات العشريـن، رقـدت بظهـري عـلى العشـب بحيـث أسـتطيع أن أرقـب جيـدا تأثـير النبـض القـوى لقلـبي القلـق في اهـتزاز المرئيـات حـولي، وأتخيـل النهايـة، أؤلفهـا، متسـائلا بحماقـة: لمـاذا انقرضـت هـذه المتعـة مـن العالـم، ومـا الـذي دفـع البـشر لاحتقارهـا وتجريمهـا؟

***

كانوا يخرجوننـا سويا، إلى السـاحة المغلقـة، أنـا وحسـين، مـرة واحـدة قبـل أن يحـاول حسـين قتـلي، أسـقطني ووضـع ركبتيـه على صـدري وشرع يُحكـم كلتـا قبضتيـه عـلى عنقـي، أثنـاء ذلـك لـم أقـاوم، في جـزء مـن

إقامتي هنا أردت أن أموت ولكني لم أجرؤ على فعل ذلك بنفسي، تجربة كهذه لا بأس بزخمها، أن يقتلك أحد دون أن تشغل نفسك بالدفاع، تبدأ في النظر إلى تجعد ملامح وجهه وعينيه اللتين يأخذ بياضهما في الازرقاق بفعل الاختناق، تراقب الكراهية وكيف تندفع كالحبر السام من تلك الأبواب الهدبية التي تُشكل القزحية، وتغذي إنساني العينين لتتجسد فيهما الكراهية كالرمح، ولكن نظراتي الحائرة فكَكت قبضتيه من فوق رقبتي قبل أن يجذبه الحارس، بعدها عرفت أنهم خصصوا له من وقت الصباح إلى الظهيرة وخصصوا لي وقتًا من بعد القيلولة إلى الغروب.

لماذا يكرهني حسين بهذه القوة وأنا لا أعرفه، ولم ألتقِ به إلا مرتين فقط، في مكالماتي الهاتفية الطويلة مع الدكتورة عالية سألتها، فلمحت لي أن حسين ربما مر بتجربة جعلته يتوهم أنني عدو له، ولكني لم أقتنع، فالكراهية التي رأيتها في عيني حسين، ووجه إيلات، وصلف سمعان وكبريائه، كل هذا ليس وهما، وعندما أخبرتها بذلك سكتت ولم ترد.

في الرسائل التالية أخذت دكتورة عالية ترسل لي نسخًا ملونة للوحات فنانين عالميين قائمة على أشياء في غير موضعها، سمكة تطير في الهواء، طيور تسبح في الماء، كائنات شريرة في مهد طفل، كأنها توحي إلي أن أعثر على الشيء الغريب في المشهد.

ولكني لم أفكر في الأمور بنفس الطريقة التي تفكر بها، أتذكر والأحداث لا تزال طازجة في قلبي، كيف أن التشابه - لا الغرابة - لعب دورًا هائلًا في الحكاية ، التشابه الذي هو دليل على الضعف العقلي للبشر، بمعنى آخر وكما قلت للدكتورة عالية:

- إن كان لله عز وجل أن يكتب رواية فسيجعل طرق عذاب أبطالها بعددهم، ستكون الأماكن التي يعيشون فيها مختلفة كاختلافها في الحقيقة، التكرار والتشابه صنيعة بشرية.

قالت بحذر:

- هل تعتقد إذن أن ما حدث لك كان مرتبا كأنه حكاية من خيال كاتب روائي؟

- لا، أقرب من هذا، وإن كنت لا أنفي التدخل البشري.

- إذن أنت تشك أنك تعرضت للخديعة؟

- لا، شئ أكبر من مجرد خديعة.

***

تنبهت لذلك وأنا أحكي للدكتورة عالية عن أمنية جدي بالقراءة وانتظار نهاية العالم جالسا على كرسيه، نقاط التشابه، غرفة الضيافة في بيت جدي، غرفة الضيافة في القصر، وغرفة المكتبة بالمدرسة.

عادة ما تكون الأماكن التي نُعدها لزيارة الآخرين لنا متسقة مع أجسادنا وملابسنا وطريقة تصرفنا مع الآخرين، لتؤدي رسالة نرجو منهم أن ينتبهوا إليها، وهذه الرسالة في غرفة ضيافة إيلات لم تكن تتكلم عنها، كانت موجهة إليّ لتخبرني بشيء عني.

لا أنسى يوم أن جاءني جبر أول مرة وأخبرني أن إيلات تريدني أن أسلمها النص الذي كتبته بنفسي في غرفة الضيافة فذهبت.

ولجت إلى غرفة واسعة، غير مرتبة، مثل مجرى نهر في موسم الجفاف، مليئة بالأثاث الذي يدل على كونها غرفة ضيافة وطعام من الدرجة الأولى، منضدة كبيرة تكفي لجلوس خمسين شخصًا على الأقل، المقاعد مرصوصة على جانبيها مثل ضيوف وقورين، في حضور مقاعد أخرى كثيرة مختلفة، مقاعد متنوعة مبثوثة في الجوانب تحمل وحي أمزجة مختلفة للجلوس، كثيرة في نهاية الغرفة كما لو كان سيال الأمور بالغرفة حمل عددًا لا يمكن حصره من المقاعد المختلفة، خليج هادئ، وفي بداية الخليج كانت إيلات جالسة على مقعد هزاز من الخشب.

- ادخل يا إسماعيل، مرحبا بك، لماذا تنظر حولك كأنك مندهش؟

قلت في استغراب:

- أعترف أنني أول ما رأيت القصر هالني حجمه من الخارج، ولكني لم أتصور أبدًا أن تكون الغرف فيه بهذا الاتساع.

ضحكت إيلات بفخر وقالت:

- لا تخدعك هذه الغرفة، فغرف النوم ليست كبيرة كهذه. هناك قاعدة عامة تقول أن الطرق والممرات بالقصور أكثر وأوسع من الغرف، هكذا الأغنياء يا إسماعيل، يشغلهم الوصول إلى بعضهم البعض أكثر مما تشغلهم الإقامة مع بعضهم البعض.

ابتسمت ولم أجد ما أرد به فقالت:

- أرجو أن لا تضايقك عادتي في ترديد اسمك كثيرا في حديثنا. هذه عادة عندي لكيلا أنسى الأسماء الجديدة.

- لا عليكِ، هذا يسعدني.

- هذه الغرفة هي غرفة العائلة بأكملها، يأتون هنا في العيدين ورأس السنة ويوم السابع والعشرين من رمضان، يأكلون ويصخبون ويحملون ضغائن جديدة ضد بعضهم البعض وينصرفون، وعندما يريدون مناقشة موضوع ما هام يأتون أيضا، زيجة معقدة أو طلاق ناتج عن هذه الزيجة، بيع أسهم شركة ما، يأتون ويتناقشون وتكون الضغائن مثل فوضى خلاقة، لو أن بصيرتك حادة لأبصرت توابيت أشخاص عدة ولكنهم دفنوا في أماكن متعددة رغم أنهم ماتوا هنا، كالغرق.

استغرقت في التفكير قليلا ثم تابعت:

- في غير وقت هذه الاجتماعات الفلكية سمحت لنفسي أن أستولي على هذه الغرفة، كتبي وهذه المقاعد، والموسيقى الخاصة بي، إنه انتصار من نوع خاص على نظام القبيلة.

ثم أشارت حولها:

- الكراسي كثيرة كما ترى، لا تحتاج إلى أن أشير لك إلى كرسي لتجلس عليه، أرجوك كن على طبيعتك واجلس على الكرسي الذي يروقك.

اخترت لنفسي مقعدًا مريحًا، ليس ثقيلا، حملته لأجلس على يمينها، غير بعيد عنها، ابتسمت لاختياري وقالت:

- اخترت كرسي المفضل عند قراءة الشعر، نيرودا ومحمود درويش ولوركا وبعض المسرحيات الكلاسيكية لأسخيليوس وأحيانا شكسبير، طبعا لم تسمع عن هذه الأسماء من قبل، لا بأس، لم يعد أحد يسمع عنها، على فكرة، الكرسي الذي اخترته، لا بأس باختيارك، رغم أنه لا يتوافق معي، سأخبرك بأمر، لقد استدعيتك إلى هنا للحديث معك في موضوع بعينه، ولكن اختيارك للمقعد يغير من خطة حديثي تماما.

ابتسمت في دهشة فضحكت هي وقالت:

- لا تندهش، أنا امرأة مزاجية، لا يهمني أن أصل لهدفي بقدر ما يهمني أن أسير في الطريق الصحيح، وهذا يأخذنا لاحتمالات عديدة، فقد أجلس أنا في المرة القادمة على مقعد آخر وتجلس أنت على المقعد الصحيح، حينها لن يكون مناسبا أن ابدأ أنا بالسؤال عن الموضوع الذي أريد سؤالك عنه ما لم تتطوع أنت بالحديث.

ثم تنهدت وابتسمت كأنها أرهقت من الشرح الكثير:

- هل تفهمني؟، الحوار يا إسماعيل يشبه طريق سيارات في اتجاه واحد.

تطوعت قائلا:

- هل تريدين أن أقوم وأجلس على المقعد المناسب؟

- لا لا، بالعكس، أنا أستمتع بالأمر وأريدك أنت أيضا أن تكون مسترخيا، العالم لا يتعجلنا، نحن بائسان لدرجة تجعله لا ينتبه إلي

ـحصورَ منسـ جنسـين في غرفـة ضيافـة لا يسـتطيعان بـدء موضـوع ـم بسبب حتيـازهمـا للكـراسي.

- ولكن، هنـا مقاعـد كثـيرة كمـا أرى وهـذا يجعـل احتمـال أن نصـل موضـوع ـنـي اسـتدعيتني لأجلـه مسـتحيلًا، خاصـة لـو أنـني انتويـت ر أحتـر نفـس هـذا المقعـد في المـرة القادمـة.

- سيكون هـذا تصرفًـا ذكيًـا منـك، ولكـن لمـاذا سـتفعل ذلـك عـلى أيـة حـ ل؟

قت عندئذ بلا حذر:

- ربما أحب الحديث معك فأسعى أن لا ينتهيَ الأمر سريعا.

ولكنها لم تتفاجأ بجرأتي بل قهقهت فغام قلبي في فراغ موجع:

- هـذه حكايـة مـن واقـع عالـم معاكـس لعالمنـا، لـم يُخلـق بعـد ذلـك رجـل الـذي يمكـن أن يحـب رفقـة امـرأة أكـثر منـه خـبرة بالحيـاة، وفـوق ذلـك ذكيـة ومثقفـة مثلي.

- ومـا الـذي يمكـن أن يحبـه الرجـل في المـرأة إذا كانـت خاليـة مـن هـذه الصفات؟

فيمـا بعـد سـأعرف نـوع المـرأة الـتي يثـير حماسـها الخاطـرة أكـثر مـن الحـب، منعـا للتأويـل وإن كان مفيـدا لي في البدايـة، ولكـن الاشـتباك هكـذا، اشـتباه، فمثـل فنـار أضـاء وجههـا خاطـر سريـع ثـم انطفـأ وقالـت في ابتسـامة تحمـل مـن الخطـر أكـثر مـن الخـبرة:

- المحـشي يـا إسـماعيل، المحـشي لـه تأثـير عظيـم عـلى الرجـال، لـو صنعتـه امـرأة غبيـة حمقـاء لعشـقها زوجهـا.

ثم استطردت:

- ولكـن انتظـر، ثمـة امـرأة في تاريـخ الأدب اسـتطاعت أن تجعـل رجـلاً يحـب رفقتهـا ويؤجـل ذبحهـا عـلى يـد سـيافه رغـم تفوقهـا عليـه بالعقـل، وذلـك عـن طريـق مسـامرته بالحكايـات، ولكـني لـم أصـدق أبـدا

هـذه الحكايـة، مـن يعلـم! ربمـا أخفـوا الحقيقـة والمتمثلـة في أنـه حتى شـهرزاد كانـت تصنـع لشـهريار المحـشي أو ترقـص لـه رقصـا شرقيـا تهز فيـه أردافهـا المثقفـة، ولكـن الحكايـة عـلى أيـة حـال تقـول أن هـذا الرجل ابتلـع الطعـم وتحـول خـلال ألـف يـوم مـن عشرتهـا مـن رجـل سـاذج أقسـم ذات يـوم أن يذبـح جميـع النسـاء لخيانـة امـرأة واحـدة إلى نـوع آخر مـن الرجـال النمطيـين يحـب النسـاء والحكايـات والأرداف المثقفـة، لأن شـهرزاد خَصَّتْـه بسـكين حكاياتهـا، وهـذه هـي وظيفـة الحكايـات، أن تخصينـا.

ابتسـمت وقلـت محـاولا تغيـير الموضـوع لأمنـع موجـة مـن الغضـب بـدأت تمـس حديثهـا:

- عـلى أيـة حـال يمكنـك أن تسـتدعيني مـتى شـئت، هـذا ليـس خيـارا متاحـا لي، تحـت أمـرك في أي وقـت.

- أكـره هـذه الجملـة، لدرجـة أنـني لـو كنـت أعـرف أنـك سـتقولها مـا استدعيتك، أنـت الآن خـارج إطـار وظيفتـك يـا إسـماعيل، ألا تـرى أنـك منـذ أتيـت ونحـن نتحـدث عـن الكـراسي واحتمـالات الجلـوس، وكمـا تـرى هـا هنـا مـن الكـراسي احتمـالات أكـثر ممـا يمكـن أن يكـون مـا بـين سـيدة ثريـة مطلقـة مثـلي وموظـف عندهـا مثلـك، لـو أنـني أعاملـك كموظـف لمـا طلبـت منـك الجلـوس ولسـألتك مبـاشرة.

كان هــذا حــوارًا مرهقًــا، بــدت إيــلات كــبركان يريــد أن ينفجــر بــأي طريقــة، وكل مــا كان عــليّ أن أنتقــل مــن الأماكــن الــتي ســتنفجر منهــا بحماقــة، أن أســألها لأزيــل أثــر جملــتي الســيئة:

- وما حكاية هذه المقاعد؟

نجح الأمر هذه المرة، تألقت عيناها وقالت:

- الكـراسي هامـة جـدا يـا إسـماعيل، إن كرسـيًا يسـتطيع أن يُهينـك أو يكرمـك، الكـراسي لا غنى عنهـا حـتى أن الله اختـص لقدميـه واحـدا منهـا، ولكننـا نحـن البـشر اعتقدنـا أن الكـراسي للراحـة، ثـم مسـخنا تسـميتها

وسميناها مقاعد، قعد يقعد فهو بشر.

- إذن كل هذه المقاعد بحث عن مقعد واحد لم تجديه بعد؟

- بالضبط، أبحث عن كرسي وليس مقعد، هذا ولع غريب بعض الشيء، ولكني لم أستجب له بشدة إلا بعد انفصالي عن زوجي، صرت أشتري الكراسي كما تشتري النساء القطط والكلاب والأحذية والشوكولاتة، محلات الموبيليا الشهيرة لديها رقمي الخاص، يتصلون بي عندما يأتيهم كرسي له شكل مختلف، قد أشتري صالونًا كاملًا من أجل كرسي واحد، لدي هنا كراسي يكفي المال الذي دفعته فيها إلى إطعام عائلة متوسطة العدد حتى جيلها الرابع، ولكن الكراسي أفضل من العائلة بكثير، الكراسي تعيد إلينا شخصياتنا الحقيقية والعائلة تسرقها منا وتمسخها، لذا أنا أحرص على مزاج الكراسي وصحتها النفسية أكثر من حرص ربة بيت على عائلتها، أعرف أن هذا جنون، الخادمات يتهمنني بذلك خفية عندما أطلب منهن أن يُخرجن الكراسي إلى الشمس كل شهر، ليس أسوأ على الكراسي من رطوبة غرفة واسعة كهذه.

ثم نظرت إلى وجهي نظرة طويلة فقدتني خلالها، فقدت اسمي والسبب الذي استدعتني لأجله، نسيتني ثم عادت وتذكرتني.

قالت:

- المهم، لن نفوت فرصة حوار جاد على أية حال، هذان الكرسيان مناسبان لسؤال لم أكن أنتوي إطلاقا أن أطرحه عليك، وهو: كيف جئت الى هنا؟

- عن طريق المدرسة.

- أعلم ذلك، لا تخبرني عن المدرسة، أخبرني عن نفسك، كيف استطعت الصمود كل هذه الفترة في مدرسة سمعان حتى جئت إلى هنا؟

- في البداية كتبت قصة.

فهقهت إيلات وأرجحت المقعد بجسدها:

- هـذا حديـث شـيق، بجـدا!، كتبـت قصـة في مدرسـة سـمعان الشـنقيطي؟، هـذا أسـوأ مـن التبـول في قبلـة مسـجد مـليء بالمصلين.

- كنت أنوي مغادرة المدرسة حينئذ.

- ولماذا لم تغادرها؟

- أخـذ أ.سـمعان قصـتي فحاولـت اسـتعادتها، وأثنـاء هـذه المحاولـة حُبسـت.

- حبسك أ.سمعان؟

- لا، مـع أنـه كان ليفعـل لـو عـرف نيـتي، اختبـأت في مكتبتـه مـع قـدوم الليـل ولـم أسـتطع الخروج.

- وما الذي حدث عندما جاء الصباح؟

- تورطت في علاقة مع شخص ما.

- رجل أم امرأة؟

تـرددت كثـيرا قبـل أن أجيبهـا، خشـيت أن أخبرهـا أن مـن تورطـت معـه هـو سـمعان ذاتـه، في هـذه اللحظـة ولـدت شـخصيتي الروائيـة الثانيـة بعـد أبـان، ولـدت هاجـر، فتـاة الصـف، قلـت لإيـلات:

- فتاة.

- أكانت تدرس معك هناك؟

- نعم.

- ما اسمها؟

- لا أستطيع أن أخبرك.

- لماذا؟

- لن يعجبها ذلك.

- جميـل، في هـذا الزمـن الغريـب يوجـد رجـل حقيقـي يحـب سـيدة

لدرجة أنه يخشى على مشاعرها، ولكن دعنا من اسمها، كيف كنت تغازلها، ألم تقترب منها طيلة ثلاث سنوات؟، هيا أخبرني، لا تُخفِ شيئًا عني.

- لن أخبرك طبعا.

وجمت قليلا، ثم سرعان ما ابتلعت صدمتها واسترسلت:

- طبعا لن تخبرني، لست صديقة لك حتى لتخبرني عن اسم حبيبتك ولا عن طبيعة علاقتك بها.

- ليست حبيبتي، علاقتنا كانت أشبه بالتعاون على احتمال الأمر، أنا أكتب لها وهي جمهوري الوحيد الذي يقرأ ما أكتبه، ويعجب به مهما كان، زائد أنني أصبت بكسر في ساقي وظلت هي طيلة أسابيع تواظب على دفعي بمقعدي المتحرك من قاعة الدرس إلى مدينة الطلاب.

كانت هذه كذبة مركبة في طريقي لالتماس أسباب أقوى لعلاقتي الكاذبة، وكأنني خشيت أن أبدو أمام إيلات شغوفا بلا طائل، مقعد متحرك وفتاة تدفع فتى في مدرسة سمعان الشنقيطي، يا لها من فكرة مضحكة!

ولكن الكذبة مرت بسلام، قالت إيلات مستغربة:

- هذه الأخلاق غريبة على فتاة مصرية.

- مدرسة أ.سمعان تستقبل الطلاب من جميع الجنسيات.

- ليست مصرية إذن كما خمنت؟

- أبوها مصري، أمها فلسطينية، الزوجة الثانية.

- البنت لأمها كما يقولون، لعلها نابلسية، النابلسيات جميلات، ستخبرني باسمها وإلا خمنته، وهذا كفيل بإغضابها لو علمت أننا نتداول عنها اسمًا مرادفًا، الفلسطينيات لديهن اعتزاز قوي بأسمائهن.

- خمني كما تشائين.

- سأفعل صدقني، ولكن ليس الآن، في وقت آخر، أحتاج لمعرفة أمر آخر أعتقد أنك لن تخفيه عني، كيف أوقعتها في شباكك، هل كتبت لها نصوصا رومانسية؟، لا يستطيع رجل أن يأسر امرأة فلسطينية إلا بالشعر أو الألغام، ولكن الألغام انتهى زمنها، لم يبق إلا الشعر.

- لم تكن علاقة من أي نوع، كما أخبرتك، ساعدتني على تجاوز الأمر. وساعدتها على احتماله، أنت لا تعرفين كيف كانت الأمور في مدرسة أ.سمعان، لم تكن ترفا.

- هذا ما يجعلني شغوفة بالأمر، قصة حب تنمو تحت سمع وبصر سمعان، هذا أكثر قوة من موضوع القصة التي كتبتها، ولكن دعنا من هذا، الموضوع مفتوح ولن نغلقه، ولكن إن أحببت الكلام عنه في أي وقت فسيسعدني أن أكون آذانًا صاغية.

قلت في مكر محاولا سلب ابتسامة منها:

- حتى لو جلست حينها على مقعد مختلف؟

لم تبتسم بل ضحكت، ضحكت بأجمل طريقة يمكن أن تضحك بها امرأة، رفعت رأسها إلى السماء قليلا وتناولت بشفتيها ضحكة دانية من شجرة خفية للمرح، ضحكة سريعة متألقة شغوفة وقالت:

- ربما نجلس على الأرض حينها لكي لا نكسر القواعد.

***

في هذه الغرفة - بعد هذا اللقاء - التقيت بإيلات كثيرا، دون أن أغفل عن أن طبيعة الضوء والظلال وارتفاع السقف هناك كان قريبا من مكتبة أ.سمعان، ولكني لم أخبر إيلات بذلك، ف أ.سمعان ليس موضوعًا مفضلا ليكون بداية حديث في استدعاء لا أعلم سببه، الكتب والكراسي كانت عاملا مشتركا بين غرفة الضيافة في قصر إيلات ومكتبة سمعان، الفوضى والموت والحديث عن الموت المجازي

لأشخاص مروا بهذين المكانين.

أما غرفة الضيافة في بيت جدي فكانت غرفة مهملة، كنا نسميها غرفة الأثاث القديم، نُقل إليها الأثاث الزائد كما هو ولم يتم تفكيكه منذ عَشِيَ نظر جدي وصار يتخبط بالأثاث الكثير إذا استيقظ ليلا فأراد أن يشرب أو يبول، الدولاب الكبير، والكراسي والكنب كلها وُضعت بشكل رأسي لتسع الغرفة الضيقة جميع الأثاث، كراسي كثيرة، لدرجة أنه كان من الصعوبة اكتشاف وجود شخص بداخلها من التكدس الطولي، كغابة من الأثاث المتأهب، غرفة لا زوار لها، وكراسي لا يجلس عليها أحد، كأنها فكرة أولية لغرفة الضيافة في قصر إيلات.

الضوء في هذه غرفة الضيافة ببيت جدي كان يشبه آخر ضوء في آخر يوم قبل نهاية العالم، ضوء ثخين يحبس ذرات التراب بداخله، مثل كائنات مرحة مبهجة، كنت أتخيلها أحيانا أسماكًا ملونة أو طيورًا بيضاء أراقبها من موقعي فوق السحاب تحوم حول محيط أزرق لانهائي، هذا السلام هو ما جعلني أظن أن العالم الغريب لن ينتبه إلى وجودي، لن يضن على أصابعي أن يظل قلبي ينفق عليها من دمه الخاص بلا وسيط، فلا يرسل العقل عماله ليردم تلك العروق القديمة ويمررها من خلاله، تاركا الأصابع لفطرتها وغباوتها، لتورطني في كثير من المصافحات والتعهدات لأشخاص زائفين أو طيبين، أيدى مرتجفة محبة وأيدي واثقة منافقة، لا يمنعها هذا أن تحتفظ في ذاكرتها بذكرى ملامسة جلود أشخاص لا تربطني بهم إلا علاقة واهية في الحقيقة ولكن برودة العالم هي ما أجبرتني على الالتجاء إليهم.

من داخلي ظل كل ولائي لتلك الممرات القديمة، وفي لحظات معينة كنت أتحسس تلك الممرات بين أصابعي وقلبي، أتبين هشاشة ما رُدم تحت وطأة مشاعر مُطلقة العنان، مشاعر لا تخص زوجة ولا

حبيبـة ولا أولاد ولا شـيئًا ملموسًـا في الحيـاة، لا تنتقـل تلـك المشـاعر مـن خـلال اللمـس ولا الشـم، مشـاعر خاصـة بالكتابـة، ولكـن الآخريـن يؤولونهـا لهـم، وأدرك أن الكتابـة، الكتابـة فقـط هـي الـشيء الوحيـد القـادر عـلى إعـادة أصابعـي لمسـارها القديـم الصـادق.

في هــذه الغرفــة خبــأت أدوات الكتابــة، وأوراقي، واعتــدت أن أمكــث طيلـة وقـت فراغـي بعيـدا عـن عيـنيْ جـدي، أقـرأ وأكتـب، وأمـارس تأمـلاتي الغسـقية، تمامـا كمـا كانـت إيـلات تفعـل.

مـن سيسـمع حكايـتي، باحثـا عـن التشـابه، سيكتشـف كنـوزا كهـذه، في مـتن الحكايـة تشـابه، المطبـخ في بيـت جـدي والمطبـخ في المدرسـة وفي القـصر، مجـرد مثـال آخـر، تشـابه جعلـني أرتعـد، ولـم تخـف ارتعـادتي إلا بعـد أن كتبـت إلى الدكتـورة عاليـة في رسـالة:

- لا، لـم يكـن وهمـا مـا مـررت بـه، كانـت رسـالة يرجـو مرسـلها أن أكـون بالـذكاء الـكافي لأنتبـه إليهـا.

***

بحث يقوم به رجل سيارة في المقام الأول، والسيارات لا تصعد السلالم ولا تدور في أروقة الحكومة، مكالمات تليفونية ومقابلات ومكافآت تُدفع بلا طائل، أبحث عن فتاة اسمها إيلات، أو رجل، أو مبنى، أو إله فرعوني قديم في فاترينة بمتحف رمسيس، حتى المدينة القديمة التي كان اسمها أم الرشراش ثم أصبح إيلات، لم تعد إيلات.

ليس رجل بحث، هذه موهبة على حسين أن يعترف بالعجز عن اكتسابها، إنه قاتل حكومي، وهذه ميزة يجب عليه أن لا يفقدها، الظرف والورقة يحلان إشكالات كثيرة، فهو لا يستطيع أن يقتل بدون ورقة .

فشل حسين في العثور على إيلات لم يكن واضح المعالم في أول توصيل إلى فيلا السادس بعد انتهاء لقاءات المقهى، ورغم ذلك لم يجرب حسين نبش الوجه الذي طالعه به (د)، فالطريقة التي عاد بها مرتديا شخصيته القديمة أكدت لحسين أن الأمور لن ترجع إلى سابق عهدها أبدا إلا إذا نفذ مهمته.

وقتها كان لا يزال تائها في الأسئلة البديهية الأولى، هل ما طلبه منه (د) تصفية حساب بين أفراد إدارة أقوياء وأفراد ضعفاء؟، مهمة غير رسمية أم مجرد ضغينة شخصية؟، هل الاختيار مجرد لعبة، وسمعان هدف عجوز استنفذ الغرض منه، أم أن تلك الفتاة كما قال حسين ل (د) بحث عن عود كبريت منطفئ، كل هذه التخمينات كانت تقوده إلى مربع واحد، استئجار قاتل!

نعم، فكرة استئجاره واردة بشدة، فكلما ترق الإنسان في درجته الوظيفية كلما صار عاجزا عن القتل بيده، وببعض التجرد يفكر

حسين بأن ضمور قدرة رجل السلطة على القتل الفردي بنفسه ظاهرة مضحكة، وحتى في أشد سيناريوهات المستقبل إفزاعا سيظل لدى الإنسان القدرة على التصحيح بواسطة القتل حتى لو صار حفنة من لحم أو عظام بسبب التلوث والعقاقير الغريبة، القتل ممكن في كل الأحوال، والسلاح مناسب طالما استنفر عضلات القاتل، القلم والرفش والحامض والخنق وحقنة الهواء في الوريد والإبر الصينية والحد القاطع والسلاح الناري، ولكن في الوقت الذي يمكن للإنسان أن يقتل آلاف البشر بضغطة زر أو وضع إمضائه على ورقة تسجن أو تعلن حربا يظل عاجزا عن القتل المنفرد.

ومن تكون تلك الفتاة، لو تُرك حسين للخيار الحر لقتل أي أنثى مقابل أي رجل يعيش، ولكن الخيار الحر فخ لا يقع فيه إلا ساذج، عليه أن يعثر على الفتاة ويُقيمها أولا.

يعثر على الفتاة، ضحكة في الصفوف الخلفية لمشاعر حسين يُسكتها بنظرة عابسة، لقد لخصت أمه ذات مرة الوضع ببساطة تقترب من بساطة قارئات الكف والعرافات: ستفشل في العثور على فتاة يا حسين ولو كانت أمام باب شقتك، والوضع أنه كان يمكن لحسين الحصول على امرأة بشكل منتظم، ولكنه لم يسلك إليها أبسط الطرق - فأي إنسان عصري يعلم عدد النساء اللواتي يمكن لحسين أن يحصل عليهن إن سار على قدمه أو تمهل بسيارته في شارع من شوارع القاهرة الشهيرة - ولا أخطر الطرق أيضا - لم يتزوج، لديه وظيفة، وحياة، وشاب خال من العيوب الجسدية - ولكنه لم يتزوج، لماذا يتزوج الناس على أية حال، للرفقة: لا يحتاج حسين إلى رفقة، لإفراغ الشهوة: هذا بديل كسول عن ممارسة الرياضة، ولن يقول حسين شيئًا آخر خارج قناعاته عن الزواج، الزواج بالنسبة إلى حسين يشبه شراء دابة حلوب ورعايتها لرجل لا يحبذ وجود كوب اللبن على مائدة إفطاره، كان آخر شيء قد يفكر في فعله في هذا

العالم، العثور على فتاة، سواء لنفسه كرجل أو لقتلها، وإن كان قتل الرجل يسبب مشاكل وثأرًا فقتل المرأة يسبب لعنةً لا تنقطع.

الفتاة أو الرجل، الأنثى أو الفقيه، ما زال حسين مستمرًا في تجرده، تعج حكايات العباد بالإناث اللواتي يغويهن، والفقهاء الذين أعادوهم إلى رشدهم الأول، وليس هناك أسوأ من الهرمونات لتوسيع الهوة بين الدال والمدلول، حتى أن جملة عفوية مثل: سأقتلك يوما ما، لا سبيل لفهمها إلا بمعرفة تاريخ حسين، الجزء الأكثر نصاعة منه، والذي تَتبع كل خطوة فيه من حرية انتزعها حسين لنفسه بعد مشقة، انضمامه إلى جماعة غريبة تمارس الرياضة بأساليب شاذة، عكوفهم على أطعمة خاصة، وطريقة للحياة أهم مفرداتها رفض الزواج كمؤسسة ثنائية قائمة على استنزاف الرجل، ميثاق لم يعانِ حسين منه معاناة زملائه تجاه الجنس الآخر، فحتى المرات المحدودة التي كان مسموحا له فيها بإفراغ إفرازاته المؤرقة لم يستغلها.

قد تندهش إذا رأيت حسين، جسد لا يمكن وصفه إلا بالرجولة، والدهشة لن تدفع حسين إلى التبرير، باعتبار عزوفه عن الاتصال الجسدي هبة، والتجلي الأعظم للهبة عندما يكون البسط رقما هائلا والمقام صفرًا، في الواقع يتساءل حسين كثيرا كيف لم يفقد الإنسان الرغبة الجنسية كمرحلة تطور في التاريخ البشري، كولادة ثانية تعيده إلى مساره الأصلي ليكون لائقا لخلافة الله في الأرض.

يعلم حسين كم امرأة يمكنه الحصول عليها رجل وهو في سيارته لا يغادرها، ولكن بالنسبة إليه هو، كم امرأة حصل عليها، امرأة واحدة، ومرة واحدة، ولم يكرر التجربة، وكانت الرحلة التالية بسيارته إلى طبيب من هؤلاء الأطباء الذين يتقاضون مبلغا هائلا مقابل مهارتهم في وزن الخصية دون أن يمسوها أو يضعوها على ميزان حساس، قال له كلاما كثيرا عن الثقة بالأدوات، قال إنه من

الخطأ أن يسميه مرضًا، لأنها حالة منتشرة بشكل يكاد يكون شائعًا، وقال إن الإحصائية المتاحة لحالته تتجاوز بكثير الأرقام المسجلة لأن كثيرًا من الحالات لا يقوم أصحابها بتسجيلها حتى لو كانوا مصابين بشدة لأنهم ببساطة لا يعلمون، يظنون أن هذا هو الوضع الطبيعي للأمر، العالم العربي خاصة أخذ ركلة في خصيته بعد رفع الحروف.

اقتناع حسين بكلام الطبيب من عدمه لم يكن رهين الحجج الطبية المقنعة بل وصوله إلى حد الكفاية من نقاش لن يقتنع به ولو استمر إلى نهاية العالم، إذن ما مشكلتك يا حسين، ما الذي يجعلك عازفا عن النساء، أم أننا لا يجب أن نسميها مشكلة على طريقة الطبيب، التسمية الصحيحة: مأتم، سرادق عزاء، ولأن الفهم المبالغ فيه كثيرا ما يكون جهلا مطبقا، ولكن حسين لا يخجل من أن يقول أنه لا يفهم، كما خجل الطبيب الذي تقاضى مبلغا هائلا، شيئان في هذا العالم يستطيع حسين أن يقول أنه لا يفهمهما، دون ندم حتى، الانتصاب والمآتم، ولكن مأتم العضو الذكري، مأتم طويل يبدو أنه إذا انعقد لا ينفض، حتى في مناقشة مع رجل له عقل كعقل الطبيب، ويتقاضى على الفهم مبالغ مالية من الناس...

لا يعرف حسين خداعا قاد إليه الخيال والكلمات والوصف كما قادت الشهوة، الافتعال الغريب لطقوس أقل ما توصف بالبدائية، الموضوع نفسه عبثي، كيف يمكن قياس أمر كهذا، بدا هذا لحسين كنوع من تأطير مبالغ فيه، الظاهرة بأكملها مولعة في السادية، الشهوة سادية، ما فائدة أن تدس البذرة عميقا بقبضتك في الأرض إن كان لديك الخيار أن تجد طريقة خالية من الجهد المؤلم والتأويل الحانق، ما متعة البذر المتكرر دون جدوى، هذه الحماقة التي أولع بها العالم القديم لدرجة أنها أسقطت حكومات وأقامتها.

لا، ليس كل العالم، ففي روما القديمة اقترنت أماكن الشهوة

في أجساد البشر بالبلاهة والبشاعة، لا دليل على ذلك أوضح من التماثيل التي خلفوها، لا تكاد تظهر بها تلك الأعضاء التناسلية بقدر ظهور العضلات المنحوتة بعناية حتى يخيل للرائي أن ما بين أفخاذهم هو مجرد حبات من التين المجفف، كانت اللذة عندهم من المحرمات، لا يهتم بها ولا يتكلم عنها إلا العبيد الذين لا يُعَدون بشرا كاملين، أما الأحرار فيتزوجون فقط من أجل إنجاب مواطنين أصحاء كاملين مثلهم ، التقبيل بين الأزواج كان محرمًا لدرجة أن المرأة الرومانية الحرة كانت تستطيع أن تشكو زوجها للقاضي لو تعلق بها بشكل شهواني طيني، أو حاول أن يدفعها إلى علاقة شبقية، لقد فهموا الجسد كما يجب على الإنسان العاقل أن يفهمه، الجسد نزوة، أداة اختبار فشل الإنسان في قيادتها طيلة قرون متطاولة، متعلقا بسوائل هذا الجسد التي لا وظيفة لها إلا إعداده للإنجاب فقط، حتى في معرفة الرومانيين للذة، فالمرأة تعلمت أن اللذة التي تتم على فراش الزوجية لا يجوز لها أن تشعر بها، يتم تدريبها منذ طفولتها على احتقار جسدها الشهواني، فقدر المرأة الحرة هو الإنجاب، بخلاف المومس، التي تمارس الجنس كوظيفة، وكانوا يتعاملون مع شهواتهم تعاملهم مع الخراء في أجوافهم ، يخصصون لها أماكن مقننة تزخر بالتماثيل الداعرة والفسيفسائيات التي تصور أوضاعا جنسية طينية، حتى النقود التي يتم التعامل بها في هذه الأماكن ترفعوا عن تناولها والتعامل بها في أحوالهم الطبيعية، وجعلوا لها قطع نقد سُكت عليها أوضاعٌ فاضحة، أما اللذة الحقيقية عند الرجل الروماني فتركزت في الجلد، القبلة على الجلد فقط وحول الفم لا أكثر، وكأن الرغبة هي تبادل الأنفاس الناعمة العفيفة، دون التورط في إفرازات والاختناق في سوائل وانهيارات درامية وخفوت وظلمة، ثم بحث عن معاني أخرى للاقتراب الحميمي، كالحب والأشعار والروايات وأمراض المجاز.

لا يستطيع أن يفهم تاريخ قوم قادوا العالم بالرجولة إلا رجل

حقيقـي، ممارسـة الجنـس المتكـرر للحصـول عـلى الـذروة أشـبه بالغـوص في بحـيرة مـن الطـين للبحـث عـن لؤلـؤة، أمـا رجـل ريـاضي مثلـه فيسـتطيع أن يحصـل عـلى الـذروة مـن طريـق مختلـف، ذروة أشـبه بالكشـف الصـوفي الـذي يحصـل عليـه رجـل يعبـد الله بالصيـام التـام عـن الطعـام حـتى جـف نخاعـه، ولكـن مـن منظـور معكـوس، مثـل جـرس مقلـوب: فالجائـع يصـل إلى الكشـف عـن طريـق الانـزلاق أمـا هـو فيصـل إليـه عـن طريـق الصعـود.

***

كان مـن السـهل عـلى حسـين أن يجـد الخـلاص مـن تأنيـب الضمـير في كل مـا بـدر منـه مـن أخطـاء مهنيـة - حـتى تهديـد إسـحاق بالقتـل تحـت تأثـير المخـدر - فقـط إذا وضـع طلـب (د) الغريـب منـه في حساباته النفسية، ولكنـه لـم يفعـل، فحسـين يصعـب عليـه أن يتصـور نفسـه كشـخص جائـع إلى القتـل، لأنـه يقـف عـلى مسـافة متسـاوية بـين الكراهيـة والحاجـة، وشـهريا كانـت الأوراق الرسـمية تجعلـه يقتـل مـا يزيـد عـن نصـف دسـتة مـن الأشـخاص، يزيـدون ولا ينقصـون، ولـو أن القتـل يشـبه الصداقـة أو الحـب لـكان مـن الصعـب عـلى حسـين حـصر اللحظـات المميـزة لـكل هـذا العـدد، الإيمـاءات والنظـرات والحضـور والتبـدد والضيـاع، ولكـن يبـدو الأمـر في النهايـة كأنـك قتلـت شـخصًا واحـدًا عـدة مـرات وبنفـس الطريقـة، شـخصًا تتحمـل الحكومـة مسـئولية إنهـاء حياتـه، لهـذا لـم يكـن حسـين عـلى اسـتعداد لإنهـاء حيـاة شـخص خـارج توجيـه الظـرف الأصفـر، فالخـروج عـن نطـاق الظـرف يُعـد قتـلا حقيقيـا، حـتى لـو خـرج أمـر القتـل مـن نفـس الأشـخاص الذيـن يُحـررون الظـرف، وعندمـا طلـب منـه (د) أن يقتـل خـارج الظـرف المعتـاد فوجـئ بتشـكيلة معقـدة مـن الأحاسـيس كان أقربهـا الإحبـاط، فقـد ظـل يعتقـد أنـه يقتـل بمـا يكفـي لإنقـاذ العالـم مـن التدهـور، والآن يعلـم أنـه حـتى الموظـف الـذي يحـرر الأظـرف يـرى أنـه لا يقتـل بشـكل كاف، لأن الكفايـة

هي التخلص من آخرين عند آخرين وإن لم يكن هذا التخلص قد تم بشكل تام يظل القتل بالنسبة للجميع فعلًا سيئًا، غير شرعي، دموي.

في الليلة التي حصل فيها حسين على الاسمين قام بتأجير صالة التدريب القريبة من فندقه طيلة الليل، ثم أخذ في أداء حركة واحدة في تمريناته الشاقة، حركة واحدة فقط، أرجحة الثقل بذراعه مئات من المرات على مدار ساعة ونصف، ثم الذراع الأخرى، ويعود إلى الأولى التي أنهكها من قبل، الصالة الفارغة ترن فيها صرخات حسين التشجيعية لنفسه، وجملة (د) ترن في ذهنه أكثر من رنين الصرخات: كلنا قتلة يا حسين، بوجه أو بآخر، ولكن المُنفذ للقتل واحد، غالبا ما يكون أكثر الناس بعدا عن القتل.

عضلة الذراع تحرق الدهون فوقها، تحرق الغذاء الذي يحمله الدم إليها، تسحب من الجسد كمضخة صغيرة وتدفع إلى هواء العالم نواتج احتراق الطاقة، كأن العالم ينحني فوق ذراعه ويمتص جسده عن طريق أداء حركة واحدة، بلا نهاية، تلتحم الأبدية بجسده عن طريق حركة واحدة، للحظة، ثم ينفصل حسين عنها مغمورا بالعرق والاستخفاف بكل آلامه ومعاناته، لقد نقل وهجه إلى العالم عسى أن يحرق البشر.

***

طيلة أشهر بحث لم ينهمك في التدريب كهذه الليلة، انتهى كل يوم فيها بأمل فاتر، وفي الليل سعى ليرطب حرارة بحثه بالتجول، بعيدا عن المدينة، لم يحب البحث في الزحام، خاصة في النهار، لابد له من ترجل، وهو يكره أن يترجل من سيارته، ويكره أن يفتح نوافذ سيارته فتتعبأ بالروائح، لم يعلم السر في ذلك إلا عندما حاول أن يفسر كراهيته، أي كراهية لديه لابد أن يُسجيها ويُشرحها وإلا أثرت على مهنته وحالة التسامي التي يصل إليها عبر تنفيذه

لمهامـه، وللوصـول إلى السـبب لابـد أن ينغمـس، وهكـذا فعـل، في شـارع مـن أكـثر الشـوارع زحامـا مـن شـوارع وسـط البلـد أوقـف سيارته وفتـح نافذتـه وأغمـض عينـه، وحـاول العثـور عـلى السـبب الخفي لهذه الكراهيـة.

هجمـت عـلى أنفـه رائحة المدينـة، رائحـة الملابس الجديـدة المصبوغة والبرفانـات والعـرق، رائحـة حـبر عتيـق في كتـب الأرصفـة والأطعمـة المختلفـة المبثوثـة في المطاعـم، رائحـة البنزيـن المحـترق والدخـان الأزرق، رائحـة الأخشـاب الرطبـة والسـجائر المنقوعـة في البـول وحثـالات أكـواب الشـاي والقهـوة العطنـة، كل هـذه الروائـح تفاوتـت مشـاعره في اسـتقبالها بـين التقـزز والقبـول، إلا رائحـة واحـدة كانـت كراهيتـه لهـا سـوداء، اللحـم المشـوي، رائحـة الـدم عندمـا يحـترق، ويختلـط بدخـان الفحـم، كانـت الرائحـة تحفـزه، تضعـه في وضعيـة القتـل دون قتـل فعـلي، فعندمـا يطلـق النـار في جسـد ضحيتـه بتلـك الطريقـة الدراميـة الـتي ينتهجهـا يطفـئ الـدم جمـرة الحديـد الملتهـب بمـرور الرصاصـة فيـه للتـو، ورائحـة القتـل دون قتـل مثـل أفيـون مغشـوش، لا يثـيره بقـدر مـا يؤلـم بطنـه.

عـاد إلى فندقـه، كان مرهقـا، لـم يصعـد إلى غرفتـه عـلى الفـور، طلـب قهـوة وجلـس في باحـة الفنـدق الداخليـة يحـاول تحليـل مشـاعر الضيـق الـتي انتابتـه للتـو، ربمـا كان عليـه أن يمـر عـلى صالـة التدريـب، الشـهقات والصرخـات والتشـجيعات ومـرأى الأجسـاد اللامعـة، وبخـار المـاء السـاخن في الحمامـات المشـتركة، كل هـذا يفـرغ ذهنـه ويخرجـه مـن حالـة القتـل إلى حالـة الحيـاة، كثـيرا مـا كان يتسـاءل بينـه وبـين نفسـه: في هـذا الوقـت مـن اليـوم مـا الـذي كان يفعلـه مقاتـل رومـاني، أو مـا الـذي يمكـن أن يفعلـه مقاتـل رومـاني انتقـل إلى هـذا الزمـن؟، بعـد الدهشـة، وبهـذه المعطيـات، العنـاصر المخيبـة، الإحباطـات، مـا الجـدول الـذي سـيتبعه لكيـلا يترهـل، مـا القـرارات الـتي سـيتخذها

في حياته قيد التنفيذ ليمنع نفسه من الوصول لنقطة الكسر، هل سيبحث عن وهم اسمه إيلات، أو سيكسر شوكته أمام رئيس عمل غامض يكلفه بقتل عبثي؟.

في روما القديمة لم يكن الرجال يعودون من تدريبات القتال إلى بيوتهم على الفور، بل يمرون على الحمامات كمرحلة تمهيدية، العري والترف وغيبوبة البخار ولذة الحرارة التي تقترب من حرارة الجسد فيسكت هدير الجلد الذي يعمل طوال الوقت كمضخة للخارج أو للداخل ويتفرغ لاحتساء الراحة العذبة على حدود الجسد، مزيج خطير يُصفي ما اختزنه المقاتل ورجل السياسة من ترهلات وترهات وهزائم مرت بيومه.

أغمض عينه منتشيًا وكأنه يرى النقش المكرس للإمبراطور الروماني تيبيريوس كلوديوس: النبيذ والجنس والحمامات تدمر أجسادنا، ما الذي كان يقصده الإمبراطور بهذه الكلمات، التدمير، الميوعة أم الفساد؟، ألهذا لم يكن للنساء وجود في حمامات الرجال؟، الرجال والخدم العبيد فقط، وفي هذه الحمامات كان المقاتلون الرومانيون يقومون بإفراغ إفرازاتهم في مؤخرات رجال مثلهم دون التورط في إشكالية الجسد الطري، ولم يكن هذا يسمى شذوذا أو انحرافا، كان المقاتل الروماني يمتطي الرجل العبد ويفرغ فيه إفرازاته المؤرقة ليعود إلى بيته بذهن أكثر صفاءً وجسد معتد بنفسه.

في هذه اللحظة تحديدا قرر حسين أن يتوقف عن البحث وليذهب (د) هو وترقيته إلى الجحيم.

***

## إسماعيل - الكاتب

صباح يوم الاختبار استيقظت مبكرا، مشيت حتى محطة الباص، أفطرت في مقهى على الطريق، خبز هش بالسمسم وقطعتان مثلثتان من الجبن المطبوخ، كنت أشعر بالنعاس فطلبت كوبًا من الشاي الثقيل لم أستطع إتمامه من فرط مرارته، ثم استسلمت للنوم بمجرد أن تحرك الباص.

أمام المبنى المخيف وقفت طويلا في ظل أعمدة مكسوة بالرخام الأخضر، تفحصت وجهي في أرضية من البورسلين، قلقا منتفخا من النوم، وأمام الأبواب الزجاجية أعمدة نحاسية صغيرة تشبه الصولجانات ممتد بينها حبل أحمر، سألت نفسي: لماذا يضعون حاجزا أمام مبنى مفتوح للجماهير؟

بالتأكيد مر أبي من هنا، ربما جدي، فكلاهما موظف حكومي، والقطاع العام ظل حارسه الأوحد هذه المباني ذات السمعة الأسطورية.

وقفت حائرا في التصرف الأمثل أمام الحاجز المصنوع من الحبال، ربما يكون هذا من ضمن الاختبار، هل ينبغي أن أدور حول الأعمدة النحاسية أم أطوح بساقي فوقها وأعبر، الوصول من أقرب الطرق أم احترام قانون الأشكال الهندسية؟، في النهاية قررت، درت حول الصولجانات حتى أوصلني الدوران إلى منطقة ضيقة، قمت بشفط بطني لأمر ولاحظت بطرف عيني الكاميرا التي ترصدتني من أعلى، كانت الكاميرا موجودة بزاوية لا يكتشفها إلا من يعبر بهذه الطريقة.

الباب الزجاجي والأعمدة الرخامية والبلاط اللامع أفضوا بي إلى صالة واسعة شبيهة بمعامل الكيمياء في المدارس الأساسية، طاولات عليها ألواح الرخام ومن فوقها أنابيب زجاجية ملتوية، زجاجات خضراء

كبيرة مفلطحة بأعناق ضيقة وسدادات من الفلين.

- جئت من أجل الاختبار، اسمي إسماعيل، رقم بطاقتي ...

هكذا قلت لرجل يرتدي بالطو أزرق على خلاف الجميع الذين يرتدون اللون الأبيض، ضيق عينه وكأنه استغرب وجودي، ثم مسح يده في خرقة قماش وأشار لي أن أتبعه، سرت خلفه، صعدنا سلالم في نهاية القاعة، أفضت السلالم إلى ممر طويل، دفع رجل البالطو الأزرق باب آخر غرفة على اليمين بعد أن طرقه وسمع همهمة ما، خلف الباب رأيت دككًا خشبية وديكورات على الحوائط كأننا في فصل دراسي، هذه مدرسة، تفتق المبنى المخيف عن مدرسة قديمة، وكان الشخص الذي سيختبرني جالسًا على منضدة المدرس والدكك فارغة، ولن أندهش الآن إذا صهلل جرس في مكان ما ودخل التلاميذ وبدأت حصة الفيزياء كما تشير الكتابات على السبورة خلف المدرس العجوز الذي أخذ يتأملني، ثم قال:

- اجلس يا إسماعيل.

نظرت خلفي مندهشا، كان الرجل الآخر قد انصرف، كيف عرف اسمي؟، ابتسم المدرس العجوز لدهشتي، وقال:

- لا تسأل نفسك كثيرا على الطريقة التي عرفت بها اسمك، ستعرف السر بعد قليل.

صافحني وقدم لي نفسه:

- أنا (د).

- (د)؟

- غير مسموح بتداول أسمائنا مع المختبرين.

ثم أشار لي بالجلوس وقال: استرح.

جلست حيث أشار، الدكة الأخيرة في جهة الباب، جلست طويلا بينما انشغل هو بتصفح كتاب ما في يده، ومن حين لآخر كان يرمقني

بنظرة قريبة من السخرية أو العبث.

اضطررت في النهاية أن أرفع صوتي ليسمعني وأنا أسأله، كانت القاعة كبيرة:

- متى سيبدأ الاختبار؟

وكأن السؤال إشارة البدء، دفع (د) مقعده ووقف، قال:

- أنت لا تتذكر شيئا بالفعل يا إسماعيل، اسمح لي بأن أندهش، رغم تكرار الأمر، كل مرة أندهش، اسمح لي، ومع ذلك حتى لو ضبت منك أن تعصر دماغك قليلا، وأن تنظر إلى وجهي، لنرى هل ستظل إجابتك كما هي: أنت لم ترَ وجهي من قبل؟

- هل ينبغي علي أن أكون قد رأيته من قبل؟

- لا، بالعكس، هذا يثبت كفاءة الاختبار.

ثم تنهد وألقى بقنبلته:

- لقد تم اختبارك بالفعل يا إسماعيل.

للحظات ظللت أنظر إلى وجهه، بلا دهشة، محاولا أن أنقب في جدار وجهه الصخري عن نأمة سخرية وعبث، كيف تم اختباري وقد دخلت من الباب لتوي!

- طبعا لم يحدث، أنا هنا منذ دقائق فقط.

- كنت أتوقع ردًا أكثر ذكاءً يا إسماعيل.

صحت متسخطا:

- إن كان هذا أحد أساليب الاختبار فلن تخدعني به، فأنا أعرف ما أقوله جيدا، ولن أغيره، لقد جئت الآن فقط، تاريخ اليوم كما هو، والساعة (نظرت عندئذ إلى ساعة يدي الإلكترونية) نصف ساعة بعد نزولي من الباص، هذا المكان أراه أول مرة، ووجهك يبدو كأي وجه آخر، لماذا يجب علي أن أتذكره؟

رغـم طريقـتي القويـة في نطـق الكلمـات بـدأ وجهـي يرتعـد، تحديـدا منـذ نظـرت إلى أرقـام سـاعتي، فالفـارق بـين الوقـت فيهـا وزمـن نـزولي مـن البـاص أربـع سـاعات، أربـع سـاعات لا أتذكـر أيـن كنـت فيهـم، وكالغريـق الـذي يبحـث عـن قشـة دار لسـاني في فمـي حيث علقـت حبة سمسـم بـين أسـناني فهرسـتها بغيـظ، ودفعـت مـع ريقـي المضطـرب نكهـة حبـة السمسـم المهروسـة مـن فمـي إلى حلقـي، واستسـلمت.

- وما نتيجة الاختبار الذي خضته دون أن أدري؟

جـاء (د) ناحيـتي ووضـع يـده عـلى كتفـي، كان ثقيـل الـوزن رغـم نحافتـه.

- أنت لا تصدقني؟

- هـل تريـدني أن أكـذب عليـك وأقـول نعـم، إن كان هـذا سيجعلني أحصـل عـلى وظيفـتي فأنـا مسـتعد لذلـك، أليـس هـذا مـا جئـت مـن أجلـه؟

قال (د) وهو يصطنع الأسف:

- يجـب عليـك أن تقتنـع أنـك مـررت بالاختبـار يـا إسـماعيل، هـذا يتوقـف عليـه مصـيرك.

نظـر (د) عميقـا في عيـني للحظـات، ثـم بـدل صوتـه ولهجتـه فجـأة كأنـه قـرر أمرا:

- حسـنا، سـأحاول أن أسـاعدك، أخـبرني، مـتى اكتشـفت أن الكتابـة قـدرك الـذي لا مهـرب منـه؟

- إن كنـت تقصـد الكتابـة الأدبيـة فأنـا أكتـب قبـل أن يصبـح عمـري اثـني عـشر عامـا.

- أقصدهـا طبعـا، ولكـني أسـألك عـن حـدث أكـثر خصوصيـة مـن مجـرد اكتشـافك المبكـر لموهبتـك، حـدث غـير مفـسر، خـارج الحـدود

الطبيعية للمعقول، جعلك تشعر بأشياء خاصة بالكتابة لم تشعر بها من قبل.

عندما قال (د) ذلك أدركت ما يقصده، إنه اليوم الذي فشلت في النزول إلى البيارة، الرؤية المضطربة، فقداني الوعي للحظات، سرى تنميل بسيط خلف عنقي، وتحول الضوء والصوت إلى أمبيا عملاقة هرستها قبضة ما على الحائط وتركتها معلقة هناك دون أن تسقط، تشوش رؤيتي وسمعي فقط، ابتلعت ريقي قبل أن أقول:

- ماذا تقصد؟

- اسمعني جيدا يا بني، لا أعرف كيف تراني الآن، ولا بأي شكل أبدو لك، فأنا أختبر العشرات يوميا ولم أعد أسأل، ولكني واثق أنك ترى الآن خلاف ما أنا عليه، وسأطلب منك أن لا تُعول عليه، فأنت قد خضت الاختبار منذ ساعات، وما تراه وتسمعه الآن جزء منه واقع تحت تأثير عقار غريب، ولكي أتجاوز أوهامك سأخبرك أنني لا أقرأ أفكارك، وأن ما أعلمه عنك قليل جدا، لا يكاد يتجاوز ما تخبرني به، ولنصل إلى نتيجة في نقاشنا أخبرني بما تذكره من أحداث هذا اليوم.

استغرقت دقائق حتى أرد بخفوت:

- كنت مع جدي، هو بداخل البيارة وأنا بالخارج ألتقط السمك الذي يقذفه.

- مثل كل يوم؟

- نعم مثل كل يوم.

- هل حدث شيء غريب؟

- نعم، قبل أن يخرج جدي شعرت بألم، كدت أن أقع، وقعت بالفعل، خرج جدي من البيارة وسألني ماذا بي، فكذبت عليه.

- وبعد ذلك؟

- جمعنا السمك من بين العشب، ثم جاءت المرأة التي تشتريه وأخذته وانصرفت.

- هل هي نفس المرأة التي تأتي كل يوم؟

- لا، كان لهم ترتيب.

- أكثر من واحدة؟

- نعم، يشتري السمك منا أكثر من بائعة، ولكن كان لهن ترتيب، لا يبدلن مواعيدهن أبدا.

- أخبرني أي بائعة منهن أتت في ذلك اليوم؟

- البائعة الثانية.

- كان هذا يوم الأحد؟

- لا... يوم الاثنين.

- وهل هذا هو اليوم الذي تأتي فيه بائعة السمك الثانية؟

- لا، الثالثة، ولكن البائعة الأولى جاءت قبلها بيوم.

- كان يوم السبت؟

- لا، يوم الأحد.

- إذن، لم تأت بائعة يوم السبت فجاءت يوم الأحد؟

- لا، أتذكر هذا جيدا، بائعة السمك الأولى جاءت يوم الأحد، ربما جاءت بائعة السبت مرتين، مرة في يومها ومرة في اليوم الذي يليه، رغم أن هذا لم يحدث أبدا.

- بالضبط، كما قلت يا إسماعيل، لم يحدث أبدا، أكمل.

- عندما جاءت بائعة السمك الثانية كنت جالسا على الأرض لأنني شعرت بدوار في رأسي.

- هل تذكر متى قمت مرة أخرى؟

- طبعا قمت، لا أذكر، ولكني قمت وعدت مع جدي إلى البيت.

تنهد (د) وكأن صبره نفذ أخيرا.

- لا تكن عنيدا، أنت لم تقم، وفي ذاكرتك هذه اللحظة لا تزال مستمرة، لأن هذا يوم لا وجود له، هذا اليوم وهذا الحدث حصل قبل ساعة أو ساعتين في خيالك، لم تأتك رؤيا بخصوص الكتابة في أي يوم من أيام حياتك، نحن من تسببنا في وجودها منذ قليل، طبعا أنت لا تتذكر كيف جئت إلى هنا، ولا كيف مررت فوق حبل الأعمدة النحاسية التي وضعناها أمام الباب، وأسقطت واحدا منها بحماقتك.

عارضته بعناد:

- لا، لم أمر من فوقها.

- قامت كاميرا المراقبة بتسجيل دخولك، ولدينا توقيعك على طلب بخوض الاختبار قبل ثلاث أو أربع ساعات من الآن، ستتذكر ولكن ليس الآن، بعد أن يصفو جسدك من أثر العقار.

- أي عقار، ما الذي تتحدث عنه؟

دق جرس الآن بالفعل، انفتح الباب المزدوج وغمرنا طوفان من الطلبة، توقعت أن ينهي (د) حوارنا، حوار كهذا يمكن أن يقف بي عند حافة الجنون إن لم يتم، ولكنه لم يفعل.

- رأسك سقطت، أنا أسندتك بنفسي وحملناك لتتم نومك في غرفة مجاورة، العقل يعمل بطريقة غريبة يا إسماعيل، إنه يرتق الفجوات لكيلا ينهار مفهومه للزمن، أكثر أعضائنا إثارة للشفقة، لا يُعتمد عليه، ولكنه خطر في ذات الوقت، لأنه يتخذ من ضعفه هذا ذريعة للسخرية من العالم، هذه الرائحة التي تظن أنها فتحت لك طاقة قدرك ككاتب لم تشمها إلا منذ قليل، نتاج سنوات شاقة من العمل، جزء عبقري من أبحاث مضنية لم يكن مقصودا منه الاختبار، كان مقصودا بها البلوغ، تحفيز مراكز البلوغ في المخ، حبة زرقاء سحرية فائقة الجودة طويلة المفعول، ولكنها فشلت في القيام

بوظيفتها، رغم ذلك لم تخرج عن كونها معجزة هائلة، لقد رأيت أمورا تفعلها هذه الرائحة لم أكن أظن أنها ممكنة، أمورا كالسحر، الشخص المرح الذي يقع تحت تأثيرها يتحول إلى مهرج، والمصاب بالكآبة جعلته يشم رائحة حبل المشنقة الذي سيعلقه لنفسه بعد عشرين سنة في سقف غرفته لينتحر، هذه الرائحة تكتشفك، تضع لك خط النهاية، وتتركك أنت لتملأ الفراغات، ليس مجرد ترك، بل تملؤك بالولع والشغف لذلك.

- وهل يمكن خداع العقل ليختلق ما لم يحدث؟

- وهل يختلف هذا عن ما تفعله بكتابة الروايات يا إسماعيل، أحلام لتبرير العالم، هل تعلم لماذا يقضي البشر أكثر من ثلث حياتهم في النوم؟، ليس للراحة فقط، بل للتبرير، أحد الأشخاص وضع تحت قدميه زجاجة ماء ساخن فحلم أنه يتسلق قمة بركان إتنا، رشة الماء على الوجه أثناء النوم تتحول إلى هطول المطر أو تسرب الماء من سقف بيت في حلم، تسليط الضوء على الجفن النائم في مرحلة النوم تحيله إلى حريق أو برق صاعق، حتى العضلات والعظام والأنسجة التي تنمو وتعالج نفسها أثناء النوم يحاول العقل أن يبرر أفعالها بالأحلام، إذا صفعت شخصا نائما، أو ثار عليه ألم كدمة، سيختلق العقل حكاية كاملة في الحلم يفسر بها هذا الألم الطارئ، حكاية لا علاقة بها بما حدث، بينما يُقيد الذهن ما حدث في الحقيقة ضد مجهول.

- تصور لو أنك استيقظت من ألم كدمة خفيفة، أو لأن عضلاتك تنمو، أو لألم خفيف في عظامك.

- أتصور ذلك، وفي المقابل تصور أنت أن تظل نائما طوال حياتك، نوم كأصحاب الكهف، ثلاثمائة عام وتسعة أيام، فكر معي قليلا بماذا ستحلم في هذا النوم الطويل، هل ستحلم بأنك صرت نبيا واستطعت تغيير العالم، أم ستصل في أحلامك إلى حضارة الطائرات

والصواريخ الحاملة للرؤوس النووية.

- أنت تسخر مني، لا أعلم كيف عرفت بموضوع الكتابة ولكنك تسخر مني.

- سخرية مشروعة، لا أنكر أن المجاز هام لحياة البشر يا إسماعيل، بشرط أن يظل مثل سحر القبعات والأرانب والشرائط الملونة التي تخرج من فم الساحر، يجب عليه أن يظل في طفولته وأن لا يكبر أو يفكر إن بإمكانه تغيير العالم، المجاز هام لراحة عقل مكدود بعد يوم حافل ولكنه ليس كافيا لإنقاذه إذا أصيب بارتجاج أو صدمة.

- هل تفعلون هذا بكل المختبرين من أجل وظيفة؟

- ليس الجميع، جدك رجل عاقل، أعرف أن هذا سيحبطك ويغضبك، ولكننا نعلم منه حالتك منذ شهور، قرأنا بعض ما تكتبه أيضا، في العادة يأخذ الشخص الذي نختبره جرعة بسيطة، ولكن الحالات النادرة مثلك نعطيها جرعة مضاعفة، ليس من أجلك، إنما من أجلنا، من أجل مصلحة البشرية، فالاختبار بطريقته الأولى كان مجرد عبث، كرسي لكشف الكذب وأشكال مبهمة تراها لتطلق عليها أسماء، يقيسون خيالك بمساطر بدائية، كثيرون مروا بعد أن تم اختبارهم، تدرجوا في المناصب وصاروا جزءًا من قرارنا الرسمي الذي يحكم مستقبلنا قبل أن نكتشف الكارثة، هؤلاء أشخاص لا يُمكننا أن نعتمد عليهم، إنهم امتداد حي للفوضى، ولكنهم يملكون القرار ولا يمكن إطفاؤهم بضغطة زر.

- وهل نجحت تلك التركيبة الكيميائية فيما فشلت فيه الطرق التقليدية للاختبار؟

- بالتأكيد، الكيمياء منذ بدء الخلق وهي تصل بالعقل إلى السقف دون أن تضره، لأنها تصطحب القلب معها في رحلتها، كرسي كشف الكذب كان يتعامل مع عقول البشر كصفحات الورق، كائنات ذات بُعدين، لكن عقارنا يترك لنا الخيار، يتنبأ بمستقبلك ويترك لنا

الخيـار.

- وبماذا أخبركم عني العقار؟

الآن صـارت يـد (د) ثقيلـة بالفعـل، تـكاد تـرض كتفـي أو تخلعهـا مـن مكانهـا.

- لـم يخبرنـا العقـار، أنـت مـن أخبرتنـا تحـت تأثـيره، هـذه الرائحـة لـم تفشـل قـط، وإن اختلـف مفعولهـا حسـب قـوة الواقعـين تحـت تأثيرهـا.

- وبماذا أخبرتكم أنا عن نفسي؟

- أخبرتنـا أنـك شـخص خطـير يـا صديقـي، لا أخفيـك سرا، اللجنـة التي اجتمعـت لمناقشـة حالتـك أوصـت بتحييـدك.

- لهذه الدرجة؟

- بالطبع، منذ متى وأنت تكتب يا إسماعيل؟

- لا أتذكر، كل شيء مختلط في ذهني الآن.

- لا تقلـق، سـتزول هـذه الآثـار مـع الوقـت، أرح ذهنـك قليـلا، احـكِ لي عـن جـدك قليـلا، مـا الـذي تفعلانـه معـا ليكـون بينكمـا هـذا التناغـم والحـب؟

- لماذا تكرهون كاتبي الحكايات؟

- لا نكرههم.

- لماذا أنا إذن رجل خطر في ظن لجنة التقييم؟

- لا تأبـه بذلـك، لقـد أقنعتهـم بأننـا قـادرون عـلى تقييمـك، والاسـتفادة منـك، أخـبرني، أيـن نحـن الآن؟

- في فصل دراسي بمدرسة.

- جميل، هل ترى التلاميذ؟

- بالطبع، ألا تراهم أنت؟

- بالطبـع أراهـم، ولكـن ليـس كمـا تراهـم، أنـت لا تـزال تحـت تأثـير

العقار، وربما ظل معك بعض من آثاره الجانبية بعضًا من عمرك، أخبرني هل يبدو لك اسم الأستاذ سمعان مألوفا؟

ارتعدت عندئذ، وبذلت جهدا لأكذب عليه:

- سمعت عنه من قبل، إنه رجل دين.

- جميل، الأستاذ سمعان طرف أصيل في مناقشة أي حالة تشبه حالتك أو قريبة منها، منذ قليل وأنت نائم انعقدت اللجنة التي ناقشت حالتك، انعقاد صوري في غرفة محادثة سرية على الويب، حضر أ.سمعان متأخرا، دائما يحضر متأخرا، ولكنه منحني الوقت لأخرس كل من نادوا بتحييدك من اللجنة، أتعرف كيف فعلت ذلك؟، لقد طرحت اسم أ.سمعان نفسه لعلاج حالتك، إنهم يرون أن الإحالة إلى الأستاذ سمعان أسوأ من القتل، ولكني لا أراه كذلك، إنه رجل دين إسلامي كما قلت، سليل عائلة لا تعترف بالمدارس الحكومية منذ قرون من الزمان، يعترفون بنظام الكتاتيب والتلقين، الصياح في الأذن يثبت المعلومة في الرأس، حتى نساء العائلة كن يُعلمن، يحفظن الشعر لا لأجل الشعر ولكن لأجل استنباط فقهي أو تثبيت قاعدة في اللغة، الأستاذ سمعان شيخ عجوز ولكنه صلد، كل تقاريره الطبية تقول أنه سيموت خلال خمس سنوات على الأكثر، وللأسف ليس له تلاميذ نجباء، أو فلنقلها بصراحة: ليس له تلاميذ نرضى عن أدائهم، ربما يكون هو راضٍ عنهم بطريقته، لأنه عاش تجربة مريرة لا أعتقد أنها ستتوافر للجيل الذي يربيه الآن، وهو بحماقته يُجنب تلاميذه ما مر به ويميزه ظنًا أن فيه ما يشين، جزء كبير من خبرة الإنسان أن يقع في الخديعة وينجو، أما أنت فلا تحتاج للتجربة لتكون مثله بل أفضل، أنت واقع بالفعل في الخديعة والشهوة ولكنك في ظني تستطيع أن تنجو، وتحذر الناس من الإغراء، أنت يا إسماعيل تستطيع أن تفعل الكثير إن صح ما أتوقعه عنك وما أقنعت به اللجنة.

- ولو رفضت؟

- لو أنك تفكر في هذا جديا دعني أخبرك عن معنى كلمة تحييدك، سيقتلونك، لدينا سلطة بفعل ذلك، ولن يلومنا أحد.

سكت (د) قليلا ليبتلع ريقه، ويرى الأثر الذي خلفه تهديده على وجهي.

- ستخرج من هنا الآن، أعرف أنك غاضب، ولكن صدقني، أنا واثق أنك ولابد وأن تجد الجرأة يوما على أن تحمد الله وأن تشكرني، وأريدك فقط أن تعلم أن الحوار الذي دار بيننا الآن على مسئوليتي الشخصية، اللجنة خيرتني بين أن أخبرك وأن لا أخبرك، وأنا اخترت أن أخبرك، ستحتاج للمعرفة هناك، عند الأستاذ سمعان، لتستمر وتتحمل.

رفع يده من فوق كتفي ولكن الثقل ظل كما هو، أولاني ظهره ومشى حتى وصل لمكانه الأول، أشار لأحد التلاميذ فهرع لمسح السبورة، بعد أن انتهى جلس (د) على منضدته، لم أتحرك من مكاني، على مدار ساعة لم أتحرك، ولم يتحرك أحد، لا التلاميذ ولا (د)، ظل منهمكا طيلة وجودي في مطالعة صف من الملفات ذات الأغلفة الملونة، لدرجة أنه لم ينتبه لخروجي.

***

لم أمر بسلسلة مرهقة من الإجراءات الروتينية لأحصل على ورقة الترشح لمدرسة سمعان الشنقيطي، أعطوني إياها على الفور، ظللت ممسكا بها في يدي وأنا أشتري حقيبة كبيرة للسفر من محل للجلود بجانب المحطة، ثم وضعتها في قاع الحقيبة الفارغة على ساقي عندما جلست على مقعدي بالباص.

عدت إلى أرض البيارات لأعبئ حقيبتي في صمت، كنت غاضبا من جدي، تجاهلت إلحاحه بأن أخبره بنتيجة الاختبار، ألقيت ورقة الترشح على المنضدة ليقرأها كأنني أمارس طقوس انتقام خفي لا أعرف سببه ولا نتيجته ولا إلى متى سيستمر، في البداية يبدو المصير طريا، تستطيع أن تتهم الآخرين بالتسبب فيه، ولكن متى مر الوقت عرفت أنه كان حتميا، وأن مدرسة أ.سمعان كانت في نهاية كل الطرق التي كان بوسعي أن أطرقها، المدرسة ذاتها كانت طريقا حتميا إليها، إلى إيلات، وإلى حسين، وإلى المقبرة.

لم أطلب مالا من جدي، كان لدي حسابي في البنك الذي يُحال إليه معاش أبي منذ توفي، وبمزحة قدرية اكتشفت أن المبلغ الموجود كاف لأسلك الطريق المخالف، وكأنني مخير، بدلا من الانضمام إلى المدرسة المخيفة كان المال كافيا لأنفقه على إقامة كاملة مدة ثلاث سنوات في مدينة شرسة حتى أعثر على طريقي الخاص، عرفت المسمى الوظيفي لأبي لأول مرة في حياتي وأنا أملأ الأوراق التي تثبت نسبي إليه، سائق درجة أولى بشركة توصيل، أي أزمة وجودية يمكن أن تثيرها مهنة كهذه، أي قيمة يمكن أن يخلفها وجود كهذا؟

وأنا أكتب الرقم الضئيل في خانة الصرف قمت بنسخ اسم شركة النقل الخاصة التي كان يعمل فيها أبي على ورقة، لماذا قمت بذلك، وكأن ضياع جدي بوشايته بي جعلني أبحث عن هويتي الأقرب.

من تليفون خاص بالزبائن في استقبال البنك حصلت من الدليل على رقم الشركة واتصلت بها، باعتباري زبونا.

- أريد سيارة لنقلي إلى مدرسة أ.سمعان، المكان وسط البلد، أتمنى لو كان بإمكانكم إرسال سائق على ضمانة شركتكم، سائق قديم، نعم، معي حقيبة خفيفة ومبلغ نقدي كبير أخاف عليه، وأعاني من فوبيا القيادة المتهورة والشباب الذين يتعاطون، بوسعي الانتظار، نعم، لم أتعامل مع هذا الاسم من قبل، ولكن هل يعمل معكم منذ ما يزيد عن عشر سنوات؟، جيد، أقبله، أشكركم على الخدمة الجيدة.

نجحت خطتي مبدئيا، فالسائق الذي أقلني من أمام البنك أخبرني بأنه يعمل بالشركة منذ أربعة عشرة عامًا وثلاثة أشهر ويومين وثلاثة عشرة ساعة ونصف، لكنه لا يتذكر اسم أبي ضمن العاملين بالشركة، قال هذا بثقة تقترب من البرود، وبروح أقرب إلى روح المدينة التي لا تأبه لأحد، ولكن عقدة لسانه انفكت بعد أن غادرنا المدينة المزدحمة، اتصل بزميل له في الشركة يعمل على كمبيوتر يتيح له البحث الدقيق عن الأسماء، فتح السماعة الخارجية ليُسمعني الحوار، أكد الموظف أن هذا الاسم لم يسبق تعيينه بالشركة في أي مجال بغض النظر عن القيادة بسيارة، وأن الاسم الوحيد المشابه له في اللقب الأول هو شاب يعمل بالنظافة بالمكتب الرئيسي ويكنس الآن الممر بمقشة.

في النصف الأول من الطريق إلى المدرسة مررنا على مدينة ملاهي ضخمة، وصوامع غلال مخروطية الشكل تعطي إيحاءً كأنها سلال مصنوعة من الغاب، من وقت لآخر تمر السيارة بجانب باصات الرحلات المدرسية الصاخبة، ثم تتباطأ أمام المطاعم السريعة التي تقف أمامها تلك الباصات لترييض الطلاب وشراء المشروبات الباردة، وأمام مدخل مدينة الملاهي كان الزحام ثقيلا كشارع في مهرجان سنوي، والصرخات تأتي من أشباح الألعاب الخطرة البعيدة، صرخات ريفية حقيقية كأن جنازة خرجت لتوها من مسجد.

باقي الطريق كان مريحا وباعثا على النوم كأنني في مطبخ عائلي، مصانع البطاطس المقلية والصلصات والمربى والأجبان والمكرونة، السيارات الفان الصغيرة تدخل وتخرج ملونة بالكامل كخنفساء احتفالية بإعلانات منتجاتها، بداخلها سائقون مكفهرون يقضمون شطائر بنوع من التصميم والتعاسة وعيونهم على الطريق كأنهم ينزعون فتيل قنابل يدوية ويبحثون عن مارة ليلقوها عليهم.

ثم بدأت حرارة الصيف تأخذ طابعها الصحراوي والطريق الأسفلتي يلتمع من شدتها ويتموج تحت الإطارات الكاوتشية، السيارة تتأرجح وتتماوج وتهدهدني كأنني في مركب نيلي، ومن وقت لآخر يلوح مبنى حجري صغير متهدم لنصفه، أو تمر من فوقنا أسلاك الضغط العالي ذاهبة إلى مدينة بعيدة، ثم بدأت روح المدرسة الخاصة تلقي ضوءًا كابيا من بعيد وبنوع من التآمر المعماري على العزلة، حتى بعد أن اقتربت لم يكن واضحا عليها أنها كافية لتأوي حياة واحدة، ملأت تقييم الرحلة للسائق الممتن للبقشيش الجيد ثم نظرت إلى ساعتي، استغرقت رحلتي ساعة وربع، حملت حقيبتي وشكرت السائق وأشهرت ورقة الترشح للحارس الأسمر.

***

في مكتب شئون الطلبة سجلت اسمي وتاريخ حضوري، وبعد قليل من التقاطهم لصورتي على كمبيوتر المدرسة سلموني بطاقة انتماء ملونة، الصورة المنعكسة لشاشة الكمبيوتر على النافذة الزجاجية خلف موظف التسجيل أظهرت بجلاء الرمز الفخم للمدرسة على نافذة الدخول إلى أرشيف المدرسة، ما لم أفهمه هو رمز وزارة الداخلية المجاور لرمز المدرسة، كان هذ يعني أن مدرسة أ.سمعان تابعة للداخلية وليس لوزارة التعليم العالي.

المبنى السكني لم يكن بعيدا عن مبني شئون الطلاب، ولكنني درت قليلا في الممرات الباردة أستكشف المبنى مستمتعا بالتخفف من

حقيبتي الثقيلة، كان الهواء مظلما ولكن الأصوات والروائح أعطتني صورة للمكان، في جزء من الممر سمعت تكتكة ماكينة خياطة ورأيت ظل خياط منكفئ يرتق ثوبا في غرفة تفوح منها رائحة ملابس قديمة، ثم مررت بصالة واسعة لغسل الملابس وكيها عن طريق غسالتين أوتوماتيكيتين ومكواة تعمل بالبخار، بعدها رأيت نافذة قوطية صغيرة بالكاد تمرر قطة تفوح منها رائحة المطهرات ومكتوب فوقها بخط نسخ بديع (الصيدلية)، عرفت فيما بعد أن الطبيب يأتي مرة واحدة في اليوم لمدة ساعة، تقله سيارة الموظفين النهاريين للمدرسة وتعود به، وأن مكتب الطبيب داخل الصيدلية، الدور السفلي كان به استراحة المشرفين وغرفة التلفاز وغرف الطلبة المعاقين التي يسميها طلبة الأبنية الأخرى بنوع من السخرية المُهينة (كهوف الزواحف).

خرجت إلى الشارع الداخلي، كانت الأبنية مقسمة ومسماة على أسماء الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق أول مبنى بعد مبنى شئون الطلاب مباشرة، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان وهو المبنى الذي يحتوي دوره السفلي على المطعم، ثم علي بن أبي طالب، يلوح مبني واحد للفتيات بعد مباني الفتية، عرفت فيما بعد أن الفتيات كن أقل عددا على مدار السنوات لذا لم يخصصوا لهن أكثر من مبنى واحد، سُميت أدواره بنفس النظام على أسماء أمهات المسلمين خديجة بنت خويلد، سودة بنت زمعة، عائشة بنت أبي بكر، حفصة، وجويرية.

رُشحت للسكن في المبني الأول، أبي بكر الصديق، بناء على ترتيب اسمي الأبجدي، أعطوني وسادة طويلة محشوة بالقطن وبطانيتين وصينية من الاستانلس، وقبل أن يحل المساء كنت راقدا على سريري في غرفة صغيرة، غرفتي، وبشفتين مزمومتين بدأت على الفور في تدريباتي النفسية، محاولا استجلاب ألفة لم أستطع الحصول عليها في جولة وصولي القصيرة، الأرق كان نتيجة طبيعية للمشاهد

التي ازدحمت بها عيناي بعد سفر مرهق، زحام هائل تحت جفني كان كافيا لتأريق قبيلة كاملة من البدو الرحل الذين اعتادوا النوم في العراء.

خارج جدران غرفتي ظللت أسمع نداءات متتالية، كلها أسماء تبدأ بحرف الألف: أحمد، أمجد، إبراهيم، لم يُنادِ أحد باسم إسماعيل، شعرت بالعزاء الخفيف لذلك وحمدت الله إذ أن نداءً واحدًا باسمي كفيل بإيقاظي إذا نمت.

كانت هناك أصوات أخرى لم أفهم معناها في وقتها، أقدام تمشي في الممر، أقدام حافية في شباشب مبتلة تغرغر مع كل خطوة، وصوت طقطقة في الجدران وصيحات وضحكات وأبواب تُغلق وتفتح، فيما بعد عرفت أن اليوم هو الأول في جدول الاستحمام الأسبوعي، يوم الاثنين، غلي الماء يتم في مرجل الماء عند المبنى الأخير ويتم ضخه في مواسير بالمباني من بعد صلاة الظهر وحتى قبل الغروب بقليل.

أتذكر أول لقاء لي مع حبر العقاب كلقاء مع رجل شرير قاس اللحم، حتى ذكرياتي مع الكارديوم تتضاءل إلى جوارها، بعد أن أنقذني من أرق ليلتي الأولى بالمبنى السكني طالب من طلبة السنة النهائية دق على الباب ليصطحبني إلى مخزن المبنى، هناك قام بصرف كتب لي وصندوق مغلق من ورق الكرتون المقوى ظل يخشخش وأنا أحمله ضما إلى صدري، وعندما لاحظ طالب السنة النهائية حيرتي الناتجة من جهل جغرافيا المكان تبرع بتوصيلي حتى غرفتي، كل هذا دون أن يتبادل معي كلمة زائدة عن الحاجة، وضعت الكتب على المنضدة الوحيدة بغرفتي، فتحت الصندوق بحرص، أطل علي من قاع الصندوق ثلاثة أقلام بيضاء فارغة وثلاث زجاجات مليئة بالحبر، تركتها وحملت الكتب مثل كنز صغير إلى سريري، الاحتفاء بالكتب عادة ملازمة حتى لو لم تكن الكتب التي تحبها، خاصة

إذا كانت مطبوعة حديثا ومُجلدة بجلد سميك، ظهر جلدتها يحمل عبارة واحدة غريبة (الجهل يستوجب العقاب، أما المعرفة تستوجب القتل، الجهل ليس عذرا شرعيا هنا).

كان مع الكتب ثلاث أجندات فخمة ومذهبة الحواف، على أولها مكتوب بخط أندلسي (ما يُكتب ليُمحى) وعلى الثانية (ما يُكتب ليُحفظ) أما الثالثة فكُتب عليها (الصف الثالث النهائي)، رقدت قليلا على ظهري أتأمل صفحاتها، وأقرأ الأحاديث النبوية المطبوعة على طرف كل صفحة من أعلى، ثم خطر لي أن أكتب اسمي على الكتب والأجندات ليسهل العثور عليها إذا ضاعت.

قمت، جذبت زجاجات الحبر ورصصتها بعناية أمامي على النضد، كانت زجاجات كبيرة، تكفي الواحدة منها لملء عشرين خزنة من خزنات الحبر التي يضعها جدي في لوحة التحكم، ومن السهل فتحها، فتحت الأولى، عبأت أحد الأقلام منها وأغلقتها، ثم فتحت الثانية وعبأت منها القلم الثاني وأغلقتها، ثلاثة أقلام وثلاث أجندات وثلاث زجاجات من الحبر، لا يحتاج الأمر لعبقرية، من كثافة الحبر خمنت نوعه، لابد أن أحد نوعي الحبر من السهل محوه، والآخر ثابت كما تشير العبارات المكتوبة على الأجندات(ما يُكتب ليُمحى) و(ما يُكتب ليُحفظ)، ماذا عن دواية الحبر الثالثة، الخاصة بالصف الثالث النهائي، فككت الغطاء وبمجرد أن كشفته فاحت من الزجاجة رائحة عفن خانقة وانتشرت في الغرفة على الفور وكان لها مفعول غريب على أعصابي، أخذ قلبي يدق بشدة كأنني ارتكبت خطأً فادحا، أحكمت رباط الغطاء بسرعة وقمت بتشغيل مروحة السقف على سرعتها القصوى وفتحت النافذة الوحيدة على مصراعيها وعدت إلى منضدتي.

بعد أن هدأت عدت للاستلقاء وأخذت كتابا لأتصفحه، فونت الخط مقاس ٧٢ تقريبا، بحيث لا تتسع الصفحة إلا لعبارة أو عبارتين،

عبـارات وُضعـت للصيـاح والحفـظ ، وكان هـذا الخاطـر هـو آخـر مـا جـاءني قبـل أن أستسـلم للنـوم.

***

لـم تكـن إلا فكـرة ذهنيـة، راودتـني في الليلـة الأولى بمدرسـة أ.سـمعان بعـد أن خفّـت قبضـة العقـار الـذي سـمم ذاكـرتي، ملخصهـا أن مـا أخـبرني بـه رجـل الاختبـار كان حقيقيـا، أغمضـت عيـني متمثـلا الفكـرة، استيقظت في ذاكـرتي بصـورة حقيقيـة صـورة الأعمـدة النحاسـية والحبـل الأخـضر الـذي يربـط بينهـا، وقفـتي هنـاك في ضـوء الشـمس، وعـلى بـلاط البورسـلين اللامـع رأيـت وجهـي المرهـق، كان الأمـر شـبيها بشـبح حيـاة أخـرى تتجـول بداخـلي حاملـة حـدث واحـد يتكـرر بـدأب دون أن أصـل لنهايتـه، وفي هـذا الحـدث كنـت أتسـاءل: هل سـأطوح بسـاقي فـوق الحبل دون أن أُسـقط الأعمـدة النحاسـية أم سـأعبر كمـا حـكى لي رجـل الاختبـار مسـقطا إياهـا بحماقـة؟، فكـرت أن أطـوح سـاقي بسرعـة وعاليـا لأسـتفيد مـن القصـور الـذاتي لثقـل قدمـي، تنفسـت بقـوة في الحقيقـة لأفعـل فنجحـت في خيـالي، الآن صـار نصفـي خلـف الحاجـز والنصـف الآخـر خارجـه، والآن أعـرف أنـني أوقعـت أحـد الأعمـدة النحاسـية بالفعـل، لـم يعـد ثمـة مجـال للعـودة الآمنـة ولا للتقـدم والفـوز، فتحـت عيـني ولكـني ظللـت عالقـا في فكـرتي، أفتـح عيـني وأغلقهـا، بينمـا الحبـل الأخـضر يشـق كيـس الصفـن كمـا يشـق بلطجـي حلـق رجـل خائـف بمطواتـه مطالبـا إيـاه بكل مـا يملـك، ومـا الـذي في جعبـتي عـلى أيـة حـال، هـل سيدعوني لأكتـب إذا عـبرت مـن فـوق الحبـل دون أن أُسـقط الأعمـدة النحاسـية في حُلـم يقظـة سـخيف بينمـا أنـا متـورط بكليـتي في الحقيقـة؟، أي سـخافة، فتحـت عيـني بقـوة دون أن آبـه لرنـين الأعمـدة النحاسـية الـتي سـقطت، وعندمـا عـدت لإغماضهمـا نمـت بـلا أرق وبـلا أحـلام..

***

# الفصل الثاني

## وفيه بعض تفصيل ما حدث لإسماعيل في مدرسة أستاذ سمعان الشنقيطي

(الجهل يستوجب العقاب، أما المعرفة تستوجب القتل، الجهل ليس عذرا شرعيا هنا)

مع عبارات أخرى استقبلتني ممرات المدرسة العتيقة، عبارات مكتوبة فوق لوحات خشبية خضراء ومعلقة في المسافات بين الفصول، هنا أريقت أطنان من الرضا والخضوع والدهشة والأمل، صياح الطلبة وهم يرددون معا عبارات مُدغَمة منغمة أفزعتني وآلمت قلبي، رغم أنها لا تفزع العصافير الغاطسة برأسها في حوصلتها تتأمل الوارد الجديد، في بؤبؤ عيونها التي لا تتجاوز حجمها حجم الخرزات رأيت أوراق خميلة ملتفة الأغصان رغم أن لا شجر في الفناء إلا الشجرة التي يقفون عليها، أهذا ما جعل العصافير تصمد للبقاء كل هذه القرون، الأمل مرسوم في عينيها رغم أنه ليس موجودا في الواقع، هل تشبه هذه الخميلة خميلتي التي طالما حلمت أن أصنعها بكلماتي؟

بشبق استنشقت رائحة الحبر مع هواء الصيف الساخن وأغمضت عيني محاولا أن أتخيل أرفف الكتب والأوراق البيضاء التي تكتسي بالحروف كما تكتسي الأشجار بالأوراق الخضراء، ولكنني كنت مضطرا أن أفتح عينيّ على اتساعهما مرة أخرى لأرد على اتساع عيون الآخرين وهم يراقبون خطواتي، لم أستطع تمييز العبارات التي يرددونها، فحاولت أن أسقط عبارات يافطات الممر على صياحهم (ال جاه لو يستو جبو العقابو) هذه العبارة بالذات كانت منتشرة أكثر من أي عبارة أخرى: الجهل يستوجب العقاب.

المدرس المشرف عليّ أخرني إلى ما بعد طابور التمارين الصباحية ودخول الطلبة إلى فصولهم، ثم أرشدني إلى فصلي الدراسي، كان به طلبة أصغر مني سنا، ولكنهم عاملوني بحكمة قل أن أجدها عند الكبار، ورغم أنني لم أستطع إلا اللحاق بنصف حصة إلا أن الجالس بجواري تبرع بشرح النصف الأول لي بمجرد أن انتهت الحصة.

لم يكن بالمدرسة جرس لتوقيت الحصص، كانت سماعات داخلية في الفصول تنادي دبر كل حصة أن (الله أكبر الله أكبر الله أكبر ولله الحمد)، صوتا هادئا لرجل، أخبروني أن هذا هو صوت الأستاذ سمعان، سألت من تبرع بالتبيان لي بصوت قريب من الهزل:

- هذه مهمة عظيمة للأستاذ سمعان ولكن لنفترض أن الأستاذ سمعان غفل عن نهاية الحصة، كان يأكل، أو يقضي حاجته، كان غائبا باختصار، أليس هناك من يحل محله؟

ولكن التلميذ خلفي لم يلحظ السخرية، قام نصف قومة واعتمد بكوعه على ظهر الكرسي وأجابني هامسا وبسرعة بينما تلفح أنفاسه أذني اليسرى:

- الأمر ليس كما تظن، لو أنك منتبه لرأيت الرسم التوضيحي أمام غرفة الأساتذة، مصدر الصوت هو المئذنة العالية الموجودة في طرف المدرسة، في داخلها ساعة تعمل بنظام التروس القديم، كل ساعتين وهي مدة الحصة يتم تعشيق منظومة تروس الساعة أتوماتيكيا في أسطوانة حديدية من البرونز لا يزيد قطرها عن خمسة سنتيمترات، وطولها ثلاثون سنتيمترات، سطح الأسطوانة ملئ ببزز كالشوك القصير الغليظ، عندما تدور الأسطوانة ببطء فيلامس ورقة من المعدن مثبتة أعلاه، الورقة عبارة عن شرائح متجاورة مرنة تدفعها البزز وترفعها وتهبط بها فتصنع جرسا قريب جدا من الصوت الآدمي، هذا الصوت يمر من خلال رقين غشائيين ملئ بينهما ماء مشبع بفلز نادر، يعمل الماء كمنقي للصوت، فينتج عنه الصوت الآدمي الأصلي الذي تم على أساسه بناء وإسقاط البروزات والشرائح على الأسطوانة والورقة المرنة

ثم عاد الطالب للوراء وأسند ظهره إلى مقعده قائلا في انتصار:

- وهو صوت الأستاذ سمعان.

- لماذا كل هذه التعقيد؟

كان هذا سؤالي على الشرح الطويل، أجابني الطالب باستنكار:

- لأن الجرس من شعائر النصارى في الكنائس، والبوق من شعائر اليهود.

- ولكن هذه المنظومة تشبه صناديق الموسيقى، هل تعرف الصناديق، تفتحها فتظهر فتاة البالية وترقص وتدور بينما تعزف الموسيقى.

- نعم، رأيتها في محلات الساعات.

- بالضبط.

ما بين الحصة الثانية والثالثة أتيحت لي الفرصة لأتأمل رفاق الفصل، لهجات مختلفة من اللغة العربية وملابس وإن توحدت نوعا ما إلا أنها وشت ببلدان مختلفة، كنا كمجموعة من الببغاوات النادرة الذين حبسوهم في قفص واحد بعد أن أتوا بهم من غابات مختلفة ليؤدوا أغنية واحدة، أغنية لا كفر فيها.

ثم بدأت الحصة الثالثة بدخول المدرس المفاجئ، على الفور ودون إضاعة وقت كتب على السبورة الخضراء بخط عريض (فقه)، ثم أسفل منه باب الطهارة، ورص مجموعة من العبارات بخط كبير واضح، وبمجرد أن استدار ودون مقدمات بدأ الطلبة في ترديد العبارات بهتاف وتزامن معا وبنغمة لا تخطئها الأذن، في أول دهشتي لم أردد العبارات معهم، بل ربما احتشد قلبي باستياء خافت حتى بدأ المدرس في تصفح وجوهنا وجها وجها، ليس الوجوه بل الشفاه تحديدا، وأثناء ذلك كان البشر والغضب يطفئ وجهه ويضيئه، تدريجيا أخذت شفتاي في التقلقل، وبدأت أردد مسحوبا خلفهم بهدير الأصوات الصارخة، وكان المدرس يصيح إزائنا مشجعا من وقت لآخر في لهجة جادة تماما لا مسرحية فيها:

- أريد هذه الجدران أن تتشقق، وهذا الباب أن يُخلع من إطاره، أريد أن تفجروا بأصواتكم نبع ماء من تحت أقدامكم.

ورغم أنني لم أفهم غالب الكلمات إلا أنني شعرت براحة في الانجراف مع الشلال والصياح (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) (إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث) (دباغ جلود الميتة طهورها) (العين وكاء السّه)، وكان المدرس العابس النشط يتجول بين المناضد ويراقب الأفواه وينحني بأذنه قريبا منها، حتى إذا تشبع بالصوت أشار كمايسترو ليتوقف نصف الفصل عن الهتاف فيبذل النصف الآخر أقصى ما في طاقته للحفاظ على مستوى الصوت، ثم يسرع إلى السبورة ويقوم يمسح جملة من أعلى ويكتب جملة أخرى جديدة، وهكذا انقضت ساعتان، عندما غادر المدرس وساد الصمت شعرت بحالة طفو وخفة فائقتين وتذكرت وصف جدي لصعود ملكي اليمين واليسار إلى السماء.

***

انتهى اليوم الدراسي قبل صلاة العصر بقليل، تخللته فسحة للتريض لم أخرج خلالها من الفصل، لم أحب الاختلاط بالطلبة، وحتى عندما قال صوت الأستاذ سمعان عبر السماعات إيذانا بانتهاء اليوم (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه) انتظرت حتى خرج جميع الطلبة من الفصل ثم خرجت خلفهم، عبرت الممر هابطا سلالم الدور الثاني من بعده، وسرت في الفناء، رأيت المئذنة بزاوية عيني اليمنى وأنا أسير، استعدت الوصف الغريب للطالب عن منظومة الصوت، فقلت في نفسي:

- ها هنا شخص ما حضر رفع الحروف، تؤرقه فكرة نهاية الزمان، مثل جدي الذي يحتفظ بالكتب في أجولة مبطنة بالمشمع، وهذا الرجل، لا أعرف من هو بالضبط، ربما كان الأستاذ سمعان أو من وظفه هنا، بأسطواناته البرونزية التي تحفظ الأصوات بطريقة لا يمكن تشويهها إلا بمطرقة حديدية..

هذا الخاطر أتاني بلا جهد وبلا تأمل، ولكني كنت أحتاج للجهد

والتأمل لتحليل أحداث يومي المتشابكة، للفهم على المستوى الأساسي السطحي لما درسته وهتفت به طيلة نصف نهار كامل، وللفهم على المستوى المرادف، ما الذي أفعله هنا؟، بجوار كل هؤلاء الطلبة ومدرسيهم السادرين في غيابهم عن العالم، نعم، فقد صرت الآن أكثر ميلا لتصديق حكاية جدي عن نهاية العالم، إن كانت هذه هي الطريقة الأفضل للحياة والتي اختارها العالم لمن هم مثلي فنهاية العالم قريبة بالفعل، كل هذه الأفكار تركت رأسي وهبطت تحوم كغربان سوداء في فضاء معدتي الخاوية، تذكرت جوعي، إن كان بي فضل طاقة على التفكير فلأنفقها على تذكر الطريق إلى مطعم الطلاب كما وصفوه لي.

***

- خمن، ما نوع الطعام الذي سيقدمونه لنا اليوم؟

في طابور مطعم الطلاب سألني طالب يقف أمامي، أدار نصف وجهه ورمى السؤال دون أن يبذل جهدًا ليخفي فخره بذكائه ومكره وأقدميته، كيف عرف أنني طالب جديد؟، كان يفوقني طولا، يلقي على ظله بينما نحن واقفان في طابور طويل، الطابور تحكم حركته جدران لا تصل إلى أسفل الصدر، تصميم الجدران تشبه متاهة لاستيعاب أكبر قدر من الطلبة في مساحة صغيرة بأقصى قدر من النظام، أول أفراد الطابور الذين بدأوا باستلام طعامهم والانتشار في ردهة المطعم الواسعة كانوا بعيدين جدا عن وقفتنا، سألني الطالب فاستنشقت رائحة الطعام المنتشرة في الهواء، هذا سمك مقلي، حشوة من الثوم والكزبرة المطحونين، هذه الرائحة لا تخطئها أنف رجل عاش في البيارات، نصف طعامه سمك بجميع وصفاته.

وقبل أن أجيب قال الطالب:

- لم تعرف بعد، لا عليك، اليوم عدس، عدس وأرز وبيض مسلوق.

- ولكن الرائحة؟

قاطعني وكأنه يعزيني:

- لا تقلق، لم يخمن أحد من أول مرة أبدا، لابد من مرتين على الأقل وقدرة فائقة على الملاحظة لتجيب على السؤال.

هذا القدر الهائل من الثقة وراءه حكاية كما أن وقوفنا الآن حفاة في طابور الطعام وراءه حكاية، فبعد انتهاء الدراسة عندما صعدت إلى غرفتي، ووضعت الكتب بعد أن خلعت ملابسي، تأبطت الصينية المعدنية ووضعت الملعقة في جيب سروالي القطني نزلت سالكا طريق المطعم، اندهشت وكلما اقتربت زادت دهشتي، كل الطلبة الذين يحملون الصينية مثلي حفاة، عداي أنا، لدرجة أنني لم أجد صعوبة في الوصول للمطعم، فقط تتبعت خيط الطلبة الحفاة، على باب دخول المطعم رأيت أحد العاملين وفي يده مسدس من

البلاستيك يلصقه بالمعصم الأيمن للطلبة ويضغط الزناد فتصدر منه تكة خافتة ويمر الطالب، المطعم ليس بوفيهًا مفتوحًا، إنها وجبتان طوال اليوم هذه إحداها، والمسدس يطبع تاريخ اليوم والوقت بحبر يزول بعد ساعات، نظر عامل المسدس لحذائي منبها بخشونة:

- حذاءك يا شيخ، اخلع حذاءك.

شيخ!، على كُل، خلعت حذائي ووضعته تحت إبطي معتقدا أن المطعم من الداخل مفروش بالأبسطة، والطلبة يأكلون جالسين على الأرض كما ينبغي لشيوخ الفتة والثريد، ولكني فوجئت عندما دخلت: أرضية المطعم وأرضية ممرات الطابور التي أسير عليها ليس عليها قطعة حصير واحدة، بل عشرات الطاولات والكراسي الخشبية.

- لماذا تسيرون حفاة؟

سألت الطالب الفخور بأقدميته عن السبب فأجابني:

- يا زميلي الجديد، ألم يخبرك قيم المبنى، كان يجب أن يخبرك.

- لا، لم يخبرني، فأنا جئت منذ الأمس فقط.

- ولو، هل ستنتظر جائعا حتى يخبروك؟

ثم تنهد وقال:

- صالة المطعم كانت مسجدا فيما مضى، لهذا نحن ملزمون بتناول الطعام حفاة مراعاة لسابق تاريخ المكان، تماما كما فعل موسى مع الله عز وجل في الوادي الطاهر بسيناء (اخلع نعليك إنك بالواد المقدس)، المكان الذي يُقدس لا ينبغي لأحد من البشر أن يخلع عنه قدسيته.

ظلت هذه العبارة ترن في رأسي، أكثر من رنين ملاعق الطلبة على الصواني المعدنية، تحرك الطابور بسرعة، وبمجرد أن وصلت

إلى الكونتر المفتوح فعلت كما فعل الطالب الذي سبقني، لقمت طرف صينيتي لفتحة الكونتر فسحبتها مني يد لا أراها، وبعدها كان علي مطاردتها وهي تتنقل من يد لأخرى بينما توضع فيها أصناف الطعام تلالًا صغيرة، ثم انفلت إلى فضاء ردهة الطعام الواسعة.

العدس كان دافئا، ثخينا جدا واستقر على الصينية المسطحة دون أن يفقد شكل المغرفة التي وضع بها، لم يخذلني الشكل الهندسي في تنقلي من مائدة لأخرى باحثا عن مكان فارغ لأتناول طعامي، ثم اضطررت في النهاية إلى ترصد طالب كاد أن ينهي وجبته منتظرا إياه حتى يُخلي مكانه، وعندما جلست صار لدي وقتٌ للتأمل، نظرت حولي وأنا أمضغ ببطء فرضه علي التكتم و الخجل من أن أفتح فمي أمام الغرباء وأنا أمضغ طعامي، لا شك أن القائمين على المطعم لم يفكروا في تهيئة الجو المناسب، ولا حتى تركوا هذا الجو فارغا، ثم وجدت نفسي أتخيل الحكاية بشكل هزلي، أفراد اللجنة وهم يطوفون في المطعم حفاة قبل افتتاحه، وبعد أن أرسوا قواعد كل شيء، كل شيء تقريبا، اكتشفوا أنهم أهملوا شهية الطلبة في هذا الجو الصحراوي، ومع وجبات كالعدس والبيض المسلوق كان من المستحيل وضع زهور على الموائد كفواتح للشهية في هذه المعجنة البشرية فضلا عن جلبها من المدينة القريبة يوميا، هل سنطعم الطلبة أم سنشتري زهورًا؟، ربما فكروا أن يضعوا على الجدران لوحات تصور مناظر طبيعية، لوحات جمادات ليس فيها شبهة، الشواطئ والأشجار والسماء والأقمار، ثم انتهوا إلى قرار لابد أن أ.سمعان هو من اقترحه.

درت بعيني على الجدران متسائلا بيني وبين نفسي بسخرية: ما نوع اللافتات التي توضع لطلبة مجدين في نهاية يوم دراسي لتساعدهم على الهضم، لافتات تعليمية لا تختلف عن لافتات الردهة (الجهل يستوجب العقاب، أما المعرفة تستوجب القتل، الجهل ليس عذرا

شرعيا هنا).

وربما كان لذلك فائدة غير تزيين الجدران العارية، الفائدة التي أشرقت في ذهني وأنا أقرأ اللافتة الوحيدة فوق الكونتر حيث يتم تسليم الطبق الرئيسي (العدس) والمكتوب عليها (من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) اتسعت عندئذ ابتسامتي الخفية وكادت تتحول إلى قهقهة عالية، هذا هو سر الطالب الفخور إذن: لابد من مرتين على الأقل وقدرة فائقة على الملاحظة، إنهم يُسقطون النصوص على مفردات حياة الطلبة، ليس هناك حرص أشد من هذا الحرص على أن تختلط القواعد الأساسية بدمائهم ولحمهم.

***

كان الوقت ليلا، قبل منتصف الليل بنصف ساعة، عندما أيقظني طالب السنة الأولى الذي تبرع لي بشرح منظومة الصوت في الفصل:

- يا إسماعيل، يا إسماعيل.

لم أدرك في البداية كيف دخل إلى غرفتي، قمت نصف قومة، كان في يده كشاف صغير ساطع من النوع الذي يُعلق في سلسلة المفاتيح وكان يكتم ضوءه بكهف يده فيشف الشرايين الرقيقة في أطراف أصابعه الحمراء، همس:

- هل استيقظت؟

- ماذا تريد؟

- تعال معي، لا تصدر صوتا، ارتدِ ملابس ثقيلة، وسأنتظرك عند المشاية أمام باب المبنى.

أطفأ الكشاف وسمعته يتلمس طريقه في الظلام، فُتحت شريحة من الباب وانصب منها نور الممر وانفلت منها مثل سمكة.

أيًا كان ما يحدث فهو غير شرعي، ولكنني لن أخسر شيئًا، ارتديت فوق ملابس النوم جاكت الجلد وارتديت سروالًا إضافيًا وخرجت

حافيا وحذائي تحت إبطي،أمام باب المبنى كان الطالب واقفا يتلوى من الانتظار، بمجرد أن رآني أشار إليّ أن أتبعه وسار في الناحية الأخرى من البوابة الكبيرة سالكا المساحات الفارغة خلف المباني السكنية، توقف أمام خزان السولار القريب من السور وصعد سلمه الحديدي وصعدت خلفه، وقف على حافة الخزان وقفز منه إلى السور وسرعان ما اختفى في الناحية الأخرى، فعلت مثله فوجدت نفسي أهبط على أرض رملية وتفسح بصري في ظلام الصحراء المقمر، وكان في الظلام خمسة أشباح إضافية غيرنا.

صاح أحدهم:

- هل هذا هو الطالب الجديد!، لماذا أتيت به؟، كان يجب أن تخبره أولا.

زام رفيقك، وتجاهل الملاحظة، ولم يصر عليها الآخر، ثم بدأوا بتعريف أنفسهم

- أمجد، أشرف، إبراهيم، أدهم.

وقال رفيقي: أبان، وقلت أنا: إسماعيل، وقال فتى أكبر منا جميعا: أحمد

كان واضحا أن أحمد هو قائد المجموعة، طالب من السنة الثالثة أو الثانية، وأن الجميع من مبنى حرف الألف، جلست على الأرض وارتديت حذائي، كان الرمل رطبا، فركت يدي بالرمل لتتخلص من رائحة السولار التي علقت بها.

سارت القافلة الصغيرة بسرعة ولم يضئ أبان كشافه إلا بعد ربع ساعة من المشي في الصحراء المقمرة، وعلى إثر إضاءته أضيئت كشافات مختلفة الحجم والقوة من أفراد القافلة وتقاطعت خطوط أضوائها في السماء وكأنها أضواء كاشفة ساعة غارة جوية

همس أمجد (أو أشرف) في أذني:

- هل تعرف أن ضوء الكشاف إذا سلطته في عين ذئب يجمد حركته؟

- لا، لم ألتقِ ذئبًا من قبل.

توقفنا بعد أن ابتعدنا عن سور المدرسة مسافة كافية، وفي مكان مطروق جلسنا القرفصاء على شكل حلقة، ثم اعتدل أحمد وجلس على ركبتيه جلسة التشهد في الصلاة، وقبل أن يتكلم أخرج من جيبه طاقية بيضاء وكبسها على رأسه:

- بعد الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الخلق، فما اكتمل أمر إلا بالحمد والصلاة على النبي المصطفى، لا يخفى عليكم جميعا وأنتم من أنتم زبدة الصفوة من طلبة مبنى أبي بكر الصديق، هذا المبنى الذي حمل على عاتقه طوال السنوات المنصرمة مهمة حمل الراية، نحن الأزهريون الجدد لا نرضى عن أداء أستاذ سمعان ولا رضوخه لطلبات الحكومة، ونريد أن تكون مدرستنا نقطة انطلاقة حقة إلى التحرر من سطوة الداخلية على مدارسنا، أنا أحمد طالب بالسنة الثالثة، وأعمل في أطروحتي الفقهية: هل الأصح هو النزول لجلسة التشهد في الصلاة بالركبة أم اليدين، وهي أطروحة من الصعوبة بمكان، ولكن دوري كرجل دين وكزميل قبل كل شئ يحتم علي استقبالكم وإيضاح الأمور لكم بشفافية قد لا تجدونها من مدرسينا ومشايخنا، أي أسئلة؟

رفع أبان يده فسمح له أحمد:

- هل صحيح ما يقال أن أحد طلبة المدرسة يهودي؟

- هذا سؤال شائك يا أبان، ولكن سأجيبك بقدر ما يسمح لي احترام مدرسينا، نعم، صحيح ما قلته، اسمه يوسف، إدارة المدرسة تعرف ذلك، جميع طلبة الصف الثاني والثالث يعرفون، إنه دسيسة وضعته الحكومة لنا بطلب من حكومة إسرائيل لتبرهن لها على أن التدريس بالمدرسة خال من معاداتهم.

- ولماذا لا يطالب المدرسون وطلبة الصف الثالث بطرده؟

- لا تتعجل التمكين يا أبان، من الضروري أن يفهم الطلبة أولا أن مناهج التدريس تبعدهم عن الانشغال بالقضية الرئيسية، والاهتمام بقضايا فرعية لا طائل من ورائها.

رفع إبراهيم (أو أدهم) يده فأجازه أحمد للحديث:

- لماذا نتخفى، ولماذا لا نعقد اجتماعاتنا بغرف المدينة الجامعية؟

- نتخفى لأننا ضعفاء، والأستاذ سمعان يتعامل بالحزم مع كل ما يسبب له الإحراج مع الحكومة، وهذه نقطة يجب أن نفهمها جيدا، أستاذ سمعان مضطر ولا يجب أن نلومه، نقطة أخرى، ما يحدث في الغرف وما نتفوه به هناك يصل إلى الداخلية، يجب علينا أن نتوخى الحذر، أشد الحذر.

رفع طالب آخر يده وقال:

- لماذا طلبة مبنى أبي بكر الصديق دون بقية المباني؟

- هذا سؤال ذكي، يوجد طلبة آخرون من المباني المختلفة، ولكنهم كامنون، لا يعرفهم أحد، وفي حالة اكتشاف أمرنا سيتم تصعيدهم ليحصلوا على فرصتهم في تبيان الحق للطلبة الجدد.

قلت عندئذ:

- وما الهدف من هذه الاجتماعات السرية؟

نظر إلي احمد باستياء منبها: ممنوع المبادرة بالكلام دون إذن يا إسماعيل.

- الهدف كما قلنا، إيضاح الامور الملتبسة، شرح ما يطرأ من أحوال وما مضى من أكاذيب، وسنبدأ بأحداث المحنة الكبرى والكارثة التي تم تزويرها عمدا في التاريخ والمسماة برفع الحروف القرآنية المقدسة، وما نتفق عليه وما نختلف فيه مع السلفيين الجدد من نقاط وبيان تهافت التفسير الساذج الذي يُروج له لرفع القرآن.

ثم قال في عجلة:

- هـل مـن أسـئلة أخـرى؟، حسـنا، لنعـد الآن فالوقـت تأخـر، وأخـاف أن يمـر المشرفـون عـلى الغـرف بعـد منتصـف الليـل في تفتيـش مفاجئ، سـنعود غـدا ، هيـا بنـا.

تحركـت القافلـة الصغـيرة عائـدة إلى المدرسـة، قبـل السـور بقليـل أشـار أحمـد بيـده فتوقـف الجميـع، ثـم قـال:

- حمـدًا لله عـلى سـلامتكم يـا شـباب، سـنعود بترتيـب خروجنـا، وسـيظل أبـان وإسـماعيل للنهايـة، هيـا.

انتظرنـا، تسـلق رفاقنـا السـور اثـنين اثـنين، مـا بـين كل اثـنين فـترة كافيـة لدخـول المبـنى السـكني، وعندمـا ذهـب آخـر اثـنين انحـنى أبـان لأقفـز فـوق كتفـه ثـم جذبتـه، سرنـا صامتـين وافترقنـا دون تحيـة، لـم يكـن الحديـث ليتحمـل زيـادة عـن مـا قيـل.

***

نمـت نومـا متقطعـا خلـط أحـداث الليـل بالنهـار، ولـولا ابتسـامة أبـان المتآمـرة في الصبـاح لاعتقـدت أن أحـداث الليـل كانـت حلمًـا ثقيـلًا، مـر اليـوم بصعوبـة بالغـة، تثاءبـت أكـثر ممـا رمشـت بعيـني، وكلمـا تثاءبـت دس النـوم العنيـد قبضتـه الليـنـة في فمـي وأبى أن يخرجهـا، تعرفـت عـلى بعـض رفـاق الليـل في فسـحة التريـض، وسـألت أبـان عـن الطالـب اليهـودي: يوسـف، أيـن هـو؟، فأجابـني أن يوسـف طالـب يرسـب عمـدا، ولا يحـضر الحصـص

نزلـت إلى المطعـم مبكـرا عـن ميعـاد الأمـس، حافيـا متأبطـا صينيـتي كأي طالـب عتيـد، وقفـت في الطابـور، أثنـاء دوران الطابـور قـرأت المكتـوب عـلى اللوحـة أعـلى نافـذة الطبـق الرئيـسي (حـتى الحيتـان في المـاء يسـتغفرون لطالـب العلـم رضًـا بمـا يصنـع)، كانـت الوجبـة سـمكًا مقليًـا بحشـو الثـوم المهـروس والكزبـرة الخـضراء.

وجـدت مقعـدا فارغـا بـدون انتظـار، وبينمـا تمتـلئ المناضـد حـولي بسرعـة هائلـة ظـل الطلبـة محتفظـين بوتـيرة حماسـهم الشـديدة، بينمـا

ترفـع الإثـارة أصـوات نقاشـاتهم درجـات أعـلى مـن المسـموح بهـا، حتى الطلبـة القدامى الوقـورون أدلـوا بدلوهم في المسـألة بحكـم أقدميتهم، فالسـمك وجبـة محظـورة عليهـم لأنهـا تسـبب النـوم ورائحتهـا لا تـزول بسـهولة وتنـشر الفـوضى في المدينـة السـكنية، حـتى في المـرات النـادرة الـتي قدمـوا فيهـا سـمك كوجبـة أساسـية، كان يُقـدم مشـويا وبـاردا، غـير ناضـج أو محترقـا، وهـذه هـي المـرة الأولى الـتي يقـدم فيهـا سـمكٌ مقـليٌ، وأيضـا محشـو بالخلطـة!

لقـد توقعـت هـذه الوجبـة في الحـوار الـذي دار بيـني وبـين الطالـب القديـم بالأمـس، اللفـظ الأدق لـم أتوقعهـا بـل تنبـأت بهـا، ولـم أتنبـأ بهـا اعتباطـا، الرائحـة مـلأت رئـتيّ

طـار الكسـل والرغبـة في النـوم، وسرت بداخـلي الإثـارة الـتي سرت في الطلبـة، ربمـا كان هـذا أحـد الأعـراض الجانبيـة للعقـار الـذي اختـبروني بـه، أن أشـم روائـح الغـد عـلى حقيقتهـا، ثـم فكـرت سـاخرا، لـو اسـتمر الأمـر معي عـلى هـذا الحـال لاسـتطعت أن أتكسـب مـن هـذه الموهبـة الطارئـة بـدلا مـن العمـل كفقيـه في زمـن لا يحتـاج النـاس فيـه إلى الفقـه، ومـن يعلـم؟، ربمـا اسـتطعت إدهـاش هـؤلاء الطلبـة السـلفيين في الفصـل بتوقعـاتي عـن الوجبـة غـدا، ولـن يندهشـوا فحسـب بـل سـيهتز إيمانهـم بالقـدر.

رفعـت أنفي عـن صينيـتي واستنشـقت، محـاولا النفـاذ مـن خـلال نـدف الرائحـة الحقيقيـة المحيطـة بي للسـمك المقـلي، باحثـا عـن الرائحـة الأخـرى المجازيـة، ربمـا كان عـلي أن أكـرر نفـس ملابسـات الأمـس، كنـت حينهـا بعيـدًا عـن ردهـة الطعـام، ليـس بعيـدا ولا قريبـا، الرؤيـة والمعرفـة كلاهمـا كانـا خامتـين لـم يتشـكلا، وربمـا عـلي أن أغمـض عيـني وأصفـي ذهـني، حـتى لـو ظـن بي الطلبـة الجالسـون بجـواري الظنـون، كفـأت وجهـي وأغمضـت عيـني، أتـت محـاولاتي بنتيجـة مبدئيـة مشـجعة، لـم أعـد أشـم رائحـة السـمك الآن، هنـاك رائحـة أخـرى ولكنهـا ليسـت

رائحـة طعـام، الصيـاح حـولي أشـد مـن أن يجعلـني أركـز، وددت لـو بإمكاني أن أصيح فيهـم ليتوقفـوا عـن الـكلام، ثـم دهمـني الـدوار بعـد أن عـثرت عـلى الكلمـات الـتي تصـف مـا علـق بأنفي، الرائحـة تشـبه رائحة شيء أولي ولكنــه نتــج في أحــوال غــير طبيعيــة، رائحــة عــرق مختلطــة بطعـام طُبـخ سـلقاً، الـدوار جعلـني مرهقـاً، أفقـدني شـهيتي، جعلـني محتــلا ببســاطة لدوامــة أخــرى مــن الأفــكار والرغبــات الــتي لا صبر لي عليهـا، رغبـة آثمـة إن صـح القـول، معـي الحـبر والـورق والأقـلام والفكرة وخلـوة طيلـة ليلـة لـن يقاطعـني فيهـا أحـد، والأهـم مـن ذلـك كلـه فكـرة أول قصــة ســأكتبها مــن وحــي مدرســة ســمعان، ألتهــم نصــف ســمكتي بالـكاد وأحمـل بملعقـتي النصـف الآخـر إلى طبـق جـاري المندهـش قبـل أن يشـكرني عـلى هديـتي، وغـادرت المطعـم.

***

بـدأت الكتابـة بعـد عـودتي مـن مطعـم الطـلاب مبـاشرة، وبعـد أن فكـرت مليـا، لـم يكـن بـاب غرفـتي مـزودا بمـا يؤمـن دخـول أحـد بشـكل فجـائي واكتشـاف أمـري، فكـرت في أن أضـع مخـدتي الطويلـة خلـف البـاب وأعضدهـا بالمقعـد وأسـتعمل السريـر كمقعـد بعـد أن أسـحب منضـدة الكتابـة إليـه، ولكنــه مجــرد دفــاع واه ســيثير الشــك أكــثر ممــا يمنــع الاقتحـام ، ثـم جعلـت وضـع جلسـتي عـلى المنضـدة بحيـث يتيـح لي رؤيـة البـاب عندمـا يُفتـح بشـكل طبيعـي، هكـذا يتسـاوى المتسـللون بخفـة والذيـن يصخبـون في دخولهـم.

جلسـت وفتحـت أجنـدة (مـا يُكتـب ليمحـى) في منتصفهـا، عـددت أوراقـا فارغـة رجوعـا لأبـدأ الكتابـة قبـل المنتصـف، هكـذا سـيكون مـن السـهل عـليّ أن أنـتزع الصفحـات الـتي كتبتهـا دون أن أتـرك أثـرا، ولكـني تحـيرت بـأي القلمـين سـأكتب، الحـبر المتطايـر أم الحـبر الثابـت، الحـبر المتطايـر سـيتيح لي الفرصـة أن أنقـح قصـتي في الغـد، أمـا الحـبر الثابـت فسيسـتهلك أوراقـا قـد أحتاجهـا فيمـا بعـد، واسـتقر قـراري سريعـا أن

أكتب بالحبر المتطاير حتى حين، لدي الليل بطوله.

بدأت في الكتابة، دون أن أضع عنوانا لقصتي، ومن منتصف الأحداث مباشرة، كما اعتدت قراءته في الروايات ذات الصفحات المنزوعة، عن رجل ذي جدول مزدحم بالأعمال في مدينة يعتمد ناسها على أنف متنبئها للكوارث، سميته أبان:

(يقولون في المدينة أن حريقا لم يشب في مكان إلا إذا كان خاليا وأن بيتا لم يقع إلا إذا كان فارغا من سكانه، وأن أحدا لم يمت بالمفاجأة، كما أنه لا يوجد مكان لم يزره (أبان)، البيوت الفخمة ومخازن الغلال والبنوك ومحطات الوقود والمطارات وغرف النوم، فإذا سعل ودمعت عيناه كان هذا دليلا على أن حريقا سيشب خلال أيام، أما إذا سعل فقط ووضع منديلا على أنفه واستطاع أن يتنفس دون أن تدمع عيناه، بحثنا عن الشروخ في البيوت الآيلة للسقوط ورحل عنها سكانها.

كان أبان تعيسا جدا بموهبته، وكثيرا ما كان يحتاج إلى التسرية من وقت لآخر، وانتزاع رئتيه وأنفه من المستقبل والتغلب على نوبات الصداع والاكتئاب الحاد، فكان يزور ثلاجات الموتى، المكان الوحيد الفارغ من احتمالات الموت لأنه ساهم بموهبته في إفراغها، وهناك كان يتشمم الأدراج الفارغة التي كان مقدرا لها أن تفوح برائحة الملح واليود لأنهم أغلقوا الشاطئ، والأدراج الأخرى التي كانت ستعبق برائحة لا تُحتمل من زيت الفرامل ووقود السيارات المحترق لأنهم أغلقوا الطريق السريع في اليوم السابق، وكان يشعر بالضياع الذي تسبب فيه بزوال الموتى، يشعر برعدتهم ووحدتهم لأنهم أصبحوا كائنات عدمية.

يوما بعد يوم بدأ يشعر بالسخرية من موهبته ويفقد تصالحه الشخصي مع القدر، وبعد أن جمع أبان ثروة طائلة صارت ثقته بموهبته لا تُحتمل، ولم يعد يستطيع التعامل مع نبوءاته بجدية

بـل ويفسـدها عمـدا، ويـدأ في اتخاذهـا صفـة هزليـة لـه، لعبـة مسـلية، وكـرب أسرة كان يعـرف قبـل أن يتغـوط طفلـه بسـاعات فيفسـد الفرصـة عـلى الخـراء أن يتلـف الحفاضـة الرخيصـة، ويخـبر زوجتـه بثقـة أن تـسرع إلى المطبـخ لأنـه لا يحـب الأرز المحـترق.

كان المسـتقبل قبـل ولادة أبـان وفي جـزء كبـير مـن حياتـه قابـلًا للتغيـير، بمعـنى أن البـشر لـو تمكنـوا مـن قـراءة المسـتقبل بطريقـة مـا لـن يصبحـوا أسرى لقالـب الزمـن المصمـت، بـل سـيكون بإمكانهـم أن يتحركـوا في عـشرات المسـارات المرادفـة للحيـاة بمجـرد تنبـؤ أبـان بفشـل المسـار الأسـاسي، فالمـكان الـذي سـيحترق أو يقـع سـيحترق أو يقـع ولكـن يمكـن إخـلاؤه، وزوجتـه يمكنهـا أن تجهـز أرزا آخـر غـير الـذي احـترق قبـل أن يحـترق ولا تتأخـر في إعـداد الغـذاء، غضـب القـدر مـن ثقـة أبـان ولـم يـنزع منـه الصفـة لكيـلا يصبـح شـهيدا أمـام النـاس، ولكنـه أفسـد الاسـتثناء، أصبـح المسـتقبل غـير قابـل للتغيـير ولا فـرارًا مـن قالبـه الـذي صبتـه اليـد العلويـة، وتحولـت موهبـة أبـان إلى كابـوس، رغـم أنـه امتلـك بالعجـز قـدرات نصـف إلـه إن صـح القـول، وأصبحـت الحقائـق الثابتـة حقائـق مطلقـة حينئـذ، الحقائـق المطلقـة صفـر في المقـام، ومهمـا كانـت بسـاطة الحـدث كان لا نهائيـا مرعبـا، وتأقلـم أبـان مـع التعديـل الجديـد في موهبتـه مـع كثـير مـن السـخرية، فبـدأ يداعـب زوجتـه عندمـا تسـأله مـاذا تريـد عـلى الغـذاء غـدا بـأن يخبرهـا بأنـه يريـد كـذا ولكـن لا مفـر لأنهـا سـتطبخ كـذا رغمـا عنهـا، وأخـذ يسـلي نفسـه بأحاديـث أخـيرة مليئـة بالسـخرية مـع الأمـوات المسـتقبليين الذيـن تفـوح منهـم رائحـة عفونـة مبدئيـة خاصـة إذا كان الصيـف حليفـه، وانتقـل مـن الطـرق البطوليـة لجمـع ثروتـه بإنقـاذ النـاس إلى طـرق ماكـرة لجمـع ثـروة أكـبر مـن بيـع اطمئنـان الغـد للقلقـين، مـرضى المستشـفيات الذيـن لا أمـل في شـفائهم، والمسـافرين عـلى الطائـرات، والبحـارة الذيـن يودعـون زوجاتهـم عـلى الشـواطئ المهلكـة، ثـم اختفـى أبـان مـن المدينـة ذات يـوم حامـلا ثروتـه الطائلـة، لقـد أصبـح بوسـعه أن يبـني مملكتـه الخاصـة

وأن يهرب من موهبته للأبد.

وفي قرية بعيدة جدا عن المدينة احتشد مهندسون وعمال مهرة لبناء قصر ريفي كبير لشخص غامض وتدور حوله الشائعات، يتحدث الناس عن ذلك الغني صاحب القصر ومصدر ثروته، وعن الأبهة المبالغ في تجهيز القصر، ورغم الشائعات المفزعة إلا أن أهل البلدة الريفية انتظموا في طابور طويل بمجرد أن طلب صاحب القصر خدمًا وموظفين وسائقين للعمل عنده، فقد كانوا فقراء لدرجة يُرثى لها .

وبعد أن انتظم العمل في القصر، وسكن أبان الغرف العالية فيه مع زوجته وأولاده، وأوكل إدارة الأمور إلى رئيس خدم قلق ولم يأمره إلا بشيئين، أن يظل حريصا على تعطير جميع الغرف والصالات بالعطور الفاخرة أولا بأول، وأن يلتزم الصمت التام والسرية تجاه بعض الزيارات من أناس غامضين بملابس فاخرة والتي تنتهي بخروجهم باكين أو فرحين، أما الباكون منهم فلا يعودون مرة أخرى، وأما الفرحون فيعودون مرارا وتكرارا.

وكانت الحياة مستقرة لعام كامل إلا أن أبان أحس ذات مساء بالملل، وبمجرد انبلاج الصباح طلب من كبير الخدم أن يجمع له جميع موظفيه، والمكان: ردهة القصر الواسعة.

البستانيون وسائقو السيارات والطباخون والحلاق الخاص وحتى الفلاحون الذين يزرعون حقول السيد الثري، قائمة طويلة مرهقة كان على كبير الخدم أن يجمعها قبل الظهيرة ويتعامل معها بحيث لا يضر دخولهم وخروجهم أبهة القصر وأبسطته الفاخرة، وفي هذا الجو البارد أخذ العرق يتصبب منه وهو يروح ويجئ ولكن مهمته تمت بنجاح ودون خسائر تُذكر، وكعادة كل الفقراء في الدنيا كان أول تخميناتهم توجس بالشر، سرى بينهم همس خافت أن السيد الثري يفكر في تصفية ممتلكاته وطردهم، كان القلق يأكل قلوبهم وتعلقت

وجوههم بوجه رئيس الخدم الشاحب الذي أكد شحوبه ظنونهم رغم أنه لا علاقة له إلا بخوفه من إفساد أحذيتهم لأبسطة القصر، ولكن وجوههم لم ترتفع إلى السيد الثري عندما ظهر أعلى السلم الرخامي هابطا بتؤدة وثقة بالغين، ثم وفجأة وكأنه قرر أن لا يقترب أكثر توقف في منتصف الدرج وبدأ يتكلم، قال إنه يمتلك موهبة نادرة، أو هبة من الله إن لم نُرد إغضابه بالتعدي في القول، فبإمكانه أن يعرف متى سيموتون، وبأي طريقة، إن كانوا سيموتون على أسرتهم وبين أهليهم أم في حوادث الطريق أو محترقين أو في مبني متهدم أو غرقا أو بالزلازل أو أو... هذا جنون، صرخوا بها في داخلهم وإن نطقت وجوههم بالدهشة المصطنعة والإعجاب، وما الذي تطلبه أيها السيد الثري مقابل هذه الخدمة المريعة؟، لا شيء، كل ما أطلبه من الشخص الذي سأخبره بموته أن يزور كل بيوت القرية ويخبر ساكنيها أنه سيموت وأن من تنبأ له بهذا هو سيد القصر.

وقبل أن يصعد السيد الثري الدرج عائدا وقبل أن يشير لهم بيده الناعمة لينصرفوا أشار لمساعد البستاني الجديد وهو فلاح شاب التحق بالعمل حديثا، شاب مخلص وجاد لدرجة أنه استطاع أن ينهي تشذيب أشجار القصر كلها في أسبوع، وكانت طقطقة مقصه لا تهمد لدرجة أزعجت الجميع، وأقلقت نومهم، أشار إليه أبان قائلا في لهجة عادية وكأنه يخبره أنه تمت ترقيته بسبب خدمته:

- وأنت، نعم أنت أيها الشاب، ستموت غدا، ولكني أعفيك من الثمن الذي طلبته من الجميع، فقط لأن وقتك ضيق.

ورغم عدم تصديقه إلا أن الوجوم ضرب وجهه بالاصفرار، وكأن جزءًا من سقف الردهة اختاره من بين الجميع وسقط على رأسه، بدأ الجميع في الانصراف عدا الشاب، وبينما ينبه رئيس الخدم بزعيق هامس أن:

- حذار أن تلامس ملابسكم الكراسي المذهبة، لا تمرروا أصابعكم

القـذرة عـلى الجـدران وأصابـع البيانـو والكـؤوس والمزهريـات واللوحـات الفاخـرة.

بينما باطنه يهتف:

- مـا هـذا العبـث؟، تبـا لهـذه الأمـوال الـتي تجعلـه فخـورا واثقـا عابثـا بالنـاس لهـذه الدرجـة، كان يمكنـه أن يأمـرني أن أجلـب لـه فتـاة ريفيـة ليعبـث معهـا، لـن يُعـيّر في بلدتـه بمخـدوم شـهواني بقـدر مـا سيُعيّر الآن بجنونـه.

بينمـا في جـزء خفـي منـه يهمـس لـه رئيـس خـدم آخـر غـيره، حزيـن ويتكلـم بفحيـح وفـزع كأنـه يعيـش في اللحظـة الأخـيرة مـن كابـوس مريـع.

- سـيموت الرجـل، الآن علمـت لمـاذا ينقطـع النـاس الباكـون عـن العـودة ويعـود الآخـرون مـرة بعـد مـرة حـتى يغيبهـم البـكاء.

ثم وكز مساعد البستاني صارخا فيه:

- هـل سـتظل طـوال النهـار هنـا؟، أو ربمـا تفكـر في أن تمـوت هنـا عقابـا لنـا، هيـا، تحـرك مـن هنـا، خـذ بـاقي اليـوم إجـازة، وتعـال مـن الغـد، أو أقـول لـك لا تـأت في الغـد، غـدا إجـازة أيضـا، لا يمكنـك أن تمـوت وتعمـل في نفـس الوقـت.

تهلـل وجـه مسـاعد البسـتاني، فحـتى لـو كان سـيموت غـدا، فـإن يومًـا ونصـف إجـازة وبأجـر أمـر يسـتحق الفرحـة، وتهلـل وجهـه أكـثر عندمـا أخـرج لـه رئيـس الخـدم جنيهـين مـن جيبـه: خـذ خـذ، اشـتر لنفسـك طعامًـا جيـدًا تشـتهيه، لا أريـدك أن تمـوت وأنـت تشـتهي شـيئا.

كاد الشـاب الفـلاح عندئـذ أن يلقـي نفسـه في أحضـان رئيـس الخـدم مـن شـدة الامتنـان، لـولا أن تأخـر خطوتـين للخلـف بسرعـة وهـو يشـير لـه أن ينـصرف، بينمـا يغالـب دموعـه الـتي انبجسـت بمجـرد أن أعطـاه مسـاعد البسـتاني ظهـره..

***

عند هـذا الجـزء وضعـت عنوانًـا لقصـتي (نبـوءات سـيد القـصر)، واستعدت قـراءة مـا كتبتـه منهـا، ثـم شـعرت بعيـني يغـزل فوقهمـا خيطَ الوسـن عنكبـوتٌ لا أراه، وأخـذت أرمـش لأزيـح مـا يغزلـه العنكبوت ولكنـه كان أقـوى وأكـثر نشـاطا مـن مثابـرتي عـلى إتمـام القصـة للنهايـة، ثقلـت رأسي وتمغنطـت إلى سـطح منضـدة الكتابـة حـتى التصقـت، ولـو استمررت نائمـا في هـذا الوضـع لكنـت استيقظت في الصبـاح بألـم هائـل في الرقبـة والظهـر وعضـلات ذراعـي، ولكـن مـا حـدث أنهـم دخلـوا، انزلـق البـاب ودخـل أولا الرجـل العجـوز ذو اللحيـة البيضـاء المتراخيـة بينمـا انفرط مـن خلفـه عقـد أربعـة رجـال واحتلـوا الغرفـة، النـور مضـاء ورأسي منطـرح فـوق مـا كتبتـه، اضطـروا لتحريـكي وحملـوني إلى سريـري حيث مـددوني برفـق بينمـا احتـل الرجـل العجـوز مقعـدي أمـام أجنـدتي المفتوحـة، ويـدأ يقـرأ بعنايـة شـديدة المكتـوب فيهـا حـتى أنهـاه بسرعـة، ثـم قـرب الصفحـة الأخـيرة مـن أنفـه وتشـمم أسـطرها وأخـرج بخاخـا صغـيرا مـن جيبـه وصوبـه تجـاه الصفحـات الـتي كُتبـت، صفحـة تلـو أخـرى، كل صفحـة ينتظـر حـتى يجـف رذاذ البخـاخ ليقلـب الصفحـة التاليـة ويكـرر الفعـل، ثـم أغلـق الأجنـدة ودسـها تحـت إبطـه وهـو يقـوم مشـيرا للطلبـة أن يسـبقوه بالانـصراف، وبخفـة بالغـة تحركـوا، ومد الرجـل العجـوز يـده ليغلـق نـور الغرفـة وأغلـق البـاب بعنايـة خلفـه.

***

إن كان هنـاك شيءٌ تـاليٌ سـأظل أذكـره عـن أسـتاذ سـمعان بعـد قسـوته الـتي تتخـذ طابـع الملـل فسـيكون طريقتـه البوليسـية في التعامـل مـع الأمـور، يبـدو الأمـر في البدايـة مؤلمـا ثـم يتخـذ طابـع الهـزل، بعـض النـاس لديهـم سـادية في ذلـك، وحـتى لـو ظـن أنـه يقـدم لـك الحـق المطلـق في كـوب مـن المـاء سـيكون حريصـا عـلى أن يُسـقط بعضًـا مـن هـذا المـاء في طـوق قميصـك، عقـل مختلـف عـن عقـل أ.سـمعان يمكنـه أن يخطـط لمائـة طريقـة لمفاجـأتي قبـل أن يصـل للطريقـة الـتي فاجـأني

عنـد هـذا الجـزء وضعـت عنوانـًا لقصـتي (نبـوءات سـيد القـصر)، واسـتعدت قـراءة مـا كتبتـه منهـا، ثـم شـعرت بعيـني يغـزل فوقهمـا خيطَ الوسـن عنكبـوتٌ لا أراه، وأخـذت أرمـش لأزيـح مـا يغزلـه العنكبوت ولكنـه كان أقـوى وأكـثر نشـاطا مـن مثابـرتي عـلى إتمـام القصـة للنهايـة، ثقلـت رأسي وتمغنطـت إلى سـطح منضـدة الكتابـة حـتى التصقـت، ولـو استمررت نائمـا في هـذا الوضـع لكنـت استيقظت في الصبـاح بألـم هائـل في الرقبـة والظهـر وعضـلات ذراعـي، ولكـن مـا حـدث أنهـم دخلـوا، انزلـق البـاب ودخـل أولا الرجـل العجـوز ذو اللحيـة البيضـاء المتراخيـة بينمـا انفـرط مـن خلفـه عقـد أربعـة رجـال واحتلـوا الغرفـة، النـور مضـاء ورأسي منطـرح فـوق مـا كتبتـه، اضطـروا لتحريـكي وحملـوني إلى سريـري حيـث مددوني برفـق بينمـا احتـل الرجـل العجـوز مقعـدي أمـام أجنـدتي المفتوحـة، وبـدأ يقـرأ بعنايـة شـديدة المكتـوب فيهـا حـتى أنهـاه بسرعـة، ثـم قـرب الصفحـة الأخـيرة مـن أنفـه وتشـمم أسـطرها وأخـرج بخاخـا صغـيرا مـن جيبـه وصوبـه تجـاه الصفحـات الـتي كُتبـت، صفحـة تلـو أخـرى، كل صفحـة ينتظـر حـتى يجـف رذاذ البخـاخ ليقلـب الصفحـة التاليـة ويكـرر الفعـل، ثـم أغلـق الأجنـدة ودسـها تحـت إبطـه وهـو يقـوم مشـيرا للطلبـة أن يسـبقوه بالانـصراف، وبخفـة بالغـة تحركـوا، ومد الرجـل العجـوز يـده ليغلـق نـور الغرفـة وأغلـق البـاب بعنايـة خلفـه.

***

إن كان هنـاك شيءٌ تـاليٌ سـأظل أذكـره عـن أسـتاذ سـمعان بعـد قسـوته الـتي تتخـذ طابـع الملـل فسـيكون طريقتـه البوليسـية في التعامـل مـع الأمـور، يبـدو الأمـر في البدايـة مؤلمـا ثـم يتخـذ طابـع الهـزل، بعـض النـاس لديهـم سـادية في ذلـك، وحـتى لـو ظـن أنـه يقـدم لـك الحـق المطلـق في كـوب مـن المـاء سـيكون حريصـا عـلى أن يُسـقط بعضًـا مـن هـذا المـاء في طـوق قميصـك، عقـل مختلـف عـن عقـل أ.سـمعان يمكنـه أن يخطـط لمائـة طريقـة لمفاجـأتي قبـل أن يصـل للطريقـة الـتي فاجـأني

بهـا، طبـق بسـلة أخـضر وبـاب مغلـق وغريـب عجـوز ظهـر فجـأة مـن العـدم.

اسـتيقظت عـلى هجمـة الرائحـة عـلى أنفـي، نفـس الرائحـة الـتي استنبطتها مـن ردهـة المطعـم بالأمـس، شيء أولي ولكنـه نتج في أحـوال غير طبيعيـة، وعندمـا فتحـت عيـني لـم أسـتطع أن أحـدد، هـل الرائحة صـادرة مـن الطبـق الموجـود عـلى منضـدتي، رائحـة أقـرب لثمـرة خـروع مهروسـة رغـم أن المحتويـات بسـلة خضراء وجـزر، أم أنهـا صـادرة مـن العطـر الثقيـل للرجـل الغريـب العجـوز الجالـس خلـف منضـدتي ينتظـر اسـتيقاظي بـدأب، أم رائحـة الخـوف الـذي اجتاحـني عندمـا لاحظـت اختفـاء الأجنـدة وأدوات الكتابـة، أم أن هـذا كلـه مختلـطٌ بشـكل يصعـب التمـيز بينهـم، في لحظـة لطمتـني الحقيقـة، صـاح بهـا الفـزع في غـرف نفـسي الداخليـة وتـردد صداهـا صوتـا خافتـا ضعيفـا شـعرت بالخـزي حيالـه.

- أستاذ سمعان.

بالضبـط كمـا تخيلتـه، أشـبه بإصبـع وسـطى في يـد كتومـة، لحيتـه تبـدو كنهايـة ظفـر مقصـوص بينمـا العينـان والأنـف والفـم والجبهـة لا يسـبق أحـد منهـا الآخـر بالـبروز مثـل صـف في طابـور تفتيـش جيـش نظامـي، ظللـت وجهـه ابتسـامة فخـورة لجـزء مـن الثانيـة عندمـا نطقـت باسـمه ثـم عـاد لـه عبوسـه ونظراتـه الحـادة.

كان صوته شبيها بصوته في ميكروفون الفصل.

- الحكايـة الـتي كتبتهـا جميلـة يـا إسـماعيل، ولكـن كيـف جاءتـك فكرتهـا، أي جـزء مـن دراسـتك معنـا أوحـى لـك بهـا؟

اعتدلـت وقمـت، فكـرت أن أغـادر سريـري، لـم يكـن بالغرفـة إلا مقعـد واحـد احتلـه أسـتاذ سـمعان، قلـت متصنعـا الحـيرة:

- أي حكاية؟

- القصة، الأجندة التي أعطيناك إياها لتكتب فيها دروسك فكتبت فيها نبوءات سيد القصر.

- آه.

- أي جزء من دراستك أوحى لك بها؟

- كتبتها بالحبر المتطاير، لم أكن أنوي الاحتفاظ بها.

نظر إليّ في غضب كأنني سخرت منه:

- ولكني أنوي الاحتفاظ بها، أفعل هذا دائما، أحتفظ للآخرين بآثارهم قبل أن أرشدهم، عندما أنتهي سأعطيها لك لترى الفارق العظيم بين ما كنته وما ستكون عليه.

أ.سمعان ليس لديه وقتٌ يضيعه في اللف والدوران: الصفة الثالثة من صفاته والتي اكتشفتها عندما قال ذلك، مما شجعني أن أدخل في الموضوع مباشرة مثله.

- كيف يمر على وجودي عدة أيام فقط، وتضعني تحت المراقبة والاستجواب، هل تضع جميع الطلبة تحت نفس المراقبة؟

- ربما.

- ياله من أمر مرهق، ولكن سيسعدني أن أريحك من مؤنتي، لم أعد أرغب في إتمام الدراسة هنا، لم أعد أرغب في الوظيفة، سأغادر المدرسة، حتى دون أن أتناول طبق البسلة هذا.

- أرني كيف ستغادرها دون الشهادة التي تم إرسالك من أجلها، إلا إذا كنت تخطط للقفز فوق السور والسير في الصحراء ثلاثة أيام على الأقل.

غادرت سريري ودرت حول المنضدة، المساحة ضيقة واضطرتني للقرب منه منفلتا إلى النافذة القريبة، كنت جائعا، ولكن ليس لدرجة أن أتناول طعاما أعد بطريقة مسرحية، غير أنني كنت أرغب في أن أظل في طرف الغرفة الآخر، ليس نفورا، بل لإيجاد نوع من التوازن

الشكلي مع أ. سمعان، كأننا نقف على كفتي ميزان بينما نتبادل إضافة أثقال كُل في طرفه لنرى أينا سيرجح في النهاية، لا عداوة ولا بغض، فقط إضافة أثقال، والجسد كان الثقل الأول في المعادلة.

- سأحاول أن أتكلم باللغة التي تفهمها، لغة الحكايات، هناك حكاية قديمة عن شاب في مقتبل عمره مثلك، ذهب بطريقة ما للخدمة في قصر مليء بالدراويش الباكين، الدراويش من شدة البكاء لا يستطيعون النهوض ولا لإطعام أنفسهم حتى، أعطوه مفاتيح غرف القصر كلها، مائة غرفة وحذروه بشدة: كل غرف القصر ملك لك عدا الغرفة المائة لا تفتحها فتشقى، الشاب بدأ في فتح الغرف وكلما فتح غرفة وجد خلف بابها متعة لم يحلم بها أبدا، حتى أنهى الغرف كلها، لم يعد متبقيا إلا الغرفة الأخيرة، هل يمكنك أن تتوقع باقي الحكاية يا إسماعيل بصفتك كاتب حكايات؟

لم أرد فتطوع هو بالإجابة:

- الشاب فتح الغرفة الأخيرة فأصابه الشقاء حتى موته، هل تظن يا إسماعيل أن هذا الشاب كان محقا؟

- ستقول أنه ليس محقا لأنك أنت من يحكي الحكاية.

- أخطأت فهمي يا بني، هذا الفتى كان محقا في ظني، لقد تم استدراجه بشكل لا يمكن له مقاومته، وضع قدمه على أول السلم منذ فتح أول غرفة حتى انتهى إلى الغرفة التاسعة والتسعين، سلم طويل، إما أن يعود أو يتمم صعوده، فاختار الأيسر والأقل جهدا، لا تحكمه المتعة كما قد يقول الكثيرون ولكن يحكمه التسلسل، فقد ذاق من المتع أصنافًا لا حصر لها في الغرف الأخرى، أترى، هذه هي الإشكالية الحقيقية، استنساخ الحق مرة بعد مرة حتى يؤدي إلى الشقاء وإلى الباطل، حتى يستحيل عليك العودة إلى الحقيقة من كثرة ما تعدد المجاز، هذا الشاب لو كان لديه خياران فقط أو ثلاثة، ثلاثة أبواب وقيل له ادخل بابين ودع الثالث لكان الأمر يسيرا

عليه، ولاستجاب لمقولة الدراويش الباكين، لا تفتح الباب الثالث، أو فلنقل بعد أن ننتقل إلى حقيقتنا هنا.

ثم استدار أستاذ سمعان إليّ وهو يبتسم بمرارة:

- لا تفتح دواة الحبر الثالثة.

- وماذا كان في دواة الحبر الثالثة؟

- رائحة المجاز الحقيقية يا بني، الرائحة التي لا يشمها أحد، في هذه المدرسة مسموح لك بكل ما ترغب فيه، حتى كتابة الحكايات، ولكن بالروائح الحقيقية للأشياء.

- ماذا تسمون هذا الحبر؟

- حبر العقاب.

- أراهن أنكم وضعتم فيه نوعًا جديدًا من غاز الأعصاب.

ابتسم أ.سمعان لدعابتي ولم يرد فقلت:

- أنت تقول أنه لم يكن على أن أفتحها، والأمر ينسحب بالتالي إلى الدواتين الأخريين، ما كان علي أن أفتحهما بالتالي، هل أنت واثق من أن معظم تلاميذك المطيعين ما كانوا سيفتحون أي دواة منهما إلا بعد أن يؤمروا بذلك؟

- بالضبط، هذا بالضبط ما أود قوله، لو لم يفتح تلاميذي دواتهم ما كان هناك حاجة لهم في التعلم، العلم يورث الحكمة والسلوك الذي لا يضر بصاحبه ولا بالآخرين.

ثم أشار إلى الطعام وقال:

- تناول طبق البسلة قبل أن يبرد يا إسماعيل، هذه أولوية يجب أن نحافظ عليها، أن لا نُضرب عن الطعام لاختلافنا في الآراء، الجوع لا يحل مشكلة.

عدت وجلست على سريري وإلى منضدتي، أمسكت الملعقة التي كانت ملفوفة في ورقة بيضاء وفضضت الورقة من فوقها، دسست

الملعقة في طبق البسلة رأسيا مثل فلاح يغرس رفشًا في أرضه، وبدون شهية ظاهرة قلبت الملعقة إلى فمي وبدأت أمضغ، كان مزيجًا دبقا وحمل الشبع إلى جوفي على الفور.

لم يرفع أ.سمعان عينه من على وجهي، كان يبتسم وكأنه انتصر في معركة صغيرة تؤهله لمعركة أكبر.

- أبان هذا طالب السنة الأولى، أليس كذلك؟، ما الذي فعله أبان لك ليحظى بشرف وجوده في حكايتك؟

- كيف عرفت أنني فتحت الدواة الثالثة؟

- لماذا تهرب من الإجابات رغم أنني لا أفعل ذلك معك؟

ثم تنهد:

- أحد قوانين نيوتن تقول أن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة، ربما كان هناك ممن مر على في هذه المدرسة من هو أذكى منك، ولكنك أكثرهم بهجة يا فتى، أعرف ذلك لأنك قد خذلتني، خذلتني وشحذت همتي بشكل لم يسبق لي حدوثه منذ أعوام، وأتوقع أن أحصل منك على نتيجة جيدة، كُل كُل، أمامك طريق طويل، مرحبا بك في مدرسة أ. سمعان الشنقيطي.

***

ظللت حبيسا في الغرفة بإرادتي بعد انصرافه، جالسا على فراشي وقد فقدت الرغبة في الحركة، نمت عدة مرات واستيقظت، على رجع صدى الأصوات الآتية من الممر حاولت تحليل موقفي وعَد فرصي المواتية وغير المواتية، يتحرك الصدى بخفة مثل مزولة شمسية، في البداية كان بلوريا أشبه بصخب مجموعة من السكيرين الأغنياء الخُرس الذين يستعيضون عن الكلام والعراك بتهشيم كؤوس الشراب الرقيقة، وفي الظهيرة أصبح نحاسيا ترتد عليه أصوات قيم المبنى ومساعديه من عمال النظافة وهو يتمم غلق أبواب الغرف

وانصراف الطلبة إلى المدرسة، لم يلمس باب غرفتي مع ذلك كأنه يعرف أنني بالداخل، وبعد العصر صار خشبيا يدق عليه عجيج الطلبة وهم ينزلون ويصعدون الدرج ويتوزعون في غرفهم ذهابا وإيابا إلى المطعم ومنه، أما في المساء فكان أشبه بالصدى: صياح ساكنين جدد في شقة شاسعة فارغة وكانت روحي أنا أقرب إلى روح شبح ساكن قديم، شبح خائف من إخافة السكان، شبح لا يستطيع أن يسترد روحه وإحساسه بالهواء إلا في الليل العميق عندما أصبح الصدى حجريا.

في الصدى البلوري خشيت من مجرد الوصول إلى قرار، خشيت من العواقب، وعند تغير الصدى من مرحلته النحاسية ومرحلته الخشبية قررت البقاء، وما بين الصدى الذي يشبه الصدى والصدى الذي يشبه الحجر وصلت لأسوأ قراراتي ثم عدلت عنها، ثم شعرت بامتنان لأستاذ سمعان على طبق البسلة، لم يبد لي الآن استعراضيا، لقد مر بهذا الموقف من قبل، ليس كمريض وإنما كطبيب قاسٍ لا ينفي عنه تقطيع جلدك بالمشرط دعوى رحمته بك.

صباح اليوم الخامس غادرت غرفتي متأخرا عن الطلبة، ظهرت لي المدرسة بعد أن خلعت تنكرها، الطلبة كانوا يمرون بي مسرعين وهم يخفضون أصواتهم كأنهم يبخلون علي بفحوى حواراتهم الحميمية، حتى تأخري عن وجبة الإفطار لم أجد داعيًا للاعتذار عنه، أفسح لي عمال المطعم الطريق ولو لم أخلع حذائي تلقائيا لربما تركوني أدخل منتعلا إياه، تمددت أمامي مئتا اختيار للجلوس في مطعم فارغ يطارد فيه العمال الوسخ بجرادل ماء من الصاج ومساحات تروح وتجئ مثل رؤوس شريرة لساحرات مختبآت تحت الأرض، أعطوني خبزًا متقصف الأطراف ولكنه طازج وجبن وحبة طماطم واحدة وخيارتين ذابلتين، وعندما شرعت في الأكل استأنف العمال عملية النظافة الصباحية وكأنني لم أعد موجودا، فقط من وقت

لآخر يطلبون مني أن أزحزح قدمي ليمسحوا تحتها، وكنت أفعل ذلك دون أدنى شعور بالذنب، لقد اقتحموا كواليسي وأثاروا فيها الفوضى فلا أقل من أن أثير الفوضى أنا أيضا في كواليسهم.

وأنا جالس هناك مر عليّ أحد الموظفين وهو يحمل لافتة صغيرة مكتوبا عليها (كلوا من طيبات ما رزقناكم ومما أخرجنا لكم من الأرض)، قام بتعليقها مكان لوحة الأمس

ومما أخرجنا لكم من الأرض، الآن تحولت لعبة التنبؤ إلى لعبة لحل الكلمات المتقاطعة، من فوق الأرض أم من تحتها، تحتمل المعنيين، وبما أنهم أكلوا بالأمس بسلة خضراء وجزرًا فلابد أن طعام اليوم بطاطس (مهروسة، مقلية؟) مقلية، مر أحد العمال منذ قليل بجواري حاملا زجاجة زيت ضخمة،

تُرى، ما الذي كان مكتوبا في لوحة الأمس يدل على البسلة والجزر؟؟

بعد أن انتهيت من الإفطار توجهت إلى المدرسة، انتظرت حتى نهاية الحصة الأولى ودخلت إلى الفصل في بداية الحصة الثانية، عندما دخلت التفغت إلى الطلبة وأفسحوا لي مكان أول أمس في رهبة، اختلطت بهم، ظلوا يعاملونني بحذر وود غريبين طوال الحصص الأولى، وفي فسحة التريض خرجت معهم.

- إسماعيل، يا إسماعيل.

ناداني أبان في ممر الفصول ولم يكن صوته وديا وإن تكلف ابتسامة صغيرة متشككة، تمهلت حتى جاورني ثم قال:

- سر ونحن نتحدث.

سرت معه حتى خرجنا للفناء واختلطت أصواتنا بصخب الطلبة:

- ما الذي حدث؟

- ماذا؟

- لماذا زارك أ.سمعان بالأمس، كل طلبة الألف رأوه في الصباح خارجا

مـن غرفتك؟

ولكنهم رغم ذلك لم يروا اقتحام أ.سمعان لغرفتي في الليل!

- لا أستطيع أن أخبرك يا أبان، ليس مسموحا لي أن أخبرك.

- إياك أن تكون قد أخبرته عن اجتماع الصحراء.

- لا طبعا، لم يسألني، لا يعرف الموضوع.

- وحتى لو سألك، لا تخبره.

ثم ابتلع ريقه ونظر إليك في خوف:

- كيف الأمر معه، هل هو كما يحكون عنه؟

- تقصد أ.سمعان؟

- ومن غيره، قد لا تعرف يا إسماعيل لأنك جديد في المدرسة، ولكن أنا هنا منذ شهر تقريبا، وما رأيته أن كثيرًا من الطلبة الكبار يحبون أ.سمعان أكثر مما يحبون آبائهم، طلاب مبنى أبي بكر الصديق سيظلون طوال العام يفتخرون بهذه الزيارة رغم أنهم لا يعرفون لماذا زارك من الأساس، وعندما أسألك هل أخبرته عن لقاء الصحراء أسألك ليس لخوفي من الطرد من هنا، ولكن لخوفي من سقوطي في نظر أ.سمعان إن علم أنني قمت بعمل ضده، أخاف هواني عنده.

- إذن لماذا فعلت شيئًا تخاف من رد فعل أ.سمعان إذا عرفه؟

سكت أبان قليلا، تفرست في ملامحه أثناء ذلك، كان يمكنني أن ألتمس له العذر لو قال أنه غير راض عن أداء سمعان، أو يود معرفة الحقيقة، أو المشاركة في نشرها بين الناس، ولكنه قال:

- هناك احتمال كبير أن تكون مجموعة الأزهريين الجدد يعملون خفية تحت إشراف أ.سمعان، ولا يمكن معرفة ذلك إلا بالترقي، أحمد نفسه قد لا يعرف، هذه فرصة لاكتساب احترام أ.سمعان.

بعد فسحة التريض دخل مدرس الفقه الفصل وبحث بعينه حتى استقر بصره عليّ وناداني:

- إسماعيل، تعال هنا، أنت متأخر نصف ساعة كاملة عن حصتك الحقيقية، ألم يخبرك أحد بمكان الحصة ولا ميعادها؟!

وقبل أن أفتح فمي أشار المدرس إلى طالب يجلس في الدكة الأولى فانقذف ناحيته، همس له في أذنه بكلمتين ثم ضرب على كتفه محفزا، والتفت إليّ قائلا: اذهب معه، سيرشدك إلى المكان.

وقف المدرس خلف منضدته منتظرا خروجنا، لم يُحدث شيءٌ جديدٌ حتى وارانا الباب، سألت الطالب الصغير وأنا أسير خلفه عن المكان الذي نتوجه إليه.

أجابني دون تردد:

- إلى مكتبة أ.سمعان.

وسادت لحظة من الصمت في الممر ثم انفجر الصياح الهادر الجماعي من خلف الباب الذي غادرناه.

***

لن أكون مبالغا إن قلت أنني لم أر كل هذا العدد من الكتب في حياتي حتى في الصور الفوتوغرافية التي تؤرخ للعالم القديم، ولا في أحلامي، عاد الطالب الذي اصطحبني تاركا إياي لدهشتي أمام باب المكتبة، للوهلة الأولى أخذ بصري اتساع المكان وعلو سقفه عندما ولجت، هذا المكان يخترق ثلاثة أدوار متتالية كرمح، يُختتم هذا الاختراق في الدور الثالث بدائرة من النوافذ الكبيرة العالية كافية لإضاءة المكان في ساعات النهار، بينما تنسدل تحتها أرفف خشبية تدور وتلف مع الجدران، عامرة بالكتب لدرجة تحبس الأنفاس.

لم أكن قد انتبهت بعد إلى الزاوية اليمنى وما تحوي، خمسة طلاب في أعمار مختلفة يجلسون إلى مقاعد لا مناضد أمامها، تمتد من ذراع المقعد اليمنى رف صغير يتسع لاتكاء ذراع يحمل قلما وكراسة، ينتظرني كرسي وحيد فارغ عليه كتاب وكراسة وقلم، ألقيتُ

التحية فأجابوني بهمهمات، أمام الطلبة يقف أ.سمعان، أشار لي فجلست ثم بدأ يتكلم في هدوء وبلغة فصحى:

- بداية من اليوم ولثلاثة أيام كل أسبوع ستتلقون دروسكم في هذا المكان بعد حضوركم الحصص الثلاث الأولى، مما يعني أن الحصص هنا مسائية،

ثم تأمل الوجوه قليلا قبل أن يتمتم بجملة منقطعة: معظمكم هنا يعرفني بشكل شخصي.

ثم رفع نبرة صوته قائلا:

- كما تعرفون، المدرسة متخصصة في تدريس الدين الإسلامي بشكل خاص وما يتعلق بفهمه من أدوات اللغة بكل عام، وسنعتمد هنا تدريس رسالتين بشكل مستفيض ووافٍ خلال ثلاث سنوات، الرسالة الأولى عن دفع إيهام الاضطراب عن القرآن الكريم، والرسالة الثانية عن منع المجاز وهدم دعوى وجوده في القرآن الكريم، مبادئ كلتا الرسالتين ستختلط اختلاطا تاما بما تظنون به أنكم متميزون به عن الآخرين.

- أريدكم أن تعلموا أن عديدًا من الأهداف سينبني عليها هدف تدريسنا هاتين الرسالتين، وإلا اعتبر إنفاق وقتنا هنا عبثا، ولتفهموا الأمر عليكم أن تعرفوا أن كثيرًا من علماء الدين لم يجرؤوا على تحريم الأدب لمجرد ظنهم الكاذب بوجود المجاز في القرآن، وهذا الظن تسبب في كارثة امتلاء تاريخنا بالعبث وإنفاق أطنان من الحبر والورق مما يقال عليه أدب من مسرح ورواية وقصة وخلافه.

- وليس بالأمر الهام ما ضاع من الحبر والورق بقدر أهمية ما ضاع من أعمار وعقول، ومما ما قد يُخفى عليكم من شطط وجنون وما تسبب فيه هذا الضياع من غضب الله عز وجل على البشر.

- أريدكم أن تعلموا أن المتكلم لا يلجأ إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير، وذلك محالٌ على الله تعالى، فالحقيقة واسعة

يمكن لنا أن نقول بها ونقولها بأي شكل وأي صورة دون اللجوء إلى الكذب لتبيانها.

- مكتبة المدرسة متاحة لكم للاستعارة، ولدينا قسم كامل من الكتب التي تناقش هذه المسائل باستفاضة، ولكننا سنعتمد في تدريسنا ثلاث آيات في القرآن بنى عليها المخالفون بنيان ظنونهم وأوهامهم واعتمد عليها العلماء وغيرهم في هذه الدعوى الكاذبة، الآية الأولى (جدارا يريد أن ينقض) والثانية (ليس كمثله شيء) والثالثة (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) هذه الآيات سنناقشها بعناية فائقة ونبين من خلال مناقشتها تهافت حجج المخالفين لنا في أمر المجاز.

ثم سكت أ.سمعان وكان سكوته فرصة لي أن أتصفح الكتاب والوجوه، عنوان الكتاب (منع جواز المجاز في المُنزل للتعبد والإعجاز) كان مخطوطة إن صح القول، عدد جميل من الأوراق مخيطة باليد بخيط سميك بني اللون، تصفحتها، مكتوبة بخط يد منمنم صغير واسع الهوامش، أحببت الكتاب في الوقت الذي يجب علي فيه أن أكرهه، لا لشيء إلا لعدم وجود التحذير المعتاد خلفه (الجهل يستوجب العقاب، أما المعرفة تستوجب القتل، الجهل ليس عذرا شرعيا هنا)، الخمسة طلاب المتواجدون كان اثنان منهم إناثا، أحد الذكور الثلاثة أصلع، تفحصت الاثنين بوجه خاص، الأقرب إليّ جميلة رغم ملابسها الذكورية، ورغم ارتدائها غطاء رأس نسائي إلا أنه أظهر شعرها كثيفا يضرب حتى كتفيها وطريا كعشب في مكان ناء، أما الأخرى البعيدة فلم تكن جميلة، أنثى شبحية كما يروق لي تسمية هذا النوع من الإناث، سمراء خافتة نحيفة كظل، حتى وهي بعيدة عني بزَهَم ثلاثة ذكور.. حتى وهي جالسة كان النبل يفوح منها، وكانت ترفع يدها كل دقيقة في وجه أ.سمعان لتسأله فيشير إليها أن تصبر.

- الآن إلى مقدمـة الكتـاب، أرجـو أن تفتحـوا الكتـاب عـلى صفحـة ٣ وسـنتناوب القـراءة.

للحظة خشخشـت الصفحـات وهـي تُقلـب وقـال أ.سـمعان: اقـرأي يـا بثينـة بدايـة مـن السـطر الثالـث قـرأت بثينـة (الأنثى الجميلـة) بهـدوء وثقـل يليـق بأنـثى واثقـة مـن أن كل هـذا هـذر.

- إن القـرآن كلـه حقائـق، وكيـف يمكـن أن يكـون شيء منـه غـير حقيقـة، وكل كلمـة منـه بغايـة الكمـال جديـرة حقيقيـة، إنـه لقـول فصـل ومـا هـو بالهـزل، أخبـاره كلهـا صـدق، وأحكامـه كلهـا عـدل، والمقصـود مـن هـذه الرسـالة المختصرة نصيحـة وتحذيـر مـن نفـي صفـات الجـلال والكمـال، الـتي أثبتهـا الله لنفسـه في كتابـه العزيـز، بادعـاء أنهـا مجـاز، لأن المجـاز يجـوز نفيـه، وهـذا مـن أعظـم وسـائل التعطيـل، ومعلـوم أنـه لا يصـف الله أعلـم بـالله مـن الله، ومـن أصـدق مـن الله قيـلا؟

- كفى يـا بثينـة، اقـرأ يـا إسـماعيل، وأرجـو أن تقـرأ ببـطء أكـثر مـن بثينـة (تناهـت ضحكـة مكتومـة دغدغـت القبـة الصارمـة الـتي فرضهـا أسـتاذ أ.سـمعان فأسـكتها بالـدق الغاضـب عـلى منضدتـه)، اقـرأ يـا إسـماعيل بدايـة مـن السـطر الخامـس في صفحـة ٤.

- المجـاز أصـلا مختلـف عـلى أصـل وجـوده، فمـن قائـل أنـه لا مجـاز في اللغـة أصـلا، ومـن قائـل أن المجـاز غالـب عـلى جميـع اللغـات، ولكـن كل هـذا عندنـا أسـلوب مـن أسـاليب اللغـة العربيـة، فمـن أسـاليبها إطـلاق الأسـد مثـلاً عـلى الحيـوان المفـترس المعـروف، وأنـه ينـصرف إليـه عنـد الإطـلاق، وعـدم التقييـد بمـا يـدل عـلى أن المـراد غـيره، ومـن أسـاليب اللغـة أيضًـا إطـلاق لفـظ الأسـد عـلى الرجـل الشـجاع إذا اقـترن بمـا يـدل عـلى ذلـك، ولا مانـع مـن كـون أحـد الإطلاقـين لا يحتـاج إلى قيـد، والثـاني يحتـاج إليـه، لأن بعـض الأسـاليب يتضـح فيهـا المقصـود مباشرة فـلا يحتـاج إلى قيـد، وبعضهـا لا يتضـح المـراد منـه إلا بقيـد يـدل عليـه، وكل منهمـا حقيقـة في محلـه، وقِـس عـلى ذلـك كافـة المجـازات.

- كفى يا إسماعيل.

تنهدت متخلصا، ودرت ببصري خفية في المكان، ومع دوران بصري لاحظت شيئًا غريبًا، أرفف المكتبة محرمة بسور من الحبال الممدودة بين أعمدة رفيعة من النحاس مثبتة في الأرض، سور يدور مع دوران زوايا المكان، المنفذ الوحيد خلف ظهر أ.سمعان حيث يقبع مكتبه الأبنوسي، وكأنها مكتبة ليس مسموحًا بتصفح الكتب فيها إلا لأستاذ سمعان فقط، رغم أن كل عناوين الكتب القريبة فيها واضحة كالشمس من خلال كعوبها، أكثر وضوحا من صوته وهو يشرح، الكلام يدعو إلى التثاؤب، وصوت أ.سمعان الهادئ يخطو بي إلى النوم رغم أنني استيقظت للتو، ولولا عيناه المسلطتان على طلابه لنمت دون خجل.

- وعلى هذا فلا يمكن إثبات مجاز في اللغة العربية أصلا، أما أهل اللغات الأخرى يمكن لهم اكتشاف ذلك بسهولة أن توفر لذلك علماء في اللغة مهتمين،

انتبهت، فرفعت يدي وتكلمت على الفور.

- كيف أمكنك أن تجزم بعدم وجود مجاز في اللغة العربية، هذا إن سلمنا فعلا بعدم وجوده في القرآن؟

- أولاً ألومك على الكلام بدون إذن، ثانيا وجود المجاز في اللغة وجود نقص لا وجود كمال، ومن أوجه الاكتمال أن تنزع النقص.

- لن أجادلك في رؤيتك الشخصية لكي ننتقل للنقطة الأخرى، عدم وجود مجاز في اللغات الاخرى تأكيد يحتاج إلى برهان.

- البرهان الأكبر أن اللغة العربية هي أم اللغات، ولغة أهل الجنة ولغة سيدنا آدم قبل الهبوط وبعد التوبة، ولغة أهل السماء، الكشوف الأثرية تقول ذلك، بعد اللغة الأيقونية، أو ما يسمونها اللغة بالرسم بداية من لغات الكهوف وتطورها إلى اللغة الهيروغليفية، كانت أول ألف باء في التاريخ هي ألف باء الفينيقيين

وهي ذاتها ألف باء قريش، بالتالي أي نقص يدخل على كمال اللغة العربية هو نقص في بقية اللغات المشتقة منها.

ثم صاح لينهي الحوار:

- اقرأ يا محمود، وانتبه معي يا إسماعيل.

قرأ محمود:

- ثم أن القائلين بوجود مجاز في اللغة العربية اختلفوا في جواز إطلاقه في نصوص القرآن، وأبرز دليل على ذلك أن إجماع القائلين بالمجاز على أن كل مجاز يجوز نفيه، ويكون نفيه صادقا في نفس الوقت، فالذي يقول لمن قال: (رأيت أسدًا يرمي الرمح) ليس هذا أسدًا، وإنما هو رجل شجاع، فيلزم من ذلك بأن نقول بمن قال أن في القرآن مجازًا، ما ردك على أن في القرآن ما يجوز نفيه كهذا المثال الذي ذكرنا؟

- ولماذا نفترض أن النفي هو التكذيب، وأن النفي إن جاء مقترنا بالقرآن يُعد نقصًا؟

لم أكن القائل، بل أحد الطلبة الذكور، تنهد أ.سمعان وقال:

- يبدو أن عدوى إسماعيل قد انتشرت سريعا، وإجابة على سؤالك، لو جاء قائل وقال أن الآية القرآنية (جدارا يريد أن ينقض) هي كذب لأن الجدار ليس له إرادة، ولا يتهدم من تلقاء ذاته، والفائدة الوحيدة لهذا المجاز الكريه هي تقريب الصورة ليس إلا، فكيف سترد على هذا القائل لتدفع عن قرآنك تهمة الكذب؟

ثم صاح أ. سمعان فجأة وكأنه يوقظ النائمين:

- أسئلة؟

على الفور رفعت الأنثى الشبحية يدها فأجازها بإشارة من يده، فانطلقت تتكلم، كان أ.سمعان معجبًا بأسئلتها، واتفقا أن إجابة الأسئلة التي طرحتها عليه سيكون موضوع الحصة القادمة، وكنت

منشغلا بتأمل أرفف الكتب عندما قال:

- الفرض المنزلي سيكون بحثا عن آيات المجاز التي يفترض البعض وجودها في القرآن، سيحضر لي كل واحد فيكم آية واحدة في المرة القادمة، آية واحدة مختلفة عن الثلاث آيات التي سردتها في بداية الحصة، آية واحدة مقابل جائزة عظيمة، فلو عثر أحدكم على آية بها مجاز لا أستطيع أن أبين تهافتًا سأجيزه للتخرج من المدرسة على الفور (همهمة مندهشة ثم صمت قليل وصوت تقليب ورقة).

- في الواقع كنت أود أن أنهي الحصة الأولى سريعا لما أرى من تثاؤبكم، ولكنكم معاقبون بذنب زميليكم اللذين تحدثا بدون إذن، وعقابكم هو فرض منزلي إضافي.

ثم عاد أ.سمعان بظهره خطوتين بشكل استعراضي واستدار في خفة فائقة والتقط من فوق مكتبه الأجندة ولوح بها عاليا، ثم استأنف حديثه:

- زميلكم إسماعيل المتفاني في الدفاع عن المجاز لا يتفانى دون سبب، بل لغرض في نفس يعقوب، والغرض مرض كما يقولون، مع أن يعقوب كان نفسا زكية، زميلكم إسماعيل ارتكب عدة أخطاء ليس أولها الكلام بدون إذن، كتب قصة في ملزمة المدرسة، فصار لزاما علينا أن نحرمه منها، وتعمد المجيء للحصة متأخرًا فصار علينا أن نعاقبه بقراءة بعض من فقرات الحكاية التي كتبها لنا.

لم أرفع رأسي وإن أيقنت بأنني صرت ملتقى نظراتهم جميعا وأ.سمعان يستأنف:

- والمطلوب أن تركزوا جيدا وأنا أقرأ، وتسجلوا في كراس (ما يُكتب ليُمحى) كم مرة كذب إسماعيل، وكم مرة اضطره الكذب إلى الكفر ليكتب حكاية خالية تماما من العقل الذي كرمنا الله به، لا هدف له ولا غاية إلا أن يكون مسليا، فالحكاية مسلية جدا وهذا شيء أراهن عليه شخصيا، ومع ذلك أرجو ممن يُصاب بالملل أن يرفع يده فورا

لأتوقف.

هنا رفع الشاب الأصلع ذراعه على الفور فلم يضحك أحد ولكن أ.سمعان تضاحك،

بدأ أ.سمعان في القراءة، كانت هذه هي المرة الأولى التي يُقرأ فيها شيءٌ كتبته أمام جمهور، قلت لنفسي أنه ينبغي عليّ أن أكون فخورًا حيث أنني الحي الوحيد في المكتبة الذي يستطيع كتابة نص بهذه الطريقة، لا ليس المكتبة، المدرسة كلها، بل ربما مصر كلها، أنا شخص نادر بالموهبة التي أمتلكها حتى لو كانت الندرة التي وسمها البشر بالاحتقار، ولكن أ.سمعان بدا وهو يقرأ كأنه يخلع عني قطعًا عشوائية من ملابسي، إنها رقصة استربتيز ينتقي فيها فقرات تبعث على السخرية ودون أن تغادره لهجته الجادة، وكلما قرأ فقرة تحركت الأقلام تسجل نقاطًا وأرقامًا.

ضربت الحمرة المضطربة وجهي وشعرت بها، وكلما زاد إحساسي بها كلما تكاثرت عليّ، مثل قبيلة من أسماك البيرانا المتوحشة تجمعت على ضفاف ملامحي يزيد لون الدم من شراستها، كان من الواضح أن أ.سمعان لن يصمت إلا بعد أن يترك وجهي عصبا وعظما فقط دون مزعة لحم.

وعندما انتهى أ.سمعان من قراءة الفقرات التي انتقاها شعرت بالامتنان اللحظي والإنهاك الشديد.

- هيا، انصرفوا الآن ولا تنسوا ما اتفقنا على إنجازه، آيات المجاز والجائزة العظيمة، وأيضًا عدد كذبات قصة إسماعيل المسلية.

***

غادرنا المكتبة قبل خروج الطلبة من الحصة الأخيرة للفصول الدراسية، أمرنا أ.سمعان أن ننتظر الفتاتين حتى تخرجا، ولكن الفتاة الشبحية أدارت حوارا خافتا معه عند المكتب الأبنوسي فأشار إلينا أن ننصرف، تناولت طعام الغذاء مبكرا جدا، وصعدت إلى غرفتي

وبمجرد أن وجدت نفسي وحيدا هجمت عليّ مشاعر الغضب والاستياء.

لقد أهنت بشدة، وسأكون مرشحا لمزيد من الإهانة إن لم تتغير أولوياتي، فإن كان مقدرا لي أن أتلقى المهانة عن ما أكتبه فلن أتلقاها في معمل مدرسي كعينة اختبار، كل هؤلاء الطلبة أصغر بكثير من أفكاري والرغبة التي احتشدت بها عروقي، ولا يشعرون مثلي بهذا السور والفراغ الصحراوي من حوله وكأنه يُبحر بي إلى مكان لا أرغب في الذهاب إليه، علي أن أقفز إلى الماء بينما الشاطئ لا يزال قريبا، ورئتي تمتلك بعضًا من الهواء.

شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبي عندما تذكرت مصير ما كتبته ليلة أول أمس، القصة التي سُلبت مني، مر هذا الخاطر كالومضة في ذهني، كأنني رأيت صديقًا قديمًا فجأة في الزحام على أرض غريبة، ثم غيبته الوجوه، أولا يجب عليّ أن أحصل على أجندتي التي أشعر الآن أنها أقرب إلي من أي وقت مضى، بل وأشعر بالندم أنني عرضت ما كتبته فيها للمحو بحماقة باستعمالي الحبر المتطاير، أما الآن وقد عرفت أن ما كتبته لا يزال باقيا بطريقة ما يجب علي أن أحصل عليه وأتمه، ولكن كيف أحصل عليه وهو في المكتبة، وأنا لا أعرف متى سيكون أ.سمعان هناك، لابد من المخاطرة على أية حال، خاصة أنه ليس بإمكاني التجول في هذا الجانب من المبنى ليلا دون إثارة الشكوك، لتكن خطتي أن أذهب إلى هناك بعد قليل من بدء حصته، سأذهب إلى المدرسة غدا وبعد غد وأحضر الحصص بشكل طبيعي، ولكنني لن أذهب إلى حصة المكتبة بعد الحصص الأولى، سأصعد الدرج وأختبئ في الدور الذي يقع أعلى المكتبة، أظل كامنا حتى بعد غلق بوابة المدرسة ثم أنزل وأحاول أن أفتح باب المكتبة ولو اضطررت إلى فك الكالون بالكامل لاستلاب ما يخصني، وفي الصباح الباكر أحزم أمتعتي وأغادر المدرسة إلى الأسفلت لأي سيارة مارة

فتأخذني إلى غير رجعة.

أغمضت عيني محاولا استحضار حالة روحي وأنا أهرب بعيدا بعيدا، ولم أفتحهما عندما سمعت صوت باب غرفتي وهو يُفتح ويُغلق دون أن يطرقه الداخل، ظللت ساكنا أحاول الإحاطة بوجود محبط ويائس، أتى ناحيتي مترددا حتى وضع يده على كتفي وقال:

- إسماعيل.

كان أبان ..

***

إن كان هناك شخص يمكنني أن أشك في وجوده بحكايتي فلن يكون إلا أبان، لم يكن أبان إلا شخصًا يحاول أن يغرق على الشاطئ في شبر ماء بينما أنا منشغل بالهرب إلى البرية، ولقد حاولت في هذا اليوم أن أوسع له صدري قدر استطاعتي، ولكنه ظل مصرا على تضييق الخناق على نفسه، وشنق شرايينه شريانا شريانا في هواء غرفتي الصغيرة، بدعوى أنه لا خيار له في ذلك، وكما قال، أو كما ظل يقول طيلة ساعتين:

- أنا الولد الأصغر في عائلة كبيرة، أبي تاجر ميسور الحال جدا، كل إخوتي الذين سبقوني حاولوا الالتحاق بمدرسة أ.سمعان ولكنهم لم ينجحوا، أنا أمل أبي الوحيد يا إسماعيل، ويجب أن أنجح.

- اسمح لي يا أبان، قبل أن أجئ إلى هنا يبدو أنهم خدعوني، أخبروني أن المدرسة عقاب، وها أنت تقول عكس ما يعتقده الناس بالخارج.

- هذا وهم يبيعونه للناس يا صديقي، شهادة المدرسة في يدك وسيلة سريعة للتوظف والترقي في المناصب بلا حد ولا سقف، إنهم يسمونها هنا إجازة، هل تعلم ما معنى إجازة في اللغة، أنت مُجاز أي أن جميع الأبواب مسموح لك العبور خلالها.

- حسنا يا أبان، سأدعي أنني أصدقك لنتجاوز هذه النقطة إلى النقطة الأهم، ما المشكلة في رغبتك بالانفصال عن حركة الأزهريين الجدد؟، الانضمام أو الانفصال قرار شخصي لا يستطيع أحد أن يلومك عليه.

- جئت إليك من أجل أن ترشدني، لو فكرت بشكل عكسي، قد يكون أ.سمعان على معرفة بهذه اللقاءات السرية، لو فكرت بشكل أعمق، فقد يكون هو من أنشأ هذه الجماعة لتمييز الطلبة الملتزمين عن الطلبة الذين لديهم استعداد للشغب.

- لماذا يدور الكون كله حول أ.سمعان يا أبان، لماذا أنت مفزوع لهذه الدرجة من رد فعله؟

- ليس خوفا، سمه احترامًا زائدًا، تبجيلًا.

- حسنا حسنا، يبدو أنه لا توجد طريقة لإقناعك بعكس ما في رأسك، لماذا تخبرني أنا بذلك، أنا بالذات؟

سكت أبان قليلا وهو ينظر إلى ملامحي كأنه يستنطقها عن السبب ثم قال:

- لأن في استطاعتك أن ترشدني يا إسماعيل، هذا ما أؤمن به ولن يتغير اعتقادي هذا أبدا.

- وما الذي حملك على اعتقادك هذا في؟

- أنا أحسدك يا زميلي على تواضعك، وعلى فكرة جميع طلبة الصف الأول يحسدونك مثلي، زيارة أ.سمعان هنا، واصطفاؤه لك للتدريس في المكتبة.

- اصطفاؤه!، انتظر، هل تظن أني على علاقة بأستاذ سمعان؟

- طبعا أنت غير مجبر على أن تخبرني بها، ولكن الأمر واضح، ولماذا تنكر هكذا؟، كأنني شتمتك!

- هذا أسوأ من سبة يا أبان، والرد عليه سبة مثلها، أنت تحاول

إرضائي لأنك تعتقد أني جاسوس لأستاذ سمعان.

- حاشا لله أن اقول ذلك، أ.سمعان ليس غبيا ليزور طالبًا يُعده كجاسوس أمامنا جميعا، ما أقوله أنك مميز، وعلاقتك به خاصة جدا، الطلبة يقولون أن الأستاذ سمعان يُعدك لتكون خليفته الأول، ولو لم يكن، أنت قريب منه لدرجة تمكنك من أن تفهمه وترشدني لأفضل الطرق للوصول إليه.

فتحت فمي لأستنكر، ولكني لم أنطق، مكتشفا ببساطة أن كل ما سأقوله سيزيد من بهائي أمام أبان أن يستمر في طريقته في التفكير، لم يكن هناك مفر أن أهزم غروري في تلك المرحلة الطرية قبل أن أجد نفسي عرابا بالكذب، لم يكن هناك مفر أن أبتلع ريقي وأقول دون أن ترتعد ملامحي.

- ما تقوله جيد يا أبان، جيد في ظاهره ولكن هناك تفاصيل أعتقد أنك لو عرفتها سيتغير رأيك تماما، وأكثر ما أخشاه أن يتغير إلى النقيض.

- أنت لا تعرف أبان جيدا، تكلم ولا تخف.

- حسنا، الموضوع وما فيه أني لست مميزا، بل معيبا، وفي وجود هذا العيب قد يتعاطى معي العالم كله أولا قبل أن يفكر أ.سمعان في التعاطي معي.

- لماذا تقول ذلك؟

كانت هذه نقطة اللاعودة، لأنه من المستحيل أن لا يصدقني أبان، فليس من دفع المديح عن طريق التواضع أن ألطخ نفسي، لا بأس إذن من تأنق المحكوم عليه بالإعدام، أبتسم له فتنجذب لابتسامتي ابتسامة مشابهة على فمه، أرسم بإصبعي دوائر على المنضدة بيننا فتتعلق عيناه بما أرسمه وكأنني أسرد عليه سر الكون، جميل هذا التبجيل، هذا الاحترام الذي يضوي في عين أبان كدموع الفرح، جميل وشهيّ ولا يُشبّع منه أبدا، مثل مملكة ذاتية من

النظرات، فنظرة تؤرجح مروحة الريش فوق رأسك ونظرة تدلك لك رقبتك بعناية فتشعر بالراحة دون أن يمسك إصبعك، ونظرات أكثر خصوصية وحميمية تحني لك ظهرها لتركبه فتصبح مطيتك الدافئة التي تحملك إلى عوالم حمراء، وها أنا ذا أقوم بكل ما في شأنه إطالة الوقت الذي ستظل هذه النظرات تلتمع في عين أبان، قبل أن أهوى على رقبة هذا الاحترام بالمقصلة، ليس صعقا ولا رميا بالرصاص ولا باحتساء السم، بل بالمقصلة.

***

كان جدي أول إنسان أخبرته بأنني أكتب، لا أنسى رد فعل جدي أبدا، لم يفزع، لم يمتعض، في زمن أن تبول في فم فرد من عائلتك يعطي نفس الأثر الذي يعطيه اعترافك لهم أنك تكتب روايات، لأنها حرفة سيئة السمعة، توقفوا عن تسميتها بالموهبة، حتى كونها هبة من الشيطان، بل نوعًا من العجز، الآفة، كأن يكتشفوا أنك ولدت برئة واحدة، لا.. بل بشيء مخزي، كأنك ولدت ببيضة واحدة في خصيتك، ولدت مهتوكا، بلا بكارة، شخصا ما أو شيئا ما أتى وفضها لك بإصبعه، ولا يمكن أن يشبه هذا الشيء في القبح إلا الكتابة، كنت ممتنا لرد الفعل الذي أبداه جدي

ثم أبان، وما بينهما عرف العديد من الناس دون أن أنطق أو أعترف، موفرين عليّ مؤنة إخبارهم، بعد أبان أخبرت عدة أشخاص آخرين، وعلى تنوع الاحتقار والنبذ والامتعاض يتفوق أبان ويأخذ الدرجة الكاملة.

في البداية كان الأمر أشبه بسقوط ثعبان من السقف على ساقي أبان، بلا مقدمات، ولأنه ليس ثعبانا فعليا لم يستمر الفزع، انتقل أبان إلى المرحلة التالية، الامتعاض، كأن حذاء وجوده اندعس في خراء كوني لا يراه أحد، فصار يحكه ويضربه بالأرض ليتخلص منه، ولكنه ملتصق، ملتصق كلعنة، ملتصق كوجودي أمامه بواقع أن الغرفة

غرفتي، ثم توقف أبان عن تنظيف حذائه من وجودي ليقوم بأغرب أمر على الإطلاق، قام من مكانه مصطحبا المقعد الذي كان يجلس عليه، حمله كأنه اشتبك بيده ثم أسند به الباب وأحكم إغلاقه وعاد فجلس إلى جواري، على الطرف الآخر من سريري ودس يده في قميصه وأخرج سيجارة إلكترونية وقداحة، أدارها على محورها ليضبط نكهتها على طعم التوت البري، ثم أشعل مقدمتها وهو يمتص وينفخ حتى توهجت فأطفأ القداحة بغلقها ثم نظر إلي وابتسم:

- هذا السيجار الإلكتروني صناعة أمريكية؟

- لا، فرنسي، به عشرون نكهة، إشعال حقيقي وينطفئ ذاتيا بعد انتهاء الزمن الفعلي للسيجار الحقيقي، ويمكنك أن تطفئه في طقطوقة بدعسه وستجد أنه ينثني ويُعاد استعداله، والأهم من ذلك كله...

ومهد أبان لمفاجأته بصمت ابتسم له بغموض:

- تُسقط رمادًا حقيقيًا على ملابسك.

- لابد أنها غالية بهذه الإمكانيات الخطيرة.

- جدا، كبسولة النكهات وحدها تتجاوز قيمة ما تنفقه عائلة ميسورة الحال في عام كامل.

ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى وأردف:

- أو عامين.

- وما الفارق بين كبسولة العام وكبسولة العامين؟

- الحشيش، المخدر يا زميلي.

ثم دفعها إليّ وقال:

- هل تريد أن تجرب؟

- لا يا أبان، أريد ان أنام.

- حسنا، سأنهيها وأنصرف.

- لا، الآن، قلت إن بإمكانك أن تطفئها.

أخـذ يفتـش في وجهـي عـن شيء غـير الضجـر وغضـب خفيـف لـم يختمـر فلـم يجـد، أطفـأ السـيجار بدعكـه في كعـب حذائـه، ودسـه عميقـا في جيب قميصـه، ثـم قـام وسـوى ملابسـه ومـد يـده ليصافحني ولكـني لـم أمـد يـدي.

- متأكد يا أبان أنك تريد مصافحتي؟

- طبعا، هل تشك في ذلك؟

- بعد ما أخبرتك به؟

- يـا إسـماعيل، أنـت شـخص جيـد ولـولا أنـك أخبرتـني بأنـك كاتـب لظللت طـوال حيـاتي لا أجـد تفسـيرا لمـا أحـس بـه ناحيتـك، الأمـر يشبه أن تحـب إنسـانًا في الظـلام، تتخيلـه وتتخيلـه وعندمـا يـأتي النـور تجـد شـخصًا آخـر تمامـا بصفـات تسـتطيع أن تحبهـا أيضـا، أنـا أحبـك يـا إسـماعيل وأتمـنى أن يجمعنـا مـكان آخـر غـير هنـا.

بقيـت مندهشـا للحظـات، وعندمـا شـد يـده مـن يـدي وفتـح البـاب وانـصرف اسـتلقيت بملابـسي، كنـت أشـعر بألـم في عظامـي كأنـني سـقطت مـن هاويـة، ونمـت عـلى الفـور.

***

غـادر أبـان المدرسـة بعـد أسـبوع مـن حديثنـا، الطريقـة الـتي غـادر بهـا ألقـت بظلالهـا المتشـنجة عـلى حيـاة شـهرين لي في المدرسـة، ففي اليـوم التـالي قـام أبـان بتقديـم طلـب اعتـذار عـن اسـتئناف الدراسـة في شـئون الطـلاب، فقامـوا برفـع الطلـب إلى أ.سـمعان الـذي اسـتدعاه إلى مكتبتـه ودار بينهمـا حـوار لـم يعـرف أحـد فحـواه، في اليـوم الثالـث جـاء والـد أبـان، والتقـى أولا بمـدرسي الحصـص ثـم طلـب لقـاء أ.سـمعان، وانـصرف دون أن يأخـذ أبـان معـه أو يطلـب رؤيتـه تـاركا الطلبـة يتحدثـون

طويلا عن عطوره وسيارته الفخمة، في اليوم الرابع اختفى أبان من المدرسة والمدينة الطلابية، ثم عاد في صباح اليوم الخامس بعد أن تسبب في ابتلال الملابس الداخلية لستة مشرفين ما بين قيمي المبنى والحراسة والمطعم والنظافة، وبمجرد أن عاد أغلق على نفسه غرفته ودق في حلق الباب الخشبي ثلاث عوارض غليظة انتزعها من ملة السرير، استعمل في ذلك مطرقة ومسامير طول عشرة سنتيمترات، في تلك الليلة المشهودة فاح الممر برائحة التوت والتفاح والخوخ والمانجو والأناناس والجوافة والبرتقال والفراولة والتين، وعدة روائح أخرى كان الطلبة يتصايحون عبر أبواب الغرف بتخمينها، في الصباح الأخير له في المدرسة قام أبان بضرب يوسف الطالب اليهودي أمام باب مبنى علي بن أبي طالب وهو المبنى الذي يسكن فيه يوسف، ترصده وبعد حوار قصير قام بتكييل عدة لكمات في وجهه وذراعيه حتى أدمى وجهه وأصاب ذراعيه بشلل مؤقت، ثم ألقاه وعجن بقدمه في أحشائه حتى ضاع منه صوته الذي يستغيث به، وعندما أمسك به المشرفين وكتفوه قام أبان بتوجيه ركلة غير شريفة في خصية يوسف أفقدته الوعي، تم تحويل أبان إلى التحقيق بمقر اللجنة في العاصمة بسرعة ربما قبل أن يتم تحويل يوسف إلى المستشفى.

نتائج التحقيق فاحت روائحها سريعا في المدرسة، سبب اعتداء أبان على يوسف، تفاصيل اللقاء بينه وبين أ.سمعان ومطالبته بطرد الطالب اليهودي، إنكار أ.سمعان لوجود طالب يهودي أصلا، قام أبان بكشف سر الأزهريين الجدد واجتماعات الصحراء.

انقطعت أخبار أبان تماما بعد ذلك، ويقال أن أباه الثري دفع مالا طائلا لرشوة السفارة الإسرائيلية لسحب دعواها ضد المدرسة وضد أبان، كانت هذه بمثابة قبلة الحياة لشفتي أ.سمعان الباردتين المزرقتين طيلة أيام التحقيق، عاد من هواجس الموت والمنع

أكثر عنفا، قام بتعلية السور من ناحية الصحراء، ولم يكن هذا كافيا لطمأنته، اكتشف الطلاب ذات صباح وجود طبقة جديدة من الخرسانة تُبتت بها شظايا حادة من الزجاج ورؤوس مسامير غليظة قائمة ومدهونة بدهان ضد الصدأ.

وببداية الشهر الثالث بعد حادثة أبان استأنف أ.سمعان حصص المكتبة.

***

- أبان، كان اسمه أبان؟

سألتني الدكتورة عالية، فأجبتها:

- نعم.

- أبان، إسحاق، سمعان، ألا تظن أنه يوجد سر في هذه الأسماء؟

- كما أخبرتك من قبل، التشابه.

سكتت قليلا وكأنها تبحر بتحليلي في بحر الحكاية كلها، ثم تنهدت وقالت:

- وهل ظلت علاقتك بسمعان جيدة بعد أن ترك أبان المدرسة؟

- لا، أستاذ سمعان كان منفرا بطبعه، أتساءل أحيانا كيف استطاع أن يقنع الناس بفكرته عن المجاز ورفع القرآن.

- تقصد الفكرة، أم أسلوب توصيلها؟

- الاثنين.

- سمعان خطيب مقنع على المنبر، ومدرس قوي يا إسماعيل.

قالت الدكتورة عالية كأنها تلومني أو تنزه نفسها عن الوقوع في ذمه.

***

أول قاعدة في حضور حصص أ.سمعان بأقل قدر من الأضرار أن تبتعد عن البهتان، والبهتان كما يُعرفه أ.سمعان بنفسه هو التصرف

بشكل مختلف عن الطبيعي، أقل درجة من البهتان هو أن تتكلم بدون إذن، وهي درجة يمكن له أن يسامحك عليها مع عقاب خفيف، الدرجة الثانية أن تذكر له اسم كتاب لا يعرف مؤلفه، أي كتاب خارج نطاق الأدب، لو ثبت أن الكتاب غير موجود مُنعت من الحديث لثلاث حصص متتالية، أما لو ثبت أنه موجود حقيقة فقد صرت من المقربين للأستاذ سمعان ولو إلى حين، الدرجة الثالثة من البهتان أن تتكلم دون تأصيل، بمعنى أن تتكلم برأيك الشخصي دون أن يكون لرأيك تاريخ، وهذا لا يُستثنى منه حديث، سواء أكان رأيك في علم الأحياء أو مسألة جواز رفع اليدين للدعاء في خطبة الجمعة، وهذه الدرجة من البهتان تستدعي السخرية، والعقاب البدني المؤلم بلا إهانة.

الدرجة الأخيرة من البهتان أن تأتي برأي من كتاب لم تقرأه من الجلدة للجلدة كما يقول، حتى لو كان كتابا في تصفيف الشعر، يقول: الاجتزاء باب من أبواب الشيطان، فالشيطان يكره الجلوس في المكتبات ونبش بطون الكتب، وهذه الدرجة عقابها الطرد من الحصة.

مع ذلك لم تخلُ نهايات الحصص من ضحكات، المحاولات الحثيثة لهاجر - الفتاة النشيطة- للحصول على الجائزة التي وعد بها أ.سمعان إذا أتت بآية بها مجاز يعجز عن تفنيده، والإجابات التناؤبية لأستاذ سمعان، ورغم حرصي ورطتني هاجر في إحدى محاولاتها.

صاحت فجأة قبل نهاية الحصة:

- قول الله تعالى (واشتعل الرأس شيبا).

- ما بها يا هاجر؟

- أية مجازية؟، الاشتعال للنار وتمت استعارته هنا للشيب في الرأس.

- أين قرأت هذه الآية؟

- كان جدي يقولها باستمرار، ويقول أن أحد الأنبياء قالها عن نفسه.

- نعم، نبي الله زكريا عليه السلام، ولكن الآية غير مجازية، وإليك السبب، الاشتعال لا يخص النار فقط، ففي اللغة يقول العرب أشعلت القرية إذا سال ماؤها، ويقال أشعلت جمع الناس أي فرقتهم، وأشعلت الطعنة إذا سال وخرج دمها متفرقا، وأشعلت العين إذا كثر دمعها، فهمت يا هاجر؟

هزت هاجر رأسها بخيبة أمل، واستعد أ.سمعان لإنهاء الحصة فرفعت يدي:

- تكلم يا إسماعيل، أراك مؤدبا منذ زمن، وهذا شيء مقلق.

- في الواقع أعترف أنني لم أقتنع بالبرهان على نفي المجاز عن آية (جدارا يريد ان ينقض).

- وما السبب؟

- لا أقتنع أن الجماد له إرادة وروح.

- وماذا في ذلك؟، المنبر توجع عندما فارقه النبي، النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف حجرا بمكة يلقي عليه السلام.

- ولكن هذا من قبيل المعجزات، أن ينطق الجماد واليابس للنبي.

- المعجزة في السماع وليس في النطق يا إسماعيل، لأن كل الموجودات تتحدث، والدليل على ذلك قول الله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم).

- هذا خروج عن الموضوع، قد يكون للكائن الحي لغة يسبح بها، أو للجماد حتى، ولكن الإرادة موضوع آخر، الإرادة تخص الإنسان فقط، ولهذا هو معاقب على إرادته، إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، الأمانة هي الاختيار والإرادة، لهذا فلا ينبغي للجدار (أن يريد أن ينقض)، لأن هذه الإرادة تخرجه من كونه جدارا حتى لو كان حيا إلى كونه كائنا

ذا إرادة يتفوق بها على البهائم وسائر المخلوقات الحية.

- الأمانة في الآية ليست الإرادة كما تفضلت وخمنت يا إسماعيل، بل هي التكاليف الشرعية وما يتبعها من ثواب وعقاب.

كاد أ.سمعان أن يُنهي الحصة عندما طال صمتي بعد عبارته الأخيرة، ولم أدرِ إلا وأنا أقول في استياء:

- لماذا نقوم بكل هذا المجهود المضني يا أستاذ سمعان؟، لننفي عن القرآن وجود المجاز فيه، لتنفي عن الله عز وجل صفة الكتابة كما يكتب البشر، لدرجة أنك تصر على تسمية كتابة الشعر نظما، وتنفي وجود تأليف كامل، نظم وجمع وترتيب وتحقيق واستقصاء، ولكن التأليف ليست كلمة تحبها، أليس كذلك؟

سكت الطلبة عن همهمتهم، وقرض أ.سمعان شفتيه بأسنانه وكانت هذه عادته إذا غضب:

- سأتجاوز عن لهجتك في مخاطبتي، وعن استيائك وحنقك على مسألة نفي المجاز لأنك تقف في جانب الأدب والمجاز.

- لا، ليس هذا هو السبب، فرغم عدم اقتناعي بمسألة إرادة الجماد لم أكن أنوي التصريح بهذا، ولكن نقاشك مع هاجر حفزني، اشتعل الرأس شيبا تبدو لي أجمل بكثير بمجازها عن حقيقتها، وأرى أن نفي المجاز عن القرآن نفي لجزء كبير من الحسن والجمال فيه، وهذه إساءة لله عز وجل.

- الآن تتكلم عن الإساءة، هذا انتقال شيق، سأخبرك أنا عن من أساء الى الله تبارك وتعالي، عندما قال الله تعالى يد الله فوق أيديهم، قالوا هذا مجاز واليد تعني القدرة والغلبة، وعندما قال الله تبارك وتعالى (فإنك بأعيننا) قالوا هذا مجاز والعين تعني حفظ الله ورعايته، ادعاء أن المجاز ممكن في القرآن جعل أصحاب المجاز يتوسعون ويعبدون ربًا بلا يد ولا عين ولا وجه، يعبدون عدما، ونسوا أن الله تبارك وتعالى قال ليس كمثله شئ، وأن صفاته غير صفات المخلوقين، ولا

يمكن تصورها.

هذا الوقت بالذات خرج الطلبة من فصولهم، ساحوا في ساحة المدرسة، وحقنتهم الرغبة في الخروج عبر البوابة الواسعة، الضيقة أمام أعدادهم، في هذا الوقت يا إسماعيل تمنيت أن لا تكون في المكتبة، ربما في الساحة، أو أفضل من ذلك، بعيدا خارج السور، في الصحراء، وقررت تنفيذ خطة الهروب القديمة.

***

في حوار لروائي اعتزل الكتابة قال فيه أن (أفعال البشر تنقسم إلى نوعين، الفعل الأول اضطراري كالتنفس والعطاس و الفعل الثاني اختياري كالتريض والشراء والأكل وشراء أنبوبة الغاز، تبقى الكتابة الأدبية فعلًا ثالثًا، فعلًا قائمًا على توجيه وصرف الكلمات إلى القارئ، القارئ بمثابة الإله الذي يعبده الكاتب، ولكي يخرج الكاتب من هذا المطب الشعوري فإنه يكذب، يحاول أن يقلب الصورة، يتساوى بالخالق، يخلق الشخصيات ويحركهم، يقتلهم ويحييهم، وأفضل الشخصيات التي يبرع الكاتب في تصويرها هي شخصية قارئ لا يجد طريقه، قارئ لا يستطيع أن يمارس الأفعال من الصنف الأول والثاني إلا بحاجته إلى الفعل الثالث من شخص الكاتب، ولكن الحقيقة أن الفعل الثالث في أحسن أحواله لا يعيش إلا معتمدا على الأفعال الأولى والثانية، كالبيع والشراء واستمتاع الآخرين بها، قيمة الكلمات على الورق مرهونة بمن سيقرأها، عدا ذلك تعتبر الكتابة جريمة، إفساد لورق أبيض بلا جدوى).

هذا الحوار وحوارات أخرى كثيرة وثقت حالة جماعية من اعتزال الكتابة الأدبية بعد رفع الحروف وقبل ظهور سمعان بفتاواه الشاذة، لم تأتِ فتاوى سمعان من فراغ إذن، الروائيون هم من هدموا عالمهم بأنفسهم من شدة الذعر، بعد أن فقدوا الوعد بخلود كلماتهم إلى النهاية.

هـذه الحـوارات كانـت منشـورة في كتـاب صغـير أعطتـه لي إيـلات، اسـم الكتـاب (داء المجـاز) جمـع وترتيـب وتصنيـف العبـد الذليـل إلى ربـه سـمعان الشـنقيطي.

اليـوم الـذي أعطتـني فيـه هـذا الكتـاب كان يومـا اسـتقبلتني فيـه بـلا زينـة، كأرملـة في الأسـبوع الأول مـن حـزن مصطنـع، بوجـه مغسـول كالرخـام بعـد مطـر طويـل، سـألتها:

- أي هذه الكراسي تريدينني أن أجلس عليه؟

ردت في انشغال دون أن تنظر:

- ولا واحد منها، احتجت لرؤيتك لكي أسألك سؤالًا لا يوجد ل

- مقعد هنا فاجلس على أي المقاعد شئت.

ثم رفعت رأسها ونظرت إلى وقفتي المندهشة:

- اجلـس يـا إسـماعيل، بعـد أن أفـرغ مـن حاجـتي معـك الآن سـأعيد ترتيـب أولوياتنـا، فالحاجـة مفسـدة للرؤيـة الصافيـة.

ثم تنفست بصوت مسموع وارتدت روحا جديدة وسألتني:

- ماذا تعرف عن الأحلام يا إسماعيل؟

- إنهـا طريقـة الجسـم لتفسـير إفرازاتـه البيولوجيـة عندمـا تنعـدم الرؤيـة المفسـرة.

- اسمح لي أن اقول لك: تفسيرك وقح.

- هذا ما لدي عنها.

- قصدت في سؤالي الأحـلام الصافيـة أو الجليـة، والـتي يقـول أرسـطو عنهـا: يحـدث كثـيرا عندمـا يحلـم الشـخص أن يخـبره شيء في وعيـه أنـه في حلـم ليـس إلا، والمعـنى أن تسـتيقظ في حلمـك يـا إسـماعيل، تكـون واعيـا أنـك تحلـم وأنـت تحلـم.

- هذا بائس.

- بالضبط ما تقول، بائس، هل تعرف يا إسماعيل، هذا الشيء الواعي موجود لدي باستمرار في أحلامي، يفسد حالة التورط اللذيذة التي تجعل الناس يستمتعون بأحلامهم، أنا على العكس منهم، حتى الكوابيس لا أتورط فيها، حتى حينما أكون مريضة أو مُحبة، مقابل هذا أنمتع بموهبة أعتقد أنها استثنائية، موهبة أعتقد أنها تخرجني من نطاق البشر إلى نطاق الآلهة، فأنا أستطيع أن أقطع أحلامي وأستأنفها، ليلة بعد ليلة، هل تعتقد أن هذا طبيعي؟

- وهل تحلم الآلهة؟، بفرض أن لفظ الآلهة لفظ صحيح.

- تحلم بنا، نحن مجرد حلم، هل تعتقد لو أن الله عز وجل تعمد خلقنا لأصبحنا بهذا الضعف والتعاسة؟

لم أحر جوابا، وحتى لو حاولت، كانت إيلات تحادث نفسها، إنها تحتاج فقط إلى النظر لوجهي من وقت لآخر وهي تتكلم، وعندما صمتت أردت أن أعطي الحديث دفعة في اتجاه آخر:

- أخشى أن تكون بعض نصوصي التي أرسلها قد أغضبتك.

- لا تستطيع، لا تستطيع يا إسماعيل.

تجاهلت الإجابة الجافة وقلت مؤكدا:

- هل تعجبك النصوص؟

- لا.. معظمها لا يعجبني، ولكن لماذا تسأل عن الإعجاب، هذا الكرسي يعجبني ولكنه مجرد خشب وقماش، لا يستحق حتى لقب كرسي، وهل تريد الحقيقة؟ حسنا، ها هي: أعترف أنني أكره بعض نصوصك.

- لماذا لم تقولي ذلك عندما سألتك إن كانت بعض نصوصي ضايقتك؟

- بقدر ما تفصح عن كراهيتك للأشياء تهبها الحياة يا إسماعيل، وأنا حريصة على أن لا أهب الحياة لشيء أكرهه، لذا فأنا أقاوم

رغبتي في أن أمزق الورقة التي تكتب عليها هذه النصوص وأرمي عدتها في وجهك، فلو فعلت سيتملكني النص أكثر مما فعل.

كان هذا قاسيا، كأن إيلات تعاقبني على مقاطعتها في حديثها عن أحلامها الخاصة، لقد استدعتني وأخبرتني أنها تحتاجني، ثم ها أنا ذا لا أهتم سوى برأيها في نصوصي.

- قل لي يا إسماعيل: هل تفكر وأنت تكتب نصوصك أنك ستنشرها يوما ما؟

- نعم، أعتقد أن أي كاتب يفكر مثلي.

- لم يعد في العالم من يفكر في نشر ما يكتبه يا عزيزي، حتى الله كف عن هذا، وسحب نسخ كتابه الأخير من الأسواق.

اتسعت عيني من جرأتها:

- لو عرف أ.سمعان أنني سأسمع هذا الكلام هنا ما أعطاني شهادة التخرج.

- دعنا من سمعان وقل لي، هل تعتقد أن ما تكتبه سيعيش بعدك طويلا؟

- آمل ذلك.

- إذن النص أهم من الكاتب يا إسماعيل؟

- لا توجد إجابة نموذجية لسؤال كهذا، ولكن لو افترضنا وجودها ستكون نعم، النص أهم بكثير من الكاتب.

- يعني لو طُلب منك أن تُؤخذ نصوصك كلها على أن تُنشر في كتاب لن يُوضع اسمك عليه، هل ستوافق؟

- إن كان سينشر بلا احتقار ودون أن يُنسب لشخص آخر، سأوافق.

ظلت إيلات تنظر إلي وكأنها على وشك أن تخبرني بالغرض الخفي وراء أسئلتها الغامضة ثم عدلت رأيها ونسجت أسئلة أخرى من قماشة مختلفة:

- كم نسبة ما تفكر أنك ستنشره وأنت تكتبه يا إسماعيل؟

- معظم ما أكتبه.

- وما تكتبه هنا، النصوص التي ترسلها إليّ، هل هو من هذا المعظم ؟

- نعم.

- ولا نص واحد خارج المعظم ؟

- كلها داخل المعظم.

- إذن أنت تخونني يا إسماعيل، خيانة ذهنية، وأنا لا أحب ذلك، عندما أطلب منك نصوصا أرجو أن تكتبها لي، ولي أنا فقط.

- ولكن هذا غير ممكن ببساطة.

- لماذا؟

- لا توجد نصوص خاصة بشخص، النصوص على هذه الشاكلة تسمى نصوص حب، لا يمكن أن يكتب رجل لامرأة نصا متجردا من نظر الآخرين إليه إلا إن كان نصًا في الحب.

- إذن اكتب لي نصًا في الحب يا إسماعيل.

كانت هذه هي المرة الأولى التي قالت فيها هذه العبارة، قالتها باعتيادية، تفرست في وجهها حينئذ فأدهشني ما استخلصته منه، كان وجهها متعبا، كوجه ممرضة وحيدة في الهزيع الأخير من ليلة وقعت فيها حادثة هائلة، وهي المكلفة بجمع النظرات الأخيرة للموتى ومسح الدماء وتسكين الصرخات، وحدها، كان وجهها يستطيع أن يمرر عشرات الجمل الشبيهة بجملتها الأخيرة (اكتب لي نصًا في الحب يا إسماعيل، أحبني يا إسماعيل، تعشّق فيّ يا إسماعيل) دون أن يفضي إلا إلى معنى واحد: أنا متعبة، كلها ستكون درجات من نفس المعنى، حتى لو قالت: أنا أعشقك فلن تعني إلا: أنا متعبة بشدة.

ثم استطردت تشكو:

- نحن نقرأ جنون الآخرين يا إسماعيل، ثمالتهم، وزجاجات خمرهم، وفي كل مرة كنت مضطرة أن أتمم قراءاتي أجد نفسي وأنا أتحمل نزق رجال كتبوا ولم يكونوا في كامل وعيهم ولا حتى نصفه، كل الروايات التي قرأتها كانت ملآنة بزجاجات الخمر الفارغة، ولأنك رجل ربما لا تشعر بذلك، ربما لم تقرأ كثيرا، ولكن المعول الأكبر على أنك رجل، لا يشعر بنزق الرجال إلا امرأة كاملة مثلي.

ثم زفرت وكأنها تستيقظ من كابوس وأردفت بلهجة مرحة:

- لذا دعنا نحمد الله أنني ولدت في هذا العصر حيث يمكنني أن أطلب النصوص التي أرغب في قراءتها، على الأقل النصوص التي أشعر أنها كُتبت من أجلي، لهذا سألت يا إسماعيل، فتحمل سخافتي.

- لا عليكِ يا إيلات.

ابتسمت فانتبهت أنني خاطبتها باسمها مجردا، وكأنها أرادت أن تكافئني على جرأتي فقالت:

- أنا أكتب أيضا يا إسماعيل، ربما لم تكن تعرف هذا عني، ولكن بالنسبة لنصوصي فهي تناص لا أكثر.

- تناص؟

- أقصد أنني لا أخلقها من العدم.

- أ.سمعان كان يقول أن الله تبارك وتعالى وحده من يستطيع أن يكتب نصا من العدم، لأن صفة الكتابة فرع على ذات الكاتب، والله خالق والبشر مخلوقون، لذا فإن كتابات البشر يعتريها النقص والأمراض.

- أختلف مع سمعانك تماما، ولكن دعنا نجاريه في افتراضه، هل أخبركم كيف يكتب البشر إن لم يخلقوا نصوصهم من العدم؟

- إيحاءٌ من نص لآخر، كل نص معتمد على جسد نص سابق

وهكذا.

- هذه إحالة وليس تناصًا، ولو أن سمعان يقرأ الأدب ولا يُحرمه لعرف أن بعض البشر استطاعوا كتابة نصوص من العدم.

- ما هي الإحالة؟

- سأشرح لك بمثال، التناص هو أن يكون لما كتبته أساسًا في حياتك الواقعية، الشخصية التي تخلقها في نصك يجب أن تكون موجودة في مكان ما بعقلك، في وعيك أو ما وراء الوعي منك، ملامحها الجسدية أو النفسية أما الإحالة فهي أن تتأثر بنص آخر في أماكن معينة منه بشرط أن تذكر هذا في نصك وإلا أُعتبر سرقة أدبية.

- يتملكني الفضول لقراءة هذه النصوص البشرية العدمية.

- أشم رائحة سخرية ولكني لن أرد بمثلها، بل سأحاول أن أشرح لك، النصوص العدمية كما تسميها يا إسماعيل عليها اختلاف، تماما كالرسالات السماوية، مؤمنين وكفار، متعصبين ومعتدلين، قد تقرأ نصا أعتبره أنا مخلوقا من العدم وتعتبره أنت هراءً، تماما كما يسجد المسلم لآيات يعتبرها اليهودي كاذبة والعكس.

- السؤال الذي يدور ببالي الآن، هل تستطيعين التميز بين نص كتبه الله تبارك وتعالى، ونص عبقري كتبه شخص من العدم؟

- لو لم أكن قادرة على التميز ما أتعبت نفسي معك، اطمئن، أستطيع ذلك وأضف إلى هذه القدرة معرفتي بأنك يوما ما ستكتب هذا النص، ولكن ليس اليوم، ليس الآن، ليس بهذه الحياة التي تعيشها.

- ولكن هذه الحياة مناسبة جدا لي لأخلق نصا من العدم عن شخص في العدم، مشاعرنا التي نبذلها من اتجاه واحد ولا ننتظر مقابلًا لها، أليست إلى شخص في العدم؟

ابتسمت إيلات من تغييري لموضوع المناقشة، ومسدت على ركبتيها

ثم مسحت بنفس اليد على شعرها، سريعا وكأنها تتأكد من وجود جسدها في موضعه ليس إلا، جسدها الذي كان الموضوع الأوحد لكل نصوصي، ثم قالت:

- كفاك مراوغة يا إسماعيل، لن تستدرجني إلى مثل هذا الحوار بهذه الطريقة، أنا أدير حوارًا هامًا هنا وأنت منشغل بالتسلل إلى دهاليزي الخلفية، أنا امرأة قديمة يا إسماعيل، لا تترك المظاهر تخدعك، لدي حزن مقيم في عظامي، لدي عيون حزينة رغم مظهري المبهرج، لا تأبه بي، بظاهري أقصد، فلو خلعت ملابسي الملونة المزهوة هذه الآن أمامك لن تبصر جلدا أبيض ولحمًا يتنفس، هذا إن كنت تمتلك البصيرة الكافية، كل الذين حاولوا التقرب مني اعتقدوا أنني بعيدة عنهم كالسماء وكالنجوم والكواكب، وأن كل ما عليهم هو الصعود إلى فوق، لذا كانوا يلوّحون بدفاتر شيكاتهم دليلا على أنهم يمتلكون المال الكافي لامتطاء صاروخ يصعد بهم إلى الفضاء، ولكن الحقيقة ليست كذلك، لكي يتملكني أحدهم يجب عليه أن يحفر كثيرا، لا أن يصعد، يحفر ويستخرج جثتي المدفونة تحت طبقات كثيرة في الأرض. استغرقها التشبيه، لدرجة أنها أمسكت مسند مقعدها وتنفست بصوت مسموع.

- هذه المرأة القديمة المليئة بالخدوش والطعنات تخبرك الآن وعليك أن تصدقها: أنت تمتلك القدرة على إنقاذ العالم إذا ما واصلت الكتابة، هذا ما أبصره أ.سمعان فيك، هذا ما عرفته اللجنة، وإرسالك إلى هذا القصر ليس أكثر من معالجة تافهة لوجودك، غادر هذا المكان يا إسماعيل، هذا المكان سيضرك أكثر مما سيفيدك، وتذكر أنني نصحتك.

- كأن المعول في خياراتي هو الضرر والفائدة!

- نعم، ذهابك إلى مدرسة سمعان دليل على ذلك.

- ذهبت إلى هناك مجبرا، وبقائي في المدرسة دليل على الخوف،

وإن كان لـدي مـبرر لهـذا الخـوف، ولكـني لا أرغـب في أن أقولـه بتلك الطريقـة.

أشارت بيدها في ضجر.

- حسـنا حسـنا، لا أتهمـك يـا إسـماعيل، ليسـت نقيصـة أن أقـول أنـك بحاجـة إلى أن تغـادر القـصر، هـل تعلـم، أنـا أيضـا بحاجـة إلى الخـروج مـن هنـا.

- يمكنك أن تحققي ذلك في أي وقت تشائين.

- ليسـت هـذه المغـادرة، بـل حلـم بالمغـادرة، رجـل يأخـذني مـن هنـا، بعيـدا جـدا، بعيـدًا عـن الـشرق كلـه، بيـت ريفـي وسـط مزرعـة، نعيـش معـا عـلى أرجوحـة، أضـع رأسي عـلى فخـذه ويداعـب شـعري ويقـرأ لي، أتمـنى أن يقـرأ لي أليـس في بـلاد العجائـب وألـف ليلـة وليلـة، يعانقـني بقسـوة حـتى أتنهـد ويخـرج مـن جـوفي هـذا الهـواء العطـن الذي أتنفسـه هنـا، وفيمـا عـدا هـذا الحضـن القـاسي فهـو رقيـق رائـع.

كانـت هـذه مـرة نـادرة تحدثـت فيهـا إيـلات عـن مشـاعرها الحقيقيـة، ولـو نظـرت إليّ حينهـا وهـي تتكلـم عـن الرجـل الـذي تشـتهيه، لـو نظـرت إليّ إذ جـاءني خاطـر ضئيـل أن يكـون هـو أنـا، أنـا الرجـل المشـتهى، كل ملامحـي الـتي كانـت عـلى وجهـي مثـل جـزر ناتئـة، صدغـي ونتـوء ذقـني أسـفل لحيـتي وجبهـتي، وأنفـي، حـتى أنفـي، كلهـا غرقـت الآن في دم أحمـر ملتهـب، وكان قلـبي يـدق، ومـع دقاتـه كانـت الألـوان المبهجـة تنفجـر في عيـني

ولكنهـا لـم تلحـظ، كانـت غارقـة في رؤياهـا، مطرقـة الـرأس وهـي تلحـد أمنيتهـا بتمتمـات خافتـة:

- ولكنه حلم، مجرد حلم.

- وما الذي يمنعك من تحقيقه؟

رفعت رأسها وابتسمت بمرارة وهي تقول:

- لقد فقدت قدرتي على الحب يا إسماعيل، لا قلب لي في الحقيقة، ولقد وضعته في رأسي، قربي من رجل واحد سحق كل رغبة لدي في الحب، الحب كذبة جميلة جدا يا إسماعيل، ورغم ما حدث لي من غبطة بسبب فشلي في التعاطي معهم إلا أنهم ضرورة شيقة.

ثم انتبهت أخيرا إلى تضرج وجهي وابتسمت:

- يا الله، إن وجهك يحمر عندما ذكرنا الحب، هل تذكرتها، ما اسمها، لم تخبرني باسمها، دعني أنا أخمن طالما أنك لا ترغب في أن تخبرني بعد، غيداء، وسماء، رهف، فيحاء، هدير، ليلى، غيد، رغد، هدب.

- هجر.

نطقت الاسم ببطء كأنها تتذوقه:

- هجر، غريب أنني لم أكن لأتوقعه، هذا أول الفيض يا إسماعيل، قصة، ولكني لا أطمع في أكثر من ذلك اليوم، يمكنك أن تنصرف الآن إن أردت، أو تبقى، ولكني لن أتكلم، لم تعد بي قدرة على الكلام، لقد أرهقتني هذه الاعترافات التي لا طائل من ورائها.

***

النصوص التي كتبتها إلى إيلات ضاعت في رحلتي الأخيرة، كثيرا ما أتخيل أنني نسيتها في القصر، وأن إيلات ستجدها وتحتفظ بها، النص أهم من الكاتب، وليس هناك مكان أجمل لحفظ النص إلا في معية الإنسان الذي كُتب له.

ولكن حرصي على أوراق نصوصي ينبئني أنني لم أنسها، وأنها ضاعت، فمن أجل نبوءات سيد القصر كدت أهلك نفسي، أقصد قراري باستعادة أجندتي الخاصة قبل هروبي من مدرسة سمعان، كان جنونا، ولكنه الشيء الذي جعلني أومن بالقدر في كل حكايتي.

حـددت لذلـك يومـا لـم أحـضر فيـه الحصـص الأولى، اصطحبت معي كتـاب المجـاز وكراسـتي وقلمـي، وخبـأت مفـكا في كراسـتي، مفكًا صغيرًا كنـت أسـتعمله في أعطـال الكهربـاء ببيـت جـدي، الروائح المبكرة لطهـو الطعـام أثنـاء مـروري بالمطعـم هيجـت جوعـي وذكرتـني أنـني لـم أذق طعامـا منـذ اسـتيقاظي وجعلتـني أفكـر: ربمـا كان عـلي أن أنفـذ خطـتي بعـد وجبـة الغـذاء، ولكـن بوابـة المدرسـة سـتكون مغلقـة حينئـذ ووجـودي فيهـا سـيثير الشـبهات، منفلتـا مـن بوابـة المدرسـة إلى الفنـاء، صعـدت الـدور الأول والثـاني والـدور الثالـث ثـم سرت في ممر الـدور الرابـع باتجـاه الناحيـة الأخـرى مـن المبـنى، سرت بسرعـة لكيـلا يظـن بي طلبـة الفصـول أو مدرسـوهم الظنـون، معظـم أبـواب الفصـول كانـت مغلقـة عـلى الطلبـة، بـاب واحـد فقـط كان مدرسـه منشـغلا بنوبـة عطـاس مفاجئـة، يـده ممسـكة بالبـاب نصـف فتحـة ورأسـه منحـني لأسـفل ينتظـر مداهمـة النوبـة التاليـة.

بـاقٍ مـن الزمـن حـتى انـصراف الطلبـة نصـف سـاعة، مشـيت بحـذر، صعـدت الـدور الرابـع ثـم جلسـت عـلى أول رخـام السـلم البـارد وغرقـت في تأمـلات غسـقية لـم أنتبـه منهـا إلا عـلى صـوت انـصراف زملائي الخمسـة ثـم سـاد الصمـت، انتظـرت سـاعة أخـرى حـتى فرغـت المدرسـة تمامـا مـن موظفيهـا.

أثنـاء هبوطي الـدرج كنت أسـمع صوتا لا يشـبه صـوت البـشر، الأبواب مغلقـة، ولا أحـد في المدرسـة، ولكن خشـب الـدكك يئن ومصاريـع النوافذ يخـرج منهـا صـوت كالحفيـف، إن صخبـا كالـذي يصنعـه التلاميـذ لابد لـه من وقـت حـتى يتـسرب خـارج الجـدران لتسـتعيد طبيعتهـا الصامتـة.

لدهشـتي كان بـاب المكتبـة مفتوحـا، ليـس بالكامـل، بـل مواربًـا، تنصت، لا صـوت، سـأدخل الآن ولـو تفاجـأت بوجود أ.سـمعان سـأعتذر لـه عـلى تفويـتي درس اليـوم

دخلـت مـن انفراجـة البـاب الصغـيرة، كان أ.سـمعان بالداخـل كما

توقعت ورغم ذلك اضطربت، جالسا خلف مكتبه البعيد، كرسيه الفاره مقلوب بزاوية تسمح له بالتحديق في السقف، القبة الزجاجية التي يقع خط المنتصف فيها بالضبط فوق المكتب، والمكتب في طرف المكتبة البعيد، حيث يزوي آخر ضوء للشمس رغم أن وقت الغروب لم يحن بعد، شعاع الشمس الهابط من القبة كان عفيا، وأ.سمعان ليس نائما، مُفتح العينين في هذا الضوء كأنه يود إحراقهما، كأنه يؤدي صلاة خاصة، أو يؤدي طقسًا يشبه الطقوس التي تقوم بها القبائل الوثنية لإثبات شيء ما، المشي فوق الجمر أو الجلوس على وسادة من المسامير الحادة، ثم لاحظت الدموع، دموعًا تسيل من عيني أ.سمعان، بكاء صامت بلا نشيج ولا همهمة، فكرت أن أعود بظهري للوراء بهدوء وأغادر ولكن المشهد كان أكبر من قدرتي على أن أخلع عينيّ منه، ظللت واقفا حتى انسحب شعاع الشمس من القبة وبقي الضوء، ثم انحنى أ.سمعان فانحنى معه المقعد بثقله، كان على المكتب زجاجة ماء كبيرة، صب منها في كوب وشرب، ثم جمع بعضًا من أوراقه وقام ودار حول مكتبه وجاء ناحيتي، لا يراني، هكذا خمنت: حرارة الشمس لا تزال حية في عينه ولن يراني، رغم ذلك تحركت إلى زاوية مظلمة محافظا على المسافة بيننا، متزحزحا داخل المكتبة أكثر، وعندما وصل أ.سمعان إلى الباب وخرج أغلق الباب خلفه.

***

وقفت في المكتبة وحيدا، بحثت عن زر إضاءة بلا جدوى، فالمكتبة في ضوء العصر كانت قريبة من الغروب، وبداخلي نما مزيج من الخوف لا أعرف له سببًا، ولم تقدني شهيتي إلى الأرفف لتصفح الكتب، بل الخوف هو ما قادني لهزيمته في عين العاصفة، الخوف خدعني، درت حول مكتب أ.سمعان، جلست على مقعده، انقلبت به في الوضع الذي رأيت عليه أ.سمعان منذ قليل، تمعنت في زجاج

القبـة باحثـا عـن شيء يدعـو لإمعـان النظـر، ثـم أرجحـت المقعـد وعـدت مستقيما في جلسـتي، عبثـت بأصابعـي في الكتـب المتناثـرة أمامي باحثـا عـن أجنـدتي، ثـم بـدا لي أن أشرب، مـلأت نصـف الكـوب، رفعتـه إلى فمي وأملتـه، ولكـن رائحـة المـاء لـم تدعـني أشرب، وبحركـة لا إراديـة رفعـت الكـوب إلى الضـوء الخافـت لأجـد بـه كـدرًا عالقًـا خفيفًـا، فاحـت رائحـة الحـبر أقـوى، كان المـاء أسـود، كان كـوب مـاء أسـود مـن العالـم القديـم ..

***

الحقيقة لا تشبه إلا نفسـها، مهما اختبأت أو التمسـناها في المتشـابهات: كـوب مـاء أسـود ومكتبـة محرمـة عـلى القـراءة، وكنـت أهـذي وأنـا أفتـش في أدراج المكتـب الأبنـوسي، أهـذي وأنـا أعيـد فتـح زجاجـة المـاء وأقربهـا مـن أنفـي وأشـم، أهـذي وأنـا أحتـسي قطـرات مـن المـاء الأسـود وأحـاول ابتلاعـه وأبصقه.

ثـم أتوجـه إلى أرفـف المكتبـة بسـيقان لينـة، سـاحبا جـزءًا مـن الكتـاب الأول (كتـاب في الحديـث أم في التاريـخ؟: سـير أعـلام النبـلاء) لا شيء مريـب، ثـم سلسـلة أجـزاء (تفسـير الظـلال) لـم يكـن الأمـر مزريـا إلا لمدقـق، وانتقلـت إلى مجموعـة أخـرى (تفسـير القرطـبي) فبـدأت المسـاحات البيضـاء تطعـن في عيـني كلمـا تصفحـت.

الرفـع كان كامـلا، حـتى الآيـات الموجـودة في سـياق الكتابـة رُفعـت، الرفـع كان كامـلا وقويـا، ولـم يسـتطع أي شئ إعـادة الحـروف إلى أماكنهـا، حـتى أ.سـمعان نفسـه وفي مكتبتـه، ورغـم أن الدولـة أعدمـت الكتـب الـتي تبقـت إلا أن أ.سـمعان اسـتطاع الاحتفـاظ بكتبـه كاملـة، حـتى الحـبر الـذي تخلـف عنهـا أذابـه في المـاء وهـا هـو يشربـه لغـرض لا يعلمـه إلا الله.

بآليـة لا تفكـير فيهـا أخـذت أنتقـل مـن رف لآخـر، ألتقـط الكتـاب، أتصفحـه سريعـا، أعيـده بحـرص وأنتقـل إلى غـيره، البيـاض يوغـل في

صدري قليلا قليلا بينما تعتصر القلب قبضة باردة، وعندما كفت عن عتصرها دبت فيها حرارة الدموع، بكى قلبي قبل أن تبكيَ عيني، عنت بي خشب مصطدما بالحبال التي تصنع حرما حول الأرفف وجنصت، وجدت نفسي أتساءل هل هذه الفراغات البيضاء كفن أم خرقة؟، وكل جدية سؤال يتوقف عليها مصير الكون: إن كان ما يعيشه عسر بداية جديدة أم نهاية؟

إن كانت خرقة، ثمة يد إلهية مرت من هنا، نثرت جرادًا سماويًا دتيهم حروف مقدسة في الكتب، التهم الجذور وترك الفروع تجف و الأوراق تيبس عليها، ربما ملائكة رفرفوا بأجنحتهم النورانية وهم يتصفحون الكتب بسرعة خرقة بينما توقف لهم الزمن واندماح بهم بُعد، ليحققوا النبوءة أو يوقعوا اللعنة، فيعود العالم إلى ما قبل اتصال مع السماء، لا ليس بالضبط، لقد ترك البقايا العالقة، ترك مريدين وأشرارًا، ترك مشايخ لا يعرفون كيف يدقون مسامير بصرت صورهم المقدسة على حائط من هواء.

كل هذا القدر من الرؤية كان أكبر من أن يتحمله قلبي، كان لزاما علي أن أغادر المكان بأي طريقة، حتى لو اضطررت إلى كسر الباب، بدون أوراق قصتي، لم أعد أرغب في الحصول عليها، لا أرغب في شيء إلا أن أغادر هذا المكان، طرف العالم البائس، ليس فقط، بل أرشيف البؤس، بحثت عن مفاتيح، بحثت في أدراج المكتب وعلى الأرفف القريبة من الباب، بحثت تحت الأبسطة، أغمضت عيني في ألم، ومثل وحي هبطت فكرة الهروب.

***

كانت هذه هي الحادثة التي حكيت لإيلات عنها، سقوطي من فوق أرفف المكتبة، وثلاثة أسابيع من الألم لم يتخلف فيها قيّم مبنى أبي بكر الصديق يوما واحدا منها يأتي ليصحبني إلى الطبيب، نهبط الدرج، أستند على كتفه العفي بذراع، وبكف الذراع الأخرى أنقلها

على جدار الدرج وأنا أنقل ساقي المصابة من سلم لآخر، يعرفني الممرض والصيدلي باسم (الفتى الذي سقط في المكتبة) فيقدموني على سائر الطلبة، يفحص الطبيب الورم ومدى انحساره عن ركبتي ويعطيني حبوب المضاد الحيوي فأبتلعها وآخذ جرعة المساء وأنصرف.

في اليوم الأول الذي تمكنت فيه من السير بدون مساعدة القيم تحررت منه، سرت على قدمي ذهابا وإيابا، ولم أمكث في غرفتي طويلا بعد عودتي، نزلت أتريض وحملتني حركة الطلبة المتوضئين إلى المسجد، صليت، وعندما أردت أن أخرج بعد انتهاء الصلاة لم أجد حذائي، كان علي أن أنتظر بالمسجد، فكثيرا ما يأتي الطلبة مباشرة من زياراتهم للخارج فيستعيرون أحذية المصلين الخفيفة القابلة للبلل بدلا من أحذيتهم الجلدية الثقيلة، خاصة أثناء صلاة العصر، دفعني الانتظار إلى أن أستعير كتابا ما من فوق الرف، ما اسمه؟، ما اسم الكتاب، لا أتذكر، ما أتذكره أنه كان في علم الحديث، أسندت ظهري ومددت قدمي الحافيتين في اتجاه غير اتجاه القبلة وبدأت أقرأ، كنت أشعر بحواسي - ليس بسبب القراءة ولا طبيعة المكان - وكأنها تمر بهذا التغير الذي تمر به الحواس عند البلوغ وتغير الفصول والحب الأول والتعصب، قلبي متفتح كزهرة حمراء قانية على سطح بحيرة قديمة حيث كان كل شيء أوليا، والكتاب البارد يشغفك، كم مرة في حياة المرء يمكن أن يشغفه كتاب في علم الحديث، أو الجغرافيا، أو النسبية، أو أسماء النجوم في المجرة ومواقعها، رائحة نضج الفول المعد للعشاء في مطعم الطلاب تثير جوعي، ثم نمت، نمت بعمق لا أستطيع أن أبرره، وحلمت، رأيت نفسي بالحلم في ثياب فتى عربي نائم أسفل نخلة عتيقة، استيقظت - في الحلم - وعندما استيقظت استيقظت بداخلي ذكريات رحلة كاملة مدهشة ومرهقة للبحث عن أصل مثل عربي قديم، كان المثل يربط بين علو النخلة وطيب الثمرة وقوة سعفها، وكانت فيه صفة

تغفر لصفتين، أو صفتان تغفر لصفة، بشرط أن الصفة الجيدة ليست هي الثمرة الطيبة، وكان معنى المثل العربي منصرفا إلى الإباء والترفع، ولكن روح الحلم كانت غارقة في الاندثار والتبدد، والوحشة التي كانت بداخلي تشبه الوحشة التي تولدت في نفسي أول مرة حكي لي جدي فيها عن محو الحروف المقدسة.

لم يكتمل الحلم فقد أيقظني منه آخر شخص كنت أتوقعه، أستاذ سمعان الشنقيطي.

***

خارج مكتبته كان الأستاذ سمعان مفرط الطول، مبتسما على الدوام، كثيرا ما فكرت أن ابتسامته تلك ابتسامة عامة، لا تخص أحدًا ولا حدثا ولا ذكرى، ابتسامة على حدود عائمة تضع خطوطا على إطار الوجه، هنا الفم، فوق الأنف، تحتها اللحية الخفيفة الهائشة، ولكن ابتسامته لي في هذا اليوم كانت ذات مغزى، الكتاب لا يزال في يدي المتراخية مثل ريق نائم، أخذه مني وأغلقه وأعطانيه فدسسته تحت إبطي، ولم ينظر إلى عنوان الكتاب كأنه رسالة إلهية لا ينبغي عليه أن يتلصص عليها، قال:

- تعالَ معي يا إسماعيل.

قلت:

- ولكن حذائي ضائع وهذا سبب بقائي في المسجد.

ابتسم وأخذ حذاءه فوضعه تحت إبطه وخطا خارج المسجد حافيا فتشجعت وتغلبت على خجلي، وخرجت معه.

مشينا على أسفلت الطريق حافيين، الأسفلت يختزن حرارة الظهيرة ولكنه لا يلسع الجلد، بينما يسرد أ.سمعان متن أحاديث نبوية كان فيها الرسول صلى الله عليه وسلم حافيا كان كل من يمر بنا من الطلبة يحيينا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يرد أ.سمعان تارة وأرد أنا

تـارة أخـرى، رد السـلام فـرض كفايـة، درنـا حـول الأبنيـة السـكنية، مررنـا بنوافـذ المطبـخ العاليـة خلـف مبـنى عـلي بـن أبي طالـب، أسـفل النوافـذ وعـلى العشـب يتمـدد الجسـد البرميـلي لمرجـل المـاء السـاخن الـذي يعمـل بالسـولار، كان خامـدا فاليـوم ليـس يـوم الاثنـين ولا الخميـس ولا الجمعـة، أيـام الاغتسـال الجماعـي، غـير بعيـد عـن سـور الأبنيـة السـكنية للطـلاب يوجـد المبـنى المنفصـل لديـزل الكهربـاء الاحتياطـي، والبـاب الصغـير الـذي يـؤدي إلى المدرسـة، لا يبـدو عـلى البـاب أنـه يمـر منـه أكـثر مـن ثلاثمائـة طالـب يوميـا جيئـة وذهابـا.

عـبر أ.سـمعان مـن البـاب الصغـير وعـبرت خلفـه، لـم أكـن أعلـم أن عبـوري هـذا البـاب خلفـه سـيبدل حيـاتي للأبـد، أ.سـمعان ذاهـب بي إلى المكتبـة، ولكـني اسـتمررت في السـير خلفـه، اشـعر باتـكاء قلـبي عـلى عظـام صـدري خفيفـا، وانضغـاط قدمـي عـلى الأرض خفيفـا، وضمـة إبطـي للكتـاب تحـت ذراعـي خفيفـا، وأ.سـمعان يسـير أمامـي تعـرف قدمـاه الطريـق جيـدا رغـم صـدأ الظـلام الـذي يكسـو البـصر الحديـدي، واللحظـة خـارج السـياق، كل مـا يحـدث بعـد استيقاظي مـن نومـة المسـجد خـارج السـياق، ولـولا ممـر الحـصى الـذي بـدأت نتوءاتـه تشـيك قدمـي لظننـت أن الحلـم مسـتمر، ولـولا بقايـا الكـدر الـذي ظـل عالقـا بقلـبي تجـاه أ.سـمعان لظننـت أنـه نومـني وسـار بي.

ثـم بـدا لي كل حـدث مفـسرًا بدقـة ومـبررًا بشـكل تلقـائي، السريـة والكتـب والصفحـات المنزوعـة في كتـب جـدي والصفقـات الـتي تتصيـد لحظـات تفتـح القلـب، إلا رغبـة أ.سـمعان إذ جعلـني أحتفـظ بكتـاب علـم الحديـث الـذي اسـتعرته مـن رف مكتبـة المسـجد، وكنـت أعلـم أنـه يقـودني إلى إجابـة مـا في مكتبتـه وأن تعجلهـا يفسـد التراتبيـة والتلقائيـة والبسـاطة الـتي بـدأت الأمـور تصـير إليهـا بيننـا، فـسرت خلفـه.

***

عندمـا أضـاء أ.سـمعان ضـوء المكتبـة تحولـت أشـباح الأرفـف العاليـة

إلى واقع كئيب، تحولت من أشباح مفرطة في المعنى إلى أجساد بلا روح، سحبت كتاب علم الحديث من تحت ذراعي ووضعته على مكتب أ.سمعان وجلست حيث أشار لي، وعندما أبصرت أصابعي أدركت: كم أنها لم تعد تشبهني، ونظرت إلى أرفف المكتبة وأدركت كم أنها أصبحت مخيفة لي، ونظرت في داخلي فأيقنت: كم غيرتني تلك الليلة التي بتها في المكتبة!

قبل أسبوعين فقط كنت هنا، وكنت إسماعيل آخر.

قال أ.سمعان:

- هذه السقطة كان يجب أن تكسر ساقيك ولكن الحمد لله على ما قدر وفعل.

قلت:

- الحمد لله.

- هل لي أن أعرف كيف سقطت وما الذي كنت تبتغيه من الصعود إلى ما خلف الأرفف؟

- كنت أريد أن أصل إلى مكان الباب في الدور الثالث المطل على الدرج لأخرج منه.

- وكيف كنت ستخرج منه وهو مغلق؟

- كنت سأنبش مكان الكالون بمفك معي.

- ولماذا لم تفعل هذا بباب المكتبة دون أن تؤذي نفسك؟

- ظننت أن بإمكاني إصلاحه فيما بعد دون أن تنتبه.

تنهد أ.سمعان:

- هل يمكنني أن أعرف ما الذي كنت تفعله في المكتبة بعد انصراف الطلبة وكلف المدرسة ثمن جبيرة لساقك؟

- كنت أسرق الأجندة التي أخذتها مني دون وجه حق.

- لماذا!

- لأنك أهنتني وأهنت ما كتبته فيها.

قلت دون أن أخشى سخريته، قلته وأنا أسأل نفسي: لماذا أنت متيقن أن أ.سمعان لن يكون على سجيته الدائمة، وأنه لن يقول الآن (هل تعتقد يا إسماعيل أن الكلمات جزء منك، صفة من صفاتك؟) ثم يسعى ليسفه منها.

قال أ.سمعان:

- حسنا، لا أريد أن أكون عبئا عليك أكثر مما تحتمل، ولكن كان يجب أن يدور هذا الحديث بيننا على أية حال، ها هي أجندتك، خذها وانصرف.

ثم التقطها وألقاها أمامي فهبطت على المكتب، الهواء الذي هرب من سقطتها جعل عينيّ تطرفان، ولم أمد يدي لآخذها، وبقيت جالسا.

طوال الأسبوعين اللذين مكثتهما في غرفتي أدير هذا الحوار بيني وبين نفسي عشرات المرات، الحجج والبراهين والاتهامات، مرة أنتحل عقل سمعان وأخرى أنتحل شخصيتي التي سأبدو بها أمامه، وكأنني لم أنتوِ الهرب بعد ما اكتشفته بالمكتبة، هل كان أ.سمعان قادرا على مساعدتي في تجاوزه، بعد أن ألقى الأجندة وأعطاني الخيار في المغادرة فبقيت، بقيت لأسمعه وهو يزيح الغطاء سويا عن جثة حدثنا المشترك ويسألني:

- ما الذي تعرفه عن نسخ القرآن يا إسماعيل؟

- أعرف أنواع النسخ، قد يُنسخ الرسم والتلاوة ويظل الحكم والمعنى، وقد يُنسخ الحكم والمعنى ويظل الرسم والتلاوة.

- اثبت على معنى النسخ الأول ولنناقشه، أن يُنسخ الرسم والتلاوة، أي يغيب اللفظ من رسم القرآن في المصحف فلا نتلوه فيما نتلو

من قرآن ولكن يظل حكمه موجودا، مثل آية الرجم للزاني المحصن، هل تعرفها؟

- نعم، كانت الآية موجودة ثم مُحيت وبقي الحكم.

- هل تستطيع أن تخبرني لماذا يظل حُكم آية مُحيت في الأساس من القرآن؟

- لا.. لا أعرف.

- لهذا اليوم يا إسماعيل، لتفسير المعجم بيننا، ولنجد راحة صدورنا حتى لو عرفنا ما لا يعرفه الناس، إن القرآن لو مُحي كله من المصاحف سيظل حكمه موجودا بيننا طالما ظللنا أحياء.

- ولكني لم أجئ معك إلى هنا يا أ.سمعان لأسألك عن هذا.

- إذن لماذا جئت؟

ألقى سؤاله وانتظر إجابتي، ولكني لم أجبه، ففي هذه اللحظة وقبل أن أفتح فمي تغيرت حياتي للأبد، وبوعي لا يمكن خداعه كنت أرى ما لا يمكن لأستاذ سمعان أن يراه، مصيري في أن أسير خلف العميان لأتلو عليهم أناشيدي، ليس طمعا أن أشفيهم بها، كان مصيرًا محيطًا بي يشبه أكثر ما يشبه حدقة عين عمياء مُفتحة على آخرها لترى، دون جدوى، وفي هذه العين كنت أرى نهاية قصتي.

***

# الفصل الثالث

## يوم الخروج

ما حدث بعد حادثة أبان بثلاث سنوات

ببطء وبأعصاب باردة، نثرت أشيائي تمهيدا لنقلها إلى الحقيبة، فوق المقعد، على سجادة الصلاة، وبسطح منضدة المذاكرة، سجيتها مثل رفاق قتلى في معركة ضارية، وكأنه لا ينبغي دفنها بكل ما تحمل من ذكريات هادرة دون تأبين لائق، وإن كان تأبينا أخرس، حتى الوارد الجديد على أشيائي: شهادة ورقية ملونة، (إجازة) كما هي مُعنونة، وجدت تأبينها المناسب أيضا، ماتت قبل أن تولد، ماتت ولحقت بالموتى رفقة لا انتماء.

اغتسلت بينما مرأى الشهادة الملونة عالق كالمدية في حلق عيني، منذ سلمها لي أ. سمعان قبل يومين وهي توغل برفق في نسيج اطمئناني، كان من المفارقة أن يتم تكريمي بورقة في مدرسة مؤسسة على تجريم الكتابة الأدبية، سلمها لي في مكتبته بعد أن ختمها بشعار المدرسة، بإحكام قبضة تستوثق من انقطاع النفس عن ضحيتها بعد خنقها، ثم نظر إليّ لمدة دقيقة وكانت هذه أطول نظرة تبادلها معي طيلة ثلاث سنوات إلا أشهر، ثم أعلمني أن عليّ الانتظار حتى تأتي السيارة لتأخذني.

- سترسل لك الحكومة سيارة غدا أو بعد غد لتأخذك إلى مكان عملك.

سألته:

- هل عندك علم بالمكان الذي سألتحق بالعمل فيه؟

- لا أعرف بالضبط، المكان اللائق بك ستحدده اللجنة التي ستناقش درجاتك.

اللجنة، الاختبار، الكلمات التي ذكرتني بالأيام القديمة، كأنني أفيق من حلم طويل.

- ألست عضوا في اللجنة؟

- نعم ولكني لا أستطيع أن أكون كذلك فيما يخصك، أنت تلميذي، هناك رابط بيني وبينك يؤثر على حياديتي.

كان يكذب، أ.سمعان يكذب ببساطة، لأنه لا شيء في العالم يمكنه أن يؤثر على حياديته، ولا حتى مصيره الخاص، والجميع يعلمون ذلك، كل رجال الحكومة القديمة والجديدة، لو كانت حياة أ.سمعان بين الحد الفاصل للقرار وحياديته لن يتردد في قطع الخيط دون أن تطرف عينه.

لابد أن أ.سمعان قرأ أفكاري حينئذ، فعيناي كانتا سهلتي المنال، لذا قال وهو يقص بعناية الأعشاب الضارة للقلق التي نبتت حول بؤبؤي العينين.

- أخبرني على أية حال ما هي الخيارات المتاحة أمامك، أن تعود إلى بيت جدك، البيت ملك للحكومة ستأخذه يوما ما بعد أن مات جدك، هذا غير أن الاحتمال الكبير أن تأخذ اللجنة موضوع سكنك في الاعتبار وتوفر لك عملا وإقامة معتمدة عليه.

كان هذا كثيرا جدا من الكلام الذي من عادة أ.سمعان أن ينطقه، كثيرًا لدرجة أنني بدأت أشعر بإرهاق وريبة، فدائما ما كان أ.سمعان صامتا فيما يخص الأحوال، ثرثارًا فيما يخص مواضيع الدراسة الأثيرة لديه، ولو أنه صدق في العناية بحالي لأخبرني أنه من غير المعتاد أن تأتي سيارة لاصطحاب الطلبة إلى العمل الذي رشحوا له، قليل جدا من الطلبة من أتت السيارة لتأخذهم، ندرتهم جعلتهم أساطير بلا معاصرين لوجودهم يروون عنهم، ولكن الحكايات اتفقت على شيء واحد، كلهم كانوا مميزين، مميزين بعقولهم، ومميزين بطبائعهم: وأنت مميز أيضا يا إسماعيل.

بعد أن اغتسلت ورتبت أشيائي في حقيبتي رقدت على ظهري، تماما كما فعلت في أول ليلة لي في مدينة الطلاب، دون غطاء وبلا وسادة، نائما كمومياء فرعونية، فالمستلزمات التي كنت قد استلمتها منذ

ثلاث سنوات نصحني قيم المبنى أن أعيدها، لكي أوفر على نفسي الخوض في إجراءات عقيمة وانتظار مجيء الموظفين من بيوتهم ، كان ينبغي علي في ليلتي الأخيرة بالمدرسة أن أتدبر الأمر، أمر نومي على فراش جاف وأمر الأرق، ولكن لماذا هاجمتني هذه الألفة الغريبة!، حاولت التماسها طيلة ثلاث سنوات فلم تأتِ، كنت أحاول هزيمتها في هذه الليلة لأصبح غريبا عن المدرسة وأنا لم أغادرها بعد، مثل زوبعة حزينة في مكان خرب طافت ذاكرتي بالمطعم والفصول ومدينة الطلبة وسطح المكتبة ذي القبة الزجاجية والحديقة الصغيرة، متعسرا بصعوبة بالغة في غرفة الاستماع، حاشدا قوتي لأهزم حنيني إلى أرفف المكتبة، حتى حنيني إلى العبارة المفزعة التي ألِفتها وألِفت التشوه التي صنعته بداخلي: الجهل يستوجب القتل، كانت ليلتي الأخيرة والتي لن تُحل فيها إشكالات سنوات ثلاث، أغمضت عينيّ وأسندت ساعدي الأيمن إلى جبيني وحاولت أن أُنظم أنفاسي، غدًا لدي سفر آخر لن أدفع نفقته، إلى جهة لا أعلمها وعلي أن أصدق أن أ.سمعان أيضا لا يعلمها.

ولكن، كم مرة قال أ.سمعان عن أشياء لا أعلمها وهو يعلمها، لا يكذب في ذلك لكنه يُعرض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، مع أنه قال أن الصدق واسع، يسع كل شيء.

***

في الصباح وعندما أخبرني قيم الدور الثالث في مبنى أبي بكر الصديق بمدينة الطلاب أن السيارة تنتظرني بالخارج تحيرت في التصرف المناسب، هل أذهب مباشرة حاملا حقيبتي، أم أمر على أ.سمعان لأودعه، فأنا غادرت مكتبه بعد أن سلمني الشهادة دون أن أصافحه حتى، لم يكن أ.سمعان يحب المصافحة فضلا عن المعانقة، وإذا اضطر لمصافحة لا يشد على يد ولا يرخيها، يمسكها مسكا لا مشاعر فيه ويدفعها في صدرك كأنه يطلب منك أن تكفكف من مشاعرك

الهياضة تجاهه.

كانت الكتابة هي ثالثنا دائما، كالشيطان، ولكن ليس للإغواء، بل للتحريش، ولكن في هذه المرة الأخيرة لم تكن الكتابة هناك، بدا أ.سمعان منطفئا، عجوزا مألوفا وكأنه لم يقل ذات ظهيرة بعيدة زاعقا بملء فمه:

- أنا لا أسعى لإثبات أن الكتابة ذنب، بل أسعى لاعتراف المجتمع بها كمرض، الذنب أن تخفي مرضك، وأول واجب عليك أن تؤديه تجاه هذا المجتمع أن تقول: أنا كاتب، حتى بائع الخضروات والبقال والبواب وجامع القمامة يجب أن يعرفوا أنك كاتب، ليس كمجنون ولا كنبي، بل كمرض يجب عليك أن تحمله في جسدك عوضا عن جسد مجتمعك دون أن تمرض به أو تنقله لغيرك، المجاز سيظل موجودا ولن يموت أبدا، قل ما قلته مرة أخرى يا إسماعيل، بلفظك أنت، اختصر وقل:

- الكتابة الأدبية هي المجاز، المجاز مرض، ولكن حامليه ليسوا مرضى.

- صفقوا لإسماعيل على إجابته.

كان ردي ساخرا بقدر موضوعيته، ويصعب الفصل بينهما إلا لخبير في اللهجات، خلال سنوات دراستي تعلمت أن لا أنكر الكتابة كصفة ملازمة لي، ولكن هذا لا يمنع أن أثقب من خلالها ثقبا لمراقبة الآخرين والتعامل مع سخريتهم وشفقتهم وعدائهم، وأن أبادلهم السخرية والشفقة والمعاداة، كأنهم أشخاص في حكاياتي التي أكتبها في السر، قيم الدور بمدينة الطلاب الذي ودعني بمصافحة باردة رغم علاقتنا الطويلة، ومدير المطعم الذي ظل طيلة ثلاث سنوات مصرا على جعلي آكل طعامي وأنا حافي القدمين، أو حتى أ.سمعان الذي طلب من الطلبة أن يصفقوا لي على إجابتي، صفقوا بين التردد والدهشة، كان أ.سمعان حاد الذكاء، وساخرًا مثلي ويحب التعليم بطريقة إيقاع

الآخرين في الأخطاء ثم تبيان الخطأ، فبعد أن هدأ التصفيق أظهر الحكم الشرعي، قال أن التصفيق جُعل للنساء للتنبيه إلى الخطأ ولم يُجعل للرجال، لذا فقد أخطأ الذكور مرتين، مرة عندما صفقوا وكان عليهم تبيان الخطأ ومرة عندما صفقوا كالنساء، ولكن هاجر وبثينة أصابتا في تصفيقهما.

ثم قال:

- أخطأ إسماعيل كثيرا في اختصاره، فالكتابة الأدبية ليست هي المجاز، فالمجاز مرض عارض عليها، ولكنه عارض طبيعي، تماما كالعشب بين النباتات المفيدة والزنابير اللاسعة مع النحل والمطر إذا وقع على الأرض بعيدا عن النباتات فانعجن بالتراب وأعاق السير فيه.

وددت حينئذ لو أخبرت أستاذ سمعان بأنني أحب العشب والزنابير اللاسعة وما يفعله المطر والتراب بالسائرين عليه إذا اجتمعا، ووددت لو أخبرته بما أظنه حقيقة عن الكتابة، الكتابة التي هي الشخص الثالث بين اثنين لا يوجد تفسير معقول لعلاقتهما، كالحب أو كالكراهية دون أسباب أو مقدمات، الكتابة التي جعلتني أقرر البقاء في المدرسة ليلة المكتبة بعد أن أطلق سراحي.

لذا بمجرد أن دخلت السيارة التي ستنقلني إلى مكان عملي اندهشت، ففي علاقة عابرة كعلاقتي بسائق السيارة الحكومية لم يكن ينبغي أن تكون الكتابة هي الشخص الثالث بيننا، الكتابة تؤرخ للمسافات البينية في المجاز، ومع سائق السيارة حتى المسافة الحقيقية بيننا كانت مشغولة بمسند المقعد اللامع المنتصب والهواء الساخن بضراوة حرارة هذا الوقت من العام وهذا الوقت من النهار.

عندما ولجت في السيارة شعرت أن الكتابة تجاهلت الفالس الحزين لوداع مدرستي، ولم تنظر للخلف، بل للأمام، لظهر السائق، ونظرت مثلها فبعثرتني روائح لا علاقة لها بالمكان الذي لابد سأقصده الآن،

أريـج تفاحـة، وعطـر نسـائي شرس، وهـواء مكتـوم تسـلقه الشـمس في مـكان مغلـق، ورائحـة العشـب الأخـضر عنـد البيـارات، وكأنهـا نبـوءة لا معـنى لهـا إلا أن لـدي يومًـا حافـلًا، يومًـا أخـيرًا.

شـعرت أن هـذا السـائق سـيكون الفصـل الأهـم في روايـتي الـتي لـم تُكتـب بعـد وأن الروائـح الـتي اجتاحـت أنفـي منـذ قليـل كانـت مـتن النهايـة المقـدرة لحيـاتي.

ومنسـاقا بقـوة القلـب الوحشـية لتنفيـذ نبـوءتي استسـلمت، مسـندا ظهـري إلى مقعـد السـيارة وهـي تتحـرك بي بعيـدا عـن المدرسـة بصحبـة حسـين وأغمضـت عيـني..

# حسين - القاتل

لم يستلم الظرف هذه المرة من المصدر الذي سيُقل منه الزبون، بل من مكتبة لبيع الكتب، الوجهة التي وجهها إليه من سلمه الظرف جعلته يمكث لأكثر من ساعة في سيارته لاهثا، مستعيدا الكلمات الهامسة كلمة كلمة، بل حرفًا حرفًا: مدرسة أ. سمعان الشنقيطي، القرية السكنية للطلاب، إلى هناك يجب أن يقود سيارته، ويتوقف في انتظار من صدر ضده حكم القصاص.

هل عدلوا عن فكرة قتل سمعان بقتل تلاميذه، قص جناحيه، لدهشة حسين اكتشف أن هذه هي المرة الأولى التي سيرى فيها مدرسة أ. سمعان الشنقيطي، رغم أنه كثيرا ما تبادل هو وعمه الأحاديث الشائقة عنها، لدرجة جعلته يتمنى أن يزورها بعد عودته من الصعيد، ولكنه لم يفعل، ربما بسبب فشله في الالتحاق بها من خلال الاختبار، أو مهنته التي لم يتوقعها والتي تبدو له بعيدة كل البعد عن المجال الذي أحبه: الفقه والتدريس، ظلت لمدرسة أ. سمعان قدسيتها الخاصة التي لا يستطيع أن يلوثها بمهنته رغم قناعته بسموها.

عندما أخبر حارس المدرسة بمقدمه لم يتمالك مشاعره، ترك زجاج النافذة مفتوحا مستنشقا رائحة الحبر والورق والتي عادت به إلى أيامه القديمة، أيام غرفة النسخ في بيت عمه.

كان عمه الأزهري يتكسب عيشه من بيع سور القرآن الورقية، مستعملا حبرًا مخففًا بماء قديم مقروء عليه آية الكرسي لتثبيت الحروف المقدسة، حبرًا خفيفًا جدا لدرجة أن الكتابة به لا تكاد تظهر إلا تحت ضوء ساطع، كتب عدة سور من حفظه ثم قام بتعليم معظم أطفال العائلة كيف يكتبون القرآن من هذه النسخ،

كيـف يرسـمونه، ولا زال حسـين يحتفـظ بـأروع خـط عـلى الإطـلاق من كـثرة مـا التحـم بنانـه بالحـروف المقدسـة، كتـب مائـة مخطوطـة قبـل أن يتعلـم القـراءة والكتابـة، وخمسـين بعـد أن تعلـم القـراءة والكتابة، تصـير الكتابـة أثقـل عندمـا تعـرف معـاني الكلمـات الـتي تكتبهـا.

لـذا فـإن حسـين يمتلـك هوايـة غريبـة بعـض الـشيء، تصحيـح أخطاء رسـم الأسـماء في أظـرف الإعـدام الـتي يسـتلمها، يصحـح الاسـم قبـل أن يحـرق الظـرف فـوق الجثـة الـتي يدفنهـا، بـل إنـه انتـوى عندمـا يُحـال إلى المعـاش وقبـل أن يُسـلم كتيـب الإرشـاد لمـن سـيأتي بعـده سـيضيف قاعـدة مهمـة أسـفل قاعـدة (إنـه ينبغـي عـلى المحكـوم عليـه بالإعـدام معرفـة تهمتـه)، قاعـدة تقـول: ينبغـي أن يُكتـب اسـم المحكـوم عليـه بالإعـدام بالرسـم الصحيـح ودون أخطـاء، لـكي تصعـد روحـه إلى السـماء وتجـد طريقهـا بسـهولة إلى خالقهـا .

هـذه قاعـدة لا تقـل أهميـة لـو يعلـم موظـف تحريـر الأظـرف خلـف مكتبـه، القتـل بهـذه الطريقـة يكـون تبديـدا، عبثـا، طقسًـا همجيًـا مـن طقـوس الفراعنـة القُدامـى، عندمـا كانـوا يفتحـون مقابـر أعدائهـم ويطمسـون أسـمائهم مـن فـوق قواريـر الأحشـاء كيـدا لهـم ليتوهـوا في سراديـب الآخـرة.

عندمـا قـام موظـف تسـجيل المواليـد بكتابـة اسـم حسـين كتبـه بطريقـة خاطئـة، حسـين العـدوى وليـس العـدوي، أكـثر مـن نصـف أفـراد العائلـة شـوهت أسـماؤهم بنفـس الطريقـة، وانتقـل الخطأ مـن شـهادة الميـلاد إلى كافـة اوراقهـم الرسـمية.

قال حسين لعمه:

- عندمـا أعـود للعاصمـة سـأقدم طلبًـا حكوميًـا لتغيـير الحـرف الخطأ في اسـمي.

- عندمـا تعـود إلى العاصمـة يجـب أن تجعـل أولى أولوياتـك أن تلتحـق بمدرسـة سـمعان، بعدهـا يمكنـك أن تفعـل أي شيء، مـيراث الديـن

أهـم مـن مـيراث العائلـة.

عـلى كـثرة الأوقـات الـتي جمعتهمـا لا يتذكـر حسـين حـوارا وديـا دار بينـه وبـين عمـه إلا هـذا الحـوار، وهـو الحـوار الـذي جعـل عمـه يأخـذ عليـه تعهـدا بـأن يلتحـق بمدرسـة سـمعان.

- أنـت حزيـن عـلى اسـمك الـذي تشـوه، ومـاذا عـن كلمـات اللـه، الكلمات الـتي تشـكل عقيدتنـا يا حسـين؟

ثم قال بعد صمت طويل:

- جديـر بـك أن تختـبر وتحـاول أن تلتحـق للتدريـس بالمدرسـة ومـن ثم العمـل فيهـا، أسـتاذ سـمعان ينقـي اللغـة مـن أدرانهـا هنـاك، لا توجـد كتيبـة للحـق في هـذا العـصر أكـثر بركـة مـن هـذه الكتيبـة.

عندمـا عـاد حسـين إلى شـقة أبويـه بالقاهـرة قـام بتقديـم سـتة طلبـات حكوميـة لتغيـير الحـرف الخطـأ في اسـمه، كان متعجـلا ليحصـل عـلى مـيزة الاسـم الخـالي مـن العيـوب قبـل التقديـم للمدرسـة، الإجـراءات الحكوميـة كانـت ثقيلـة روتينيـة، وبعـد أن ظفـر بوظيفتـه أهمـل الأمـر، ففـوضى الكتابـة طالـت المـوت، ومـا يجـب أن يحـرص عليـه المـرء في زمـن كهـذا أن يخـرج ظـرف إعدامـه أو نعيـه في الجرائـد سـليما، لتجـد روحـه طريقهـا إلى السـماء بسلاسـة.

***

خـرج مـن مدرسـة أ.سـمعان شـاب ملتحـي، يعـرج بقدمـه اليمـنى، يحمـل معـه حقيبـة ملابـس وشـهادة ورقيـة مختومـة بالتخـرج مـن المدرسـة، لـم يكـن فرحـا ولـم يكـن تعيسـا، ولكنـه كان أكـثر زبائنـه صمتـا، قـال لـه عندمـا صافحـه: اسـمي إسـماعيل، لـم يقـل لـه بـدوره اسـمي حسـين، لـم تـرُق لـه يـده الصغـيرة ولا يحـب تبـادل الأسـماء.

لـم يسـبق لحسـين أن قتـل طالبًـا، وعندمـا قـرأ في الظـرف أن اسـتلام زبونـه سـيكون مـن مدرسـة سـمعان الشـنقيطي توقـع مدرسـا، ولكـن هذا

لا يغير من القواعد شيئًا، الظرف له أمنية أخيرة، كتيب التعليمات نسج صفحتين كاملتين في الفصل الأول والثالث حول ذلك مشددا عليه، الزبون الذي يستلم معه ظرفا لابد أن يطرح عليه أمنية وينفذها، مطعم يأكل فيه أكلته الأخيرة، مكان يحب زيارته، وفي هذا يجب على الزبون أن يشعر أنه سيُقتل بعدها، الطريقة التي يُقال بها ذلك تُرك الخيار لحسين ليمارس إبداعه، أحيانا كان يقول: لقد دفعوا لي نقودا من أجل مشوار إضافي لك، أو الطريق عالق الآن وبدلا من أن ننتظر في الزحام أو نتوقف في الطريق، قل لي مكانا تحب أن تزوره، اطمئن، لن أجعلك تدفع أجرا إضافيا.

في كتيب (لا تكره) تقول القاعدة: الطمأنينة هي العامل الأهم في مهمته، إن شك المحكوم عليه بالإعدام فيجب أن تعود به دون أن تنهي مهمتك...

الأوامر مهمة، لا يجب أن يعرف الزبون أنه سيقتل إلا بعد وصوله، لو هرب قبل ذلك لا تطارده، فشلت مهمتك وستزيدها فشلا بتلك المطاردة.

ولكن الفتى ليس من النوع الذي يهرب، إنه ممتلئ بالأمل مثل ذيل حوت قاتل يصفع الماء، كأنه ابتلع في جوفه قطعة من قمر قديم، مبهج، والأمل شيء نادر في هذه الأيام، ولأنه شيء نادر يجب أن يعود إلى الأرض، هذا الفتى رغم بؤس حالته يختزن بداخله جزءًا من سعادة البشرية، وجه مشع، لو أبصره في الزحام لرآه مضاءً كوجوه قتلاه، وهذه حالة شاذة والشاذ يجب أن يحتويه قبل أن يستفحل..

بعضهم كان يطلب الذهاب إلى مطعم فاخر، أو متنزه صاخب بالناس، يعتبرون أنها مجرد التفاتة صغيرة في الطريق، لا يعرفون أن مقابرهم في النهاية، بعد النفق، وأن رصاصة تحت قدمي السائق الذي يُقلهم قد حجزت مكانا لها في صدورهم من الآن، ما فائدة النزهة الأخيرة لمن لا يعرفون أنها أخيرة، ظل حسين يسأل نفسه

هذا السؤال طيلة سنوات عمله الأولى، ثم اقتنع، الميت يعلم أنه ميت، حدس غريب، ولكنها حقيقة.

- اسمع، القائمون على المدرسة أعطوني مالا لنزهة إضافية لك في أي مكان تريد الذهاب إليه، فما رأيك؟

نظر إسماعيل إلى وجهه في مرآة السيارة الأمامية مندهشا، لوهلة ظن أنه لن يرد، ثم قال ببطء:

- لا أريد شيئًا، اذهب بي إلى المكان الذي أخبروك أن تحملني إليه.

- لا، لا يصح أن آخذ هذا المال بدون وجه حق.

- أعطني المال الذي أعطوه لك بزيادة وخلص نفسك من تأنيب الضمير.

كاد حسين أن يقهقه لولا أنه تذكر مهمته.

- إذن سأقترح أنا المكان.

بدقة شديدة بدأ حسين يقترح على زبونه أماكن للزيارة، مطاعم فاخرة، متنزهات، وظل الآخر صامتا ثم قال فجأة:

- خذني عند قرية السد، سأصف لك الطريق.

وصف إسماعيل الطريق فقال حسين:

- ولكنها بعيدة.

- يمكنني أن أدفع لك الفارق.

ولماذا؟، سنجد نفقا ما في الطريق، وبعد النفق كل الأماكن مقابر، لا تكن نمطيا يا حسين ونفذ للرجل رغبته الأخيرة.

- حسنا، كما تشاء، سنذهب إلى هناك، وإليك المفاجأة، بدون أن تدفع لي.

***

لا يترجل حسين من سيارته عندما يصل، ولا يفتح النوافذ، الهواء

الـذي عبأ سيارته لبرهـة نتـج مـن اللحظـة الـتي فتـح فيهـا إسـماعيل البـاب ونـزل، ثـم أغلـق البـاب خلفـه، يشـم حسـين الرائحـة، رائحـة المـاء الآتيـة مـن عنـد السـد والعشـب والطـين، هـذا مـكان جيـد للمـوت.

مـشى إسـماعيل إلى بيـت قريـب، بيـت عـلى الطـراز الحكومـي مـن دور واحـد يقيمونـه لعائـلات موظفيهـا الذيـن يقيمـون في أماكـن بعيـدة عـن أماكـن السـكن، بجانـب البيـت كشـك مـن الخشـب، محـل سـمك كـما تـدل اللافتـة، تجلـس أمامـه امـرأة عجـوز، اضطـر إسـماعيل أن يصفـق بيديـه لتنتبـه، وأن يتحـدث لتعرفـه، هـذه المـرأة ليسـت مـن عائلتـه، ولكـن بمجـرد أن عرفتـه بكـت، أخـذت تبـكي والزبـون يربـت عـلى كتفهـا، الزبـون أيضـا بـدأ في البـكاء كأن الدمـوع فاضـت مـن المـرأة فملأتـه حزنـا، البـكاء جيـد خاصـة عندمـا يكـون عـلى أمـور تسـتحق، البـكاء يغسـل الـروح، ولكـن للأحيـاء، عندمـا يبـكي زبـون قبـل أن يقتلـه يرجـوه أن لا يبـكي، مـا فائـدة أن تبـكي يـا أحمـق، سـتموت، اتـرك البـكاء لمـن سـيفتقدونك

أشـارت السـيدة البدينـة إلى جهـة مـا وهـي تمسـح دموعهـا، تشـير إلى قبلـة مـا بكـوا مـن أجلـه، إنهـم يبكـون مـن أجـل شـخص يفتقدونـه، هيـأ حسـين نفسـه لنـوم طويـل، الآن سـيزورون مقـبرة مـا، ويُتمـون عندهـا بكائهـم، أغمـض عينـه لدقيقـة، دقيقـة واحـدة، ثـم سـمع دقًـا عـلى زجـاج النافـذة، فتـح عينـه، كان إسـماعيل، جـذب حسـين قفـل البـاب، دخـل إسـماعيل وكأنـه يفـر مـن شـبح قـال بصـوت مبحـوح يسـتحثه: هيـا بنـا، هيـا بنـا مـن هنـا.

***

الزبـون هـذه المـرة كان هادئـا، لـم يكرهـه حسـين، بـل يجـرؤ عـلى القـول أنـه أحـب صحبتـه، وهـذا يجعـل مهمتـه مثاليـة، نظيفـة إلى أبعـد حـد ممكـن، إن قتـل هـذا الشـاب قـد يعيـد بعـض التـوازن إلى العالـم، التـوازن للفـوضى الناتجـة مـن مقاطعـة القتلـة بعـد أن يكونـوا قـد شرعـوا

في أداء مهامهم، لقد رأى هذا مرات ومرات على الشاشة في الأفلام القديمة، عندما يلف عشماوي حبل المشنقة حول رقبة ضحيته يأتي ساع من بعيد، يهتف أوقفوا الحكم، لابد أن هذا كان يحدث، ليس بنفس الصورة الهزلية القديمة، ولكنه حدث، وهذا ما اتجه بالعالم إلى الفوضى وهذه مرة من المرات التي سيعاد فيها ترتيب هذا العالم، قتل رجل لا يكرهه البتة، بل يوشك أن يحبه.

مرت ساعة طويلة من الصمت وصوت حفيف العجلات يتسرب من الخارج إلى جو السيارة المكيف.

- ماذا كنتم تدرسون في مدرسة أ.سمعان؟

لماذا سأل هذا السؤال، بادئا بتورط غبي في حياة الزبون، مؤملا أن يفلح سؤاله في تمرير مشروع الدموع التي أوشكت على التفطر من صخرتي عينه دون خسائر، يكره بكاء الزبائن في سيارته.

- لغة، فقه، حديث، تاريخ الأدب، وأشياء أخرى.

- ولا زالوا يدرسون هذه الأشياء؟

- طبعا، على مستوى العالم، في مدارس شبيهة بمدرسة أ.سمعان.

- كنت أعتقد أن الأزهر فقط هو ما يقوم بتدريسها، على طريقته الخاصة طبعا، الطريقة القديمة أقصد.

ضحك إسماعيل ضحكة عصبية قصيرة.

- لا توجد طريقة أقدم من طرق أ.سمعان.

- كان لي عم أزهري، مثل أ.سمعان، يعتقد أنه يجب على طالب العلم الشرعي أن يكتب الصحاح أكثر من مرة خلال عمره بخط يده لينال بركة الحروف.

- رغم أن أ.سمعان لم يدرس في الأزهر كما تعتقد، إلا أنه مثل عمك، فكل ما يُدرس في المدرسة يكتبه الطلاب بخط أيديهم.

- حقا، بالأقلام؟

- فعلا.

ساد الصمت، ولو أن الحوار استمر لكان عليه أن يخبره:

- بما أنك درست هذه الأشياء سأسألك سؤالا أتمنى أن أجد إجابته عندك.

- تفضل.

- هل خلق الله اللغة؟

- نعم، خلقها على لسان البشر، ولكنه علمه أسماء الحيوانات والطيور والأشياء، وأعتقد أنك تدرك أن اللغة أكبر من مجرد أسماء طالما أنك سألت سؤالا كهذا.

- في الواقع سؤالي هذا تمهيد لسؤال آخر، سؤال فقهي، ماذا لو أخطأنا في اللغة ونحن ندعو الله، هل سيستجيب الله لنا على الخطأ أم سيستجيب على نية القلب؟

- يجب علينا أن نلتزم بالكلمات التي خطها لنا الله وأرسل بها أنبياءه.

- وماذا لو دعونا على طريقتنا الخاصة وأخطأنا، هل ستجد الكلمات طريقها إلى الله؟

- طبعا.

تذمر حسين من الإجابة المتساهلة:

- كيف تقول ذلك وأنت درست في مدرسة أ.سمعان ثلاث سنوات، أليست ثلاث سنوات؟

تجاهل إسماعيل السخرية، والتنمر، ولم ينظر حتى في المرآة ليتبين جدية حسين من عدمها.

- أقوله لأنني مقتنع به.

- وهل اقتناعك بما تقول كاف ليجعله صحيحا؟

- طبعا، في هذه الدنيا على الأقل.

رد إسماعيل باسما ولكن حسين ظل على جديته.

- وفي الآخرة؟، ألم تفكر فيما ستجلبه عليك قناعاتك في الآخرة أيضا، ملوك الفراعنة فهموا ذلك أفضل من فتواك، لذا كانوا ينتقمون من أعدائهم بمحو أسمائهم من على قوارير الأحشاء، وها أنت تقول بكل بساطة أنهم كانوا أغبياء.

فيما بعد سيفكر حسين، كان هذا أول الانهيار، هذا الحديث في السيارة، وحتى باعتبار إسماعيل مشروع جثة هامدة لم يكن ينبغي عليه أن يكلمه في هذا الأمر، كان هذا أول الانهيار.

- بالفعل أغبياء، ما علاقة الاسم ومحوه بعثور الفرعوني على أحشائه بعد أن يُبعث؟

- من السهل عليك أن تقول ذلك لأن اسمك إسماعيل، لا مجال للخطأ فيه أما أنا فيخطئون في اسمي يوميا، وتعرف أيضا، أحيانا أصحح الصحيح بالخطأ المتعارف عليه ليتعرف أرشيف الكمبيوتر عليه، وكل ما في الأمر أن شخصا ما سجل اسمي في يوم ميلادي حسين العدوى وليس حسين العدوي.

قال حسين ثم أخذ يلوم نفسه: لماذا تخبره بذلك؟، وكأنه سيفهم!

- هذا خطأ شائع يا أستاذ حسين.

جفل حسين عندما نطق إسماعيل اسمه وأدرك أنه أخطأ، ولكنه خطأ من السهل التعايش معه، سيذهب زبونه هذه المرة إلى قبره باسمه كاملا، هذا خطأ من السهل التعايش معه، جره إليه خطأ ليس من السهل التعايش به، وخطأ واحد يرتكبه الناس في حقه بدأب كفيل بجعله يتساءل: كيف أمكنه أن يعيش في هذا العالم حتى لو كانت مهنته القتل، كيف يمكنه أن يعيش في عالم تبلدت

حساسيته بتلك الطريقة حتى فيما يخص اللغة، ويستمر موظفو تسجيل المواليد في تعمدهم الكتابة بالخطأ وكأنهم يضمون نقاطا مشرفة إلى ملفاتهم أو يُسدون خدمة لأوطانهم، على العالم أن يتحمل فوضاه إذن، فوضاه وبؤسه، وعليه هو - حسين - أن يصمت، يستمر في القيادة ويصمت، أين (د) الآن؟، لن يفهمه إلا (د).

***

ال (جي بي إس) يعرف طريقا مختصرا إلى النفق من منطقة بيارات السد، ليثبت نظرية حسين الشهيرة أن كل الطرق تؤدي إلى النفق، ليس مثل روما، عندما اختار مقبرته كان حريصا أن تكون كل الطرق قريبة منها، ملك الموت يعرف الطريق أيضا ولكنه سيتأخر، في كل مرة يتأخر، لم يعد الناس يموتون بسرعة.

قبل بداية النفق أوقف محرك السيارة وتركها تنزلق مثل صقر حر يترصد فريسته، توقفت في نصف النفق، نظر في مرآة السيارة وهو يقول عبارته الخالدة:

- سأفحص السيارة، ثمة خطب ما.

قام ببحث تمثيلي عن المفك في تابلوه السيارة وسحب الظرف، ضغط زرا فتنهد غطاء السيارة مرتفعا بشكل جزئي، ترجل، هذه اللحظة هي الأصعب على الإطلاق في مهمته، أصعب حتى من القتل والدفن، لحظة أن يستدير وينظر في وجه الزبون ليخبره: لا تقلق لن آخذ وقتا، يسلط نظرته في عينه مباشرة لكيلا تفلت منه نظرة إلى الظرف الذي يدسه في جيبه، يجب على كل حال أن يخبر الزبون بسبب قتله، سيعود إليه بعينين أشد ثباتا، ويد مشتاقة وأصابع تتلمظ لعناق سلاحه المنتصب عند الدواسة.

رفع غطاء السيارة وتنشق رائحة المعدن الساخن بشبق، يريد أن يهزم توتره، فض الظرف، كان مكتوب فيه عنوان، عنوان فقط دون

تهمة، هذا يعني أنه لن يستعمل رصاصته، كيف سيفعل هذا، ما هي الكيفية التي سينفذ بها أمر بالقتل دون قتل.

شتم، بصق على غطاء التاكيهات وأخذ يشم رائحة بصقته وهي تتبخر، سيقتله هذا الغموض يوما ما، لماذا لا تكون الأمور واضحة منذ البداية، لماذا لم يرسلوا رسالة صفرية طالما أن هذا الشاب يعرف من هو.

ولكن هذا الشاب لا يعرف حسين، ليس من موظفي الحكومة، كما أنه استلم في حقه ظرفا اعتقد أنه حوى أمرا للقتل، وصلته رسالة على جهاز المهمات ثم استلم ظرفًا، المهمة كاملة ولكنها أُحبطت، وهذا وحده كفيل بجعله على حافة نوبة غضب لن يفيد فيها أن يصوب رصاصته على الأسفلت أو غطاء محرك سيارته، إن هذا أسوأ من القتل بدون سبب، ومن كتابة اسم المحكوم عليه بخطأ في رسم الأحرف، مقاطعة قاتل من أسباب الفوضى، ولن تعود بالخير أبدا على هذا العالم، لو كان جده مكانه الآن لقتل الزابن مباشرة برصاصة في الرأس بدلا من قتل الزبون.

قبل أن يطوي الورقة ويدسها في الظرف انتبه لعنوان آخر على ظهر الورقة، بجانب العنوان هذه المرة تاريخ، بعد سنتين من الآن، يجب أن يتم مهمته ويعود ليفهم، من كتب هذا الظرف إما أحمق أو مجنون ..

# الفصل الرابع

# أول أيام القصر

إساءة الظن الأولى يتكفل بها الزمن في علاقتنا بالأماكن، وإلا ما كان قول الخادم العجوز: (ستجد المكان مريحا) عبثيا بالنسبة لي، عبثيا وموغلا في نمطية عبارات الاستقبال الأولى، الترحيب بلا رصيد من النوايا المُبيتة، في مكان لا دليل واحدًا على حميميته، بداية من أصغر تفاصيله: تفاحة خضراء: نصف تفاحة خضراء، احتاجت أسنان عفية لترسم فيها وحشية قضمتين متتاليتين، التفاحة راسية في طبق على منضدة عليها بقع ألوان وفرشاة، ومقعد خشبي صغير وشاهق أمام حامل لوحات فارغ، على اليمين باب غرفة صغيرة يطل منها سرير فردي لا يتسع إلا لجسد واحد، وزخرفة حمام مبلط بالقيشاني الأزرق البحري، الغرفة أنشأت لاحتواء الحمام والسرير وُضع لاستقبال ضيف لن تطول إقامته، وكل هذا يقع كجغرافية ضئيلة الأبعاد أسفل سقف واطئ يُشبحه كمر خرساني عملاق يوحي بثقل الأدوار الثلاثة التي تعلو البدروم، ونوافذه الدائرية العالية بزجاجها الملون، والسلم الخشبي بدرجاته السبع، لماذا سبع درجات، كالصعود إلى السماء أو كالهبوط إلى الأرض!

- السيدة تأتي هنا أحيانا لترسم.

قال الخادم مفسرا، لم أسأله: من السيدة؟، فلابد أن لهذا القصر سيدة، وسيد، بل عدة سيدات وأسياد، ولابد أن يكون للسيدة هواية ما، هواية بالأبيض والأسود، رومانتيكية، تعزف البيانو أو ترسم اللوحات، أو تبصق على وجوه الخدم، إلا إذا كان السيد مولعا بذلك، متحملا عنها مؤنة الاحتقار الذي يدفعون ثمنه بالدولار في نهاية كل شهر، السائق الذي أتى بي إلى هذا المكان، حسين، قال لي: ستقبض بالدولار، فخامة البناء توحي بذلك، ولكنه لم يستطع

تخمين العمل الذي سأكلف به في هذا القصر على خلفية دراستي بمدرسة أ.سمعان.

لم يبد لي المكان كجائزة على أدائي الجيد ولا كعقاب على ما بدر مني من عصيان، فالغرفة لا تختلف كثيرا عن غرفتي بالمدينة السكنية للطلاب.

شرح لي الخادم (اسمه جبر، في البطاقة جبريل):

- هذا البدروم له باب يؤدي إلى القصر عبر المطبخ وباب إلى الخارج، الباب الذي جئت منه منذ قليل، بإمكانك أن تخرج وتتجول في الحديقة الواسعة كما تشاء شريطة أن لا تقف عند الباب الرئيسي أو تصل في تجوالك إلى أحواض الزهور لأنها تطل على غرف نوم السادة، خروجك من القصر لابد أن يكون بإذن من صاحب القصر، اقض بالخارج ما تشاء من وقت ولكن عليك أن تعلم أن وقت عودتك سيكون معلوما، لا أريد أن يأخذ السيد عنك انطباعًا سيئًا في البداية، سيكون من الأفضل لك أن تستأذن في وقت لا يكون موجودا فيه، ليس الصباح ليس المساء، بعد الظهيرة وقبل انكسار حدة الشمس تعود.

غادر الخادم صاعدا الدرج الخشبي، استلقيت على السرير بملابسي، لن أفض حقيبتي الآن، سأدع ملابسي في وهم المدرسة وصخب الطلبة في الممرات، وأخذت في تأمل التفاحة المقضومة، تناولتها بحرص وأدرتها في يدي، أحمر شفاه خفيف عالق بها، ورائحة من عطر نسائي يخفق له القلب إذا تخيلتها ملتصقة بحرارة جسد، اكتملت نبوءة الصباح بالرؤية، أسنان تدل على فم صغير، السيدة تأتي هنا أحيانا لترسم، ترسم وتأكل التفاح وتترك بقايا موحية.

ليس الصباح ليس المساء، بعد الظهيرة وقبل انكسار حدة الشمس تعود، كيف نطق الخادم بهذه الجملة الأثرية وفي هذا الزمن، ربما دُرب عليها، مثل ديك ساعة حائط قال العبارة وانصرف تاركا إياي

في حيرة.

***

وكنت سألتهم ما تبقى من التفاحة الخضراء لولا أن دُعيت على العشاء، جاء جبريل (أو جبر) عبر السلم وناداني بعد أن نزل درجتين، صعدت أتبعه وبعد أن عبرنا ممرًا قصيرًا ضيقًا لا يتسع لشخصين متجاورين انفتحت مسيرتنا على صالة شاسعة كشهقة فرح، ليس فيها من صفات المطبخ إلا رائحة الطعام وحرارة النار، عالية السقف مضاءة بضراوة ومليئة بالوجوه المبتسمة على منضدة مستطيلة مليئة بالأطباق والخبز والملاعق اللامعة، جلست خجِلا على مقعد فارغ قريب من الباب، وأكلت طعاما أفتقده منذ ثلاث سنوات.

كان هذا عالما وسطيا، في الضوء واللون والوجوه والمشاركة، وفي لحظة تكشف أيقنت أن روحي لم تزل هناك في مطعم الطلبة، تلطخ عيني ببقع وهمية على مفرش المائدة النظيف بإيعاز من مفارش المناضد التي تركتها خلفي، وتخلط الوجوه والبسمات والإيماءات، أعلم أنني سأتخلص من الذكرى بالنوم والطعام والصخب، سيندفع جسدي القديم عبر ثقب بحلول جسد جديد، وكما فقدت عالم جدي دون افتقاد سأفقد عالم المدرسة دون افتقاد أيضا، وكانت هذه الفكرة كافية لأشعر بالتعاسة، كافية لأكل بنهم أكثر، ولأظل جالسا بينما يتناثر الخدم من حولي حاملين أطباقهم، حاملين عني مؤنة رفع طبقي أيضا، كحصاة في عمق خليج هادئ من الصخب والزقزقة العائلية، حصاة تشرب الشاي وتدفع الابتسامة إلى وجهها إذ يضحكون ثم أعود إلى شرودي إذ يصمتون أو يتبادلون حديثا عاديا لا نبرة فيه.

ثم حان وقت انصرافهم، خلف كرفان تبادلوا الولوج خلفه لتغيير ملابسهم، تباعا يرتدون ملابس فاخرة يضعون العطور

ويرتـدون أحذيتهـم الملمعـة، ثـم يلقـون علـيّ تحيـة المسـاء وينصرفـون إلى بيوتهـم عـبر بـاب البـدروم، لـم يعـد متبقيـا إلا جـبر، جالسًـا على طـرف المائـدة البعيـد، يقـشر شـيئا مـا في طبـق أمامـه بطـرف سكين صغـير، ينظـر لي مـن حـين لآخـر ويبتسـم في ود وكأنـه يشـجعني على أن أطـرح السـؤال الـذي يعـرف أنـني سـأطرحه عاجـلا أو آجـلا.

- لماذا أنا هنا؟

ولم تختلف الإجابة التي حصل عليها إسماعيل في المساء بغرفة الطعام، في خلفية من موسيقى خفية تنبعث من السقف، ودقات السكين عندما يفلت من أصابع جبر فيصطدم بالطبق، عن الإجابة التي حصل عليها حسين بعد أن دار في سلسلة مرهقة من الإجراءات والأسئلة، منفذا نصائح كتيب التعليمات بعناية، فبعد أن قام بتوصيل إسماعيل قاد سيارته إلى مكان المقبرة، ألقى السلام على الموتى، أفرغ رصاصته بحنق في باطن الأرض، تنفس بعمق حتى هدأ صرير أسنانه، ولجأ لسيارته، أخرج كتيب التعليمات الذي لا يفارقه، وبرفق قلب الصفحات، وصل إلى الصفحة التي يحمل طرفها العلوي الأيمن أثرًا خافتًا لمعجون أسنان، أيقظت رؤيتها الرائحة المختزنة في ذاكرته، معجون أسنان أخضر اللون ولكن به لون الدم، فحينها وضع من معجون أسنانه على جُرح نتج من حلاقة متهورة لذقنه، بعثت الرائحة الأصوات، أصوات لشارع خلفي في شقة رخيصة وطعم شطائر من الجبن الرومي، هذه الصفحة بالذات لا زالت تحمل طعم اليوم الأول الذي قرأها فيه، تحت بند] (عندما يحتوي الظرف على ميعادين)، قرأ بعناية الإشارة خافتة المدلول المطبوعة في سطر واحد، والتي كان نصها (لا تتخلص من الظرف إذا لم تنته المهمة) وللاستفسار اتصل برقم ..... عند فتح الخط اذكر رقم حالتك والذي هو ٤٩[، يتصل حسين، رنتان ثم فُتح الخط ليذكر رقم حالته ٤٩، يأتيه صوت أنثوي ناعم يحدد له مكانًا بوسط البلد كمحطة أولى:

- ونرجو تأكيد وصولك ليتم إعلامك بالميعاد.

***

كان جائعا عندما وصل إلى المدينة، اتصل بإسحاق وأخبره أنه قادم إليه ليتناول معه الطعام، وفي الطريق اشترى الحبوب المخدرة، لم يكن الوقت وقت غذاء ولكن إسحاق أعد وجبة خفيفة باردة المكونات وتناولاها، ثم انتقلا للجلوس في غرفة الضيافة عنده، ابتلعا الحبوب بدون ماء، لم تشتبك بالحلق ولا بالمريء، انزلقت سريعا، وكان ضوء الشمس أحد الهلاوس البصرية التي سببها المخدر، قال حسين فجأة وبدون مقدمات:

- سأقتلك يوما ما.

عندما انحسرت الرؤية شعر حسين بآلام الانحسار، العرق البارد وألم البطن، وارتباك نتج عن ذكرى غائمة لتهديد صديقه بالقتل، ثم اكتشف أن وجود الطبنجة الخاصة به على المنضدة بينهما حقيقة وليس هلوسة، أعادها إلى حقيبته، وبينما يقوم بذلك كان عليه بطريقة ما أن ينهي الموقف دون خسائر، كان أحمقا ولكنه ليس قاتلًا، إنه موظف، والموظف لا يُلقي التهديدات جزافا، حتى لو كان بحوزته سلاح ناري.

- هل سبق لك أن أحبطك أحد؟

- الجميع يفعلون.

أجابه صديقه بلسان فرح، فعروقه لا زالت تتشبث بالمخدر، أدرك حسين ذلك فاطمئن

- وما الذي تتمناه حينئذ؟

- أن أقتلهم.

- وهل ستفعل حقا إن أعطيتك وسيلة القتل المناسبة؟

- بكل تأكيد.

- أنت قاتل حقيقي إذن، صدقني، القاتل الحقيقي هو من يستطيع. هذا هو المقياس الذي يجب أن تُقاس عليه الأمور، بدونه يصبح

القتل أمرا عارضا، كحادثة سير أو حريق شب في مبنى، هل يمكن اتهام النار التي تحرق أو السيارة التي تصدم بأنها قاتلة، الآن والآن فقط أدرك لماذا استطاع جده أن يصل لسمعته الأسطورية، قتل الزابن والزبون في نفس اليوم، أما هو فيعاني الآن من احتقان رصاصته، بعد أن قاد نصف نهار كامل بذلك الشاب الملتحي من مدرسة أ.سمعان واثقا أن رصاصته حجزت مكانها في صدره، نصف نهار كامل من القيادة والنتيجة: رصاصة محتقنة.

***

على الدرج وهو يغادر شقة صديقه قال حسين لنفسه لابد وأن (د) هو من خطط لمهمة التوصيل هذه ليحبطه، لينبهه أن بينهما مهمة لم تكتمل، لا دليل على ذلك بقدر وجود زبونه في مدرسة سمعان، لا يعلم (د) أنه بحث عن الفتاة حتى أصابه اليأس، ولكن ما الذي يجعلك يا حسين تظن أن (د) يراقبك أو يهتم بك؟

هل كان التهديد رؤيا، أم انحرافًا في ولائه المتزمت لوظيفته، ما من طريقة ليصل إلى الإجابة أو ليتخلص من التساؤل، للمرة الأولى منذ استلم عمله يفقد أعصابه، يفقدها بسبب البؤس في هذا العالم والذي يجعله يكرس نفسه لمقاطعة قاتل أثناء أدائه لمهمته، دون أن يعلم: مهمة القتل عملية كونية تأتي مقاطعتها بنتائج غير مرجوة، مقاطعة قاتل بعد شروعه في أداء مهمته ليس عملا خيريا كما يظن الحمقى، بل عملا شريرا، يتلخص شره في أنه يملأ الدنيا بكراهية غير مسببة تكون نتيجتها فوضى لا نفهمها، فالطيور التي تهجر بيضها قبل أن يفقس، والثمر الذي يسقط من الأشجار قبل أن ينضج، والنحل عندما يفقد مهارته في تسديس خلاياه الشمعية، حتى الدبابير التي تلسع بقسوة قد تميتها، والياء في نهايات الأسماء تُكتب ألفًا لينة، مرارا وتكرارا، مرارا وتكرارا، كلها تفاوتات تحدث نتيجة المقاطعة.

قـد يُغفـر ذلـك إن كانـت مهمـة القتـل رسـمية، ليسـت الطريقـة رسمية وليسـت الطقـوس، ولكـن التكليـف تكليـف رسـمي، وحـتى لـو كان تكليفا رسـميا، يبقـى القتـل هـو القتـل، عندمـا يتحـد بالإنسـان يكـون رغبـة حارقـة إذا بـدأ لا يجـب أن تقاطعـه، مقاطعـة القتـل عمليـة خطـيرة أسـوأ مـن القتـل ذاتـه، لا يجـب أن يُسـامِح فيهـا القاتـل أبـدا حـتى لـو ادعـى أنـه لا يحـب مهنتـه بقـدر مـا يحـب إتقانهـا، فالإتقـان هـو الوجـه الآخـر للتلـذذ بالفعلـة، والإتقـان هـو صـورة مـن أنـواع إبطـاء التفاعـل المتسلسـل في عمليـة كهـذه، والإبطـاء ضروري إن كان العالـم مـن بؤسـه يرسـل الإشـارات في وقـت مناسـب لتقاطـع القتـل في أوج اسـتوائه دون أن يأبـه بسـلامة مـن يعيشـون في هـذا العالـم، لهـذا هـو هنـا الآن، لهـذا سـيصعد إلى غرفتـه ويضـع في طبنجتـه رصاصتـين، إحداهمـا للزابـن والأخـرى للزبـون، حـتى لـو كان الزابـن (د) بنفسـه.

***

موظفـو الحكومـة لا يعملـون ليـلا، لا يقومـون بمهـام إضافيـة في غـير الوقـت الرسـمي، حـتى وإن كانـت تلـك المهمـة هـي إلقـاء المـاء البـارد عـلى سـلاح متوهـج مـن احتقـان رصاصـة، إنهـم ينتظـرون الصبـاح، وفي الصبـاح التـالي سـيخوض حسـين سلسـلة مـن التأكيـدات والأسـئلة المرهقـة، سـاعيين إلى اختصـار دمامـلـه لأقـصى درجـة بالكشـف عنهـا، الأمـر يشـبه طابـورًا طويـلًا مـن الأطبـاء يتناوبـون عـلى مريـض واحـد، كلهـم لا يفهمـون الحالـة وإنمـا يحملـون أرقامـا، مـن مكتـب إلى آخـر، لا يتغـير إلا الرقـم الـذي يحملـه كعنـوان حالـة، حالـة لا يجـب أن تخـرج للعالـم إلا خرسـاء لـكي لا يُسـمع صوتهـا.

وفي النهايـة تمخـض جبـل الإجـراءات عـن فـأر حكومـي صغـير جالـس في مقهـى شـعبي، قـال لـه الزابـن:

- هـذه سـمة كل عـصر يـا صديقـي، المحرمـات، كل عـصر يزدهـر فيـه شيء محـرم، ولا تسـتبعد، قـد يصبـح هـذا الشـاي الـذي نشربـه الآن

بأريحية تامة محرما يوما ما، إحم هذا لا يعني إنني أشكك في خطورة ما تحرمه الحكومة، بالعكس، أنا فقط أضرب مثالًا لك لتفهم، ما علينا، هؤلاء الكُتاب يا صديقي، تعبنا، تعبنا منهم، لم تفلح مدرسة أ.سمعان في تنظيف أدمغتهم، والقتل كما تعلم أمر تفوح رائحته ولا متهم فيه إلا الحكومات، منذ سنتين اقترحوا استراتيجية جديدة للتخلص من مؤلفي الروايات، ينقلونهم إلى المنطقة الراقية في المدينة، نلحقهم بعمل في قصور الأثرياء، كنوع خاص من الخدم، كأقلام الحبر العادية العتيقة، ونسخ ورقية من كتب قديمة للشعر، سيمفونيات عالمية، وحتى أمخاخ القردة، والخمور التي تم تحريمها بموجب قانون مطاطي لتطييب خاطر السلفيين الجدد والأزهريين الثوريين وكل هذه الجماعات التي لا طائل من ورائها إلا عرقلة الحكومة، كل هذا رائج هناك، وكذلك كاتبي الحكايات هؤلاء، بدلا من قتلهم، نجعلهم مصدر بهجة وتميز لدى هؤلاء الأثرياء، والأهم من ذلك يكسرهم اكتساب المال بالكتابة والحياة المترفة، ونصنع لهم جمهورًا محدودًا يصفق لهم، الجميع يكسب كما ترى.

في هذا المقهى كان حسين قد شحن مسدسه برصاصتين، لا يعرف كيف سيفعلها، على المنضدة مفرش أصفر له خفة ستائر صيفية في غرفة عاشقين انتهيا للتو من مضاجعة عنيفة، فوق المفرش الرومانسي كوبان من الشاي، وتحت المنضدة عند قدمه كيس أسود، الطبنجة راقدة فيه كقطعة من خراء عصر غريب، رخوة ولزجة، لا تنتصب، أي عصر تعيشه يا حسين، كل هذه الأمتار المكعبة من مني الرجال أريقت قبل أن تصل إلى دورك، بشهوة وبدونها، في الحرام والحلال، كان يمكن لنطفتك أن تقع في مرحاض عام لرجل مسافر وحيد، كان يمكن أن تحتضر مختنقا في كينونتك المجهرية على ملاءات رجل أعزب أحرقته الشهوة بعد أن هضم وجبة ثقيلة، ولكنها لم تقع، أنبتت، وهنا، في هذا العصر الذي لم تعد تثق فيه بأحد، لا برجال الحكومة فضلا عن رجل الشارع، حتى للدرجة التي تجعلك

مطمئنا على مصيرك كجسد - بيولوجيا - بين أيدي الغرباء، بحيث يتكلف أحد مؤنتك، مؤنة الحفر، والردم بطريقة تجعل الذئاب آكلي الجثث تغفل عن رائحتك.

ما هو المكان الأنسب لوضع رصاصة قاتلة في جسد رجل أبله، سعيد بلا سبب، ربما يستطيع موظف الحكومة هذا أن يجيبه عن سؤاله، هذا لو سأله، هذا لو استطاع أن يقاطعه ويسكته، مسترسلا في حكاية تلو حكاية، يميل عليه وكأنه يخبره بسر عظيم:

- أحد هؤلاء الكتاب، لابد وأنك سمعت عنه، الجميع يعرفون أنه يكسب مالا طائلا من الكتابة، وأنه بجانب مرتبه الشهري الذي يأخذه من مخدومه يتكسب مالا إضافيا من بيع ما يكتبه للقصور القريبة، الفتيات الثريات يحببنه،

هكذا قال وأنهى مقالته بقهقهة، بينما يفكر حسين في أن أنسب الأماكن لوضع رصاصته سيكون هذا الفم المقهقه، أي دولة؟، الآن يمتلك سببا للحقد والكراهية، سببا شرعيا..

- أخبرني إذن، هناك ميعاد آخر في الظرف، ما حكايته؟

قطع رجل الحكومة ضحكته وقال بجدية:

- طالما أن هناك ميعادًا آخر فلابد أن المهمة لم تنتهِ بعد.

- ومتى ستتم المهمة؟

- اسمع، نحن نتفهم مدى قلقك وغضبك، ولكن التهمة لم تُسجل رغم خروج الظرف واستدعائك، اللجنة نفسها انعقدت وانفضت دون أن تصل إلى قرار، البعض مجمعون على ضرورة التخلص من هذا الشاب، والباقون مصرون على تجربة المنظومة التي تُعالج بها هذه الحالات، تجربتها لأقصى درجة حتى لو أدى ذلك إلى كسرها وإزالتها وبنائها من جديد.

- لا صلة لي بكل هذا، لماذا أقحمتموني أنا في هذا الموضوع، هذه

الرصاصة لم تعد باردة يا سعادة الباشا، رصاصة تُسخن الآن وتُطلق بعد سنتين أو لا تُطلق، رصاصة ساخنة كل هذه المدة ستساوي حينها قنبلة لا تُبقي على أحد، لا يصح بأي حال من الأحوال أن تُدار الأمور بهذه الطريقة، من الغبي الذي...

الآن حسين مدرك أنه يخطئ، يتجاوز حدوده الوظيفية، كلتا ذراعيه تحيطان بالمنضدة وترتعدان بها من الغضب المكبوت، ترتعش حثالة الشاي الباردة المتبقية في الكوبين وكأن قطارًا يمر على الأسفلت القريب، الدم ساخن في عروقه ولكن سلاحه هامد مستسلم، هذا يحدث لأول مرة، أن ينتقل الغضب إلى عروقه، يعلم أن عاقبة هذا الغضب ستكون وخيمة، جزاء ١٠٠٪ من مرتبه وقد يحرمونه من الوظيفة، هذا إن كان في هذه الحكومة بعد من يفهم أو يحسن اتخاذ القرارات وهذا ما يشك فيه، وهذا الشك يحيله إلى جحيم من الرؤى والتوقعات المقبضة، ويجعله مستمرا في غضبه مطلق العنان، هذا هو الظرف الأول، ومن يدري؟، ربما كان الأمر أول الانهيار، ربما يتم تعديل القتل إلى منفى سعيد ويتحول هو إلى سائق توصيل المنفيين لمنافيهم، عندئذ سيصبح بحق قطعة من خراء هذا العصر اللعين.

## إسماعيل - الكاتب

نظير هذا الغضب الصباحي غضب آخر سابق عليه، غضب مسائي، غضب مختلط بالأسف بقدر اختلاطه بالحنق، ترك إسماعيل تلك القبضة، قبضة الغضب لتفرغ كل انفعالاته أمام الخادم العجوز كما تفرغ قبضة قاسية ضرع بقرة حافلًا باللبن.

نصوص!، هل جاءوا بي إلى هنا لأكتب نصوصًا بالقطعة، بالطلب، وظيفتي إضفاء الألوان على الهوايات الرومانتيكية للسيدة وللسيد، أن أكون أنا والمهرج سواء، لن يطلبوا مني عجين الفلاحة ولكن من قال أن عجين الفلاحة هو أسوأ ما يمكن أن يُطلب من كاتب في هذا الزمن الغريب، الأسوأ هو ما بدأ الخادم في قوله:

- حاول أن لا تخرج وتدخل كثيرا، ببساطة حاول أن لا تكون موجودا، هذه طريقة جيدة لتفاديهم، البيه الصغير لا يتواجد معظم الوقت، مسافر، ولكنه يكون لطيفا عندما يتواجد، احذر منه فإنه إذا انتبه لك في ساعة سأم قد يطلب منك نصوصا قبيحة المحتوى ليسخر منك، أما البيه الكبير فلن ينتبه لك حتى لو مر من خلالك، مشغول معظم الوقت بعمله.

- والسيدة التي ترسم؟

- آه، السيدة التي ترسم، كيف عرفت أنها ترسم، على كُل، من الأفضل أن لا تتذكر وجودك، فذوقها في النصوص التي تطلبها غاية في الصعوبة ولا ترضى عنها بسهولة، ولكن إذا رضيت سيكون الحال أسوأ بكثير، ولتُراعِ أنه سبقك إلى هذه المهنة ثلاثة لم يُطلب منهم كتابة نصوص إلا مرات تُعد على أصابع اليدين، فقط عند زيارات الأضياف المشاهير وفي استقبالهم، وإن أحسنت السلوك فستلقى مصيرهم الحسن، أن يتوسط لك سيد القصر للتوظف في وظيفة

محترمة في ديوان من دواوين الحكومة.

قال جبر ثم تفحصني بنظرة لوم وكأنه يخبرني أن كشف الأسرار هذا لابد أن يستأهل شكرا، ولكني كنت أعرف، الفضل للفراغ وللموسيقى المتشنجة الآتية من السقف.

دائما ما كنت أستعيد هذه اللحظة، كل اللحظات الأولى، أول مرة رأيت البيارات مع جدي، وصيحات الطلبة في ممرات مدرسة أ.سمعان، أول مرة رأيت المكتبة، وجلستي تلك في المطبخ والخادم المصاب بالنسيان يشرح لي طبيعة عمله، وكلما استعدت لحظاتي الأولى تلك بدا لي خوفي مبالغا فيه، إلا هذه المرة، بدا لي خوفي ووحشتي أقل بكثير مما يمكن أن أصادفه وأعيشه، خاصة عندما قال الخادم بحذر وبصوت تعمد إخفاض نبرته ليوحي بخطورة الأمر:

- إياك أن تكون ممن يكتبون نصوصا معقدة، لو طلبوا منك أن تكتب فاكتب شيئا واضحا، مسليا وخير لك أن يكون قصيرا، أن يطلبوا منك المزيد أفضل من أن يملوا منك سريعا.

هكذا الأمر إذن، قذفت بي ثلاث سنوات من الدراسة في مدرسة أ.سمعان إلى هنا، متسولًا بالكلمات، متسولًا بدون كلمات حتى، لو أحسنت الاختباء فلن يُطلب مني عمل أنجزه، ولو كتبت شيئا احتفاليا باهتا في استقبال الأضياف فسأحصل على وظيفة وحياة مستقرة.

هل كان أ.سمعان يعلم؟، كل تلك السنوات من المقاومة كانت تُعدني لهذا المصير، لرمي في هذه المزبلة، لأستسلم لهذا المصير استسلاما كليا دون أن أخذل قرار اللجنة، أين الآمال العريضة التي نسجها للمطيعين وهو يقول:

- أنتم ضعفاء مرض المجاز الذي أصاب البشرية منذ الأزل ولكن هذا ليس عذرا لتخرجوا من الصف، بل هذه فرصتكم لتجدوا ترياقنا، أو تكونوا أنتم ترياقنا، ومن سيستمر منكم للنهاية معي

هنا سيكون جنديا مخلصا للدين الحق ضد هذا الضعف.

***

وينصرف عم جبر، يقف ويطقطق فقرات ظهره، ربما قال كلمة ما ليستأذنني، ولكني لم أسمعها، ربما خيرني بين إغلاق الضوء أو تركه مضاءً، ولابد أنني اخترت، أصبح المطبخ مظلما إلا من لمبات صغيرة متناثرة لأجهزة طبخ وحفظ طعام لا أعلم كنهها، أزيز وأرقام تتبدل تزيد وتنقص ثم صمت يتلوه صوت انسحاب سائل كأنه يتم شفطه في محقن ببطء، ثم يُعاد ضخه في فضاء لا جاذبية فيه، فكرت: لابد أن هذا ما حدث لذاكرتي منذ قليل عند انصراف جبر، الوميض، اختبأ العجوز خلف انضغاط ذاكرتي، فلم أنتبه لانصرافه إلا مع وميضها، ضغطت الصدمة ذاكرتي ثم تفككت في لامبالاة عدمية.

المطبخ يشبه ما تصورته كثيرا عن ليل غرفة التحكم في محطة رفع ماء البيارات، الصمت ينتقل من جهاز لآخر والهدير الخافت أيضا، وكأن هناك اتفاقًا ضمنيًا بين الضوء والصوت على إعادة اكتشاف معزوفة ما قديمة، تستمع الروائح فتثمل وتدور بصخب، خليط من روائح بهارات وجبن وفطيرة تفاح تتنهد حرارتها في أنفي، كل هذا صار واضحا الآن لدرجة أنني لم ألحظ الرائحة الدخيلة، لم ألحظ أن ضوء اللمبات الصغيرة لم يعد يرتعش، ماتت حدقاته على ضوء الثلاجة التي فُتحت،

وكان أول انتباهي للعطر العاصف مع نسمة باردة أتت كموجة هينة من اتجاهها، وجعلتني ألتفت لأراها: فتاة صهباء تضم ضلفتي روب حريري بيد وتعبث بيدها الأخرى في أرفف الثلاجة، كيف دخلت في صمت وفي الظلام ولم تضئ النور ولم أنتبه لدخولها، حدقت فيها مستعيرا روح لمبة من اللمبات المنتشرة حولنا، دون خوف من اكتشاف أمري أو اتهامي بالوقاحة، مرأى جلد ذراعيها الدولفيني

شـد مـن عـزم قلـبي فصـار مثـل طبـل أفريقـي، لدرجـة أنـي خشيت لـو اضطـررت للـكلام أن أفزعهـا بـدوي صـوتي، في هـذه اللحظـة رأيت نهايـتي، وفهمتهـا، صـار كل شيء مفسرًا، ومتشـابهًا، كـدرج سلم يصعد إلى السـماء، كرسـم توضيحـي لإنزيـم مـن إنزيمـاتي الوراثيـة، وفي اللحظة التاليـة صرت مسـتعدا لغفـران كل شيء ممـا سيحدث، غفـران دفـع عينيّ أن تدمعـا، وفي اللحظـة الثالثـة انغلـق بـاب الثلاجـة وانسـحب الضـوء، لـم يعـد مـن مسـتقبلي الـذي أبصرتـه منـذ قليـل إلا أضغاثـًا، وقلـبي الـذي يـدق ببـطء بـارد، وعـاد ضـوء اللمبـات الضئيلـة يغمـز مثـل أقمار صناعيـة بعيـدة في السـماء.

***

ونمـت، النـوم في بـدروم القـصر كان يشـبه النـوم في طريـق عـام، ينشـط في سـاعات الصبـاح، بمجـرد أن ينتـشر الضـوء يبـدأ سيال الخـدم لا ينقطـع إلا بعـد تمامهـم، بعـد دخـول الخـدم يأتي البسـتاني ومسـاعده وأحيانـا السـائق، ثلاثـة أيـام في الأسـبوع يحمـلان الفاكهـة والخـضروات لداخـل المطبـخ، والثلاثـة أيـام المتبقيـة يحمـلان بضائـع مختلفـة، سكر زيـت دقيـق، يفطـران ثـم يحمـلان إفطـار الحـراس والسـائق شـطائر ملفوفـة بعنايـة في أوراق الألمونيـوم اللامعـة الـتي تحفـظ حرارتهـا.

كان البـدروم فـم القـصر، والفـم لا يتوقـف عـن الحركـة حتى لابتـلاع الهـواء، ولا أسـتطيع أن أنـام إن تملكـني أرق خفيـف في بدايـة ليلـتي، أخشى أن يسرقـني النـوم فـيراني الخـدم في مرورهـم الصباحـي.

علاقـتي بالخـادم جبر يـسرت لي الحصـول عـلى بطانيـة ثقيلـة ومقعـد خشـبي مسـتقيم الظهـر ونضـد صغـير لتنـاول الطعـام والكتابـة ومـع الوقـت تعـودت عـلى نظـر الغربـاء لي وأنـا نائـم، القاعـدة الأولى الـتي تعلمتهـا أنـه إذا أردت طعامـي سـاخنا فيجـب أن أنتظـره، فعـدا الوجبـة الأولى الـتي كانـت للتعـارف لـم يعـد الخـدم يهتمـون باسـتدعائي لأن الميعـاد كان يتقـدم ويتأخـر سـابحا في بحـر الظهـيرة، تتحكـم فيـه أمزجـة

ساكني القصر الثلاثة إن تواجدوا، ولم يكن ممكنا بأي حال من الأحوال أن تُنصب مائدة غذاء الخدم قبل السادة، رغم أن طعام المطبخ مختلف كليا عن طعام القصر، ولكن الأمر في الدرجة الأولى ظل أخلاقيا.

في المرات القليلة التي تواجدت فيها في المطبخ اكتشفت أن الخدم يختلسون لقيمات تقيمهم حتى ميعاد الطعام العشوائي، وهذا لم يكن ممكنا لي ولا للبستاني ولا لحرس البوابة لذا خططت لنفسي القاعدة الثانية: إن أردت أن يكون طعامي كافيا فسيكون باردا، أفوت ميعاد الغذاء عن قصد فأحصل على طعامي مغلفا لآكل منه ما أريد وأحفظ الباقي عندي لأوقات الجوع.

بعد مرور أسبوع اكتشفت طريقة جيدة لمغادرة القصر دون أن أضطر لاستئذان صاحب القصر، صحبة الخادم العجوز جبر للصلاة والذي كان هو الوحيد المسموح له بالخروج من أجلها، عند البوابة يمررانا كجسد واحد، جسد ومشروع عكاز لهذا الجسد، بعد الصلاة في مسجد منزو نعود فورا.

مع الأيام استطعت أن أغري جبر بالاستغناء عن ورد التسبيح عقب الصلاة، واستغلال هذا الوقت في التجول بالمنطقة التي تضم القصر، لم يُضف لي التجول نظرة أخرى إلى انطباعي الأول عندما أتت بي السيارة التي أقلتني، بيوت فارهة منغلقة على أسرارها، وشوارع أسفلتية يلتمع عليها السراب حتى في الظل، كافيهات تستعمل موائد مكسوة بالجوخ ومقاعد فارهة على الطريقة الإيطالية وتقدم أشربة غالية السعر معقدة في أسمائها، ولا توجد محلات منفصلة، بل مول كبير لم أتمكن من زيارته إلا فيما بعد.

انفرجت الصخرة عن قلبي لأول مرة في واحدة من هذه الرحلات التفقدية، في مقهى منزو أردت أن أكافئ جبر باستضافته فيه، أمام المقهى تردد العجوز، لم يكن للمقهى جدران زجاجية، بل نافذتان

عاليتـان موزعتـان عـلى طـول الرصيـف لا تنبعـث منهمـا أصوات المقهى المعتـادة، تـردد العجـوز كأنـه يخـشى أن يرانـا أحـد فيبلـغ البيـه الكبير، ولكنـني شـجعته عـلى هزيمـة تـردده بـأن قلـت لـه:

- لن نتأخر، لا تقلق، ستشرب شيئًا باردًا وننصرف.

دخلنـا، مناضـد خشـبية والكـراسي خشـبية، المقهـى تحكمـه قبضـة خفيـة لطبيعـة المنطقـة، مشروبـات عاديـة تمامـا، غـير مسـموح بالتدخين إلا مـا يحملـه جيبـك وتواريـه أصابعـك، تعمـل خلـف نهمـك شـفاطات هـواء موزعـة بإتقـان.

طلـب جـبر عصـير فراولـة وطلبـت عصـير برتقـال وقبـل أن يـأتي طلبانا أخـذت أتأمـل يـديّ المضمومتـين المرتاحتـين عـلى المنضـدة، أتأمـل يدي العجـوز أيضـا، واحـدة عـلى المنضـدة والأخـرى عـلى فخـذه المـشرع أسـفلها، جِـد نقـاط التشـابه بـين الصورتـين، ترتعـد يـدا العجـوز قليـلا، أفـرد اصابعـي وأطويهـا، معـا وبالتتابـع، لا ترتعـد، أهـز سـاقي ويأتيـني خاطـر مضحـك: الحيوانـات والطيـور والزواحـف لـم تضـل الطريـق إلى حكمـة وجودهـا أبـدا، عـن طريـق المخالـب والأنيـاب والعضـلات العـاصرة، ولكـن الأصابـع، أصابـع اليديـن الـتي هـي دليـل عـلى تفـرد البـشر واختـلاف بعضهـم عـن بعـض ضلـت طريقهـا، حـتى لـو خلقهـا الله لأمـور عديـدة غـير الكتابـة، خلقهـا لتقتـل وتخـدم وتخـون ولتكـون دليـلا عـلى وجـود خالقهـا وقسـوة العالـم، ولـو لـم يكـن جـبر خادمـا لمـا كانـت أصابعـه لترتعـد هكـذا، إنـه أصغـر مـن جـدي بسـنوات ولكـن أصابـع جـدي لـم أرهـا وهـي ترتعـد قـط، لقـد اخـتزل جـبر أصابعـه، اخـتزل حكمـة وجـوده، أضحـك، أصابـع أ.سـمعان لـم تكـن ترتعـد أيضـا، أصابـع أ.سـمعان مسـؤولة عـن اخـتزال حكمـة وجـود أصابـع الآخريـن، أصابـع قاتلـة، وأصابعـي الـتي تشـبه قلـبي الآن يزحـف عليهـا البيـاض، والبيـاض يمـس قلبـك كالشـيب إذ يمـس رأس نتيجـة الفـزع لا نتيجـة الشيخوخـة، لا، مـا يمـس قلـبي هـو الكفـر، نعـم كنـت أحتـاج للإيمـان،

وإن كانت حصص الأستاذ سمعان كافية لتكسو قلبي كله بالشيب، نتيجة طبيعية تماما للسماع المتكرر لشفتيه الدوّوبتين وهما تفترقان وتلتقيان لتتحكما في زفير وشهيق عباراته الخالدة:

- المجاز وهم، مرض أصاب البشرية، وأنتم ضعفاء هذا المرض.

- ربما لو تُركت وشأني لظللت مؤمنا بالوجود الصحيح لله رغم اختلافي عن البقية في تفاصيل هذا الإيمان، مختلفا عن تلك البقية الذين يتحدثون بلسان أ.سمعان على الخصوص، أتحسس قلبي فأجد أنه وبشكل مطلق قد غفر للجميع، جدي ومشرف المطعم في سكن المدينة، وحتى أ.سمعان، ربما ظللت أكره ما كان يمثله، ولكن بنسبية الأحداث التي مررت بها في حياتي كان على قلبي أن يحب الأستاذ سمعان أيضا، فلولا تعصبه وقناعاته الصلدة التي كانت جزءًا من وظيفته لما كنت هنا الآن، حيا، أحتسي مشروبا باردا بثمن كلماتي التي أبيعها.

ثم انتابتني خفة روح فائقة بعد أن وصلت في تفكيري لهذه النقطة، لدرجة أنني طلبت مشروبا آخر لجبر وكأنني أحتفل باستقبالي لحياتي الجديدة، وكانت هذه أول مرة أسأل جبر عن سيدة القصر، كأنني أتأكد فقط من أن ما رأيته في مطبخ القصر بليلتي الأولى لم يكن وهما، وكانت مجرد الإشارة كافية ليسهب جبر الوصف عن سيدة القصر التي لا يصيبها الجوع إلا ليلا، ثم تترك فوضى من الأطباق المتسخة وبقايا الطعام على باب غرفتها، معتكفها الذي يحتاج اقتحامه إلى شراسة أشد من شراسة صاحبته.

- ولماذا كل هذا؟

فقال بعد نظرة طويلة:

- سأخبرك ولكنك لن تخبر أحدًا، اتفقنا؟

هززت رأسي فابتسم جبر ممتنا:

- أعرف أنك لن تخبر أحدا، الجميع يعرفون السبب، ولكن لا أحد

يجـرؤ عـلى التحـدث عنـه جهـرا، السيدة مـرت بتجربـة زواج فاشـلة، منذ سـنتين فقـط، الـزوج الـسيء مثـل القـدر، لا تسـتطيع أن تتخلـص منـه إلا بانـتزاع اللحـم الحـي، ورغـم أن أباهـا محامـي انـتزع حقهـا المادي مـن حبـة عينـه ولكـن حقهـا المعنـوي كسـيدة أهينـت لا يسـتطيع إلا الله أن يوفيهـا إيـاه.

- ولماذا لم تتزوج مرة أخرى؟

- لأنهـا كرِهـت الأمـر، أصـلا لـم تـتزوج في المـرة الأولى إلا عنـادًا، كان لديهـا حبيـب، رجـل مناسـب، الوحيـد الـذي كان مناسـبا لهـا في هـذا المجتمـع الغريـب، هـل تعـرف، ربمـا كان الأفضـل لإيـلات أن تولـد فقـيرة.

كانت هذه أول مرة تعرف اسمها، بدا لك الاسم عبريا.

- اسمها إيلات؟

- نعم.

- اسم غريب؟

- اسمها أقل ما في حياتها غرابة.

- وما هو أكثر شيء غريب.

- يـوووه، لا تعـد، حـتى مـا بـدا مناسـبا لهـا لـم يكـن مناسـبا، مـن أحبوهـا أكـثر مـن عـدد الأنبيـاء، ولكـن مـن وصلـوا إلى قلبهـا أقـل مـن عـدد الرسـل، سـأضرب لـك مثـالًا عـلى ذلـك، حبيبهـا الأول، فـارس ممتـاز لفـرس جمـوح مثلهـا، وحفلـة خطبـة كالأسـاطير، رقصـا فيهـا سـويا رقصـة فالـس حـتى حبسـا أنفـاس الضيـوف، وفي النهايـة لا يتـم الـزواج.

- ولماذا لم يتم؟

- السـبب الواضـح هـو أن إيـلات اكتشـفت أن خطيبهـا الهمـام متزوج مـن امـرأة أخـرى عرفيـا، أنـت تعـرف تعقيـدات الـزواج بـين السـادة الأغنيـاء، قـد يسـتغرق الموضـوع عامًـا أو عامـين، خـلال هـذا العـام

غلبته حمضية مائه وبدلا من أن يزني تزوج امرأة مطلقة، عندما عرفت ثارت ثائرتها وكان يمكن أن ينتهي الموضوع بطلاق الأخرى إلا أنها رفضت بعناد غريب وفسخت الخطبة.

- والسبب الخفي؟

- أنه ألقى لومه عليها في هذا، لم تتحمل أن يخونها ويلقي اللوم عليها، وقبل مرور العام كانت قد تزوجت هذا الرجل الكريه.

- زوجها؟

- طليقها، كان اختيارا متعجلًا على أية حال ولم يكن مقدرا له أن ينجح.

ساد صمت جنائزي..

- سأخبرك بشيء لا يكاد يتذكره أحد، بعد فسخ خطبتها بالرجل الأول تعرضت إيلات لحادث سيارة، مات السائق أما هي فمكثت للعلاج في المشفى سنة كاملة، مريضة مهشمة الساقين ممتلئة بالحياة، كل الممرضات والأطباء صاروا متيمين بها، ويعلنون عنها كأنها حلوى مولد النبي، لا يفارق المشهد بصري، الممر المزدحم باقات الورد كأن بائع ورد ضل طريقه وافتتح محلا هناك، لم تحتجْ عائلتها إلى شراء باقة واحدة، كلها لرجال وأمهاتهم أتوا لرؤيتها وخطبتها، تصور هذا، ناجية من حادث تصادم يأتيها ما يزيد عن عشرين رجلًا يطلبون يدها، ولكنها كانت تريد رجلًا تلقي تراب هيبته في عين الآخر.

تنهد جبر والتمعت عيناه وكأنه يسير في ممر المستشفى المليء بالزهور والساكن في خياله، ثم قال:

- انتهى زواجها بمحاولة انتحار فاشلة فمكثت أسبوعا واحدا في نفس المشفى، طاقم الممرضات كن يجرين القرعة على التعيسة التي ستسهر عليها، لم تكن تنام، وهل تعرف، لم يأتها غير زائر

واحد خارج عائلتها، فقط زائر واحد، أميرها القديم أتى حاملا إليها بوكيه ورد سد به ممر المشفى، عرض عليها الزواج واضعا إمضاءه على شيك أبيض وبركبتين على الأرض تحت سريرها طلب منها أن تضع المبلغ الذي تريده كمؤخر صداق، كان يمكنها أن تضع رقما يفوق ماله وتتزوجه، وإذا فكر مجرد تفكير أن يلعب بذيله تضعه في السجن.

- دعني أخمن، لقد رفضت.

هز جبر رأسه متعجبا ولم يرد.

انشغلنا طيلة الوقت المتبقي بإنهاء مشروبنا الإضافي، نلوك ذكرى امرأة أهينت وعذبت، على باب المقهى أمسك جبر يدي ونظر في عيني:

- إياك يا إسماعيل، إياك أن تقترب منها إن أتيحت لك الفرصة، الجميع يقتربون ويعانون، لا أعرف نوع السحر الذي ابتلعته هذه المرأة وهي صغيرة لتكون ملعونة وساحرة لهذه الدرجة، فهي ليست جميلة كأجمل بنات عائلتها ولكن الرجال يتهافتون عليها، وينتهي بهم الأمر إلى الرضا بفتاتها، صارت تعويذة بنات العائلة بهذه الطريقة، وأقرب حكاياتها أنها كانت في حفل زفاف إحدى قريباتها وكانت ترتدي فستانًا جديدًا معدلًا من تصميم لكارولينا هريرا، هذا الفستان، يا إلهي، كانت مثل شمعة مقدسة بالضياء كتب عليها أن تذوب إلى ما لا نهاية دون أن تضمحل، داخ نصف رجال الحفل أما النصف الآخر فتماسكوا بالبلاهة والضحكات المذهولة، رجل واحد فقط استطاع أن يخوض في هالة سحرها حتى وصل إليها، وأمام الجميع ركع على ركبتيه في الشرفة وطلب يدها، مشهد خيالي يغسل القلب ويعود به سنوات ليصير شابا، وأمام الجميع أيضا وببساطة رفضت الرجل كسيدة ناضجة ترفض الذهاب إلى رحلة مدرسية، وهل انتهى الأمر؟، لا طبعا، في الأسبوع التالي أعارت الفستان لابنة عمها فخُطبت بعد

أيـام، هـل تعلـم مـن خطبهـا؟، نعـم، ظنـك صحيـح، نفـس الرجـل الراكـع في الشرفـة، تصـور، نفـس الرجـل!

خرجتمـا إلى الشـارع الطويـل وقبـل أن تعـبرا الطريـق للناحيـة الأخـرى أمسـك جـبر يـدك كأنـك طفـل صغـير يحـذره مـن التهـور.

- هـذه حكايـة واحـدة يـا بـني والبقيـة يتشـابهون، لا يختلفـون إلا في التفاصيـل، يقتربـون ثـم يرضـون بالفتـات، هـذا مـا أخـبرك بـه، ولا تقـل أني لـم أحـذرك!

نزعـت يـدي برفـق مـن يـده وسـبقته بالعبـور، وكنـت أخفـي وجهـي حينئـذ عـن جـبر، أخفيـه فزعـا، لئـلا يـرى بياضـه الشـديد وقـد انسـحب الـدم منـه، قبـل أن يلمـح بوكيـه الـورد الخـاص بي وقـد ازدحـم بـه صـدري المأتمـي.

***

سألتني الدكتورة عالية:

- هل أحببتها يا إسماعيل؟

- من قبل أن أولد.

صفرت بفمها إعجابا بإجابتي:

- هل أحبتك هي؟

- سيدة تختـار مقاعدهـا بهـذه الدقـة لابـد أنهـا لـم تكـن تحـب كاتبًـا يكتـب نصوصًـا بالأجـر.

- ولكنك لست مقعدًا.

- ولست حبيبها بالتبعية.

- حتى الآن لم تخبرني باسمها، لماذا؟

- لدي أسبابي.

- هل طلبت منك أن لا تخبر أحدًا باسمها؟

- ليست في حاجة لتقول.

ضحكت، ضحكة متوترة:

- لهذه الدرجة؟

- كما تخفين عني أسرارا فأنا أيضًا أخفي عنك أسرارًا.

- إذن، سأقايضك، كم سرًا تريدني أن أخبرك به وتخبرني باسمها؟

- كل أسرارك؟

عندما انفك أسر ضحكتها قلت:

- لا تقلقي، سيأتي الوقت الذي سأضطر فيه إلى إخبارك به.

***

أتذكر نصي الأول الذي كتبته لها بالخجل، بالخزي، ليس مثل المرة الأولى التي أكلت فيها مضطرا أمام الطلاب في مطعم الطلبة، ليس مثل المرة الأولى التي قرأ فيها أ. سمعان ما كتبته أمام زملائي باستهزاء، لا تشبه هذه المرة أول مرة من أي شيء، وكانت بطعم الشريط الأحمر الرسمي ملفوفا حول وسط جبر الخادم العجوز.

بزغ بكامل أبهته وهو يهبط الدرجات السبع حاملا طبقًا من الخزف الأبيض، عرفت أول ما رأيته أن لهجته وطريقته وملابسه الرسمية لا علاقة لها بحماس أول الصباح أو قيادة الخدم وتوجيههم في يوم هام، وضع أمامي الطبق الخزفي على المنضدة، لم يكن على الطبق إلا ورقة وقلم، الورقة عليها كلمتان (أريد نصًا)، وضع جبر الطبق وجلس على المقعد الآخر وهو يتصفحني بعينه، سألته:

- ما هذا يا عم جبر؟

- لقد تذكروا وجودك للأسف.

لوحت بالورقة في يدي:

- من صاحب هذا الطلب؟

- لا أعرف يا عزيزي، الورقة تأتينا في المطبخ تسليما باليد من أحد خادمات القصر وبنفس الطريقة سنعيد ما تكتبه.

- على الأقل أخبرني عن نوع زبوني لأفصل له النص الذي يناسبه.

هز رأسه في أسف قائلا:

- لا أعرف، ولكن اسمح لي أن أنصحك، لا تعد الورقة فارغة، هذا أسوأ من سبة، اكتب أي شيء.

- لا أستطيع الكتابة بينما تراقبني.

تنهد الخادم العجوز وابتسم متفهما واستند بذراعيه على المنضدة وانحنى توطئة لينهض ثم عاد ونظر وهمس، كلحظة خارج لحظاته الرسمية، مستعيدا شخصية الصديق:

- انظر، إن كان هذا سيساعدك، السيدة هي من تطلب بتلك الطريقة، لا أحد غيرها، ولكن لا تعتمد على ذلك كثيرا، لا تعتمد على نوعها لكي لا تخيب توقعاتك، إنها سيدة صحيح ولكنها لا تفكر كسيدة ولا كرجل.

عندما عاد جبر لم ينظر للمكتوب في الورقة، أخذ القلم ووضعه بعناية على الطبق ثم انصرف.

ظللت جالسا، لم أصعد للإفطار، أرسلوا لي طبقا من كعك الزنجبيل الساخن وكوب شاي، وكأنه بتوصية من جبر، أكلت واغتسلت وارتديت ملابس جديدة، وعندما خرجت من الحمام وجدت الخادم العجوز ينتظرني وهو يبتسم في أسف، أمامه الطبق وعليه ورقة جديدة وقلم، عاجلني:

- أنا واثق أنك لا تُقدر أزمتك الراهنة، تستحم وتفطر، وأنت في موقف من سبقوك تقيأوا فيه من شدة القلق، خذ.

أعطاني الورقة، كان مكتوبا عليها (طلبت نصا حقيقيا، لم أطلب نصا هزليا ولا صبيانيا) وكان تحت كلمة صبياني خطوط عديدة،

لدقائـق ظللـت أتأمـل الكلمـات حـتى اسـتوعبتها، بينمـا تملكتـني فكـرة واحـدة خفـق لهـا قلـبي مضطربًـا، أنـا في طريقـي للفشـل مـع أول قـارئ حقيقـي.

ولكـني كنـت مُسـيرا، مسـيرا للفكـرة المتشـائمة، ومسـيرا لجـذب الذهـن الـذي خلفتـه فيَّ، مثـل موجـة تسـونامي، إمـا أن أرفـض وأصرف جـبر وأتلقـى العواقـب، أو أعتـصر رمـل ذهـني وأنـا أنتظـر الموجـة المرتـدة الهائلـة.

قلبت الورقة وكتبت:

( قـال لهـا: كتبـت اسـمي لـكِ ذات مـرة لتبصريـه، كتبتـه عـلى لوحـة سيارة عتيقـة لـم تمـر بالمدينـة إلا مـرة واحـدة.

قالـت: وأنـا مـررت وجهـي عـلى الرمـل والشـوك والصـدف لـكى تتغـزل في ملامحـي ولـم تفعـل!

قال: خضت هذا البحر لأصل إليكِ في الجانب الآخر.

قالـت: كنـت عـلى هـذا الجانـب الـذى قذفـت نفسـك منـه أحقـق في السـبب الـذى جعـل الغريـق يقـذف نفسـه بالبحـر في الصبـاح البـارد، لـم أكـن أعلـم أنـه أنـت.

قـال: كيـف يتواصـل اثنـان أحدهمـا يغـنى والآخـر يتلـو نصوصًـا مقدسـة؟

قالت: لا زال الحب يتلو معجزاته.

قال: أنا حزين كمدينة غارقة لا تحبها الأسماك.

قالـت لـه وهـى تضمـه: نـم الآن، فـلا يـزال في قلـبي مـكانٌ لكلمـات الصـدق الـتي لا تُحسـن قولهـا..).

مـا هـي الطريقـة الـتي تضـع بهـا ورقـة تحمـل نصًـا فاشـلًا في طبـق مـن الخـزف، ربمـا كان ارتعـاد يـدي وأنـا أضـع الورقـة والقلـم عـلى الطبـق الفـارغ الطريقـة الأنسـب، انـصرف جـبر دون كلمـة زائـدة، ولبثـت جالسـا

فارغ الذهن تماما، زحفت حلزونات الضوء وتوددت إلى ساقي ولكني لم أعرها انتباها، دهمت قلبي صورة المرأة التي رأيتها منذ أيام في المطبخ، وحكاية جبر عنها في المقهى الصغير، وأدركت أنني أخطأت خطأ هائلا بكتابة هذا النص إليها، بحثت عن قلمي وورقة، ثم جلست وكتبت:

(فواكهها الاستوائية ليست حارة ولا عذبة المذاق ولكنها زاهية الألوان، فواكهها من البلاستيك، تعضها بأسنانها وتغمض عينيها نشوة وترتعد بينما يرش الخادم في الهواء الروائح خفية، وبعد وجبتها الثقيلة يضع لها الطبيب سن الإبرة في وريدها، لتصعد فقاعات الوهم من دمائها إلى زجاجة الجلوكوز ويحل محلها محلول السكر ..)

عندما عاد جبر مرة أخرى عاد حاملا الطبق وعليه قصاصات ورق، كانت إيلات قد مزقتها، وضعت بالطبق الورقة التي كتبت فيها النص الجديد، شعرت بحاجة للاغتسال مرة أخرى، انصرف الخادم العجوز ولم يعد مرة أخرى، كنت أعرف أنه لن يعود.

***

للنوم ما يبرره دائما، خاصة إذا كان بعد كتابة نص حاولت أن أكون صادقا فيه، نوم تحمله إلى أجفاني الرحمة المماثلة لتلك التي تبيت في زنزانة رجل حُكم عليه بالإعدام ليلة إعدامه، كتابة النص الصادق أشبه بتعبئة السماء أو اختزان الشمس في عدستي نظارة شمسية، والنجاح في ذلك كالنجاة من طعنة باحتضانها.

سأعلم بعد ذلك أن النوم صرعني بعد انصراف الخادم العجوز بالنص الأخير، سأعلم أن رائحة العطر هي ما أيقظتني وليس الجوع، صعدت الدرج مدفوعا إلى المطبخ، كان يجب علي أن أعود أدراجي عندما رأيتها جالسة على طرف المنضدة البعيد تأكل، مثل

قطة شرسة، كشخص غاضب من الطعام، ناقم على نفسه، ذراعين أشد نحولا عما كانا عندما رأيتهما في ضوء الثلاجة الخافت، قلت في نفسي: لشد ما تغيرت، كأنني أعرفها منذ سنوات بعيدة، دفعت إلى وجهي بابتسامة باردة عندما رفعت رأسها ورأتني، كأننا تلاقينا على باب مصعد عام، أو في طريق ضيق اضطرها إلى افتعال علاقة عابرة ولو بابتسامة لكيلا يُساء الظن بها، لا تأويلات ولا غضب، ثم بدأت تتكلم بحيادية، وبطريقة أشبه بطريقة معلق رياضي لماتش غير هام:

- لا تختبئ في الظلام هناك، هيا، تقدم واجلس، أرني وجهك، شاطر، جميل أن تسمع كلام الأكبر منك سنا، والآن، ها أنت ذا، أنت كبير، لقد ظننتك..، ولكنك رجل كبير، لابد أنك تجاوزت الثلاثين بسنتين على الأقل، أليس كذلك، هز رأسك إن لم تكن ترغب في فتح فمك، لا تترك تخميني معلقا في الهواء هكذا، ليس من اللائق أن تترك سيدة تنتظر، بالفعل؟ سنتين؟، ثلاثة، حسنا، عمرك إذن ثلاث وثلاثون، السن القاتل للرجال، السن الذي تصبحون فيه أكثر بطئا وثقلا وغباء ولكنكم أكثر إدراكا لشهواتكم، تعرفون كيف تمتصون الدم من العروق النابضة مباشرة، عند الجلد الرقيق، مثل البعوض، يشق شقا فوق العرق ويضع خرطومه وينتظر دقات القلب أن ترفع الدم إلى معدته النهمة لتملأها، دون جهد، ولكنكم لا تطيرون بعيدا عندما تشبعون، تفتكون بضحاياكم، كضربة من ذيل حوت بالغ خشن قبيح تسكنه القواقع وآثار من ضربات الحراب القديمة التي اندملت، لا شيء يهزمكم.

يستغرقها التشبيه، متشبثة بشوكة الطعام وكأنها تقاوم الغرق في مساحة المطبخ الصغير وتنتظر ضربة من ذيل الحوت، ثم تنهدت:

- وعلى كلٍ لا أستطيع أن أعاملك حسب ما أظن، بل كما يبدو عليك، وذلك حتى تثبت إدانتك، وما يبدو عليك هو الجوع، يا

لغباني، لماذا صعدت من البدروم إلى المطبخ على أية حال، لأنك جائع، عامة لن أخبرك أن تحضر طبقًا من هناك وتملأه، ليس مستحبا على أية حال أن ينقلب أول لقاء تعارف بيننا إلى حفلة طعام مشتركة، لذا أنت مضطر أن تنتظرني حتى أنتهي وأنصرف، وعندئذ عليك أن تغسل الطبق إن أردت أن تأكل، هذا ضروري لكي لا يشك بك الخدم في الصباح، فهناك شخص واحد يأكل ليلا ويترك الفوضى، وهو أنا، إيلات، والخدم يعرفون ذلك ويعرفون أيضا أنني لا أغسل الأطباق إذا ما أكلت.

ثم تصفحت وجهي قليلا بعينين لم أستطع تمييز لونهما وسألت:

- أنت صامت أم مندهش أم أن هذه هي سحنتك الطبيعية؟، دعنا نكتشف ذلك سويا، إليك سؤال يجب عليك أن تفتح فمك لتجيب عليه، ما اسمك؟

- إسماعيل.

- جيد، هل رشحتك مدرسة أ.سمعان للعمل هنا، أم مكتب (لجنة الاختبار) مباشرة؟

- المدرسة.

- معقول؟، أنت تكتب إذن من قبل أن يُلحقوك بالمدرسة، ليس كهؤلاء الفقهاء، ولكنك لم تخرج سالما من هناك كما يبدو، حصلت على لحيتك هذه من هناك، إسماعيل سمعان، تبدو كابن جيد له، أخبرني، هل كان يعتبرك كابنه، لا لا لا تقل، هذا مفهوم دون أن تخبرني، أنت ابنه، لأنه أرسلك إلى هنا، المكان الأفضل.

- لماذا الأفضل؟

قهقهت بسرعة كصهيل فرس يضرب قوائمه بثقة في الصخر قبل أن تنطلق وتقول:

- ما هذا السؤال الغريب؟، لأن إيلات هنا، أنا.

ابتسـمت وقامـت، تتسـع ابتسـامتها وكلمـا اتسـعت أخـذت بجماع أنفـاسي وضيقـت الخنـاق عليـه، مثـل لـص نبيـل، واثـق، يريـد أن يسـتنزف قـواك أولا قبـل أن يسرقـك.

- بالمناسبة، نصـك الـذي كتبتـه آخـرا جيـد، عليـك فقـط أن تُحسن رسـم الكلمـات، تعـرف الفـارق بـين الألـف اللينـة واليـاء في نهايـة الكلمة، ولا تهمـل الشـدة يـا إسـماعيل، الشـدة حـرف كامـل، هـذا ضروري لـك ككاتـب إن أردت أن تسـتمر في قبـض راتبـك عـلى هـذا الأسـاس.

قالـت هـذا وانصرفـت، ألقـت عـلي ختـام ابتسـامتها وانصرفـت، وتركتـني ألهـث فعليـا، منهـكًا ليـس بوسـعي أن أفكـر في فعـل شيء غير مـا قالتـه لي، أغسـل الطبـق الوحيـد، وأغـترف لنفـسي مـن الطعـام وآكل، رغـم أني فقـدت شـهيتي، آكل بالطريقـة الـتي رأيتهـا تـأكل بهـا، بنفس نظرة العينين عندمـا رفعـت رأسـها ورأتـني، متتبعـا حـروف كلماتهـا التي قالتها أيضـا، وكأنـني أحـاول أن أفهـم فقـط، كيـف فعلـت بي مـا فعلتـه.

***

## حسين - القاتل

هـذا مـا اسـتفاده حسـين مـن ثورتـه عـلى رجـل الحكومـة في المقهـى، اكتشـافه أن النظـام لا يـزال يعمـل، وأن الجسـد الميـت خاصـة لـو كان بـارد الـدم سـتظل بعـض سـيقانه ترتعـش، وتـركل، وتدمـي الأنـف.

التحويـل للتحقيـق، هـذا هـو ظـرف المهمـة التاليـة الـذي تلقـاه بعـد عـدة أشـهر، كلمتـان فقـط، التحويـل للتحقيـق، جوعـوه لعـدة أشـهر ثـم ألقوا إليـه عظمـة مسـممة، التحويـل للتحقيـق، نخـر بأنفـه فالتفـت إليـه المـارة مسـتنكرين.

تحمـل حسـين غضبـه وارتعـاد وجهـه سـار بخطـوات مرتعـدة حـتى وصـل إلى سـيارته، أغلـق الزجـاج وقـام بتشـغيل التكييـف عـلى درجتـه القصـوى، وبوجـه لا يرتعـد أخـذ يـصرخ بـكل الشـتائم القبيحـة الـتي خطـرت عـلى بالـه، الشـتائم صعـدت وهبطـت وكان مقـدرا لهـا أن تتفـرع إلى مـا لا نهايـة لـولا أنهـا اسـتقرت عـلى مشـتقات كلمـة واحـدة، كلمـة واحـدة، سـمعها ذات مـرة مـن فـم أمـه وهـي تتـضرع بهـا لأبيـه في غرفتهمـا المغلقـة، وسـمعها مـن أبيـه وهـو يسـأل أمـه عـن رغبتهـا بـه، ومؤخـرا سـمعها مـن فـم فتـاة ليـل وهـو جالـس عـلى مقهـى، عـبرت مـن نافـذة مفتوحـة ذات مسـاء ربيعـي وتسـببت في انتصـاب مـالا يقـل عـن عشريـن رجـلًا يشربـون الشـاي بالنعنـاع فطلبـوا شـايا آخـر بالنعنـاع لتعطـير دمائهـم الـتي تسـممت بالشـهوة، ولـم يكـن حسـين منهـم.

لـم ينفـثئ الغضـب في عروقـه حـتى بعدمـا توقـف عـن الشـتم، بـل حملتـه دمـاؤه السـوداء إلى الاسترسـال في التخيـل، ومـا الـذي يجـب أن يفعلـه وهـو ذاهـب للتحقيـق، يرتـدي بذلـة رسـمية سـوداء، وكرافـت أحمـر، هـل سـيصطحب سـلاحه، كـم رصاصـة سـيذخر بهـا طبنجتـه الهامـدة، كـم رأسًـا يجـب عليـه أن يفجـره قبـل أن يظهـر الداعـر الـذي

يدير منظومة كهذه، ثم عاد للشتم ولكن بألفاظ أقل تكشفا.

ألصق حسين وجهه بفتحات الهواء البارد ليهدأ، ظل ملصقا وجهه هناك حتى ازرقت رؤيته، وصار لعابه في فمه ثقيلا، ثم قاد سيارته والتحم بالطريق، وفي الطريق فكر في الاتصال ب (د)، أن يضغط الزر الأبيض ويرى النتيجة، يدعك المصباح ويرى حجم الدخان، تأكد أولا من قوة إشارة الإرسال وبطرف مدية صغيرة ضغط الزر الأبيض فصدرت صفارة خافتة، كانت هذه هي المرة الأولى.

طيلة ساعتين انتظر ولم يحدث شئ عدا أنه بدأ يشعر برغبة شديدة في الانفصال عن العالم ، والانفصال يتطلبه مخدر، والمخدر لابد له من مشارك وإلا وصلت الأمور للشطط والتعاطي المفرط، ولا صديق له إلا إسحاق.

بعد ساعة كانا مستلقيين على الكنبة (الفوتيه) الوثيرة يتأملان نجفة السقف، وقاد هذا التأمل عقل حسين إلى استنتاج قاله على الفور لصديقه:

- أشك أن هذه الشقة المفروشة يقتصر استعمالها فقط على الأوقات التي نكون فيها معا.

اعترف إسحاق على الفور:

- العالم مليءٌ بالمتع يا صاحبي.

- لن أسألك عن المتع التي جربتها في هذه الشقة، بل عن المتعة التي تمنيت أن تجربها ولم تفعل.

تظاهر إسحاق بالتفكير للحظات:

- لا أظن أن هناك متعة لم أجربها، على الأقل فرعًا منها، سأخبرك بسر، ليس سرا واحدا بل اثنين في الواقع، ذات مرة ملأت البانيو بالطين.

- طين!

- نعم، طين فعلي، دفعت لشخص ما وأحضره إلى هنا معبئًا في عبوات بلاستيكية زنة عشرين لترا، تطلب الأمر سبع عبوات ليمتلئ البانيو للدرجة التي تغمر جسدي بالكامل.

قهقه حسين:

- استحممت بالطين؟

- نعم، وما الغريب في ذلك؟

- حسنا حسنا، لا شيء غريب، ما هو السر الثاني؟

- قمت بشنق نفسي بالحبل، هنا، علقت حبل المشنقة في هذا الجنش ولففته حول عنقي، ووقفت فوق مقعد ودفعته بقدمي وتأرجحت، كمشنوق حقيقي.

- ولم تمت؟

- في الواقع تطلب هذا مني عدة استعدادات، الطريقة النموذجية للشنق دون قتل، تجهيز حبل مشنقة يقف بي على أعتاب الموت دون أن أدخل، قام بصنعه أستاذ فيزياء في الجامعة، بالاشتراك مع أستاذ آخر في خواص المواد، الاثنان معروفان على مستوى ضيق جدا ولكنه كاف لهما.

لم يستطع حسين أن يقاوم إيحاء بأن إسحاق دخل من باب خلفي في رأسه، مر بالأمور البعيدة، والأمور التي تعمد إبعادها، في مروره تعثر إسحاق بما لم يلحظه، تذكر حسين في هذه اللحظة أنه قرأ عن رجل بريطاني أعد رسالة دكتوراة عن الشنق، وليس لأن بريطانيا قامت بإلغاء عقوبة الإعدام رسميا في التسعينيات نبذوا رسالته، ولكن لأن الرجل قرر أن يكون أكثر تطرفا وشهرة، مزق ما نبذوه وكتب كتابه المترجم إلى لغات كثيرة، والذي صب فيه كل خبرته السرية بعيدا عن رسالة الدكتوراة، تصميم حبال المشانق ومميزات الشنق عن طرق القصاص الأخرى، كانت قراءة كتابه

موضة في وقتها لا لشيء إلا لأن قراءة كتاب شنق صاحبه نفسه فكرة مريبة، نحن نحب الكتب التي تقتل أصحابها حتى لو لم تتضمن كلماتهم الأخيرة، بل حماقاتهم، لم يكن كتابا مميزا، ولكنه أرّخ للفكرة، للحالة، يتذكر حسين أنه قرأ كثيرا عن طرق القصاص خلال التاريخ، المقصلة والشنق والسم والصعق والصلب، كل هذا كان به شئ مقلق، كحصاة في حذائه، الشنق كان الطريقة الأقل إقلاقا، وفي تاريخ ما قرأه حسين كان هذا الكتاب هو الأكثر سذاجة، ولكنه كان ملهما، يدخل القلب من اللحظة الأولى ويهمس فيك كم أن العالم بسيط للغاية وجميل.

- أخذوا مني مبلغا محترما ليجهزوا هذا الحبل، قاسوا طولي وضغط دمي على فترات مختلفة وطول الذقن مقارنة بطول الرقبة، وكان وزني أيامها خمسة وتسعين كيلو جرامًا فطلبوا مني أن أنزل به حوالي ٧ كيلو، نصف كيلو كفيل بإفشال الأمر، ذهبت إلى صالة جمانزيوم وجريت على السير الكهربائي ما يزيد على ثلاثة أميال لأصل إلى الوزن المثالي.

- انتظر انتظر، هذا الموضوع منذ سنتين تقريبا؟

- بالضبط، كيف عرفت؟

- صالة الجمنازيوم التي فقدت فيها ٧ كيلو من شحمك الغالي هي ذات الصالة التي تعارفنا فيها يا صديقي المسطول.

- بالفعل، كيف نسيت هذا اللقاء التاريخي؟

- ولم تجد غير حبل المشنقة لتنتحر به، كان يمكنك أن تبتلع جرعة غير مميتة من المخدر وتدفع لصيدلي نصف ما دفعته لأستاذي الجامعة.

- أولا هذه أرزاق يا صديقي، ثانيا هذه الحياة علمتني شيئًا واحدًا، الفقراء هم من يموتون، وأنا أخاف من التشبه بالفقراء، من يدري، ربما اختلط الأمر على ملك الموت فظنني فقيرا طالما أنني أغيب

عن الوعي بهذه الطريقة الرخيصة فقبض روحي بجرعة المخدر التي لا تقتل.

هذه المرة قهقه حسين طويلا، ولكنه سرعان ما قال:

- هذا تجديف وكفر يا صديقي.

- ولو!

وقفت على فمه كلمات كثيرة كان سيقولها بعد كلمة (ولو) ولكنه مضغها مع حبة أبي فروة مشوية ومملحة يمتلئ بها طبق أمامه.

سأله حسين:

- هل كان الأمر يستحق؟

- تقصد الشنق؟

- نعم.

- بالنسبة لي، نعم، كان يستحق.

- ما الذي شعرت به؟

- شعرت بالاختناق فعلا ولكن بعد دقائق شعرت أني أتنفس، أتنفس فعليا ولكن من مكان غير الحلق.

- من مؤخرتك مثلا؟

- لو قلت كلمة استظراف أخرى سأكف عن الكلام، أبو فروة هذا يستطيع أن يستظرف في فمي المغلق أحسن منك.

ضحك حسين، وتململ إسحاق كأنه مجبر على الكلام.

- الأمر لم يكن يتعلق بالاختناق فقط، قبل أن أقوم بتجربة الشنق كنت قد سمعت بها من أشخاص أعرفهم، أنت تعرف الهراء الموجود في مجتمع كهذا، هذه التجربة مر بها صديقان قبلي، وهما من دلاني على أستاذيْ الجامعة.

قال حسين بجدية كأنه يشجعه على إتمام الحكاية:

- استمر.

- دعني أشرح لك الأمر، حبل المشنقة كان مجهزا بطريقة خاصة تضمن لك ألا تنكسر الفقرة العنقية الثانية، حبل مزدوج ولكن ازدواجه يضمن لك الاختناق والضغط المثالي على الشريان السباتي على جانبي الرقبة وتوقف الدورة الدموية إلى المخ للحظات، لحظات كأنها سنوات، تماما كعملية الشنق، هذا الضغط مع الاختناق يضمن لك كبشة من الرؤى التي تجعلني واثقا وأنا أقول لك: الموتى شنقا يذهبون إلى الله سعداء.

- لاحظ أنك تتحدث عن المشنوقين الأغنياء الذين يشنقون أنفسهم بحبل صممه خصيصا أساتذة الجامعة، لا الحبل الذي يعقده عشماوي.

قهقه إسحاق عندئذ وقال:

- أنت مفسد للسعادة المتجردة من الغرض يا صديقي، تصور أنني لم أنتبه إلى هذه النقطة قبل الآن، كمية السعادة التي ظلت ترافقني عندما اختبرت الموت شنقا، بعد أن تأكد لي أن آخر ما يراه المشنوق ليس النظرة الشامتة أو المشفقة في عيون شانقه، وأن ما يختبره يجعله ينسى أصلا أنه ذاهب للموت بل ويستعذب اللحظة.

- بغض النظر عن المشنوقين التعساء الذين تنكسر أعناقهم بالسقوط طويل المدى بعد أن يصل الحبل إلى نهايته، ما الذي حصلت عليه من التجربة؟

أشار بأصابعه وكأنه يستبعد فكرة أنه سيخبر حسين.

- لن تصدق!

- جربني.

سكت للحظة، ثم تناول قبضة من السوداني المملح، وقذفها في فمه، وبينما يمضغ أخذت عيناه تلتمعان والذكرى تأخذ بأنفاسه.

- لن تصدقني ولكني سأخبرك، ما حدث أنني حصلت على أقوى انتصاب حدث لي في حياتي، هذا الانتصاب مع الاختناق والضغط على الحبل الشوكي جعلني أقذف عدة مرات بالرؤى الخارقة، انتصاب جهنمي يا صديقي، ورأيت نفسي وأنا أعاشر فتاة من الجن، كتلة من الدفء والأنوثة والليونة والدلع.

ذهل حسين للحظات، ثم انفجر ضاحكا، فجعّد إسحاق وجهه في استياء بالغ:

- وها أنت ذا تضحك الآن، عامة أنا نادم على إخبارك بهذا.

- لا، لا، ما أضحك عليه أنك قلت رؤى، لم أتصور أبدا أن تكون رؤى جنسية.

- هذا ليس كل شيء يا صديقي، الانتصاب والقذف كان بابًا إلى حياة كاملة عشتها، حياة كنت فيها شخصا آخر، وبأدق التفاصيل، الروائح والأصوات وشعور الجلد، ثم انقطع الحبل وسقطت وغُشي علي.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك استيقظت من غيبوبتي واغتسلت وغيرت ملابسي ونمت نوما عميقا.

- ساد صوت المضغ والقرقشة، وطفت في الهواء ذكرى رطبة مريحة، ذكرى جعلت عقليهما مبللين بالماء الذي تناثر من فعل الاستحمام والأقدام المطبوعة في الصالة ذهابا إلى غرفة النوم، ثم أصبحا خاملين بفعل إيحاء نوم عميق لشخص ما في الماضي، قبل سنتين أو أكثر، وكان حسين وصديقه صامتين هامسين وكأنهما يخافان إزعاج هذا النائم، وبهذا الصوت الهامس سأله حسين:

- كيف كانت هذه الحياة التي عشتها؟

- مذهلة، لا أتذكر منها إلا شيئًا واحدًا، ليس مكانًا ولا طعامًا من الجنة ولا ولا، بل فعلًا واحدًا في الحقيقة، فعلًا واحدًا فقط

يـا حسـين، كلمـا فكـرت فيـه كلمـا شـعرت بـأن الراحـة القصـوى يمكـن الحصـول عليهـا في هــذا العالــم، الراحــة الــتي لــم يجلبهـا لي حمـام الطـين، ولا معـاشرة عـشرات الفتيـات ولا الحبـوب المخـدرة الـتي ثقبـت معــدتي مــن كثرتهـا، والمدهــش أن هــذا الفعــل لــم أخطــط لــه، لــم أفكـر في عواقبـه، ولـم أختـبئ بعـد ارتكابـه.

- وما هو هذا الفعل يا ترى؟

- قتلـت شـخصا كرهتـه جـدا في هـذه المرحلـة مـن حيـاتي، قتلتـه في وضـح النهـار وبطلقـة مسـدس مدويـة في رأسـه، دوي الرصاصـة كان مفزعـا لدرجـة أني فرفطـت نقطـة بـول في سروالي، رغـم ذلـك خرجـت أمـشي بـين النـاس دون أن يلومـني أحـد أو يفـزع مـني، وكانـوا يعلمـون أنـني قتلتـه، ولـم يعترضـني أحـد، وكأن مـا قمـت بـه أمـر اعتيـادي تمامـا، بـل أن بعضهـم رد تحيـتي الـتي ألقيتهـا عليـه، هـل يمكنـك تصـور هـذا، لا يلومـك أحـد ولا يهلـل لـك، وكأن مـا قمـت بـه فعـل عـادي تمامـا، وهـذا مـا جعـل الـرؤى مثاليـة.

شـعر حسـين برعـدة وانقبضـت أصابعـه وكأنـه عـلى وشـك توجيـه لكمـة إلى وجـه صديقـه، فأخفـى يـده وهـو يسـأله في هـدوء:

- ومن هو هذا الشخص الذي رأيت أنك تقتله؟

- رجـل شـهير يـا صديقـي، ربمـا لـم تسـمع عنـه مـن قبـل، قابلتـه مـرة واحـدة فقـط، ولكنهـا كافيـة لأكرهـه.

- ما اسمه؟

- سمعان الشنقيطي.

***

## الفصل الخامس

لا تحلم بجن الحكاية الذى سيأتي لها بخاتم الأمير البعيد النائم في غفلته، تمتلك للنسيان دأب امرأة عشرينية نزقة، تمتلك قلبًا ملغمًا بالذكريات التي تحترف القفز فوقها، في كل مساء ترتب كل استحالاتها المقبلة ترتيبا تصاعديا، ستنام رغم انعدام شهيتها للنوم. تبتلع نوما عطنا سيصيبها في الصباح بإسهال من يقظة صدئة، بعد ذلك ستجرب أن تحلم حلما مشبّعا، ورغم أن لا أحد يتثاءب في الحلم ستتثاءب حتى تدمع عيناها، في الحلم لن تبحث عن رؤيا، ستبحث عن مبنى عال تقفز من فوقه، وتجاهد أن لا تستيقظ فزعة مبتلة بالعرق فوق وسادتها قبل أن تصطدم بالأرض، سيفزع دوي سقطتها جن الحكاية القديمة وسيأتيها ولكنها لن تطلب منه الخاتم، ستغني له أغنية لينام، ثم ستقتله، وفي الحلم ستنام للمرة الأولى، دون أن تحلم بالخاتم المستحيل، وبأقدام كسيحة...

إسماعيل الكاتب

في وحدتي التي فرضها عليّ الأطباء أفكر كثيرا، لا أفكر إلا في إيلات، بعد أن انتهى كل شيء، أفكر أكثر مما يمكن لإنسان أن يفكر في إنسان آخر، متجاوزا حبي لها، متجاوزا اللحم والعصب، أفكر بطريقة يمكن أن تستدعي الأشباح والقتلة، وتنبت الزرع بدون ماء، وتضيف على السراب سرابا، يزورني عطرها، المرة الأخيرة ظل معي ساعتين كاملتين لا يفارقني، وكأنه عصفور نادر اختارني من بين آلاف البشر ليقف على كتفي، أطرقت برأسي وظللت ساكنا صامتا كأنني في صلاة، لا أريد أن أفزع الرائحة، ولم تُخبْ الرائحة ظني، ظلت ماثلة على كتفي حتى تضمخت بها، ونمت واستيقظت بالرائحة في ثمالة وعي، وكأنها صارت في تعرق يدي وشعر لحيتي إذا ما حركت وجهي يمينا ويسارا.

كلما فكرت فيها أكثر كلما وصلت إلى نتيجة واحدة، أن إيلات تشترك في صفة واحدة مع الكائنات الأسطورية الغامضة، والآلهة التي اخترعها البشر، والبراكين والصواعق، وهي أنه يجب عليك لتفهمها أن لا تحبها، فالحب محاولة للفهم على النحو الذي نريده.

يصعب تحديد اللحظة التي أحببت فيها إيلات، هل كانت في المقهى عندما حكى لي جبر حكايتها، أم في غرفة الضيافة بعد أن حكت لي عن شغفها بالمقاعد، أم عندما حدثتني عن أحلامها وطلبت مني نصا في الحب؟

وهل كتبت نصا في شئ غير الحب، منذ بدأت أدرك أنني أحبها، بشكل يومي كانت تطلب مني نصًا، فإذا أعجبها النص تعيده مصححا مشكلا لأعيد كتابته، وإذا لم يعجبها تعيده كما هو، أتعمد الخطأ في رسم الكلمات لأتأكد من قراءتها لنصوصي فأحظى بنفحة يدها ومباركتها فوق كلماتي.

ثم صرت أكتب نصوصا دون أن تطلب مني، صرت أقطف من قلبي

فاكهتـه أولا بـأول لـكي لا تثقـل فروعه فتتحطـم، ولكني لا أرسل النصوص القديمـة إليهـا إذا طلبـت نصوصـا، فعـلى الأقـرع دائمـا نـص طـازج، نص لا يشـكك في وجودهـا ولا يسـتفزها، نـص ملـك لهـا وحدهـا دون شريك. كنـت أفتـح عيـنيّ للضـوء كل يـوم في قصرهـا، أقـول كأنهـا تسـمعني: صبـاح الخير يـا إيلات، أعـد الأيـام حرفيـا، اليـوم هـو اليـوم (الثلاثون - السـتون - المائـة) لوجـودي في القـصر، أعـد النصـوص الـتي كتبتهـا: سـتة وثلاثـين نصًـا، ولكـني لا أسـتطيع أن أحـصي المـرات الـتي تحدثنـا فيهـا، فالكلمـات صـارت خرسـاء في وجودهـا ثرثـارة في غيابهـا، وكلمـا مـرت الأيـام تبينـت حجـم كارثـتي، كيـف وصلـت إلى مـا وصلـت إليـه؟، يعجـزني الـكلام بمجـرد أن أراهـا، يتفـكك الـكلام إلى حـروف، ثـم تصير الحـروف مراكـب تسـبح في الهالـة المحيطـة بهـا، تـتراص في الشـكل الـذي تريـده هـي، فأغرقهـا انتقامـا وأعـاود الكـرة، كانـت حيـاتي قبلهـا فارغـة مـن المعـنى، لـم أكـن أومـن بالمسـميات البسـيطة، والأفـراح الصغـيرة، والأحـزان الـتي تخـص أشـخاصًا دون أشـخاص حـتى عرفتهـا، ثـم أدركـت، كيـف تبهـج الضحكـة إنسـانا، كيـف يسـتيقظ كل صبـاح معتقـدًا أنـه صـار مهيئًـا لوجـود مـن يحبـه، ثـم يعـاوده اليـأس كل مسـاء بعـد أن يعلـم أنـه لا يسـتحق حـتى الأثـر المشـع لوجـود عنقـه أو ذراعيـه في هـذا العالـم، كانـت إيـلات أكـبر مـن قـدرتي عـلى الحـب، والشـوق اللائـق بهـا أكـبر مـن احتمـالي، ولا يصلـح لهـا إلا رجـل يسـتطيع أن يحتضـن قنبلـة تنفجـر، أو رجـل في لحظاتـه الأخـيرة لـم يمـت إلا مـن أجـل قضيـة تؤمـن بهـا امـرأة مثلهـا.

لـم يبـق لي مـن أسـلحة الرجـال إلا هـذا الخنـوع، التـودد بالنصـوص، الاقـتراب بالكلمـات، خلـق علاقـة مـا بالحـروف مـع امـرأة الطريـق إلى قلبهـا يشـبه مسـألة هندسـية معقـدة، الوصـول فيهـا ليـس بالـدأب ولا بالتراكـم، إنـه أمـر أشـبه بالعبـادة منـه إلى الحرفـة، فالنـص الـذي سيجعلها تسـتدعيني إلى حضرتهـا لـن يكـون النـص الأجمـل ولا الأصـدق، إنـه النـص الـذي سـيحتوي عـلى الكلمـات المواتيـة لقلبهـا إن كان مشرعـا.

كثيرا ما كانت تستدعيني وقليلا ما كانت تحادثني، ولا شيء يروي ظمأي إليها إلا الكلمات، وجودي بجوارها وهي صامتة يجفف ريقي، يجففني، يخبزني، وتفوح رائحتي الشهية، ولكنها لا تمد يدها لتتناولني، تخفض رأسها في كتاب، أو تشرد في نافذة، وتتركني أتأملها عضوا عضوا كأنني أتأمل سماء شاسعة باحثا عن نقطة مطر، وفي إناء قلبي ينضج حبا يكفي ألف امرأة ولكنه لا يعجبها. وكنت أسألها بابتسامة عندما أدخل:

- أي هذه الكراسي تريدينني أن أجلس عليه؟

فتبتسم، أو تضحك، أو تبتسم ثم تضحك فيتناثر الضوء فزعا من شدة ألق الضحكة بعد الابتسامة، ثم يعود إلى مخدعه يرفرف بود ويلجأ إلى ركبتيها وكأنه استمرأ الفزع، يريدها أن تفزعه مرة أخرى.

كنت سعيدا، كالضوء، سعيدا لدرجة لا توصف، خاصة عندما تتزين، بالذات عندما تفعل، أحيانا كانت تتزين كأنها ذاهبة إلى التقاط صورة فوتوغرافية، زينة مؤطرة، مثل حدود جغرافية لبلد هادئ ولكنه يملك جيرانًا مشاكسين، وأحيانا تسمح للزينة أن تتداخل معها وتختلط بملامحها، مثل عاصفة من الألوان والبهارات والأنفاس الحارة يحبكه نسيج ذكي يعرف كيف يقيم المعاهدات مع جسد لا يستطيع احتواءه.

هذه السعادة لم يكن مقدرا لها أن تستمر، كنت أعرف ذلك.

***

ذات يوم سلكت بي الخادمة طريقا آخر غير الطريق المعتاد إلى غرفة استقبال الضيوف الواسعة، باب الغرفة الجديدة كان صغيرًا بالمقارنة إلى الغرفة الأولى، درفة واحدة بيضاء شاهقة البياض ومكسوة في منتصفه بتشكيلات من القطيفة الحمراء، فتحت لي الخادمة الباب وتراجعت لأدخل.

لا أرفف رغم الكتب الكثيرة المتناثرة في أرجاء الغرفة، غرفة نوم

نسائية من الدرجة الأولى، سرير وتسريحة بمرآة ضخمة عليها عدد لا بأس به من علب الماكياج ذات الخشب الفاخر مرصوصة بأناقة هندسية على لوح من الرخام الأسود، أدراج عديدة مفتوحة جزئيا في فوضى جميلة، وكانت هي في الشرفة تتأمل شيئا ما في الحديقة عندما دخلت.

أغمضت عيني، رغم أن الشرفة قبلية إلا أن عطرها وجد طريقه إلى وجهي متجاوزا الغرفة الواسعة، سمعتها تقول:

- هل تحلم وأنت واقف؟

فتحت عيني متفاجئا مرتبكا، كانت واقفة قريبا مني تتأملني، دون دهشة، ثوبها الواسع الذي يشبه جلد نمر مرقط ينجمع مع حركتها وينفرد، لم أتألم من نبرة السخرية المفترضة، بل ابتسمت، فالنص الأخير الذي كتبته نال رضاها، وكان هذا كافيا لأقف بثقة، لا أعرف كيف فسرت ابتسامتي ولكنها قالت كأنها قرأت أفكاري:

- النصوص مغوية يا إسماعيل، تقوي القلب، تماما مثل الحشيش، أليس كذلك؟

أومأت برأسي موافقا.

- لا أفهم السر في النصوص، ولكنها ليست مجرد كلمات.

قادتني إلى الشرفة وجلسنا، بيننا نضد صغير صُنع من جريد، قالت:

- وصف النصوص بأنها كلمات تماما كوصف الجسد بأنه حفنة من الشعر والجلد والعظام والأظافر، إنه حتى ليس إعادة الشيء إلى عناصره الأولى، ولكن النص كينونة مبهمة، خاصة عندما يتعلق بي أنا، شخص قبيح كريه مثلي.

- لستِ قبيحة يا إيلات.

- أعرف أنك تراني جميلة، هذه المرآة أيضا تراني جميلة، كتمثال

جميل من الشمع في متحف للحسناوات، ولكن صدقني، الجمال شيء مبهم، أكثر إبهاما من النصوص حتى، بالنسبة لي على الأقل، أنا المرأة التي لا زالت تحمل قناعة طفولية أن النفوس القبيحة التقطت الوجوه الجميلة عندما كنا نسبح في العدم، بينما يتمتع جميع القبيحين في الجغرافيا والتاريخ بالنفوس الرائعة، لذا على المرأة الحسناء اكتساب الحسن في أخلاقها بالتصنع حتى تصير طبعاً، وهذا ما كانوا يلقنونه لي في صغري، ولكن عندما كبرت كنت أتعمد أن أكون خرقاء، لا تعلم قدر الشقاء الذي تعيشه امرأة جميلة وذكية يا إسماعيل، إنها معادلة كلاسيكية للغاية يجب أن تنتهي بالسعادة ولكن الحقيقة غير ذلك تماما، هل تعرف فيما أفكر: كان يجب أن أكون قبيحة جدا لأكون بهذا الذكاء.

- السعادة أيضا مفهوم كلاسيكي، لا يقل حماقة عن حفل توزيع الأرواح الذي ذكرتيه.

- نعم نعم، هذا أفضل مما تمنيت أن ترد به علي، أنت رفيق جيد يا إسماعيل، حوارك جيد ليس مثل كثير من نصوصك، أتمنى أن يدوم الحال طويلا بيننا على هذه الطريقة.

ثم تنهدت وكأنها تتهيأ لقفزة في حديثها، ولكنها لم تقل شيئًا، فقد أتت الخادمة بالشاي ثم قامت بصبه، وضعت السكر في فنجاني، وتركت فنجان إيلات بدون سكر، لم تكن إيلات تحب الشاي المُحلى بالسكر الأبيض، تضع مكعبًا من السكر البني في فمها وتحتسي عليه الشاي المر، تمصه.

- كُل يا إسماعيل من هذه المخبوزات، مُد يدك، إنها أشياء لا نصنعها في مطبخنا، ولا يمكننا صنعها، أعلم أن طعام المطبخ لا يكفيك، فالخدم هناك مصاصو دماء بلا أنياب، ولكنهم ضرورة لابد منها، لا يمكنني تصور كيف يقومون بعملهم، الطبخ عمل شاق.

- جدي كان يفضل قطع يده على أن يطبخ بها، ورثت هذه القناعة

عنـه، ولكـن في مدينــة الطــلاب تعلمــت كيــف أعــد بعــض الوجبـات الخفيفـة، ضرورة كمـا قلـتِ.

قالت بابتسامة عابثة:

- هل تستطيع أن تقلي بيضة؟

- طبعا، هذا من أسهل أمور الطهي.

أخذت إيلات شهيقا عميقا ثم زفرته فانتشر الشذى حولنا.

- أنـا أحـب البيـض بجميـع الطـرق الـتي يُطهـى بهـا، ولكـني لا أعـرف كيـف يكـسره النـاس، لا أحسـن كـسر كلـس البيضـة حـتى مـع اسـتعمال مطرقـة اللحـم، أصابعـي لا تمتلـك تلـك الرهافـة الـتي تجعـل تفريـغ بيضـة مـن محتوياتهـا ممكنـا دون أن تؤذيـني أو تخلـط محتوياتهـا بالكلـس المفتـت، أراك تبتسـم الآن.

- نعـم، أحـاول أن أتصـور كيـف يمكـن أن يؤذيـك كلـس بيضـة، هـل يجـرح أصابعـك؟

- لا أيهـا السـاخر، وإن كانـت الفكـرة رومانتيكيـة للغايـة، امرأة تبلـغ مـن الرقـة حـد أن يجـرح أصابعهـا كلـس بيضـة، أنـا قويـة يـا صديقـي، ليـس عنـدي عضـلات ولسـت ضخمـة مثلـك، ولكـن غـلافي قـوي، ولـن أسرد عليـك ترهـات الـولادة الـتي تسردهـا النسـاء لأقنعـك، كل مـا سـأخبرك بـه أن حـد مـوس جديـد احتـاج وقتـا ليجـرح معصمـي ويقطـع الشريـان، ولـو كانـت يـد رجـل لمـا اسـتغرقت هـذا الوقـت بنفـس القـوة والـدأب وانفصلـت تمامـا مـن معصمهـا.

- كانـت لديـك الشـجاعة لتقطيـع شرايينـك بالمـوس ولكنـك لا تملكينهـا لكسر بيضـة!

- نعم، أتقزز من أن يلمس مُح البيض النيء أصابعي.

طعـم المقرمشـات كان خرافيـا، يـذوب مـع اللعـاب، ويتحـد طعمـه مـع طعـم الشـاي مخلفـا مزيجـا بريـا كطعـم التـوت، وبخـلاف الطريقـة

التي تُتبل بها إيلات حوارنا بالأسى كان كل شيء مثاليا، النهار كان صيفيا وظل الشمس من النافذة يدور في المكان كحلزون عملاق يلتمس الدفء عند قدميها، ورغم أن البستاني كان يُتحفني يوميا بزهرة مختلفة في كوب ماء على منضدتي إلا أن عطرها مختلط بأنفاسها وأريج جسدها الخاص كان أروع من رائحة أجمل زهرة شممتها في هذا الصيف، وكنت أود أن أخبرها بذلك، كم مرة يمكن أن يؤدي جمال امرأة إلى أن يثير في رجل كتوم رغبة طاغية في أن يخبرها بجمالها ولو أدي ذلك إلى كارثة، زفرة أخرى أو تنهدة أو كلمة خاصة مثل (مُح أو كلس أو أصابعي أو عضلات) بالطريقة التي تنطقها بها سيصل بمقاومتي إلى الانهيار، إلى الركوع على ركبتي وعيناي تغرغران بالدموع اليائسة وأنا أخبرها:

- أنتِ فاتنة، لا بل ساحقة الفتنة، وحتى لو لم تكوني قادرة على فعل أشياء كثيرة تحسنها السيدات ولكنك قادرة على فعل أمور لا يصلح لها سواك، لأنك لست اسما ولا رسما بل حدث.

إيلات حدث، نعم، أنت لا تلتقي بها ولا تراها ولكنها تحدث لك.

كل هذه الخواطر الجريئة كفكفت من فوران مشاعري، وأعطتني ثقة إلى أن أتصفح ملامحها الفاتنة بهدوء وتأنٍ، باحثا عن النجاة في علامة واحدة خافتة الجمال، دون جدوى، لا ملمحًا واحدًا من ملامحها ألقى بي إلى شواطئه المهلكة، بل عاد بي مرارا وتكرارا إلى الموج والغرق، وكما جددت النظر فقدت عالمي، حتى أفكاري عن نهاية العالم ورفع القرآن انقلبت إلى فكرة مقبولة شكلا وموضوعا، الجلسة كلها تعطي إحساسا أقرب إلى ما وراء كل شيء، نهاية العالم والدخول للجنة أو التلظي في النار مع الشياطين، ولكني لا يمكن أن أخطئ الرؤية مع كل تلك الشواهد، هذا مخلوق علوي الذي أجلس معه، لم تكن هناك أصوات للبلع ولا للمضغ صادرة منها، وربما لا يوجد فضلات أيضا، طعام كهذا قد يكون مجرد طعام

خفيف لي ولكنه بالنسبة إلى إيلات غذاء مكتمل، يحدث له وميض عند بداية الأمعاء وينشع إلى الدماء مباشرة، ولا يترك فضلات، بل سيفوح مع العرق والبول وبنكه الأطعمة الأخرى الدنيوية التي تسيء الأدب مع أمعائها باضطرارها إلى الهضم، نعم كان يمكنني أن أفكر في أمعائها وفضلاتها بنفس الوله الذي أفكر به في منحنيات جسدها وعطورها، لا شيء مظلم بهذه المرأة، كلها مضيئة. قالت:

- قل لي يا إسماعيل، كيف تتصور إيلات وقد وقعت في حب رجل لدرجة أن تُعد له طعامه؟

- هذا أمر بديهي، حتى بدون حب، قد تضطرين إلى فعل ذلك من أجل نفسك، وفي أحوال معقدة كالفقر والحرب، كلاهما يعطيانك اضطرارا يشبه اضطرار الحب وربما أقوى.

- كيف سأفقر؟، لدي مال أكثر من أن أعلم عنه شيئا، ولماذا سأتزوج من رجل فقير يجعلني أقلي البيض، أما الحرب فلا أحد لديه الوقت حينها ليتفرغ لقلي البيض، هل حكيت لك عن جد جد جد أمي، كان يحرس متراسا على قرية فلسطينية هو ورفاقه، نفذ منهم الطعام وظلوا اثني عشر يوما لا طعام لهم إلا الماء والبيض النيء خوفا من إشعال نار تدل على مكانهم، يثقبون البيضة ويمصونها كالثعابين، ربما أكون قد ورثت حبي للبيض من هذا الجد البعيد

ثم فرقعت بأصابعها أمام وجهي وكأنها توقظني : أين رحت مني يا إسماعيل؟

- في الواقع رحت عند البيارات، حياة كاملة عشتها مع جدي هناك لم يشعل فيها نار المطبخ بنفسه إلا مرة أو مرتين، ومع ذلك لم نأكل قط طعاما نيئا أو باردا، أعتقد أن جدي لو كان مع جد جد جد أمك في هذه الحراسة لاستطاع تدبر الأمر ولعاشوا حياة الملوك،

ابتسمت دون أن تعترض ثم قالت:

- على ذكر الحرب والقتل والمستحيلات الشخصية، أرى أن الطبخ بالنسبة لي كالقتل بالنسبة إلى كاتب مرهف مثلك، يعني مثلا، لديك كل إمكانيات القتل، قوة وأعصاب، حتى نظرات عينك، نظرات قاتل، بالضبط كما أتمتع أنا بإمكانيات الطبخ، الرهافة والرقة وذراعين بضين بيضاوين كالحليب، فهل إذا قامت الحرب ستقتل أنت وسأطبخ أنا؟

- تتحدثين وكأن الكتابة لا تُعد جريمة مضمرة في هذا الزمن، وأن باب قصرك هو الذي يمنع عني غضب الحكومة المترصد بي، الكتابة بكل ما وضعوه حولها من محاذير جريمة يعاقب عليها القانون، وهذا أمر خطير يشبه القتل.

- أنا أيضا أكتب، ولا أستطيع أن أنظر للأمور بهذه الطريقة الدرامية.

- وأنا أيضا لا أستطيع أن أفعل، أعتقد أني مسالم.

- لا تقرر ذلك حتى تجرب نفسك في موقف حقيقي، نحن نمارس الجريمة بداية من أبسط الأمور كالطبخ وحتى أشدها تعقيدًا كالكتابة، ولكن القتل يحتاج إلى دافع، الجميع يستطيعون القتل إذا توفر لديهم دافع.

عندئذ حاولت أن أعطي الحديث دفعة في اتجاه آخر، بعيدا عن القتل والانتحار، فقلت ممتنا لها:

- يمكنني أن أقتل لأحصل على صندوق من هذه المقرمشات.

لدقائق نظرت إليّ وكأنها تلومني على تحويل الحوار بهذا الشكل، ثم تقمصت شخصية المضيفة التي تلقت مديحا من ضيفها، رسمت ابتسامة باردة على فم ساخن وتزحزحت عدة مليمترات على مقعدها بعيدا عن النضد، وكأنها على وشك مغادرة الحديث إلى عالم آخر،

وقالت:

- هل أعجبتك؟، إذن لقد أحسنت صنعا بإحضارها لك.

نجحت خطتي، رغم أنها تسببت في غضبها والتفاتها إلى طبقها وفنجانها، أنهيت طبقي سريعا إلا قطعة واحدة وأبقيت ثمالة الشاي، أخفيتها مبقيا كفي اليمنى محيطة بالفنجان، وكأنني أعطي قبلة حياة لجلستنا التي أوشكت على الغرق، من وقت لآخر وبسحر ما تختفي قطعة من طبقها، وكأن ملتهمًا خفيًا قرر التعامل مع طبقها، ولكن الملتهم الخفي لم يكن جائعا، وكنت أشعر بالامتنان له.

- أعتقد أن علاقتنا تمر بمنحنى لين يا إسماعيل، هل تعرف لماذا؟، لأن تجربتي التعيسة لوثتني، جعلتني لا أفرح بالتسبب في سعادة الآخرين، ولكني سعيدة الآن، تصور.

- تستحقين السعادة يا إيلات.

- ربما، أتفق معك في السعادة العابرة التي يوزعها الملائكة الطيبون على جميع الناس بحكم تواجدهم في الأماكن الصحيحة أو امتلاكهم للأسباب كالمال أو البلاهة.

- وهل توجد سعادة أخرى؟

- بالطبع، السعادة التي تستحي الملائكة منها، السعادة الاستثنائية، أن يغامر شخص ما أن يأتي لك بسعادة ما عصية من قرنيها، هذا مستحيل معي.

- لماذا مستحيل؟، جربي ذلك، اطلبي من أي رجل أن يفعل وسيفعل.

- لقد طلبت سلفا يا إسماعيل، طلبت سلفا ولم أحصل إلا على ندبة في معصمي ولترين من دمي امتصتها الطحالب في المجارير العمومية، والشيء الوحيد الذي يمكن أن يسعدني الآن أن يقتل أحد زوجي السابق، يقتله من أجلي أو بعيدا عني.

هـذه الخيبـة، التبـدد، الندبـة الـتي اسـتيقظت ذكراهـا الوقحـة في المسافة الفاصلـة بيننـا، فـوق النضـد والأكـواب وطبقـي المقرمشـات، تـنزف ثـم تلتئـم وتضمحـل كقطـرة مـاء كبـيرة وقعـت عـلى صفيـح سـاخن، لا تختفـي ذكراهـا مـع الاضمحـلال، بـل تخطـف عيـني إلى معصمهـا باحثـا عنهـا، فأراهـا، كأنـني رأيـت أحـد أجـزاء جسـدها عاريـا، نسيجًا أكـثر بضاضـة مـن جلدهـا، نسـيجًا تحـول مـن طـور المراهقـة والـدم إلى طـور الرغبـة والإغـراء، مثـل عضـة صغـيرة شرسـة في قلـبي، هـذه الندبـة جعلتـني أدمـع يومهـا، جعلـت كل شيء في جسـدي بإمكانـه أن ينقبـض، ينقبـض ويكـز ويصـدر منـه صريـر، حـتى قلـبي، جعلتـني الندبـة - مجـرد ندبـة - أكـره رجـلًا كامـلا لا أعـرف اسـمه ولـم أرَ ملامحـه.

وكنـت مسـتعدا أن آتي لهـا بهـذه السـعادة الـتي تريدهـا ككبـش عـصي، مؤهـلا لذلـك حـتى لـو طعنـني بقرنيـه في صـدري وأمعـائي، بـلا مقابـل وبـدون أن ترجـوني فتبـدد الضـوء وأكسـجين التنفـس مـن عيـني وأنفـاسي بصوتهـا المبحـوح وهـي تقـول في ضراعـة أذهلتـني وسـحقت صـوابي:

- هـل يمكنـك أن تقتـل مـن أجـلي يـا إسـماعيل، هـل تحبـني للدرجـة الـتي تجعلـك مسـتعدا لقتـل رجـل مـن أجـلي؟

***

لدقائق شعر حسين بثقل في معدته، ولم يكن هذا واردا في الأثر الجاني للمخدر الذي تناوله ولا حتى مع التهام كميات كبيرة من اللوز والكستناء والفول السوداني التي فرغت أطباقها تقريبا أمامهما.

ومثل سعلة يحاول أن يطرد بها شيئا طرأ في حلقه سأل حسين صديقه:

- كيف يفترض بك أن تعرف سمعان الشنقيطي؟

ولم يكن حسين يقصد ديانة صديقه، فهما منذ ثلاث سنوات يتعاطيان سويا تلك الحبوب المخدرة ولم يخطر بباله قط أن يسأله عن ديانته، بل افترضها بالشبه، فإسحاق بحروف اسمه الخمسة - التي يشترك معه في حرفين منها - لا يمكن إلا أن يكون يهوديا أو مسيحيا على الأقل، أما حسين فلا يمكن إلا أن يكون مسلما، علاوة على ذلك أنه - ذات مرة، بل مرات عديدة - رأى ذكر صديقه، مرة بال فيها في الحمام المفتوح واقفا واستدار دون أن يغلق سحاب سرواله ليستنجي، ومرة كان يرتدي فيها شورتًا من ألياف صناعية يخترقه الضوء ويشف الماء القليل عما تحته، وبالإضافة إلى دغل الشعيرات الكثيف كان إسحاق مختونا، وهذا دليل قاطع على يهوديته.

كل هذا لم يأت لتفكير حسين إلا عندما ذُكر سمعان الشنقيطي، كل هذه الرؤى والذكريات كانت مثل مواد أولية متجاورة جنبا إلى جنب في مختبر هادئ، ثم جاءت جملة صديقه وخلطتها بعنف فسببت فرقعة ودخانًا ورائحة كرائحة البيض الفاسد، لا، ليس صديقه هو الذي خلطها، بل اسم سمعان الذي صار يتردد كثيرا، أولا(د)، ثم إسماعيل هذا المتخرج من مدرسة سمعان، والآن إسحاق، صديقه باعتبار المسرة، صديقه اليهودي.

ولكن حتى هذا الافتراض - افتراض يهودية إسحاق - لا يجعل معرفته بسمعان مستحيلة، لأن مدرسة سمعان تستقبل الطلبة من جميع الديانات بعدد محدد سلفا، كنوع من الدعوة، وبشرط عدم الإفصاح عن أنفسهم بشكل أو لباس معين، ولكن ما قصده حسين من استنكاره هو كيف، كيف بنمط معيشة إسحاق، وأفكاره، أن تتقاطع حياته يوما ما مع سمعان الشنقيطي حتى لو كان يهوديا.

قال إسحاق:

- منذ عدة سنوات وفي مدرسة سمعان قام طالب في الصف الأول اسمه أبان بضرب فتى يهودي ضربا كاد يفضي به إلى الموت، حولوه إلى المستشفى، أما الطالب نفسه فقامت المخابرات باستجوابه وتعذيبه، حتى أيقنوا أن الأمر ليس إلا فورة حماس أحمق، واستطاع أبوه بعلاقاته أن يُخرجه بعد أن أخذوا عليه تعهدا بأن لا يقترب من المدرسة ولا أي مكان يمكن أن يتواجد به يهودي في هذه البلاد.

قال حسين ساخرا:

- هذا يعني نصف الأماكن المحترمة تقريبا.

- بالضبط كما قلت، ولكن القبض على أبان بهذه التهمة وتعذيبه لم يمر ببساطة على الجماعات الطلابية الناشطة، خلال أسابيع تحول أبان إلى أيقونة طلابية، ورُفعت صورته في المسيرات الإسلامية والمظاهرات المناهضة لليهود، أصبح بطلا بلا بطولة، وملهما لكثير ممن يستطيعون التسبب في أرق للحكومة، وبلعبة بسيطة استطاعت المخابرات أن تسرب معلومة كاذبة لوالد أبان جعلته يرتعد، أن الشاب اليهودي الذي ضربه أبان شُفي ولم يغادر القاهرة وأنه التحق بمهمة أخرى في مكان آخر، وأن معظم تحركاته خارج مهمته تشي ببحثه عن أبان لينتقم منه، وبعد أن تركوا الخبر يطبخه قليلا حتى نضج استدعوه مرة أخرى وجعلوه يستمع إلى مكالمة لليهودي الشاب وهو يهاتف شخصا من المدرسة ويتوعد بقتل أبان، عندئذ أسقط في

يد الرجل، ولم يعد لديه إلا أن ينفذ نصيحة رجال المخابرات حرفيا، خلال أسبوع واحد حصل أبان على تأشيرة سفر إلى أمريكا، وأقام هناك عامًا كاملًا تساعده أموال أبيه واستعداده الفطري في الحياة بشكل بوهيمي، ولم تفعل المخابرات إلا أنها التقطت عدة صور لأبان في عدة أماكن لتضعها تحت عين القيادات الطلابية لإسكاتهم بها، النهاية السعيدة كانت من نصيب الجميع في النهاية، المخابرات والطلبة الذين ذهبوا يبحثون عن أيقونة أخرى، وأبان الذي مكث في أمريكا حتى عاد من هناك بهوية مختلفة.

- هوية مختلفة؟

- نعم، قام بتغيير اسمه.

- هل تقصد أن أبان ظل خائفا منك لدرجة أنه قام بتغيير اسمه حتى بعد عام كامل من اختباء كان كافيا لانقطاع أثره؟

- ليست مسألة خوف يا صديقي، كل ما في الأمر أن تغيير اسم أبان ...

وكان إسحاق راقدا على ظهره حتى الآن، أما حسين فكان جالسا نصف جلسة يفكر في رؤياه التي مرت عليها أشهر، عندما قال لإسحاق سأقتلك يوما ما، الآن فقط عنده سبب ليقتله، ولكنه لن يقتله، ليس هكذا ولا بتلك الطريقة، صحيح أنه بدأ في كراهيته منذ قليل، كراهية فطرية ليس إلا، ولكن الكراهية الفطرية يجب أن يؤخذ على يدها حتى تستقيم، صحيح أن إسحاق ظهر له الآن يهوديا بشكل جلي، وبطريقة تسمح لحسين بإسقاط كل المُسلمات التي تصفهم وتذمهم، فهو من يشاركه في التعاطي، وهو من حكى له عن المشنقة، وحمام الطين، كل هذا لا يمكن أن يقوم به مصري فضلا عن مسلم، ولكن القتل، القتل على طريقة حسين يستدعي أكثر من هذا، هل يمكنك يا حسين أن تقتله، تقتل مواطنًا إسرائيليًا أو أمريكيًا، بالرخصة التي أعطتها إياك الحكومة بشكل سري؟، لا

طبعـا، لقـد أفسـد إسـحاق رؤيتـه، أفسـد صفاءهـا، وبشـكل مؤسـف.

ولكـن إسـحاق اعتـدل وقـد امتقـع وجهـه، ظـن حسـين أن حبـة فـول سـوداني علقـت في حلقـه، لـولا نظراتـه الغاضبـة الغليظـة وهـو يقـول بصـوت مختنـق:

- مـا الـذي قصدتـه، مـاذا حسـبتني؟، ألا تفهـم، كل هـذا لـم تفهـم، كيـف لـك أن ..

وكان صوته قد بدأ يعلو، والدموع تتكون غشاءً رقيقًا على عينه:

- أنـا لسـت إسـحاق الـذي تظنـه، لسـت يهوديـا، أنـا لسـت يهوديـا يـا حسـين، أنـا مسـلم، كل هـذا الوقـت ولا تعـرف ديانـتي، مـا الـذي حـدث لـك؟

فوجئ حسين، وشعر بخفة وطيش، بينما استدرك صديقه قائلا:

- أنا أبان يا حسين، أبان.

***

قال أبان أو إسحاق:

- لقـد ولـدت بهـذا الاسـم، أبـان، ولكـني اضطـررت لتغييره إلى إسـحاق، ليـس خوفـا مـن اليهـودي، الحكايـة أن أبي اسـتطاع الحصـول على اسـتثناء لإدخـالي مدرسـة سـمعان الشـنقيطي، تفوقـت في الأيـام الأولى ووجـدت لـذة في الدراسـة وصحبـة الطلبـة هنـاك، بـل وفـزت بريـادة الصـف الأول عـلى مسـتوى الفصـول، كانـت أيامـا جميلـة لـولا مـا حـدث، ضربـت هـذا الشـاب اليهـودي ووضعـوني رهـن الاعتقـال، الـذل الـذي عانـاه أبي كرجـل أصـولي في محاولاتـه لإخراجـي صبـه عـلى رأسي أضعافـا مضاعفـة بعـد ذلـك، قـام بحبسي في هـذه الشـقة وألـزم بمراقبـتي الخـادم الـذي يخدمـني، عشـت أيامـا سـوداء لـم يخفـف منهـا أن اسـتطعت تسـوية أمـوري مـع الخـادم الصـارم والإنفـاق مـن المـال الـذي ترسـله لي أمي سرا عـلى متعنـا المشـتركة، وعندمـا سـافرت إلى أمريـكا لـم أعـد مـن هنـاك

إلا بعد أن تلقي أبي عدة تأكيدات أن الفتى اليهودي عاد لبلاده.

- ولماذا قمت بتغيير اسمك إذن طالما أنه عاد لبلاده؟

- أثناء وجودي في أمريكا ذهب أبي إلى الأستاذ سمعان وحاول إعادتي إلى المدرسة، ولكن سمعان أشهر له ورقة المخابرات التي تحذره من إعادتي وإلا أغلقوا المدرسة.

- إذن اتفق أبوك مع سمعان أن يقوم بتغيير اسمك لمغافلة المخابرات وإعادتك للمدرسة؟

قهقه أبان عندئذ:

- لا، ولا هذا، الحكاية غريبة، يلزمك أن تقرأ قليلا في علم الحديث لتفهمها، علم الجرح والتعديل خصوصا.

- أفهمني أنت.

- أبان ابن أبي عياش الذي سماني أبي على اسمه كان راوي حديث من الطبقة الخامسة، وهذه الطبقة تضم صغار التابعين، يقال أنه كان رجلا صالحا وكان يرى هلال شهر رمضان قبل الناس بليلتين، ولكنه كان متروك الحديث، بمعنى آخر، سيء الحفظ أو يتعمد الكذب ليزرع في الناس ما يراه أخلاقيا، لا قيمة له في ميزان الرجال المحدثين.

- ما علاقة هذا بتغيير اسمك؟

- سمعان الشنقيطي يا صديقي، عفريت المرحلة السيئة من حياتي، قبل أن يُنهي لقائه بأبي أخبره أن السبب الأساسي في فشلي هو تسميتي بهذا الاسم، صُدم أبي، قال له سمعان أن المرء يحمل نصيبا من اسمه، وأن اسم أبان كان فألا سيئا على حياتي.

ثم سكت إسحاق قليلا وقال كأنه يعالج ذكرى سيئة:

- أما إسحاق بن راهويه، رجل أشهر من الشمس، زهد وورع، أثنى عليه جميع العلماء، وروى عنه أقرانه أحمد بن حنبل، ومن تلاميذه محمد بن إسماعيل البخاري، والنسائي، اسم له سيرة تجر جبلًا

من الخيبة إلى النجاح، وكان الذي اختار لي هذا الاسم هو سمعان الشنقيطي.

- حكاية شيقة يا إسحاق، ولكني أراك متصالحا مع اسمك.

- فعلا، لا فارق بين اسم واسم عندي، كنت أحب أبان، ولكن إسحاق اسم مميز أيضا.

- لابد أن أباك له علاقات ثقيلة فعلا، تغيير اسمك بالكامل ومع كل الشبهات التي تدور حولك يعد معجزة في هذا الزمن الالكتروني، اسألني أنا، حاولت كثيرا تغيير حرف واحد من اسمي ولم أستطع.

- ليست مسألة علاقات ثقيلة فقط، كانت رغبة من الحكومة أيضا.

عاد أبان لوضع الرقود على ظهره وساد سكون مريح، ثم قال حسين فجأة وكأنه اكتشف أمرا غريبا:

- ورغم ذلك يبدو لي حلمك بقتل سمعان الشنقيطي غير مفهوم ومبالغًا فيه، ربما سيكون مفهوما إن كنت قد قتلت هذا اليهودي، أو الخادم الذي استغلك، أو حتى أباك الذي قسا عليك من شدة خوفه.

- ومن أدراك أنني لم أقتل كل هؤلاء في أحلامي؟

ضحك حسين وتنهد أبان وقال:

- في الواقع أنني لم أكره سمعان بسبب تسميته لي، بل بسبب المرة الوحيدة التي تحادثنا معا، قبل أن أضرب هذا اليهودي ويتم تحويلي للتحقيق، في مكتبته وقبل أن يبدأ كل شيء، لا أنسى أبدا هذا الحوار، ولا كلمة واحدة سقطت من ذاكرتي المسكينة، كنت أريد مغادرة المدرسة، استدعاني وسألني لماذا تريد مغادرة المدرسة يا أبان، أعترف أنني لم أكن في أفضل أحوالي، قلت كلاما كبيرا، قلت كلاما لألفت انتباهه ولكنه حاصرني، استطاع أن يدفعني إلى الحائط، أن يضعني في سياق وأسلوب واحد للكلام يدينني ويجعلني أعترف

تمشي في الاستمرار، كنت أعرف أنه كاذب وأنه مليء بالخراء الذي يملؤني ولكنه يجيد تلوين نفسه وتجميلها، ليس هناك حديث في هذا العالم أسوأ من حديث بين اثنين يدعيان المثالية، أحدهما فوق الآخر،

ويبتلع أيان ريقه بصوت مسموع.

- ووقفت أنظر هناك، لا أستطيع أن أهمس حتى بما أريد أن أقوله بصيغة مهذبة فضلا عن أن أقوله بشكل قبيح، وأن أخرج به لساني، كان ماهرا، الحوار الذي دار بيننا يجب أن يُدرس وتكتب عليه الشروح، تسبب في فزعي بطريقة لم تحدث لي من قبل ولا من بعد، حتى لو قيل لك أن قاتلًا يسير خلفك بمسدس مذخر، هل تعرف لماذا فزعت؟، وشيت بزميل لي، إسماعيل، كان يمكن أن تتسبب في طرده من المدرسة، بل وتعمدت أن أشي به، لأصير جميلا في عين سمعان، قلت له أنه يكتب الحكايات، ففاجأني بأنه يعرف، وقبل أن يشرح لي الأمر فوجئت بنفسي تثور، قلت لسمعان أن أبي أخبرني أن العلم الشرعي شرف، وأنه ليس من الشرف أن أدرس الدين مع كاتب حكايات وطالب يهودي، لا أنكر أنني وأنا أقول ذلك كنت أظهر امتعاضًا لا رصيد له، وأن إسماعيل أفضل مني على مستوى الاعتراف بالنفس، ولكن سمعان أظهر لي معدني الحقيقي، أنني أنتمي إليه، أشبهه هو، وكنت مستعدا أن أخسر مستقبلي وعطف أبي لكي لا أصبح مثل رجل كهذا، ثم انحرفت بي الأمور، وها أنا ذا، شخص آخر تماما غير سمعان وإسماعيل.

- إسماعيل؟

- نعم، إسماعيل عارف، لا أنسى هذا الاسم أبدا.

لو كان هو هو إسماعيل الذي قام بتوصيله إلى القصر من مدرسة سمعان، كل الشواهد تشير إلى ذلك، مع أن بحث حسين عن طريق علاقاته في أرشيف المدرسة لم يعثر له على متخرج اسمه إسماعيل،

ولكن ها هو إسحاق يؤكد وجوده.

- وأين هو الآن؟

- من؟

- إسماعيل.

- لا أعرف، لم أهتم، ما مر بي بعدها كان أكبر من أن أسأل عنه.

نظر حسين إلى عيني إسحاق، إنه يكذب، وحسين يميز نبرة صوته عندما يكذب، ولكن لا بأس، ليعود الحديث إلى سمعان كما يجب أن يكون الأمر.

قال حسين:

- كل ما قلته ليس ملهما كفاية لتحلم بقتل سمعان يا صديقي.

- رغبة القتل لم أكتشفها على الفور، استغرقت وقتا لأعترف بها، ثم تجلت لي تجليا لا لبس فيه عندما كنت أختنق وأنا معلق في حبل المشنقة، تعرف يا حسين، من السهل أن تعالج فكرة القتل إن كان لها أسباب معقولة، بل وتجد الراحة والنشوة في ذلك، لكن قتل شخص ما بلا سبب واضح لا تستطيع أن تعالجها، القتل بلا سبب معقول أقوى من قدرة قلبي على مغالبته، ربما تكون نزوة عابرة، وفي تاريخ النزوات العابرة رأيت أعاجيب لا تستطيع أن تصدقها، رأيت رجالًا يدفعون المال الكثير للزنا مع نساء متزوجات حتى لو دعوته إلى الزنا مع فتاة بكر بنصف أو ربع هذا المال، مع ذلك أكاد أقسم ألف مرة أن رغبة القتل بلا سبب موجودة كرغبة طبيعية تماما داخل قلوب كل الرجال مثلي ومثلك، ولكن مردوم عليها بكل السخافات العصرية التي تعلمناها.

وكان إسحاق وهو يصف مشاعره، ببطء شديد، قد استطاع إخراج حسين من حالة النشوة بسبب المخدر إلى حالة من نشوة أخرى، دون المرور بحالة وسطية، وكانت النشوة الأخرى أشد، مليئة

ومذخرة برغبة لا تفسير لها، وقد حاول تفسير رغبته أو مقاومتها، ولكنها تشبه رغبة طفولية كثيرا ما رآها بعينه في الصعيد واحتقرها بل وتقزز منها، رغبة الأولاد في تبادل كشف أعضائهم لرفاقهم داخل الشوارع الضيقة التي لا يستطيع الكبار المرور منها، وليغالب هذه الرغبة التي تكاد تجرف الدعامات القوية لقلبه العالي وتلقي به إلى التهلكة سأل أبان مُصرا:

- ولكن لماذا فكرت في قتل سمعان دون الآخرين، ألم يكن من الأفضل أن تقتل هذا الشاب .

- إسماعيل؟!

- نعم، إسماعيل، أقصد أن سمعان رجل من الصعب أن تقضي على وجوده بطلقة رصاص، وأن أشباهه متواجدون، أنت اعترفت أنك كنت في فترة من حياتك تشعر بالانتماء إليه، فلماذا لا تخرج من كل هذا التشتت بقتل إسماعيل؟

فكر إسحاق قليلا، كان الاقتراح بعيدا ويشي بأثر المخدر على أعصاب حسين، ولكنه قال في النهاية:

- ربما يكون ما تقوله وجيها، المهم هو الرغبة، الشيء النادر الذي لا يتكرر هو الرغبة، وقد وجدت رغبتي مع سمعان، تماما كالحب من النظرة الأولى، لا تستطيع تفسيره.

***

لا شيء مثل الحب يا إسماعيل، فالوقت الذي تكون فيه أكثر استيثاقًا منه في قبضتك هو ذاته الوقت الذي يكون فيه أكثر قدرة على الهروب، إنه الشيء الذي يُبقي للقدر هيبته في هذا العالم.

من قال أن الحب يرقق الموجودات؟!، بعد حديثي الأخير مع إيلات صار جلد الجدران يزداد سُمكا وغلظة يوما بعد يوما، وكأنه كافر حُكم عليه بالعذاب الأبدي بالاحتراق دون أن يتبدل جلده، حتى نزهة الصلاة مع جبر لم تعد مواتية لقلبي.

مرت أيام كثيرة لم تطلب مني إيلات خلالها نصا فضلا عن أن تستدعيني للقائها، بعد لقائنا الأخير، يلوك ذهني مرارا وتكرارا جملتها التي ودعتني بها إلى الباب، بعد الرجاء الحار الذي أخذ شكل العاصفة ثم مطر الدموع ثم الجمود والصمت المشبوب والتي أعقبتها تحيات الوداع المبتسر، قالت:

- أرجو أن تظل مرتاحا حيث أنت يا إسماعيل، أتمنى أن لا اكون قد ضايقتك يا أخي.

ما الذي قصدته بهذه الجملة، بدت وكأنها تهدهد طفلًا صغيرًا، أو تكفكف خيبة رجولية اكتشفتها فيّ للتو، وكان حرصها عليّ أكثر إيلاما من شراستها تجاهي، في وقت لست فيه بحاجة إلى القسوة التي أصبحت مولعا بممارستها على نفسي،

ورغم العبارة المتجافية أرسلت لي مع خادمتها - بعد انصرافي - علبة معدنية مليئة بالمقرمشات، وكأنها تمهر عقدًا خفيًا تم بيننا بصورة مبدئية، أخفيتها في حقيبتي، هذه العلبة التي ضمت كل أشيائي السرية فيما بعد ولم يكن بها شيء أكثر خطورة على قلبي مما أهدته إليّ في البداية.

كان كافيا أن أخلد إلى النوم مرة واحدة بعد لقائها الأخير معي وأستيقظ فأجد أن الواقع قد فقد أبعاده، صارت إيلات (واقع وجودها، لطفها معي، حديثها، ملابسها وتزينها للقائي وحتى جملتها ( اكتب لي نصًا في الحب)) تتضخم مثل حلوى في حلم طفل لا يستطع تصغيرها لالتهامها، ولأصغرها كان عليّ أولا أن أطمئن أن لا أحد يراني، ثم أقوم بفك غطاء علبة المقرمشات، وأخرج واحدة وألتهمها راقدا على ظهري مغمضا عيني مستدعيا تفاصيل لقائنا الأخير الذي انتهى بالخيبة.

جربت أن أكتب نصوصا وأرسلها إليها ولكنها كانت تعيد جبر بالطبق وعليه الورقة لم تمسها عيناها، كيف كنت أعرف أنها لم تقرأها؟، الحروف مظلمة.

هل يمكنك القتل من أجلي يا إسماعيل، هل تحبني للدرجة التي تجعلك مستعدا لقتل رجل من أجلي؟، النبرة التي قالت بها، المشاعر الدفينة، الحقد الذي يساعد على الاشتعال ولا يشتعل، جعلني أشعر حسيا بأن كتابة النصوص في المطلق الذي هو ليس تناصًا ولا إحالة مثل القتل في العدم، وبدون أسباب، القتل عدد من المرات ولروح يجب أن تُقتل مرارا لتستوفي ذنبها، القتل في العدم مثل كتابة النصوص من العدم، عمل إلهي، يحي العالم، يعيد للأشياء توازنها، ويجدد هذا الجلد القبيح للكون

لو أنني امتلكت الجرأة يوما على أن أحمد الله فسأحمده على نعمة هذا الإدراك الفائق الذي منحني التعرف على موهبتي - ذات ظهيرة عند البيارات - عن طريق الروائح التي فُتح لي صندوقها قبل أن أفقد إيماني بالعالم في مدرسة أ.سمعان، عندما كان لا يزال موجودا ظني الساذج برسوخ الأشياء وقدمها وثبات العادات والعصبية عليها، لأهتدي إليها، إلى إيلات، فتمنحني التشبث بموهبتي بعد أن كادت تفلت مني.

رغم ما تقوله الدكتورة عالية، أقول لنفسي أنه لولا الخديعة ما استطعت أن أكتب حرفا، ولولا غفلتي ما ظللت أكتب للعالم القديم، تلونه حروفي وتبهرجه كطوطم هندي وتعبده كوثن، قبل أن ألاحظ الحركة الخافتة للدود الذي ينهش، محاولا تتويج المقدس بالفناء وإيهامي بالحركة الدؤوب في الساكن المتفسخ.

كم مرة قيلت هذه الجملة: العالم القديم، ولكني أمتلك الآن من الأسرار ما يجعلني واثقا أن هذه هي المرة الأخيرة التي ستقال فيها الكلمة، ومع هذا سأظل أكتب حتى بعد أن انزاحت غفلتي، لهما: رثاء لما مر من هذا العالم وتوددا إلى قلب امرأة وحيدة قاسية القلب، هما المتبقيان خارج هذا التعفن، ولولا هذا الصندوق الذي فُتح لي ذات ظهيرة ما انتبهت إليهما..

وفي ردغة الخبال هذه كتبت أول نصوصي السرية معها، كانت إيلات بطلتها بالعري المضغوط الذي يشبه سوبرنوفا ورغبتي في حفر طريقي بداخلها كخلد ماء ضعيف مرتعد، مع آخر قطعة من علبة المقرمشات، كتبت نصي الإيروتيكي الأول عنها ومعها ورقدت على ظهري واحترقت في وهجها راضيا.

لا شيء مثل الحب يا إسماعيل، إنه المجاز الذي حذرك الأستاذ سمعان من خطورته على قلبك.

***

للسبب الذي لن أذكره الآن خلا كل ما حكيته للدكتورة عالية عن القصر من اسمها، اسم إيلات، سميتها سيدة القصر، قلت لها أنني أحببتها، وأنها طلبت مني أن أقتل زوجها، واعتزلتني ثلاثة أشهر لا تكلمني بعد أن طلبت مني ذلك، حتى كدت أن أجن، سألتني:

- لم تذكر لك اسم هذا الزوج؟

- لا.

- ولم يذكره جبر؟

- ولا مرة.

- ولم تقتله يا إسماعيل؟

- هل تشكين في ذلك؟

- هـل أنـت خائـف مـن شـكي؟، لا تخـف، أنـا أيضـا ابتـلاني الله بـزوج سيء فـترة طويلـة مـن حيـاتي، وحـتى انفصلـت عنـه كنـت أتمنـى أن يقتلـه أحـد بالنيابـة عـني.

سألتها هازلا:

- كان اسمه إسحاق؟

صهللت ضحكتهـا عـلى الطـرف الآخـر، إن كان هنـاك شيء أرتـاح إليـه في هـذا العالـم بعـد رؤيـة إيـلات فسيكون الحديـث مـع الدكتـورة عالية.

***

عشـت ثلاثـة أشـهر تاليـة مـن التخبـط والجنـون والحـيرة، كلمـا استبسـلت وكتبـت أكـثر وأرسـلت إليهـا كلمـا ابتعـدت وصـارت حلمـا أبعـد مـن قـدرتي عـلى تناولهـا، وكأنـني أحـكّ مصباحـي السـحري الـذي احترق مارده بالداخـل ولـم يعـد يحقـق الأمنيـات، ثلاثـة أشـهر كامـلات لـم أرَ فيهـا إيـلات لدرجـة أن العالـم والمشـاهد والـرؤى فقـدت لحمهـا وجلدهـا، وصـارت عصبـا ينبـض بوهـن أمامـي، ولـم أنتبـه إلا ذات يـوم وجـبر يخـبرني مشـفقا:

- لقد هزلت يا بني، رغم أنك تأكل جيدا.

إلى مـرآة خلـف الكرفـان قـادني جـبر، أضـاء لمبـة علويـة، صافحـت عينـا إسـماعيل القديـم بداخـلي وجـه إسـماعيل الجديـد، بـلا ود، وباحتقـار، وبنـوع مـن الخشـونة، لـم يكـن بالبـدروم مـرآة، وكانـت هـذه المـرة الأولى منـذ جئـت والـتي أرى فيهـا جسـدي كامـلا عـلى حقيقتـه، لـم أفـزع، وفزعـت أكـثر لأنـني لـم أفـزع، وتوقعـي لمـا هـو أسـوأ، بـين كيـاني

الواقف أمامي في المرآة والقابع في داخلي عشرات الكيانات المرادفة والمتوازية التي تشبهني، ولأصل إلى صورتي في المرآة كان عليّ أن أقتل الحي منها وأحرق الذي مات لأصل إلى جفاف واقعي، لأجد نفسي بالنهاية أسأل صورتي في المرآة بسخرية:

- ما الذي تريده يا خريج مدرسة سمعان من مطلقة ثلاثينية شرسة تعشق المقاعد وتهتم لها أكثر مما تهتم للبشر؟ أجبت نفسي أنني أحتاج إليها، ليس كرجل، بل ككاتب، بعد سنوات الجدب في المدرسة أتت هي وجعلتني أكتب، لا أتدفق بالكتابة إلا في وجودها، أو أملا في وجودها، قلت لنفسي أنها أول شخص حقيقي أقابله في حياتي، وبطريقة ما لا أستطيع تجاوزها، وأقصى ما أستطيع أن أبرر به انغماسي فيها: لقد اشتبك الرجل في شرك إثبات الكاتب.

هل كان تفسيري حينها صحيحا أم هروبا من الذنب تجاه نفسي: الاستمرار بالتورط في فتل علاقة أحادية يقف على الجانب الآخر منها شيء أو غرض لا أعلمه.

بقي الانحسار الذي حدث لحظة وقوفي أمام المرآة، الموجة المرتدة، وفي غير وجود الالتزام الوظيفي بالتواجد المستمر للكتابة عند الطلب أو تجهيز نصوص عجينية نصف مخبوزة، مرورا باستدعاءات إيلات السابقة لمجالستي، ونهاية بطقوس تناول المقرمشات وعهود الدم الدرامية التي تحترق ثم تخبو لتُخلف نصوصا إيروتيكية تعيد احتراقي إلى الأبد في وهج الرطوبة المشتهاة، ثم ها أنا ذا أكتشف بعد أشهر من الاحتراق أن كل أعضائي مليئة بفراغ أبيض في صحراء انحسر عنها البلل وترك لي الملح، كان حلقي جافا عطشا للوجود خارجي، مع الناس، حاملا رؤيا لابد أن أصر عليها، قرارًا وليس رؤيا، لا مفر من أن تنساها يا مجنون وإلا مزقت عالمك كما يمزق سكين حاد رحم جنين ضعيف، لابد أن تنساها وأنت في كامل قواك، قبل أن تتعرض لصدمة، أو يجندلك حادث، وفي أي وقت قد تقع تحت

مـشرط جـراح وتهـذي باسـمها ملتاثـا تحـت تأثـير المخـدر، فيتبينـون لوثـتك بهـا وولعـك وسـتنبت السـخرية عندئـذ مـن عبـارة واحـدة ثـم تـورق آلاف السـخريات اللاذعـة: الخـادم الـذي عشـق مخدومتـه.

ولأول مـرة منـذ جئـت إلى القـصر أطلـب إذن خـروج مـن صاحبـه، وحـدي، مسـتثمرا هـذا الخـروج في التجـول بحريـة، والتنفـس خـارج جلـدي، والـدق بقدمـي في الطرقـات الواسـعة فقـط لأتأكـد مـن ثباتهمـا بعدمـا اهـتزا طويـلا وارتعشـا في لقائهـا، منفقـا مـن راتـب شـهرين قبضتهمـا دفعـة واحـدة في ظـرف أبيـض، اشـتريت ملابـس داخليـة جديـدة، وملابـس للخـروج وطقمـين لمكـوثي في غرفـة البـدروم، ملابـس تليـق بوظيفـتي والـتي تعـدت مهامهـا إطـار طالـب المدرسـة المُجـد.

وفي البـدروم بعـد أن عـدت فاحـت رائحـة الملابـس الجديـدة مـن أكياسـها، لعـلي لمسـت بداخـلي حينهـا سـبب رغبـتي الملحـة في شراء الملابـس، فأنفـي قـد بـدأ يبحـث عـن تفسـير لمـا انتابتـني مـع بـاقي حـواسي، فالروائـح الـتي لا مسـمى لهـا، وفي بيئـة جديـدة يصبـح اسـتقرار مشـاعري رهينـا بتفسـيرها، ولأن التفسـير متعـذر لاختـلاط مشـاعري فأنـا أبحـث عـن روائـح جديـدة مـن السـهل تفسـيرها، الروائـح الجديـدة تعـني رغبـة جديـدة، رائحـة الكتـان وصبغـة الملابـس تعـني رغبـتي في الدخـول مـن بـاب آخـر إلى حيـاتي الـتي أعيشـها الآن.

سألني جبر:

- ما الذي كنت تفعله بالأمس في المول التجاري؟

- كيف عرفت؟

قال فخورا بدهشتي:

- أنت مراقب يا بني، هنا وخارج أسوار القصر.

وفـزع العجـوز إذ عـرف أنـي ذهبـت لـشراء ملابـس، وأخـذ يلـوم نفسـه أمامـي عـلى الخطـأ الفـادح، ثـم أخـبرني أن السـيد (سـيد القـصر) لـو

عرف سيغضب منه بشدة، فهو لا يسمح لأحد من خدمه (الخدم المقيمين معه) بشراء شيء يتضمن الملابس أو الطعام، لذا فإن:

- ملابسك الداخلية الشهرية وطقم واحد كل ستة اشهر وعدد لا بأس به من الامتيازات المعنوية من نصيبك طالما أنك في القصر.

قلت في حذر خشية إساءة فهمي:

- ولكني لست خادما مقيما يا سيد جبر، لا أقصد الإهانة، ولكني موظف فقط، كتابة النصوص ليست شيئا مُلحا، أقصد مبيتي هنا مؤقت، لا أحد يحتاج ليلا لكتابة نص، ولولا عدم وجود سكن لي لخرجت ودخلت كبقية الموظفين الذين يؤدون مهامًا محددة.

- أعرف ذلك يا بني، ولكنك مقيم، ولهذا لابد أن تشترك مع المقيمين في الميزات المتاحة لهم.

ثم زغدني بلهجة جادة رسمية:

- لا تقل لي أنك رميت الفاتورة.

- لا طبعا، هذه أول فاتورة أنفقها من مالي الحر.

- حسنا، أعطها لي وأنا أسويها لك وأضيف المال الذي أنفقته على مرتب الشهر القادم.

وبفضول تفحص أرقام الفاتورة ثم هز رأسه في تعجب وقال:

- هيا أرني ملابسك الجديدة يا إسماعيل.

وكان كل كيس أفتحه لا يدع الفرصة لتجف ضحكات جبر التي ضحكها على الكيس الذي سبقه، واستمر الضحك إلى منتصف الليل، إذ اكتشف سر الملابس الرخيصة، كانت ملابس صيفية، والشتاء على الأبواب، ثم قال في سخرية أبوية:

- كان يجب أن تشتري معها كرات النفتالين لئلا تأكلها العثة.

قلت في كبرياء باسم:

- ولماذا؟، سأرتديها وأضع عليها جاكتًا ثقيلًا، وبالنسبة لملابس

البيت فلن تحتاج إلى إضافات كثيرة، الجو هنا دافئ.

- بمناسبة الجو، البدروم في الشتاء سيكون قارس البرودة ويجب علينا أن نَدبر أمر تدفئتك أو ننقلك إلى غرفة في الدور العلوي، يمكنني أن أكلم السيد في ذلك.

- لا لا، انس هذا الموضوع، أنا مرتاح هكذا.

- لا شك عندي في ذلك، ولكن عندما يأتي الشتاء لن تكون مرتاحا.

ثم نظر إلى الأكياس والملابس المبعثرة وقال:

- لندع النقاش في هذا الأمر الآن ولنتدبر أمر أكياسك هذه، اسمع، عندي دولاب صغير درفة واحدة لا أحتاج إليه، وضعته في غرفة الطباخين منذ انتقلت إلى غرفتي بالقصر، سأسلفه لك، يمكننا أن نضعه في هذا المكان الذي تعلق فيه ملابسك، تعليق الملابس على المشجب عادة همجية أشبه بشنق كائن حي أخرس حتى الموت.

وبشكل تلقائي تماما، بدا تلقائيا، بدأ جبر في إزاحة الكتب من فوق النضد، ووضعها في صف واحد طويل على السرير تمهيدا لنقل النضد، أسفل تلك الكتب كنت أخبئ علبتي الجميلة التي أهدتني إيلات وفيها مقرمشاتها الغالية، ليلتقطها جبر في دهشة ثم يتفرس في وجهي بخيبة أمل وعتاب:

- ما هذا يا إسماعيل، من أين أتيت بها؟

- إنها من السيدة إيلات.

هز رأسه في ضيق شديد وقال:

- نعم أعرف أنها من السيدة إيلات، لماذا أعطتك إياها، وما الذي تقصده بالضبط عندما أعطتك هذه العلبة؟

***

إن كان يمكن اختصار جبر في كلمات فهو رجل يثرثر كثيرا ولكنه يعرف متى تُقال الكلمة الصحيحة، ويأكل كثيرا ولكنه يميز الطعم الحقيقي

للأشياء إذا جاء تحت أضراسه فيجعله يتوقف عن المضغ والابتلاع، عشاؤه طبق صغير من المكرونة، يصر على أن تلسعه النار وطبق أصغر من السلطة، طماطم وخيار وشبت وفصوص ثوم مقطعة بعده بنفسه وبتأن شديد على لوح من خشب الأرو وبسكين حاد جدًا وصغير، وهو لا يضيع تلك الطقوس أبدا حتى لو كان منهمكا في حديث جاد، ثم يضع الطبقين على مائدة المطبخ الكبيرة ويبدأ في صنع كوبين من الشاي بالطريقة التي أحبها: يصب الماء الساخن بهدوء في كوب زجاجي به كيس الشاي والسكر، لا يقلبها حتى يختمر المزيج ويتلون الماء الصافي بفتائل من صبغة الشاي وعروق أخرى شفافة من ذوب السكر، يضع طبقي العشاء بيننا، وملعقتين وكوبي الشاي، بينما العلبة متنائية في طرف المائدة البعيدة، ويجلس، يتناول ملعقته متأهبا للأكل ولا يدعوني، طبق واحد ولكنه سبق أن أخبرني، الطعام يدعو الجائعين للأكل بلا ضيافة، حكمة سكندرية، ولأنه سكندري فلا يخالف ما تربى عليه، وما تربى عليه في كرموز كان أقسى من أن ينساه، نافذة غرفة نوم تطل على عمود السواري، وعتبة بيت يصعد منها إلى الشارع العالي بدرج من ثلاث درجات خشبية، يصعد ولا يكف عن الصعود في الشوارع المتوازية حتى يحجزه البحر وهو يكاد ينقلب على المدينة الغافية، يفتح دكانًا جُهز كمطعم صغير للأكلات السورية اسمه أبو شامة، اسم المطعم لغز في حد ذاته، فالمطعم يملكه رجل مصري، ليس سكندريًا ولا سورياً ولا توجد شامة على وجهه، ولا حتى في أشد أجزاء جسمه سرية، نعم، رأى جبر جسده كله عاريا عدة مرات، كان يستدعيه في شقته فوق المطعم ليصبن له ظهره، يقف مستندا على الحائط بكلتا ذراعيه فيتحسس جبر الطريق إلى ظهره عبر سحابة من بخار ماء ساخن، وبيد من حديد يدحو ظهره باللوف فتتلوى فتائل الطين الأبيض وتسقط لتذوب مع الماء الساخن على الفور، يقول جبر لنفسه معزيا أن ما يفعله جزء من عمله، لا يشين، كأنه يدحو

عجين خبز فوق النضد الخشبي، في قوقعة البخار تلك المصنوعة من السيراميك الأزرق أنفق جبر من كرامته ما يكفي للهبوط به مرة أخرى إلى ما أسفل عتبة بيته في كرموز.

المطعم قائم في شارع اشتهر بوجود عدة محلات فاخرة لبيع السيارات واستئجارها، جزء كبير من دخل المطعم معتمد على ملء أفواه موظفي هذه المحلات، ذات يوم جاء رجل فلسطيني لشراء سيارة يصحبه سائقه المصري الخاص، طلب لهم صاحب المحل الفخم طعاما خاصا حلاوة عقد الصفقة، قال السيد الفلسطيني لجبر بلهجة جادة:

- هل تستطيع أن تصنع الأكل الفلسطيني بنفس مهارتك في صنع الأكل السوري يا جبر؟

- نعم يا سيدي.

عرف جبر أنه فلسطيني بمجرد أن نطق رغم أن حلاوته واتساق أعضائه بديا له ساحقين بطريقة تليق بعدو لا صديق، أعد لهم المسخن وخبز الطابون، دجاج مشوي مع البصل المقلي مع سماق وزيت الزيتون والبهارات والصنوبر، ووضع هذا كله على خبز الطابون، الطعام عند الفلسطينيين تراث يجب الحفاظ عليه، وهم يحبون أطعمتهم ويأكلونها مثل واجب وطني يؤدونه، وأحد أسباب كراهيتهم لليهود أنهم يسرقون هذا التراث، يضعونه في علب من الورق ويعيدون تصديره للعالم على أنه أطعمة خاصة بهم، كل جزء من فلسطين يحمل عبء تمرير تراث طعامه من جيل إلى جيل، الطعام الذي طلبه السيد يدل على أنه من طولكرم أو جنين، على الأقل من مكان ما بالضفة الغربية، إن جبر مثقف فيما يخص الطعام، فالطعام هو ما يجعلنا بشرًا يا إسماعيل، الطعام والشراء، هذا ما أتذكره من القرآن، بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، المهم لا أريد أن أطيل عليك، أثنوا على الطعام وأعطاني

صاحب المحل إكرامية إلى جانب إكرامية السيد بما يعادل مرتبي الشهري، وعندما قال لي السيد أريد أن أوظفك عندي في المطبخ يا جبر خلعت فوطة المطعم وأنا في الشارع، ودخلت على صاحب محل أبو شامة وأنا أبكي من الفرحة لا الحزن قائلا له إن أبي قد توفي وأنهيت حسابي معه وعدت مع السيد في السيارة الجديدة.

- تلك السهولة والمال الوفير والأخلاق الحسنة جعلاني أشك لوقت طويل، عندما أتيت إلى هنا بحثت كثيرا عن نجمة داود، لم أحد ما ظننته، بعض الظن إثم ولكني لم أجد أيضا ما يدل على فلسطينيتهم، وكأن هذا هو الظن الحلال، حتى تطبعت بطابع المكان يا إسماعيل وعرفته، جيراننا في هذا المكان متلونون على جميع الجنسيات والأديان، منهم الإسرائيليون ومنهم الفلسطينيون، ولا تختلف دماثة خلق السيد في التعامل مع الصنفين، غير أنه يدعو الصنف الثاني إلى مائدته أكثر من الصنف الأول، حتى اسم ابنته عندما ولدت وسماها، بدا لي يهوديا، في البداية حيرني هذا التناقض، ولكني وصلت إلى راحة بالي: إن لديهم وطنًا واحدًا للعراك وأوطانًا كثيرة للاتفاق والمجاورة.

يتناول جبر ملعقة مكرونة وبعد أن يمضغها طويلا يبتلعها، وقبل أن تشتبك بالمرئ يردفها بملعقة سلطة ويغمض عينه كأنه في انتظار هدية ما، فسألته:

- وأنت يا عم جبر؟

- أنا ماذا يا بني؟

- طبق المكرونة والسلطة اللذين تصر على تناولهما كل عشاء، هل هما تراث مصري؟

تناثرت من فمه ضحكة عالية كادت تخنقه لولا أن ابتلعها مع الطعام، لم يبق منها إلا رذاذ مسحه من على فمه بالفوطة وقال:

- إن أردت أن تعرف التراث المصري في الطعام يا إسماعيل فلا

تبتعد عن المتاحف، اسأل عنه الصخور أيضا، فالمصريون يهضمون الصخور بالكفاءة التي ينحتونها بها يا بني.

ثم قال بصوت أقل درجتين:

- هل تريد أن تعرف حقيقةً سبب تناولي لهذين الطبقين؟

- طبعا، لا أخفي عنك أنني في كل عشاء أحضره معك هنا يراودني السؤال، ما السر في إصرارك على تناول هذين الطبقين بالذات على عشائك رغم أن الثلاجة مليئة بكل ما لذ وطاب.

نظر إلي عندئذ بإعجاب شديد.

- أنت رجل مرهف يا إسماعيل، وأرى الآن أن اهتمام السيدة إيلات بك لم يأت من فراغ، ولهذا سأخبرك بالسر الذي لم أخبر به أحدا من قبل.

ثم أشار إلى الطبقين.

- هذان الطبقان بالذات يعطياني إحساس مذاق شيء واحد فقط من أيام مراهقتي، مذاق سري.

- وما هو هذا المذاق يا تُرى؟

لم يُجب على سؤالي بل استمر في حديثه كأنه لم يسمعني.

- أعترف أنه أحيانا ينفرد بي طعم واحد فيجعلني على وشك أن أتقيأ، كطعم الثوم، أو تظل صلصة المكرونة ملتصقة في فمي لا يغيرها شيء، ولكن صدقني، الأمر يستحق المجازفة.

- فعلا؟

- فعلا، كان الأمر يستحق المجازفة يومها أيضا، الساعة ساعة قيلولة، ودرج العمارة التي نسكن فيها يأز فيه الذباب، لم يكن الهواء حارا ولكنه ساكن، وكان رأس الفتاة متعرقًا بشدة لدرجة أنه انزلق مرتين وأنا أحيطه بكلتا كفيّ، لم يكن ملح الفتاة مضبوطا، كأنك أضفت إلى ريقها وشفتيها بهارات زائدة عن الحد، فكان طعم

القبلة المتأنية حريفا، جعل ضغط دمي يصعد إلى السماء في لحظة، تبادلنا قبلة واحدة طويلة وافترقنا دون كلمة واحدة، نزلت هي وصعدت أنا، ربما كنت أنزل أنا وهي تصعد، ولكن القبلة بلبلتنا، أو تسببت في جعلنا نتبادل أجزاءً من ذاكرتنا، وأجزاء من شعورنا، هل تعرف، وأنا أتلمظ بعد القبلة شعرت بشفتيّ ناعمتين وكأنهما شفتا الفتاة، وكنت واثقا أن شفتيّ معها، تشعر بخشونتهما، بل وأجزاء من مريئي، أما مريئها فكان جافا، جعلني عَطِشا، باب شقتنا كان مفتوحا، دخلت المطبخ، وفي دورق من البلاستيك كانت والدتي وضعت به تمرًا مبلًلا للإفطار، ظللت أجرع منه حتى امتلأت بطني، وعندئذ تذكرت أنني في نهار رمضان.

- لم تتذكر ذلك وأنت تقبل الفتاة؟

قال بمكر ولوم:

- القبلة لا تُفطر يا إسماعيل، القبلة غذاء الروح.

ثم أردف باهتمام:

- ولكن قبلة هذه الفتاة تُفطر، لم أذق هذا الطعم منذ جئت إلى هنا قبل ثلاثين عامًا، مذاق التمر الجاف عندما يتبلل ويُشرَب في نهار رمضان مع طعم شفتي أول فتاة تقبلها.

قلت عندئذ في سخرية مازحة:

- يمكنني أن أشتري لك تمرا وتجرب الأمر مرة أخرى لنسوي هذه المسألة.

إلا أنه تجاهل مزاحي وقال:

- لا لا تتعب نفسك، لم يعد هنالك شيء كسابق عهده، حتى التمر هذه الأيام لم يعد يتربى على النخل العالي، تمر في حجم قبضة اليد صحيح ومليء بالسكر ولكنه لا يختزن الشمس ولا العلو.

ثم قال في حنو وهو ينظر إلي كأني ذكرته بشئ ما:

- أنت أيضا يا إسماعيل طبيعي، لم تتربّ في الصوب الزجاجية، تربيت في البيئة الصحيحة لقلبك، لهذا أنت تعطي الطعم الحقيقي للرجل حتى لو بدا عليك الضعف، حتى ولو كنت فقيرا، أو منبوذا.

ثم تنهد، واستمر في مضغ الطعام.

لم أكن جائعا ولكن حكاية جبر فتحت شهيتي للطعام، كنت أود أن أشاركه طعامه ولم يكن بيني وبين ذلك إلا أن ألتقط الملعقة، ولكني لم أفعل، ففي الطبق كان طعامًا خاصًا جدا لا ينبغي إلا لصاحبه أن يأكله، طبق من قبلات سرية، بدا لي جبر كريما جدا بشكل انتحاري إن كان قد دعاني مرة إلى الأكل معه ولو كذبا، ثم تفتحت روحي على سر غريب، إن جبر لم يدعوني إلى طعامه ليس لأنه سكندري، بل لأنه لم يُرد أن أشاركه فعلا، وإلا كنت شاركته أنا في المقرمشات التي أهدتها لي إيلات، والحقيقة أننا معا الآن، بيننا عشرات الأعوام ولكننا عجوزان محبان نلتمس الحب في الذكرى، جبر في طبقيه، وأنا في علبتي المعدنية التي صارت قريبة مني الآن، فوجدت نفسي أسأله:

- ما حكاية هذه العلبة يا عم جبر؟

***

قال جبر:

- هذه العلبة بالذات لا أستطيع أن أنساها، لقد أعطيتها لفتاة صغيرة بنفسي، قبل سنتين أتت هذه الفتاة للعمل هنا في القصر، والأمور مع الخدم الجُدد لا تجري كما ينبغي، إنهم يعملون في الغسيل والمناولة وخدمة العاملين، ولا يتم ترقيتهم إلا بخروج خادم ومجيء خادم جديد، هذه فرصة لخلق الرهبة وتعلم القواعد، لكن هذه الفتاة، حظها السيء الذي بدا في البداية حظا جيدا، لم تستمر في المناولة والغسيل فترة طويلة لأن خادما توفي في حادثة واستعملنا خادما جديدا، اعترضت على ترقيتها، لمصلحتها

ليس إلا، كان رأيي أنه ما الضرر في وجود خادمين للمناولة أو الغسيل حتى تتعود الفتاة ولها الأولوية، ولكن الرفاق هنا في المطبخ ارتدوا ثوب المصلحين الغاضبين، قالوا المبدأ هو المبدأ وهذا دورها وحظها حتى لو جاء مبكرا، وبصفتي الشخص الذي يدير الأمور هنا كان في استطاعتي أن أعترض وأنفذ ما أراه صحيحا ولكني لم أفعل، حتى الآن لا أعرف لماذا لم أصر، تعاطفت معها مثلهم ولعل السر في تعاطفنا هذا أنها كانت فتاة حسنة المظهر كثيرا ونظيفة ولبقة علاوة على أمانتها التي اختبرتها بنفسي عدة مرات، بدا لي مناسبا أن تترك الأعمال الشاقة وتعمل في خدمة الغرف.

عند هذا الجزء من الحكاية سكت جبر، ودق بطرف ملعقته في الطبق الخزفي عدة مرات كأنه يريد أن يتخلص من ذكرى سيئة فسألته:

- ماذا حدث بعدها يا سيد جبر؟

- لا أدري ما الذي حدث بعدها، الخدم هنا كثير كما ترى، ولكن هذه الفتاة بالذات لم تغب عن نظري، ولعل السيدة إيلات لم ترق لها الفتاة، لم أدرك ذلك في وقته، كما لم أدرك أنها تتربص بها، وكما قلت لك من قبل أن الفتاة أمينة لدرجة أنها كانت تستحي أن تأكل من طعام المطبخ حتى وجدتنا جميعا نفعل، ولكن السيدة إيلات كانت تشتري شوكولاتة غالية جدا، تشتريها بنفسها وتضعها في ثلاجتها الخاصة، تأكل منها ثم تفقد حماسها لقالب الشوكولاتة بعد أول قضمتين، لذا كانت غرفتها مليئة بالبقايا، على التسريحة وفوق الكومودو وفي الأدراج، المهم، بدأت هذه البقايا في الاختفاء، ولولا أن السيدة إيلات مولعة بالاحتفاظ بأغلفتها ما لاحظت: هذا ما قالته لي فيما بعد، التخمين الأول لمرتكب السرقة كان الفتاة التي تنظف غرفتها أحيانا وتحمل إليها الطعام، ولكن هذه جريمة ليست كاملة، فربما تعتبر الفتاة هذه الشوكولاتة من المهملات التي يجب تنظيف

الغرفـة منهـا، كان يمكنهـا أن تطلـب مـني أن أعيدهـا للمطبخ، ولكنها لـم تفعـل، وضعـت لهـا اختبـارًا والاختبـار الـذي وضعتـه لهـا السيدة إيـلات كان مـن المستحيل أن يجتـازه أحـد، بـدأت بوضـع قوالب كاملة مغلفـة لـم تمسـها، الحـق يقـال، لـم تأخذهـا الفتـاة، ولكنها استمرت في سرقـة مـا يتبقـى كعادتهـا، ثـم زودت السيدة مـن عيـار اختبارهـا، بدأت تخفـي مـا يتبقـى منهـا، وكنـت ألاحـظ الفتـاة حينهـا، كانت مدمنة، لقد أدمنـت هـذه الأنـواع، توقفـت عـن الأكل معنـا تمامـا وهزلـت، نظراتها زائغـة ويدهـا دافئـة كأنهـا محمومـة ومـن ارتعـاد خديهـا تعـرف أن قلبها يـدق بقـوة، في النهايـة سـقطت الفتـاة وسرقـت، ومـن المـرة الأولى وقبل أن تغـادر بوابـة القـصر أمـرت السـيدة حـراس البوابـة بتفتيـش حقيبتها عنـد خروجهـا وطردتهـا شر طـردة بعـد أن تنازلـت عـن بـلاغ الشرطة مقابـل اسـتغنائها عـن مسـتحقاتها.

- هذا شرير جدا.

- نعم.

ثـم لبـث جبر هنيهـة ينظـر إليَ مسـتغربا وكأنـني صدمتـه بالصفـة، ثـم قال:

- ولكـن لا يخدعـك ذلـك منهـا، إنهـا سـيدة تحـب الخـير، ليـس مثل حـب المرفهـات في هـذا المجتمـع الغريـب، تربيـة القطـط الشـيرازي والسـلاحف والخنافـس الملونـة وأسـماك الزينـة، لا لا، خـيرًا حقيقيًـا، تبرعـات لملاجـئ اليتامـى، والأسر المعـوزة، ولا تعلـم كـم تنفـق فعلًا في هـذه الأمـور، هـذه العلبـة المعدنيـة جـاءت إلى القـصر وكان بهـا كحك في يـوم اليتامـى، فتيـات يتيمـات صنعنـه للمتبرعـات، وأنـا حصلـت على العلبـة مـن السـيدة، وبقيـت في المطبـخ، لـم يـأكل منهـا أحـد إلا الفتاة التي طُـردت، ذات مـرة، عـلى هـذه المائـدة، داعبتهـا، أخبرتهـا أنهـا طالما أنهـت الكحـك بنفسـها فالعلبـة المعدنيـة ملكهـا، ليلـة طردهـا أتـت لي بالعلبـة ورجتـني أن أعطيهـا للسـيدة إيـلات دون أن أفتحهـا، كان طلبا

خطيرا للغاية، ولكنك لا تستطيع أن ترفض رجاء فتاة أهينت، حملت العلبة إلى السيدة وعندما فتحتها أمامي اندهشت، ثم تمعنت، ثم صرخت ورمت العلبة في وجهي، ولم تعد العلاقة بيني وبينها على ما يرام بعد هذا اليوم.

- ماذا كان فيها؟

- أغلفة الشيكولاتة الفاخرة يا إسماعيل، عشرات منها، مرتبة بدقة ومُحزمة بشريط شعر نسائي، مع زجاجة برفيوم رجالي كان طليق السيدة يضعه بشكل خاص.

***

# حسين - القاتل

لم يطلب (د) طلبه المزدوج هذه المرة، كوب الشاي وفنجان القهوة، جاء متعجلا، متعرقا، وطلب فقط كوبًا من الليمون البارد، بادره حسين بالسؤال:

- لماذا لم ترد عليّ في المرة الأولى؟

- توقيتك كان سيئا يا حسين، كنتُ محولا للتحقيق.

- لهذا كنت أحتاجك، أحتاج إلى شخص مثلك ليتدخل ويمنع هذا التحقيق السخيف.

- الظرف لا يمكن رده يا حسين، أنت نفسك تعلم ذلك أكثر مني.

كان (د) يحمل المعلومات التي طلبها حسين في ظرف أصفر كبير، وضعه على المنضدة واستبقاه ناحيته.

- أنت تهدر طاقتك في الاتجاه الخطأ.

- أنتم من تتعمدون تضليلي يا سيدي، ولن أكون مبالغا إن قلت أنكم تشتتون انتباهي.

- يا حسين، المهمة التي تكلمنا عنها منفصلة تماما عن مهامك الأساسية.

تجاهل حسين التوضيح المتهافت وقال:

- الفائدة الوحيدة من هذا التشتت أنني عدت إلى قواعدي، قرأت كتيب التعليمات مرة أخرى، وما من مرة قرأته إلا وتأكدت من أن مؤلف الفصل الثالث ليس رجلًا.

- بعد مرور كل هذا الوقت تأتي تعتذر عن رفضك بهذه التخمينات؟

- الشخصين، (أ) أو رجل الدين، إيلات أو سمعان.

ضحك (د)، ولاحظ حسين ضحكته، كرجل لم يتفاجأ من تخمينه.

- ربما أكون قد تخليت عن الجائزة يا سيدي، ولكني قررت أن أفتح عيني بنفسي.

- وهل المعلومات التي طلبتها تفتيح عين أيضا؟

- لا، بل أثر جانبي.

دفع (د) الظرف بطرف إصبعه إلى ناحية حسين، ببعض من تأفف.

- يا حسين، لا توجد طريقة لتهينني أكثر من أن تطلب معلومات تافهة عن طالب في مدرسة سمعان.

لم يرد حسين، فض الظرف، لقد سبق وأن حاول الحصول من آخرين على معلومات عن إسماعيل فأخبروه أنه شخص لا وجود له، وها هو (د) يأتي له بظرف متخم بالمعلومات عنه، وكأنها لعبة حواة، ظهر إسماعيل الآن في الأوراق الرسمية، رغم أن حسين تعمد أن لا يذكر إلا اسمه كما فعل في المرة الأولى، مع تصفحه للأوراق انثالت البيانات ككثيب من رمل، اسمه الكامل، درجات تخرجه، حتى ورود اسمه في حادثة ضرب أوشك أن يفضي إلى الموت لطالب يهودي، إسماعيل عبد الله عارف، من الذي يحميك؟، كان يجب أن تُقتَل قبل ثلاث سنوات، من يحميك مني يا إسماعيل إلا الله؟، حتى الله كان يجب أن يدعني أقتلك إلا إن كان يخبئ لك ما هو أسوأ من القتل..

مسح (د) فمه بمنديل ورقي ثم أداره على وجهه وقال:

- الرؤساء غاضبون منك يا حسين، إن كان هناك شك أن الأمور أفلتت منك فقد أصبح الآن يقينا بعد التحقيق.

فتح حسين فمه ليلومه، لو أنه كان موجودا عندما احتاج إلى توضيح الموقف الملتبس لما احتد على رجل الحكومة الرسمي، ولكنه يظهر ويختفي كما يحلو له، ضغط الزر عدة مرات فلم يستجب، اختلس حسين النظر إلى وجه (د)، لماذا يبدو الآن بسيماء رجل هادئ لا

تنعكس خطورة منصبه على ملامحه، شعر أشيب لم يحسن صبغه، عينين ملونتين، وجسد لا يتشوه بهذه الدرجة إلا من انصهاره في عمل مكتبي، ورغم ذلك، رغم ذلك يوجد شئ شرير في هذا الرجل، مؤامرة ما، كأنهم وضعوه في طريقه ليبثوا الإيمان في قلبه، أو الكفر.

قال حسين :

- هناك سر في هذا الشاب يا سعادة الباشا، علاقة ما بيني وبينه، نفس تاريخ اختباره، بيني وبينه أيام، حتى المكان الذي كان يجب أن أختبر فيه، لولا انتقالي إلى العاصمة، وكما تعلم، لجنة الاختبار لا تعترف بموضوع الانتقال رغم أنها تسهل الأمور على المغتربين باختبارهم من خلال برامج ثابتة تُرسل نتائجها أولا بأول من خلال الويب، ببساطة، اللجنة التي اختبرتني هي نفسها التي اختبرت إسماعيل هذا، نفس اليوم أو يوم تالٍ لي، ولولا أن أوراق الاختبار سرية لقلت أن .....

هنا قاطعه (د) وكأنه ضاق ذرعا بتهويلاته:

- الآن صرت محققا بوليسيا يا حسين، في مهمة لم تُكلف بها!

ناح حسين:

- لو كنت أعطيتني تكليفا رسميا بالقتل لكنت عثرت على الفتاة أو قتلت سمعان.

- هذا عمل جراح وليس جزار يا حسين، لقد وثقت برؤيتك، الجهات العليا وثقت برؤيتك ولكنك خذلتنا.

- ولكن هذا الشاب..

- مجرد صدفة يا حسين، العالم ضيق.

كاد حسين أن يدافع عن نفسه، ولكنه لمح في عينيْ محدثه رفضًا في أن يستمر الحوار في هذا الاتجاه.

- نعم يا سيدي، العالم ضيق.

قال الرجل لينهي اللقاء:

- انتبه، لقد عدت إلى المربع صفر، المهام القادمة ستكون إثبات ولاء ليس إلا، ولو لم تثبت نفسك لن تمر الأمور بسلاسة كما كانت من قبل.

جرع (د) ما تبقى من عصير الليمون دفعة واحدة ولم يصافح حسين عند انصرافه.

بتوغل الشتاء بدأت أحب حياة القصر، بلفظ أكثر دقة: أستمرئ حياة البدروم، خاصة مع تودد جبر وسهراتنا التي لا تخلو من طبق المكرونة الأزلي له وما لذ وطاب لي، لاحظت أنه كلما قل طلب مخدومته للنصوص مني زاد اطمئنانه لي، وكان الأسبوع الذي سبق مطر الثلج هو أكثر أسبوع مثمر في علاقتينا، طالما بعُدت دفة الكلام عن إيلات، رغم أن بعض الحديث لا يكاد يمر إلا بذكرها، خاصة في الأسبوع الذي سقط فيه الثلج وغطى السقف والجراج والسور.

إغواء الثلج كان أكبر من قدرتها على المقاومة، مرضت إيلات نتيجة رعونتها في السير حافية على طبقته الهشة فوق السطح، كانت ترتدي ثوبا أحمر كبقعة دم، مثل ساحرة تنفذ طقسا شريرا لإطالة العمر، كان للحادث دويٌ في حينه لدرجة أن القلق فاض عن حاجة القصر وبدأ يتسرب إلى المطبخ، بمجرد أن يفتح أحد الخدم الباب الفاصل يسري التوتر ويستغرق الأمر وقتا لتجفيفه من فوق الأشياء والوجوه والملابس، بل ومن داخل الأجساد أيضا، بعض الخدم كانوا يعطسون بالفعل حتى تزول ذكرى هواء القصر من المطبخ وتعود له حميميته الدافئة وينسون إيلات المريضة.

هذا الأسبوع بالذات كان أكثر أسبوع مرهق لجبر، أخذ الخدم يغيبون بحجج مختلفة ومتباينة، وبعد انصرافهم يبدأ في التسخط بينما يضع إمضاءه على أذونات الغياب لليوم التالي ويصرخ من وقت لآخر وهو يلوح بالورق في وجهي:

- انظر، هذه مباراة في الغياب، كل ذلك لماذا؟، لأنني رجل طيب، لا أريد أن أخصم من راتب أحدهم مليما أحمر، ولأنني طيب

يستغلونني ويورطونني.

كنت أعد له طبقا من البيض المقلي فجبر من كثرة انشغاله لم يكن قد تناول غذاءه بعد، وضعت الطبق والخبز في متناوله فلم يشكرني، تناول الملعقة وأخذ يقطع البيض بها وبيد واحدة ثم يمضغ في كرب وهو يزفر في غيظ من وقت لآخر كلما هاجت بداخله فكرة عن ورطة جديدة ستحدث غدًا بسبب الغياب.

ثم هدأ أخيرا وساد الصمت إلا من فحيح البخار في مواسير التدفئة وأصوات المضغ وعندئذ خاطرت بسؤاله، وتهدج صوتي عندئذ وأنا أقول:

- كيف حال السيدة إيلات؟

- بخير، طالما أنها مريضة فهي لا تؤذي نفسها، تكتفي بالأذى الواقع عليها.

فوجئت بالرد الذي جاء تلقائيا، وأنبأتني اللهجة التي قيلت بها أن الجملة قيلت من قبل عشرات المرات، ثم قال جبر في بطء وود وكأنه أدرك أنه أخطأ في حقي بإجابته الجافة:

- لماذا تسأل، هل تود زيارتها؟

- وهل هذا مسموح به؟

عاودته لهجته العصبية عندئذ:

- لا تجب على السؤال بسؤال يا بني من فضلك، هذه صفة لا أحبها، لو لم يكن مسموحا لك بالسؤال عن السيدة إيلات وزيارتها ما سألتك، ثم أنك قلتها ذات مرة، أنت لست مثلنا، وأمور السيدة إيلات لا تجري معنا نحن حسب القواعد فما بالك بشخص خارج نطاقنا!

- كيف لا تجري حسب القواعد؟

- بالله عليك، كيف لم تدرك ذلك وأنت تكتب لها كل هذه

النصوص التي تعجبها، كيف لا تفهمها بينما نفهمها نحن الخدم الذي نعد لها طعاما لا يعجبها في معظمه؟!

قلت في ضيق:

- دعك من المقارنات يا سيد جبر أرجوك وأخبرني: كيف لا تجري الأمور حسب القواعد مع السيدة إيلات؟، أريد أن أفهم.

- أقصد أن الأشياء المبهجة كثيرا لا تبهجها، والأشياء التي نتوقع أن تغضبها تكون سببا في بهجتها بشكل غير متوقع، لذا نحن نتصرف على سجيتنا هنا، أنا بالذات أفعل، خاصة بعد حادثة تلك الفتاة، بهذه الطريقة أضمن أنه على الأقل عندما أُطرد من هنا سيكون بسبب شيء فعلته، لا بسبب شيء تعمدت أن أفعله لإسعادها فأغضَبها.

- ولكن هذا ظالم بشكل مبالغ يا سيد جبر، ألم تفكر في ذلك مرة؟، أنتم تتعمدون إتعاسها بشكل مباشر، تضيقون عليها الخناق بينما تدفع لكم مرتباتكم التي تُعيشكم.

- ومن أدراك أنها ليست هي من تتعمد إتعاسنا بشكل مباشر، عن طريق انتزاع عامل الراحة في علاقة بين سيد وخادم، السيد يأخذ خدمته كاملة بلا نقصان ولكنه مع ذلك تعيس ومتذمر بطريقة تجعل الخادم يشعر أنه لا يستحق راتبه.

كان ما قاله جبر حقيقيا جدا، لدرجة أن كربه انتقل إليّ فتململت ولاحظ جبر ذلك فقال مشفقا:

- قل لي يا بني، كم مرة أخبرتك إيلات أن ما تجتهد في كتابته لها أعجبها؟ أجيبك أنا، ولا مرة، بل وكلما زاد إعجابها بنصوصك كلما زادت كراهيتها لك، وهذا ما يقوله الخدم، كلما كان طبق الطعام جيدا كانت على وشك أن تقذفه في وجه من قدمه لها.

قال جبر ذلك ثم قام وغسل طبقه وجففه ووضعه في مكانه

بعنايـة.

قلت ببطء وتأن معترفا:

- أعتقد أنني فهمت.

قـال جـبر في مكـر وهـو يختلـس النظـرات وقـد بـدا عـلى ملامحـه انتعـاش مفاجـئ:

- ما الذي فهمته؟

- مـا أردتـني أن أفهمـه، أن أكـون عـلى سـجيتي معهـا، لأنـه لا مأمـن من تقلباتهـا إلا بالخـروج مـن هـذا القـصر، تعـرف يـا عـم جـبر، أعتقـد أن سيدتك سـتكون سـعيدة في الجنـة بشـكل خـاص، حيـث تسـقط عليهـا الثمـار بمجـرد أن تفكـر فيهـا والطيـور في السـماء إذا اشـتهتها تنتفـض وتتمثـل عـلى مائدتهـا مطهـوة ومُحمـرة دون أن تمسـها يـد.

- بالضبـط، دون أن تمسـها يـد، أتعـرف يـا إسـماعيل، لا زلـت ألـوم نفسي عـلى طـرد هـذه الفتـاة، خاصـة أن التقريـر الـذي يُقـدم إلى مكتـب العمـل الـذي أتى بهـا يجـب أن يحتـوي عـلى سـبب الاسـتغناء عنهـا، وكلمـة السرقـة كلمـة لا مـزاح فيهـا.

- كان يجب عليك أن تحارب من أجل تقديم تقرير جيد على الأقل.

- ومـن قـال أنـني لـم أفعـل، علاقـتي بالسيد الكبـير منحتـني الفرصـة لأشرح لـه الأمـر، ليـس كمـا حكيتـه لـك، لـم أخـبره عـن شرك الشـوكولاتة الفاخـرة الـذي نصبتـه السـيدة إيـلات للفتـاة، بـل ألقيـت اللـوم عـلى نفـسي وطريقـتي في إدارة الأمـور، ولكـن السـيد قـال أنـه وضـع تقريـر إنهـاء الخدمـة بـين يـدي السـيدة بإلحـاح شـديد منهـا، هـذا الإصرار يكشـف أن طريقـة السـيدة في كشـف السرقـة كانـت توحـي بنيـة سيئة، ذهبـت سرا إلى مكتـب التوظيـف واطلعـت عـلى التقريـر بنفسي، الكلمات الـتي وضعتهـا عـن سـبب الاسـتغناء كانـت مكتوبـة بالحـبر الأحمـر، وبطريقـة لا تـدع مجـالًا للشـك أو زوغـان البـصر، سـجلت أيضـا ثمـن

الشوكولاتة بالدولار، لا بالجنيه المصري، كل هذه تفاصيل لا تزال تعذبني كلما تذكرتها.

- ولماذا لم تكلم السيدة في حينه؟

- لا طبعا لم أفعل، ولكني أسألك، لو كنت مكاني هل تجرؤ على أن تفعل بعد أن ساهمت في إهانتها من خادمة؟

- بالتأكيد.

- ربما لو كنت موجودا حينها يا إسماعيل لطلبت منك التوسط عندها.

- الحمد لله إذن أنني لم أكن موجودا حينها وإلا خيبت ظنك، فالسيدة لن تأبه بوساطتي.

- ولكنها تمكث معك وقتا طويلا، وهذا في حد ذاته أمر جيد، هل تعلم أنك الكاتب الأول الذي طلبت رؤيته (تقريبا)؟

- تقريبا!

- اعذرني يا بني، أنا متعب والألفاظ لا تسعفني

تثاءب جبر، تثاؤبا ينم عن رغبة هائلة في النوم، وخرج من حلقه صوت التثاؤب وكأن رجلًا يضحك.

- لا عليك، لقد أثقلت عليك بحديثي، ولابد أن الوقت قد تجاوز ميعاد نومك بكثير.

***

لـم أنـم، أخـذت أفكـر: لمـاذا تدفـق جـبر هـذا اليـوم بالـذات في حديثـه عـن إيـلات وعـن مشـاعرها، وإذا كانـت الأمـور بينـه وبينها منذ حادثـة الفتـاة لا تسـير كمـا يجـب فكيـف سيوصل إليهـا الآن رغبتي في زيارتهـا وهـي مريضـة، أم أنـه يكـذب في حكايـة الفتـاة الخادمـة، اختلقها بالكامـل خـارج النـص، وتعمـد دسـها في تيـار الـكلام لتحذيـري عندما وجـد العلبـة المعدنيـة عـلى منضـدتي، وأي دافـع يدفـع جـبر لـدس حكايـة كاذبـة عمـدا في حديثـه عـن سـيدته الـتي يخـشى مجـرد الإشارة إليهـا، هـل لأنهـا تكلفـه بأمـور لـم يعـد يطيقهـا، أمـور تشـبه غسيل ظهـر رجـل عـار في حمـام مبلـط بالسـيراميك الأزرق؟

هـل يمكـن أن تكـون إيـلات هـي مـن طلبـت مـن جـبر أن يعـرض عليَّ زيارتهـا بـدون أن يشـير إليهـا، ومـا معـنى أنـني أول كاتـب طلبـت رؤيتـه تقريبـا، كيـف يمكـن أن يطلـب شـخص رؤيـة شـخص تقريبـا، مـن فينا الموجـود بشـكل جـزئي، الحـاضر بشـكل مبتـسر.

عامـة: إذا كانـت هـذه رغبتهـا، أن أطلـب زيارتهـا ورؤيتهـا فمـن غـير اللائـق أن أرفـض، في الصبـاح سـأطلب مـن جـبر أن يُبلـغ السـيدة برغبتي في زيارتهـا، ولـو وافقـت فسـأكون قـد قبلـت دعوتهـا الخفيـة.

لـم أنـم بالرغـم مـن وصـولي إلى قـرار، ولا حـتى كرامـة لعيـني المجهدة، سأظهر أمامهـا إن وافقـت عـلى زيـارتي مسـهدا قلقـا، والله وحـده يعلم في أي اتجـاه يمكـن أن يتجـه الحديـث مـع ظهـوري أمامهـا بهـذا الشـكل المـزري، ربمـا دار في صالحـي كعاشـق وفي غـير صالحـي ككاتـب، مـع أن هـذا لا يعـني أبـدا أن ظهـوري أمامهـا بشـكل جيـد سـيكون في صالحي ككاتـب، ولأسـباب كثـيرة سـيكون هـذا صحيحـا، لأن العالـم يمـوت أو يولـد مـن جديـد، ولأن المعـاني لـم تجـد بعـد مضاداتهـا أو فارقتهـا إلى الأبـد، فـوضى الاحتمـالات القدريـة أو قاعـة السـيدة إيـلات المحتشـدة بالكـراسي، مـا الـدور الـذي تظـن إيـلات أنهـا تلعبـه في حيـاة الآخريـن، تديـر الحديـث حسـب خيـارات المقاعـد، وتجيـد الإشـارة إلى نفسـها عن

طريق خادمها تماما كإله يرسل أنبياءه إلى عباده، وبدلا من أن تطرد الخادمة مباشرة لأنها كرهتها تدبر لها اختبارا.

قضيت بقية سهادي أتخيل نفسي شخصا عاديا، حسب معاييري، هل كانت إيلات تستطيع إدهاشي كما تفعل الآن، هل ستتعدى حروفها وكتبها وعباراتها الغامضة قيمة أحمر شفتيها المرسوم بدقة، وبطريقة عكسية، لو كانت إيلات شخصا عاديا، هل كنت سأشكل لديها قيمة كما أنا الآن، بنصوصي وحكاية فشلي في مدرسة سمعان، وكانت الإجابة على هذا السؤال تتطلب درجة من الوعي لا درجة من الفهم، الوعي بالفارق بين أن تحمل الحروف رغباتي الخفية أو تحملني الحروف إلى رغباتي الخفية.

جبر هو من قادني إلى غرفة السيدة إيلات، مباشرة بعد أن طلبت منه زيارتها في الصباح، صعودا عبر درجات السلم الداخلي الرخامية، معتمدا في صعوده أمامي على الدرابزين المصنوع من الاستانلس اللماع والذي كان يلتقط حرارة كفي جبر على شكل طابع ضبابي لأصابعه يتبدد ببطء، بدا وكأن الذهاب إلى غرفة السيدة واجب ثقيل عليه، يُنهكه الصعود أو بالأحرى: يجعله يشيخ، مثل لعنة أُلقيت عليه وتمارس مفعولها تدريجيا، على نحو جعلني أقول لنفسي: لو كان باب غرفة السيدة أبعد قليلا لسقط جبر أمامي غلافا من جلد وشعر وملابس.

رأيتها أول ما رأيتها مستلقية تحت غطائها في ضوء ساطع، حتى الإضاءة الخافتة للجدران تعمل، على الكومودو بجانب السرير لم يكن ثمة زجاجات دواء، مع أن وجهها كان محتقنا ومن وقت لآخر كانت تسعل بشدة وبتصاعد درامي وكأن جدارا من غبار انتصب بين حلقها وبين الهواء، لم يكن صوتها الذي تحدثت به، بل بدا أشبه بصوت رجل يتكلف الود.

- تفضل يا إسماعيل، سعيدة بسؤالك وزيارتك، ارتح على هذا

المقعد، نعم، هذا المقعد، ناوله علبة المناديل الورقية يا جبر، لتكن إلى جوارك وضع منها على أنفك، أنا مصابة ببرد شديد يا إسماعيل، برد مثقف، والمثقفون يا إسماعيل أشد وحشية من الهمجيين، ولكنهم يخفون وحشيتهم في حوارات طويلة، هذا هو اليوم السادس له معي، وتصور كمية الهواجس والأحلام، بالأمس أكلني حوت لوركا هنا في غرفتي، واليوم توجني المغول ملكة عليهم، وأول أمس كنت أسيرة عند رجل من الدواعش جارية مستباحة.

غادر جبر بعد أن وضع علبة المناديل المعطرة بين يدي، انحنت إيلات وتلمست أزرار الريموت فتحركت الستائر قليلا لتدخل أشعة الشمس حتى ساقي، ولكنها لم تطفئ الإضاءة.

- أنا أموت يا إسماعيل، أموت حرفيا، كان يجب أن أقفز من فوق السطح بعد هذه المغامرة المجنونة.

صار عليّ الآن أن أقول شيئا، أن أواسيها، ولكن الكلمات الدافئة بداخلي اشتبكت، وبطريقة ما كنت أرغب في أن أسألها إن كان بإمكاننا أن نكف عن الكلام، ونتيح الفرصة للعيون أن تنوب عنا، أو نتبادل الحديث مثلا على ورقة مشتركة، فقد كنت عاجزا عن تضفير نبرة صوتي ونظرات عيني مع كلمات تعبر عن أحاسيسي بدقة، أما الورق فيمكنه أن يعبر عنها من جانب أحادي.

وبدلا من أن أخبرها بذلك قلت:

- أرجو أن تنتبهي لنفسك بعد ذلك ولا تغامري.

- كان شيئا رومانتيكيا ولم أستطع المقاومة، مثل أن يهدي إليك رجل وردة، أو معطفه الصوفي في جو بارد، أو تستمع لأغنية باهتة تتحدث عن الغياب والفقد، هذه الأشياء التي تخاطب مشاعري البدائية دون المرور بعقلي، وبمناسبة الفقد أخبرني: هل افتقدتني؟

هل افتقدتها، رغبت في أن أقول: نعم افتقدتك كثيرا، ولكنها كادت أن تخرج من فمي: كلنا افتقدناك، ولكني سارعت بقتل الجملة قبل

أن تخرج وسألتها:

- هل سيسعدك ذلك؟

- طبعا يا أخي، من تظنني، أنا إنسان مهما يكن، وأحب اهتمام الآخرين بي.

- إن كان ذلك فالإجابة هي نعم، افتقدت أحاديثك.

- طبيعي، وهل أملك شيئًا غير الكلام لتفتقده، لم أسألك إلا عن هذا.

أدركت عندئذ أنني خيبت أملها، إذ تنهدت وعادت للغوص بظهرها في وساداتها الخفيفة المحتشدة خلف ظهرها، وبعد أن تأملتني وقتا طويلا أخذت تقول بصوت جديد وكأن مخزونها من الكلمات الجاهزة قد نفذ:

- يا إلهي، لقد هزلت بشدة، رغم كل هذه الملابس فوقك يمكنني أن أشعر بعظامك وأتألم من ملمسها، ما الذي فعلته بك، لقد أخطأت في حقك يا إسماعيل عندما أشركتك في ذاكرتي السيئة، لماذا أزعجك (ثم حدث شيء غريب في لهجة إيلات، استعادت صوتها بشكل فائق بدون خشونة البرد وكأن شبحا بداخلها يتكلم ويقول) ولكن لماذا أزعجك فعلا ، لماذا لا أحافظ على جميع أحزاني لنفسي، لماذا أواصل إتاحة الفرص لك كي ترثي لي (ثم استعادت صوتها الرجولي المتودد بعد صمت دام دقيقتين ودهشة متبادلة) هذه الكلمات العبقرية لجوته يا إسماعيل، وهي تصفني بشدة (ثم تنهدت وعطست بشدة وقالت):

- وبمناسبة جوته، هل كتبت شيئًا من أجلي؟

كدت أن أقول على الفور: وهل أكتب إلا من أجلك، ولكني أعرف أنها ستفهمها: وهل أكتب إلا بطلب منك، في حين أنني لم أقصد إلا أن تحمل كلماتي معنى: وهل أستطيع أن أكتب إلا بوحي من إرادتك،

بينما كان هناك شخص ثالث، شخص غيري، يملك ملامحي وقلبي وعقلي دون حدود تؤطرها يريد أن يقول: وهل أتضرع بكلماتي إلا إليك؟

قلت:

- كنت أكتب طوال الأسبوع، إن كنت مهتمة برؤيتها يمكنني أن أرسلها لك.

- أرغب في ذلك بشدة.

هل كانت خيانة؟، هكذا قلت لنفسي وأنا أتفحص وجه إيلات لأول مرة كل هذه المدة دون خجل، هل كانت خيانة أن أتساءل: متى ستنهي إيلات هذا الحوار، المصافحة الودودة، وتبدأ بطعني، نعم، كان الكلام بيننا يشبه مبارزة الشيش، الوجوه مغطاة والأجساد كذلك، والسلاح لا يؤذي، والمعول على إحراز نقاط، ليس إلا النقاط، المنهزم والمنتصر سيتصافحان في النهاية، لا أحد يموت، القلوب فقط هي ما تموت

ولكن الحقيقة أنني لا أتذكر كيف بدأ الطعن هذه المرة، وما هي المقدمات؟، ففي وجود إيلات كان يمكن للشيطان والملاك أن يتصافحا في ود، وأن تفضي أكثر الطرق الجهنمية إلى عش طائر ضعيف، ولم يكن شيء يوحي بما ستقوله، ما الذي حدث في هذه اللحظة لتقول ما قالته، كان كل شيء حولنا كما هو، على ما يرام، وربما أفضل مما كان في أي وقت، نفس المقادير المعتادة من الضوء والهواء والروائح المختلفة، نباتات الحديقة ويبوسة أوراق الشجر، ربما رائحة صمغية ثقيلة، ولكنها لم تستمر طويلا كمقدار فعال، نفس الأصوات المعتادة لهذا الوقت من اليوم وكل يوم، فقط نأتي من زاوية مختلفة، من غرفة إيلات، ولكن الزاوية مختلفة في كفة ميزاني أنا، أما كفة إيلات فلم تكن زاويتها مختلفة، وإيلات هي التي قالت حينئذ لتثبت أن ما ستقوله لم يُقَلْ عفو خاطر بل بترصد

وإصرار.

قالت بثقة وهي تبتسم:

- أراهن أنك لم تخبرها بحبك.

- من؟

- هاجر.

لبثت لحظة مشوشا، ثم قلت:

- لا، لم أفعل.

- هـذا لأنـك تفعـل هـذا في نصوصـك بامتيـاز تسـتحق عليـه الدرجـة الكاملـة كرجـل في عصرنـا.

- لم أكتب بعد النص الذي يوفيها.

نظرت إليّ حينئذ كأنها تتبين مدى جديتي ثم سألت:

- وهـل يوجـد نـص يـوفي امـرأة يـا إسـماعيل، أقصـد امـرأة مـن لحـم ودم وأعصـاب تحمـل مـن الرغبـات المخيفـة والمخفيـة مـا لا طاقـة لرجـل عـلى اسـتيعابها؟

ذُهلت للحظة ونظرت مباشرة إليها فابتسمت وقالت:

- هل توجد نصوص تكتبها ولا تعرضها علي يا إسماعيل؟

هززت رأسي أن نعم فقالت:

- أخبرني، هل تراقصها في نصوصك الأخرى التي لا تعرضها علي؟

- لا.

- هل تحدثها؟

- أحيانا.

- عن أي شيء، عن غرامك بها؟

- لا.

تنهدت عندئذ:

- أنت عنيد، لتظل هكذا وإلا مت، النساء يحببن الرجل العنيد الذي يعترف بصعوبة، ولكني أريد أن أسألك عن داخلك، بالتأكيد تجاوزت هذا الأمر، وصلت إلى مساحة أوسع لحركة نصوصك، نصوصك السرية أقصد.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تذكر فيها هذه الكلمة، النصوص السرية، ابتسمت، وكانت هذه الابتسامة هي خطأي الأول.

- أخبرني يا إسماعيل، هل تعريها في نصوصك؟، هل رأيتها عارية في مخيلتك؟

- لا، لم أفعل.

ردت بعصبية وهي تغمد أول طعناتها:

- تكذب، أنت تكذب ببساطة لأنك تظن أنني سأطلب منك أن أرى هذه النصوص، ولكن اطمئن، لن أفعل، هل ترى كل هذا الصف من الكتب هناك، إنها روايات إيروتيكية، مليئة بأشياء تفوق مخيلتك عن هذه الأمور، ولكني أسألك لأطمئن على مستقبل البشرية الحمقاء (ابتسمت هازلة حينئذ) هل النصوص موجودة، أجبني بصراحة ولن أطلبها منك.

في هذا الوقت عادت الرائحة مرة أخرى، الرائحة الصمغية العطرية، عندئذ أدركت أن الرائحة لم تأت من الحديقة، بل من إيلات، تحديدا من بين شفتيها، وكأن زهرة غامضة مغوية تفتحت في جوفها وأرسلت عطرها إلي، وكان الموقف مرشحا ليموت قبل أن يولد، ولكني أبيت ذلك، كان هذا خطأي الثاني، ولكني تعمدته، ربما لأنها فرصتي الوحيدة لأكتسب نقطة قوة معها، وربما لأن النصوص موجودة بالفعل ولكنها خاصة بها، ووجدت نفسي أضغط على أسناني وكأني أمضغ الكلمات لألينها قبل أن تخرج من فمي.

- هذه النصوص موجودة بالفعل، ولكني لا أستطيع أن أريها لك كما خمنتِ، فهي لم تُكتب من أجل أن تُعرض على جمهور، لم تُكتب حتى لتعرض على من كانت موضوعها الأوحد.

الآن صارت الرائحة في الهواء حولنا أشبه بوجود كهرباء بعد أن ضربت صاعقة مكانًا قريبًا، واحترق للأبد ملاك طيب من الملائكة وانتشر شذى آثم من احتراقه، وللحظات اكتسبت المرئيات في عيني بعدا رابعا، وصار البكاء طبيعيا للغاية، بل ومستساغا، ولكني اخترت جانب البطولة حتى زالت الرائحة والحالة التي فرضتها وبقيت النظرات الفضولية في عيني إيلات، كرواسب، مثل معدن نفيس تبقى في قاع حريق هائل سريع.

- لن تريها لي حتى لأصححها لك؟، هل ستبقيها طي الكتمان بعبلها وأخطائها الفادحة؟

- لا، تعجبني هكذا، بأخطائها الفادحة.

- إذن أنت قررت من نفسك أنني لا أستحق أن أطلع على نصوصك السرية؟

- ليس موضوع استحقاق.

- الطفلة الجميلة التي لا يجوز لها أن تشاهد نصوص الكبار إذن، هاه؟

- ولا هذا، كل ما في الموضوع أنه لا يصح، كأنني أعريها لك دون أن تسمح هي بذلك.

- إذن حين تقرأها هي ربما ستسمح لي بقراءتها من بعدها؟

- بالفعل كما قلتِ، على استعداد أن أعدك بذلك.

- حسنا، حسنا، سأكتفي بهذا الوعد رغم أنني أعلم أن لا خطة لديك للقائها، وأنك تحيلني إلى مجهول، هل تعرف لماذا سأكتفي به، لأن الوعد يصيرنا أصدقاء فيما يخص هذا الأمر، لأن الأصدقاء

يتشاركون أسرارهم يا إسماعيل، أليس كذلك؟

هززت رأسي واغتصبت ابتسامة من بحر الارتعاد بداخلي فهزت رأسها ثم قالت وكأنها تصرفني:

- إذن، سأقرأ النصوص التي سترسلها لي مع جبر، طالما أنك متيقن أنها النصوص الوحيدة التي تريدني أن أراها.

***

في صباح اليوم التالي عندما سألت جبر عنها قال لي أن بنات عمها أخذنها إلى نزهة:

- وهل ستتأخر؟

- عادة ما تفعل، ولكني أظن أن حالتها الصحية لن تسمح لها بالسهر.

- هل أعطيتها الأوراق؟

- تلك الرزمة التي أعطيتها لي، نعم، أخذتها مني ووضعتها في حقيبة يدها.

عادت إيلات في المساء، وكان الخدم قد انصرفوا، طلبت شايا بالليمون من جبر، وطلب مني جبر أن أساعده لأن الخادمة المقيمة متوعكة:

- يبدو أنها التقطت البرد من السيدة إيلات.

- سأساعدك حتى باب غرفتها، بشرط أن لا تخبرها بوجودي، وسأظل بخارج الغرفة لا أحدث صوتا ونعود سويا.

حملت معه صينية الأطباق والفناجين الخزفية وحمل هو نضد السرير، وأمام الباب وقف جبر، طرق طرقا لا يوقظ نائمًا ثم فتح الباب ودخل، غاب قليلا ثم خرج وأخذ الصينية من يدك، وعندما عاد عاد بوجه ممتقع.

- السيدة تريدك، لا أفهم كيف خمنت، سألتني عن الخادمة،

وتلجلجـت.

- حسنا حسنا.

دخلـت خلفـه، في هـذه المـرة كانـت أشـد مرضـا ولكـن صوتهـا كان طبيعيـا، وملامحهـا أشـد بياضـا، وكانـت لا تـزال راقـدة عـلى سريرهـا، وكأنهـا لـم تغـادره أبـدا، ولكنهـا كانـت تـشرب الشـاي رشـفات صغـيرة تبتلعهـا وهـي تغمـض عينيهـا متألمـة مـن حلقهـا.

انصرف جبر على الفور، وجلست أنا أعاتبها مشفقا:

- لم يكن هناك داع لخروجك بهذه الحالة يا إيلات!

- أردت التريض يا إسماعيل.

- لن تهرب الأماكن إلى دولة أخرى.

نظرت لي بدهشة كأنني قلت معلومة جغرافية جديدة.

- تعـرف، سـأصطحبك معـي في المـرة القادمـة، ربمـا سـأكون أكـثر تعقـلا في وجـودك.

ارتعد قلبي قليلا عندما قالت ذلك.

- أخذت النصوص معي، مثل تلميذة شاطرة، وقرأتها هناك، انظر.

ثـم جذبـت حقيبتهـا وأخرجـت كبشـة أوراق، ونثرتهـا عـلى السريـر، كل ورقـة عـلى حـدة بـدت وكأنهـا دخلـت معركـة منفـردة، معركـة مـن الشـد والجـذب، وعـلى بعضهـا كانـت ثمـة بقـع زيتيـة، ومـن ضمـن الأوراق ورقـة دخيلـة، كبـيرة وملونـة بشـعار مطعـم شـهير للمأكـولات البحريـة، وتنهـدت وهـي تخـبرني إذ لاحظـت نظـراتي عـلى الورقـة الملونـة:

- لقـد تحـدوني يـا إسـماعيل، تحـدوني أن آكل معهـم، جمبري واسـتاكوزا وقواقـع بحـر، تصـور، وخـسرت الرهـان، بـل كـدت أن أقيء لـولا أن دسست منديـلا معطـرا في أنفـي، ثـم دفعـت الفاتـورة.

- كانت فاتورة غالية؟

- جدا جدا، ولكني أخذت حقي، انتقمت، شفيت صدري منهم.

- كيف؟

- قرأت عليهم نصوصك.

تعمدت إيلات أن لا تنظر إلى وجهي الذي انسحبت منه الدماء وأنا أقول.

- الحمد لله أن نصوصي أفادتك أخيرًا.

- في الواقع ليست النصوص فقط، لهجتي وأنا أقرؤها كانت عاملًا مساعدًا.

ثم بحثت بيدها في الأوراق وهي تقول: في الواقع استقر رأي الجميع أن النصوص كلها سيئة ولكن هذا أحسنهم.

التقطت ورقة ثم قذفتها لألتقطها فلم أفعل، اصطدمت بصدري وسقطت على ساقي وبقيت هناك.

- ما هذا، ما هذا الوجه، هل أنت غاضب، أقول لك أنني خرجت مع شباب وبنات العائلة، قرأت نصوصك معهم بصوت مرتفع، ضحكوا على إلقائي، في منتصف مطعم فاخر مزدحم بالناس، مطعم فاخر في مكان لا تستطيع أن تدخله ولو عملت طول حياتك هنا، تمت قراءة نصك فيه، وهذا ما آخذه منك، هذه التكشيرة، لا ترد، أليست هذه غاية أي كاتب؟

متشاغلا بالنظر إلى الورقة على ساقي تجاهلتها، كأن زرق طائر سقط على سروالي فأجبرني على الجلوس ثابتا إلى أن يجف وأكحته بظفري.

- أليس هذا ما يتمناه أي كاتب يا إسماعيل؟، هيا أجبني، هيا، شوها البرادة.

- فعلا، هذا ما أتمناه، أن تصل كتاباتي للمكان الذي لا أستطيع الوصول إليه وفي الزمن الذي لن أعيش فيه، وبافتراض البنية يا سيدتي، يمكن لورقة تحمل نصا أن تلمع حذاء ولكن لا يمكن لوجه

كاتب أن يُلمع به حذاء.

- بالضبط.

- أو تُمسح بها مائدة.

قالت بمرح وقد فهمت اللعبة:

- أو يمتخط بها طفل من أطفال الشوارع، رأيت هذا بنفسي ومنذ ذلك الحين لم أعد أفتح نافذة سيارتي.

- أو يمسح بها الخراء في مكان لا يوجد به ماء أو صابون.

صاحت بدهشة:

- معقول!!

قلت بثقة باردة:

- فعلت هذا بنفسي عدة مرات، حياتي مع جدي علمتني الكثير.

أراهن أن إيلات عند هذه المنطقة من الحديث قد قررت شيئا، أو تألمت من ذكرى بعيدة، أو رأتني بشكل لا يمكنها احتماله، ولو أنها طعنتني جديا فنزفت ما تركت نفس الأثر في دورتي الدموية من عبارتها التالية، قالت:

- نعم نعم، هذا أكثر مكان يمكن أن يستفيد من نص مكتوب بهذه الطريقة وأن يستمتع به جدا.

- لا، استمتاع سيدة بقراءته في مطعم مزدحم أكثر بكثير.

عندئذ وبسرعة، وكأن الحدث يدور في وقت آخر ومكان آخر قُذف فنجان فارغ إلى وجهي، اصطدم بصدغي، وسقط على السجاد بصوت مكتوم، ولكنني لم أتألم ولم أرفع يدي حتى لأتحسس الجرح.

- أنت وقح.

كانت ترتعد ودبت في وجهها الدماء وعلا صوت تنفسها بدون أزيز

البرد، وكان قلبي قد بدأ يدق بخفوت، يضخ دماء ثقيلة باردة ومليئة بشظايا زجاج لا تكاد تُرى ولكنها تمزق أوردتي وشراييني.

- أشكرك.

- وقح، وعنيد، ولا تفهم كيف تتعامل مع النساء، ويجب أن تُحبس في زريبة من الخنازير.

- وفري على نفسك هذه الشتائم لترفقيها في تقرير خدمتي يا سيدة إيلات.

لوهلة فهمت الكلمات على معناها الأول ففتحت فمها لترد، ثم انتبهت ونظرت إلي في ذهول للدرجة التي كادت عيناها تغرورقان بالدموع، ثم صاحت:

- جبر... جبر.

وأخذت تبحث عن جهاز استدعاء الخدم فلم تجده، وكلما تعثرت يدها في البحث بورقة من أوراقي، مزقتها أو ألقتها بعيدا، ثم صار هذا هدفها الأسمى وهي تصرخ: جبر .. جبر.

- يمكنني أن أستدعي لك جبر لو أردت يا سيدتي.

- ما أريده منك أن تغور من هنا حالا ولا ترني وجهك.

وبعثت صراختها جبر من مكمنه فاصطدمت كتفي بكتفه عند الباب المؤدي إلى المطبخ، لم نتبادل كلمة واحدة، كأننا غريبان، فتحت فمي لأخبره بما حدث ولكني عدت فأغلقته عندما لاحظت الرعب المرتسم على وجهه وارتعاد شفتيه، وظللت أسمعه وهو يهمس: ما الذي فعلته؟ حتى أغلق الباب خلفه ميكانيكيا.

جلست على منضدة المطبخ، خائضا بذهني في طين الاحتمالات القادمة، بينما يدق الدم في أذنيّ بشدة ويصمهما، للدرجة التي لم أعد أسمع فيها أصوات المطبخ الصغيرة، طبقي عشاء جبر أمامي، لم يمسهما، كأنني أنا وإيلات قد سقطنا فيه كذبابتين، سقطنا رأسا

في متعته السرية اليومية، ولم أسمعه وهو يفتح الباب ويجئ ناحيتي ثم يضع يده على ظهري فجفلت.

- لا بأس يا بني، لا بأس، السيدة إيلات تريد أن تعتذر إليك.

- لن أصعد يا عم جبر.

- لا تفسد الأمور يا إسماعيل أكثر مما فعلت، هيا اذهب.

لم أكن قد التفتّ إليه بعد ولكني شعرت به وهو ينحني على وجهي، ويتفحصني، ثم ذهب وأحضر لاصقًا طبيًا صغيرًا وجذبه على وجهي بعد تفريغه من ورقته فألتصق به.

وفي الطريق إلى غرفتها ولسبب لا أعلمه نزعت اللاصق، ورسمت على وجهي ابتسامة باردة.

***

لم أغضب من كذبة جبر عندما ابتدرتني أول ما دخلت الغرفة:

- أشكرك يا إسماعيل على رغبتك الطيبة في الاعتذار، أنا أيضا يجب أن أعتذر إليك على الألفاظ السيئة التي قلتها.

كانت راقدة على فراشها وسيماء المرض عادت إليها أشد مما كانت، الأوراق التي مزقتها قد جُمعت في سلة صغيرة إلى جانب سريرها، وشممت رائحة عطر خفيف، عطر رجالي.

- أنا من تحامقت يا سيدتي، ما كان يجب أن تصل الأمور بيننا إلى هذه الدرجة.

- أنا غاضبة يا إسماعيل، غاضبة منك، وهذا المرض يجعل أعصابي تنفلت بيسر.

- وإلى متى ستظلين غاضبة؟

- حتى تفكر، أقصد حتى تعيد النظر.

- في أي شيء؟

قالت في عصبية:

- تسأل وكأنه ليس بيننا موضوع معلق، أنت تجعلني أشعر أنني حمقاء يا إسماعيل، بدون قيمة، أقصد رغبتي في رؤية نصوصك عن هاجر، ورغبتك في إخفائها عني، رغم أنني أستشعر أنك تضعني في الكتابة بمنزلة عرابتك، ولكن دعنا من هذا، قلت أرغب في رؤية هذه النصوص بجنون وأنت ولا هنا، أخبرني، للعلم ليس إلا: رغم أنني تزوجت وكدت أن أنجب ولكني لا أعرف، هل يخفي الفتي أول علامات بلوغه عن أمه، عن سبب وجوده في هذا العالم، هل يخفي عنها أمرا كهذا؟

أجبتها باسما:

- نعم يخفيها.

- ولو، حتى لو كان صحيحا، هذا عن أمومة اللحم والدم، ولكن أمومة الكتابة أكثر اتساقا، سأخبرك بأمر يا إسماعيل ولكن لا تسئ الظن بي، أنا أسعى لاكتمالك، لتصبح نموذجيا، فالكاتب مثل الرسام، حتى لو لم يرسم إلا الطبيعة يجب عليه أن يرسم جسدا عاريا، الجسد العاري بمثابة مقياس الرسم لخريطة الحياة، فأنت لا تستطيع أن ترسم شجرة ولا شمسًا بدون أن ترسم عضوا تناسليا، هل تعرف ما الأمر المرادف لرسم جسد عارٍ في الكتابة، إنها مغامرة التوغل في هذا الجسد، النصوص الإيروتيكية، إن الكاتب لا يستطيع أن يقول أنه قد صار متحكما في أدواته وهو لم يكتب نصا إيروتيكيا، وهو لا يستطيع أن يتحكم في إفرازاته وهو يكتب، الخجل لا يصنع كاتبا يا إسماعيل، قد تحتقر الأمر ولكن لابد أن تمر من خلاله.

- كل هذه تشبيهات سيئة.

- ولو، الكتابة نفسها عادة سيئة، ومأساتك مضاعفة يا إسماعيل، أنت أصولي، اعترف بذلك، رباك أ.سمعان على يده بعناية، كما أنك تفتقد إلى الشغف والرغبة في هذه الأمور لأنك لم تجرب، ولأنك

خجول، والكتابة مراوغة شقية لعوب، ولتسطر اعترافها لك كاملا لابد أن تكون في قمة عنفوانك، لابد أن تحبك، وتعشقك وتتعلق بك.

- أنا شخص لا طموح له ولا أريد اعتراف الكتابة اللعوب لي ، كما أنني لا أحتاج إلى الحب لأكتب، أنا بارد كما تفضلت بالإيضاح منذ قليل.

- فعلا كما قلت، لقد أخطأت بالحديث معك، أنت سخيف وسمج ولن تستجيب بشكل دبلوماسي، يجب أن يدق أحدهم على رأسك.

عندئذ انغلقت روحي على الفور، واحتشدت بغضب وكبرياء للمرة الأولى في حديث مع إيلات.

- إيلات، لو كررت الكلام في هذا الموضوع سأترك القصر إلى غير رجعة.

ولم تعد إيلات خطوة للخلف، بل اندلعت بشرارتي، وصرخت بصوت بُح من العصبية ونوبة البرد.

- وهل تهددني؟!، الباب مفتوح، يمكنك أن تغادر الآن لو أردت، أنت شخص عنيد ولا يمكن احتواؤك، لا عجب أن أ.سمعان لم يُجِزْك للعمل في مكان آخر.

انحنت على الريموت، عبثت في أزراره بغضب، أطفأت الإضاءة وأتمت فتح الستائر، ثم نفخت في حنق وعادت لغلق الستائر وإضاءة المكان بالكهرباء، قلبت الريموت في يدها وبأظافرها الطويلة الملونة انتزعت غطاءه ودقت به على طرف الكومودو فسقطت الحجارة الجافة على الأرض في صوت مكتوم، وكانت تهمس بصوت مسموع وهي تفعل:

- أنت تسخر مني، يا ربي، إنه يسخر مني، ما كان يجب علي أن اطلب منه هذه النصوص، لن يعطيها لي، إنه حتى لا يملك الرغبة في

أن يناولني هذه الحجارة التي سقطت على الأرض وأنا مريضة، ولكني لا أريد شيئًا، لا النصوص ولا الريموت.

قذفت الريموت عندئذ على الستائر المسدلة فاصطدم بها وسقط على الأرض، ثم صرخت في وجهي:

- هل يمكنك على الأقل أن تفتح الستائر لتتنفس امرأة مريضة؟

تحركت إلى النوافذ، واخذت أجذب الستائر بينما هي مستمرة في الحديث.

- لا يمكنك أن تحبني يا إسماعيل، لا يمكنك أن تحبني وأنا أعرف ذلك، أنت تشبهني، قلبك في رأسك مثلي، والقلوب التي في الرأس لا تصلح للحب، ولكني كنت أتوق لشئ يهزني، يحرك بحيرتي الراكدة، ولكن هذه النصوص ليست من حقي، أليس كذلك؟، إنها من حق هاجر، وأنا لست هاجر، ولا أستطيع أن أكون.

ارتعدت من غضبها وإحباطها ودمعت عيناي، فقلت مشفقا:

- لو كان هذا آخر ما سأفعله في حياتي سأقوم به من أجلك وعن طيب خاطر، سأعطيها لك ولكني لا أستطيع الآن.

نظرت إليّ كأنها تتبين روحي التي نطقت بها هذه الكلمات، وعندما تبينت صدقي أخذت تتضرع.

- لماذا لا تستطيع؟، هل تخشى أن أنتقدك، أعدك أنني لن أفعل، لا كقارئة ولا كامرأة.

كدت أن أهتف بها: وهل تعتقدين أنني أحتاج إلى نقدك، لم أعد أحتاجه، لم أعد أرغب إلا في وجودك، عينيك المسلطتين، ووجهك المطل من أعلى، وروحك المشعة في هذا القصر البارد.

- عندما أموت سأوصي بذلك، سأوصي بأن تؤول ملكية أوراقي السرية كلها إليك.

- هل تسخر؟، أعرف أنك لا تفعل، ولكن اطمئن، ستعيش طويلا

وستكتب أكثر مما ترغب في كتابته، وسأكون موضوع إحدى حكاياتك يا إسماعيل، السيدة العجوز التي رفضت طلبها ذات يوم، السيدة الغنية المشوهة التي طلبت منك نصا ولم توافق على إعطائها إياه.

- لم أرفض.

- إذن، اكتب نصّا لي، نصا إيروتيكيا، تخيل فيه أي امرأة، ليس بالضرورة هاجر، ليس أبدا هاجر، اشتهِ أي امرأة واكتب عنها نصا وأعطني إياه.

كان هذا فوق احتمالي، ووجدت نفسي ألتحم بغضبي من جديد، وأنظر إليها فينفثئ غضبي بنظرات الضراعة في عينيها، وأثر المجاهدة تنبعث من ظهري حبات من العرق البارد، ولكن العرق تحت إبطي كان كريها، مثل عصارة آثمة، وأخذت الدنيا تدور حلزونيا من وطأة الغضب المكتوم.

- ولماذا أنا؟، لماذا؟

فقالت بعد تردد وفي صوت خافت عميق قد زايلته بحة البرد:

- لأنني أرغب في ذلك، لأنني أهتم بقصص الحب، أشعر بها تحييني، تمنحني قطرات من الندى ينقذف في جسدي الجاف بعض من الرطوبة والحياة.

- عندك كل هذه الكتب والروايات التي ذكرتيها، لماذا نص مني أنا بالذات؟

- لقد قرأتها، مرارا وتكرارا، ولكنك لا تعلم، الفارق بين أن تشاهد قبلة في فيلم وأن تفعلها بنفسك، هو الفارق بين نص حي كتبه صاحبه وبين نص آخر مكتوب مسبقا.

- ولكنني لا أجيد الحب، أنا فاشل جدا في هذه الأمور، لقد عشت حياة قاسية جدا، أنا نفسي أستشعر هذه القسوة في داخلي، أنا حتى لم أبكِ على جدي الذي مات.

- تماما كما تصورت، هذا ما تصورته عنك، أبعد الناس قدرة على المنح هم أبعد ما يكونون ظاهريا عن ذلك، هتلر الدكتاتور الذي قتل نصف اوروبا ودكها كان عاشقا رومانسيا، وأنت مثله، أنت تحتاج للكتابة كي تفض خاتم القسوة عن قلبك يا إسماعيل، ولكن النتيجة ستكون مدهشة صدقني.

ظلت عيناها معلقة بوجهي الحائر، الخواطر تضيئه وتطفئه حتى أظلم كليا وأنا أقول.

- لا أستطيع يا إيلات، لا أستطيع، حتى لو طلبت النص مني بشكل رسمي، أنا أفضل مغادرة القصر والعودة إلى مدرسة أ.سمعان على أن أقوم بفعل أمر كهذا فوق إرادتي.

صُدمت ولكنها تماسكت سريعا، ثم همست:

- حسنا حسنا، لا عليك، أنت أصلا لم تكن لتكتب نصا بالطلب، أنت نهم، شهواني، هذه هي الحقيقة الكاملة، وأنا ببساطة كنت أريد أن أعرف كيف يمكن أن يشتهي رجل مثلك، فقيه متعصب ملتح، مر من تحت يديْ سمعان الخطير، خجول منطو، كنت أريد أن أدخل في رأسك ولكنك لست شجاعا كفاية لتجعلني أفعل، لن تعطيني نصك الشهواني.

- الشهواني؟

لم تلتفت إلى استنكارك وقالت:

- هيا انصرف من هنا، لن أضايقك بعد الآن، ولن أطلب منك نصوصا، أنت حر طالما بقيت في هذا القصر، تأكل وتشرب وتنام وتقبض مرتبك دون أن تُكلف بشيء إلا إذا أردت مساعدة الخدم في المطبخ.

- إيلات، لا تجبريني أن..

- اسمعني أولا قبل أن ترد، اعتبر حواراتنا وزيارتك لهذه الغرفة

وكل شيء كل شيء حلمًا أو كابوسًا، وأتمنى أن تنسى وجهي أيضا، هيا انصرف.

***

## الفصل السادس

الكلمات قبعات الكاتب، يدس فيها أرانبه، تكون حية أول ما نسطرها، حية وجامحة ومؤلمة، بعد فترة تصبح توابيت، الكاتب الجيد يخنق ما يكتبه ليصبح قابلا للتداول على الفور، أما أنا فأصبح رخوا بصورة بائسة بعد كل مرة أكتب فيها، وتجتاحني أمنية وحيدة، أن أتعلم لغة لا يمكن تداولها إلا أسفل الماء، لغة كلها فقاقيع وإشارات، وأن أطفو هناك كقنديل بحر يلدغ كل من يحاول الاقتراب منها.

إسماعيل الكاتب

كم مرة سأغادر هذه الغرفة وأنا أحمل الخيبة على كتفي مثل بهلوان مجنون، يقهقه ويهز ساقيه ويفح عند أذني بالكلام البذيء ويبول العرق البارد على ظهري ثم يعود يهز ساقيه ويقهقه، ولا سبيل للتخلص منه إلا بمغادرة باب القصر، وأنا أعرف، ولكني لا أستطيع، لا أستطيع ولو على سبيل التهديد الطفولي، باب غرفتها لا ينغلق خلفي، مفتوح ولكن بلا خيار واحد للعودة، الممر يضيق كلما سرت فيه والسلم زلق ولا أحد حولي، كأني داخل رحم يطردني في ميلاد مبتسر إلى العالم، منتفخًا بشعور لا أستطيع تحليله، في فمي طعم شيء كريه تناولته ولا أتذكره، خائف، خائف من التنفس خارج القصر، خائف من السير على الأرض بدون صلاحية وجود طريق عودة إلى غرفة إيلات، رغم أنني أعلم جيدا أنها غير جادة ولكني خائف، تفقد الجدران ودهنا القديم تدريجيا كأنها حرارة جسد مات منذ قليل، حتى جدران البدروم، تصير زلقة ولامعة وجديدة وغريبة عني كلما خفضت بصري عنها وعدت لأصوبه، كل ما أحتاجه أو ألمسه يطفو حولي كحاجيات غريق (ملابسي التي أرتديها، الطعام الذي أتناوله، نظراتي إلى الخدم وإلى جبر، خطواتي ذهابا وإيابا)، كلها تحتاج إلى إعادة تثبيت بكلتا يديّ لتبقى وأستعملها من جديد، وجبر ينظر إليّ كأنه يأمل في أن يرى ما دار بيني وبين إيلات من خلال جلدي، ثم تضيق به الرغبة والفضول فيجلس إلى جواري في ذات يوم بعد أيام كثيرة ويسألني:

- يبدو أن برد السيدة قد انتقل اليك.

- أنا بخير والحمد لله ولكن الحوار بيني وبينها لم يسر كما ينبغي.

وعاد الصمت ولكنه مزجج بالفضول الجديد الذي زرعت بذرته.

- كيف، وما الذي حدث؟

- لا تعجبها نصوصي، أنا أكتب بطريقة سيئة يا عم جبر.

- أنا لا أفهم في الكتابة يا بني، ولكني أعرف تاريخ السيدة وأفهم الناس، أنت تكتب بشكل جيد للغاية وإلا ما اهتمت بك، إنها لا تهتم بأنصاف المخبوزين.

- وهذا الشخص الذي يكتب بشكل جيد أخبرته أنها لن تطلب منه الكتابة بعد الآن، لم تعد ترغب في رؤية ما يكتبه.

- ولكنك لن تتوقف عن الكتابة لمجرد أنها أخبرتك بذلك؟، اكتب يا بني، لا أخفي عنك، للمرة الأولى أشعر أن هذه الوظيفة لها فائدة تعود على ساكني القصر، أقصد: الأمور صارت أكثر اتساقا مع السيدة، لعلك لا تلاحظ، ولكن أنا ألاحظ، صارت تأكل بشكل منتظم ولم تعد تصرخ في وجوهنا، ولا تبكي، ولا تتهمنا كما في الماضي بأننا نريدها أن تموت، وأننا لا نحسن خدمتها، وأننا نشكوها إلى السيد، صدقني، منذ جئت صارت الأمور أفضل، والخدم يحبونك، أنا أحبك، والسيدة تحب الحديث معك، وتحب أن تكتب لها، فلا تتوقف.

- لا أتوقف عن ماذا؟، أخبرتك أنها لم تعد تطلب مني شيئًا يا عم جبر.

- اكتب وأنا من سيرفع ما تكتبه إليها يا بني، لصالحك ولصالحها، ولصالحنا.

تيبست الكلمات عندئذ على فمي، وكدت أن أخبره عن مشاعري تجاه إيلات، وعن إحساسي الآن، وأنا جالس معه، منغمس في الدفء بينما قلبي وعقلي يرتعدان من البرد وترتعد معها كلماتي، عقلي وقلبي اللذان يسافران بلا هدف بعيدا جدا عن القصر، في المجهول، في قبر بارد أسفل عشب يعلوه الصقيع، أو بئر يخدش الصقيع فيه أصابعي وأنا أحاول تسلق حجارته إلى السماء، وأنني لأول مرة في حياتي أحتاج إلى نبوءة وإلى طمأنينة، أن تقرأ عرافة كفي وتكذب علي وتخبرني أنني سأنسى إيلات إذا تزوجت امرأة أخرى،

أو تُصدّقني وتخبرني أنني لن أنساها وسأحبها مهما جرى وسأظل أحبها ولا فرار من مصيري معها، كدت أن أخبره أن حبها كان خيارا في البداية، ثم أصبح جبرا، كان ودودا ثم شهر عند حلقي سكينا، ورغم كل محاولاتي لإيقاف روحها من التسلل لا تتوقف عن التنكر والدخول، فهي بين ملابسي مثل أنفاس غريبة دافئة، وعلى جلدي كجمرة متقدة، فتمر من جلدي ولحمي وعظامي ويا ليتها تنفذ إلى الناحية الأخرى، فتنطفئ أو تحترق، ولكنها مختبئة في مكان لا يشبه إلا القلب ولكنه ليس القلب، حتى لو لغمت قلبي وفجرته، لن أنساها، جربت أن أنساها قبل ذلك، ولكني أحتاج إلى أكثر من الرغبة، ربما أحتاج إلى مشرط جراح، وإلى تخدير، وإلى أن يُشل وعيي تماما، فمجرد التفكير في فراقها يجعلني ألهث وأنا جالس، ألهث فعليا، لقد كتبت نصا في نسيانها منذ يومين، والآن يدور في ذهني أن نفس النص لا يصح إلا على وجهه الآخر، على النقيض منه، نص في صعوبة نسيانها، ولا أعلم أي الوجهين أصح، لم أعد أعلم، حتى الكلمات تعصيني.

ولم أدر بنفسي إلا وأنا أتضرع في لهجة منداة بالبكاء:

- ولكني لم أعد أريد الكتابة يا عم جبر، الكلمات تزيد حالتي سوءًا، تجعلني أحبها أكثر، أحبها وأريدها.

صُدم جبر للحظة، كأن انهياري أسوأ ما توقعه، ولكنه بهدوء رجل عاش هذا الموقف عشرات المرات قال وهو يربت على كتفي:

- وفر حبك لتضعه في قلب مفتوح يا بني، إنما إيلات، إيلات صندوق مغلق، مغلق على أشياء جميلة جدا، مفتاحها لم يعد مع أحد، ولا حتى مع الرجل الذي امتلكها ذات مرة، وتسببت كل محاولاته لفتح هذا الصندوق في أن يتحطم فيه أكثر مما بقي، وفر حبك يا إسماعيل واذهب لتنام.

***

- ادخل يا إسماعيل، تفضل، أخبرني جبر أنك تريد مغادرة القصر

لفـترة، أجـازة، كـم لديـك مـن أيـام عندنـا، واحـد وعـشرون يومـ في سـنتين، أنـت هنـا منـذ سـنتين يـا إسـماعيل، لا مفـر مـن أن أقـول الكلمـات المعتـادة: يـا ربي كـم أنـا مندهشـة، مـروا كأنهـم أسـبوعان.. اجلـس، لمـاذا لا تجلـس، ليـس هنـا أكـثر مـن المقاعـد.

غرفـة الأضيـاف الواسـعة، عـلى نهايـة ترابيـزة السـفرة منفضـة سجائر وفي طرفهـا سـيجار مشـتعل لا تمسـه، فايـلات لا تدخـن، تعـبئ الهـواء وتستنشـقه، تدخـين سـلبي فقـط.

- كم يومًا تريد؟

- قد آخذ الأربعين يومًا دفعة واحدة.

- لماذا، هل ستصعد الهيمالايا؟

- لا...سأبحث عن عمل.

- وهنا؟، ألا تعتبره عملًا؟

- هنـا أشـعر بشـعور غـير مريـح يـا سـيدتي، لا أحـد يطلـب مـني الكتابة، ولا حـتى أنتِ.

- ولكني طلبت منك عدة مرات أن تكتب لي ورفضت، أليس كذلك؟

- لم أطلب مقابلتك لنتحدث في ذات الموضوع يا سيدة إيلات.

- لا لا طبعا، أعلم أنك منزعج، اعذرني.

ثم أخذت تتأملني.

- هل تعرف يا إسماعيل؟، أنا مريضة بولع غريب.

- ولع آخر غير ولع جمع الكراسي؟

- نعـم، ولـع بتحطيـم الأشـياء الجيـدة في حيـاتي لأرى إلى مـاذا ستصير، إنهـا أشـبه برغبـة الله في اختبـار مؤمنيـه وتمحيصهـم حـتى يسـقطوا في الخطيئـة أو يصـيروا ملائكـة، السـبب في هـذا الولـع مربيـة في طفولـتي أخبرتـني ذات مـرة أن الـدق بيـد هـاون نحاسـية عـلى قـرط مـن الذهـب

لا تجعله يتبطط بل تحيله ترابا، الحق يقال أنها كانت تخيفني من إيذاء حلياتي الذهبية، منذ ذلك الحين وكلما رأيت ذهبا تتملكني رغبة جارفة في أن أدقه بيد الهاون، لذا لا أرتدي الذهب، ربما أحتاج إلى علاج نفسي، أو يكون لدي الحماقة الكافية لأجرب، سأفعل ذات يوم، أدق على قرط من الذهب، لابد أن أفعل، عندئذ ربما أكف عن الدق على رؤوس الرجال، لأن الرجال أثمن من أقراط الذهب، الرجال متعة لا تعوض يا إسماعيل، ولا يكره الرجال إلا امرأة معقدة، وأنا لست امرأة معقدة، أنا فقط أريد أن أتناول الرجال من بعيد، بدون أن ألمسهم.

- وهذا أكثر ما يعذب رجلًا يا سيدتي، تناوله من بعيد.

- أعرف ذلك، وأعترف أنني أردت هذه النصوص بشدة وأنت عذبتني برغبتي تلك، لأنني أستخدم وسائل ضغط سخيفة لا تجدي نفعا، أقصد أنني لا أمتلك حقوقا كصديقة، أقصد يعني، لا يصح، حقوقًا محدودة جدا لا يعضدها حتى الكم مائة دولار التي أدفعها لك.

ثم نظرت إلى وجهي خلسة وكأنها تستشف أثر كلماتها.

- أنا سخيفة ونزقة، ولكنك بارد يا إسماعيل، قلبك بارد ويدك هذه الضخمة باردة، ويوم أن تدب فيك الحرارة ستموت بأزمة إحساس، صدقني، لن تتحمل قلبا حيا ولا أعضاء دافئة، على العموم يؤسفني أن لا أنفذ لك طلبك، لا تستطيع مغادرة هذا القصر إلا بتوقيع من سمعان، العقد الذي قمنا بتوظيفك بناء عليه يوجد به هذا الشرط الهام للغاية، لا أعرف ما الذي فعلته لأستاذ سمعان ليضع هذا الشرط الغريب، ولكن بالتأكيد لم يطلب منك أن تكتب له نصا إيروتيكيا.

ابتلعت إهانتها وقلت بكبرياء:

- أنا شخص حر يا سيدة إيلات، لا يستطيع أ.سمعان ولا أنت أن تمنعاني من مغادرة هذا القصر.

- لا طبعا، لا يمنعك أحد، الباب كما تقولون يفوت جمل، لا نغلقه إلا ليلا مخافة اللصوص، كل ما في الأمر أن هناك أصول، وسيتم إبلاغ المدرسة بمجرد أن تغادر.

- وكيف أحصل على توقيع أ.سمعان وأنا لا أستطيع مغادرة القصر إلا بإذن منك؟

- يمكنني أن أدبر لك السفر إليه والعودة في نفس اليوم عن طريق سيارتنا الخاصة، وسنخصم ثمن البنزين من راتبك.

- ولو كتبت لكِ النص الذي تريدين؟

- سيمكنني حينها أن أسمح لك بالمغادرة بشكل ودي، وسيسعدني مغافلة مدرسي هذه المدرسة الذين لا يُطاقون، وسأدفع ثمن البنزين من جيبي الخاص.

- لماذا؟

- لن تستطيع أن تفهم لو أخبرتك، كما قلت لك منذ قليل، أنت جيد التوصيل للحرارة، ولكنك بارد، أنت معدن نفيس، ولكنك معدن في نهاية الأمر، علاوة على ذلك نحن شخصان مختلفان تماما، كائنات تتصادم دون مسوغ واضح، كالحديد بالزجاج، أو الحديد بالطين، أو الطين بالنور، أو الدب بالفراشة، يجب أن نحافظ على مسافة الأمان بيننا، بهذه الطريقة لن يحدث تصادم.

صدمتني الطريقة التي تحدثت بها، بغض النظر عن كل ما حدث، كان هناك جزء منها لا يمكن أن يمرر هذه الكلمات الباردة، وهذا ما جعلني أفكر في الاقتراب منها، وأن أربت على كتفها، ولكنها كانت قريبة جدا، مثل أبعد نجم في المجرة.

وكانت حماقة مني أن أسألها، ولكن بدا لي حينها وديا ولطيفا ورائعا أن أفعل:

- هل طلبتِ من جبر عندما مرضت أن يشير في حديثه إلى رغبتك

في مقابلـتي؟

صاحت باستنكار:

- أنا؟

- خمنت ذلك.

- لا، أنت من طلب ذلك وألح عليه.

عندئـذ انتبهـت إلى مـدى الإسـاءة في كلامـي إلى كبريائهـا واعتزازهـا بنفسـها، فقلـت بسرعـة:

- بالفعل، أنا ألححت في ذلك.

وكانـت هـذه الكذبـة أسـوأ مـن الحقيقـة، واشـتبك حظـي التعـس في أعماقهـا الكئيبـة اليائسـة.

- وكأنـك لا تريـد إلا عـذابي يـا إسـماعيل، لمـاذا قلـت ذلـك، مـا الـذي فعلتـه لـك لأستحق كل هـذه القسـوة منـك؟، هـذه السـخرية، ولا تـزال تكرر ذلـك كلما ظننـت أنـك قـد كففـت عنـه.

ثم جففت لهجتها بسرعة وبقدر المستطاع وهي تردف:

- لا يهـم الآن، لقـد مـر، ومـا مـر قـد مـات ولا داعـي لأكـرره عليـك كل لحظـة، أليـس كذلـك، مـا أردت أن تفهمـه أن القلـوب الـتي في الـرأس لا تصلح للحـب، وأن حاجـتي لنصوصـك السريـة حاجـة بيولوجيـة لا أكـثر، حاجـة لا دافـع لهـا، ولكـن العالـم الأحمـق يريـد أن ألتمـس لهـا دوافـع ومبررات، مثـل حاجـتي لقتـل طليقـي، ونحـن ضائعـان بهـذا العالـم في الطريـق إلى احتياجاتنـا، والآن، هـل سـتعطيني نصوصـك؟

- لا.. سأنتظر السيارة التي ستأخذني إلى المدرسة.

- هكـذا إذن، حسـنا، أنـت عنيـد، حسـنا انتظـر السـيارة، وسـيكون عليك أن تنتظـر طويـلا، لدينـا إصلاحـات بهـا، والسـيارة الأخـرى مع حسـن.

- من حسن؟

- ألا تعرفه، إنه أبي، ذلك الذي تقضم من رصيده في البنك شهريا مقابل عمل لا تقوم به، ولكننا سنجد حلا لهذه المعضلة عن قريب، سنجد حلا، ولا مفر من أن تحتضن كراهيتي لك بداية من اليوم، أما أنا فقد أكتب الليلة نصا ماجنا شهوانيا، أدلل نفسي به، والآن انصرف من هنا، لم تعد لك حاجة للبقاء، ولم تعد لي رغبة في وجودك.

مَما أخبره (د)، مهام الإعدام التي كلفوه بها بعد التحقيق كانت المهام الأسوأ، وكأنها جُعلت خصيصا لتكديره، استلام زبائن من أماكن عشوائية، مناطق شعبية على أطراف القاهرة أو محافظات بعيدة، عشرات النساء والأطفال والرجال رأوا وجه حسين بل وتكلموا معه قبل أن يأخذ زبونه إلى العدم، الزبائن أنفسهم ضعفاء أو همجيون من الصعب السيطرة على تصرفاتهم، بل وبعضهم يعرف أنه في طريقه للقتل، ينظرون إلى حسين في ريبة، وفي أقرب فرصة يتركون أحذيتهم في السيارة ويهربون جريا، بعضهم يواصل الهرب، والقليل منهم من يعود متشككا عندما يلاحظ أن حسين لم يطارده.

مع تكرار هذه المهام اضطر حسين إلى اهمال الشرط المهم في كتيب التعليمات وهي أن لكل زبون أمنية أخيرة.

التهم لم تعد واضحة كأن من سجلها تعمد الإيهام، أغرب التهم على الإطلاق هي التواجد، التواجد في مكان ما (شارع أو ميدان) وفي وقت معين، تم تسجيل وجوده عن طريق كاميرات الشوارع دون أن يدري، هذه تهمة تحتاج إلى بحث لكيلا يُخل حسين بنقاء مهمته، كان عليه أن يتصفح مواقع الصحف يوميا، ويسجل في ورقة معه الأوقات والأماكن التي تحدث فيها مظاهرات أو صدامات، وفي لحظة القتل يضطر إلى تخمين تهمة.

كان الإحساس كله عدميا وفي أحسن أحواله كان مريعا وممرضا كأنه يرسل إلى السماء أناسًا مقتولين سلفا، ويدفن جلودا مدبوغة وعظاما نخرة..

لولا تحذير (د) ما استطاع حسين احتمال أن يتم الإعدام بهذه الطريقة، وجبة تكدير كاملة، حتى المنغصات البسيطة لم يهملوها،

الطريقة التي يكتبون بها الأسماء، كيف استطاعوا إدراك أن الخطأ في رسم الأسماء المكتوبة إملائيا يضايقه، وأن همزة ناقصة فوق ألف أو شدة نسيت وتم إهدارها تقطع خشوع القلب مثل فردة حذاء واحدة أمام مسجد ومقلوبة إلى السماء، أما وضع الهمزات أعلى و أسفل بهمجية نسبب له التياثًا في لسانه، تصبح الهمزة مثل بعوضة ذهبت في المكان الخطأ، الفم أو الأنف، علاوة على الأسماء التي يمكن كتابتها بطريقتين، فيضطر إلى التحدث مع الزبون لتصحيح الاسم، كيف استطاعوا معرفة ذلك!

ولكنهم من حين لآخر كانوا يهبونه مهمة مشبعة، بلا أخطاء، مهمة يمكن بها إصلاح الفوضى بداخله، مهمة تستحق الاحتفال، وفي الواقع صار الانتهاء من مهمة إعدام مناسبة تستحق الاحتفال، أي مهمة، المهمة النظيفة والمهمة القذرة، وكان الاحتفال يلزمه إسحاق، وإسحاق متواجد دائما، وسواء اتصل به حسين قبل أن ينفذ الإعدام أو بعد تنفيذه لا يخيب ظنه أبدا، يُخلي الشقة فورا ويستقبله..

الحق يقال أنه بسبب البؤس الذي يعانيه في مهام القتل استطاع إسحاق في فترة وجيزة الوصول إلى أعماق بداخل حسين لم يصل إليها أحد سلفا، ولا حتى عمه الذي علمه الكتابة قبل أن يتعلمها في المدرسة، وفي لحظات معينة كان حسين يأتيه يقين قوي أن جده بُعث في جسد وحياة إسحاق، ليرشده أو يشجعه، لدرجة أن حسين بدأ يخبره بكثير من أسراره، حتى المخزي منها، مع أنه ظل عاجزا على أن يخبره بطبيعة مهنته.

وذات ليلة استيقظ حسين من نومه في ساعة لا يستيقظ فيها عادة، ولم يكن قد غادر أحلامه، وأحلامه لم تكن قد غادرت داخله، تجول بداخله في صفاء نفس لم يجربه من قبل، وقبض على قلبه يقين لا يهتز في أن هذه المهام المُمرضة ستنتهي بعد أن يتبين

النظام أن قاتلهم عاد لرشده، و أنه بدأ ينفذ الأوامر حرفيا، وأن أيام القتل الجميلة ستعود، أيام القتل الذي يعود منها إلى صالات التدريب لا إلى شقة إسحاق

ثم تذكر شيئًا آخر كان سببا زائدا للثقة، أن الميعاد الآخر لظرف إسماعيل يوشك على الاقتراب، يعد حسين الأيام عدا، لدرجة أنه خدش التاريخ على تابلوه سيارته

كل شئ كان صافيا، وباعثا على الأمل، قبل أن يقوم حسين بمهمته الأخيرة.

***

التقط حسين زبونه من أطراف شبرا، مقهى شعبي يقع بجانب مستشفي حكومي ضخم، اسمه المقهى (البروستاتا)، لاحظ حسين أن المنطقة مليئة بالمقاهي والمحلات المليئة بالذباب، وكلها مسماة بنفس الطريقة، كباب جزر لانجرهانز، بقالة الكوليسترول، فول وطعمية الضغط العالي.

مقهى البروستاتا يقدم مشروب الشعير، ويجد فيه تجار (شنطة) الأدوية المنشطة للجنس زبائن ممتازين، اضطر حسين إلى الترجل، والسؤال عن زبونه.

المكان في الداخل استقبله برائحة بول مركزة، أشار له النادل إلى جانب من المقهى مزدحم وتنبعث منه تأوهات وصيحات حسبها حسين في البداية رهانا جماعيا على لعبة طاولة، عندما اقترب لاحظ أن ثمة ثلاث رجال على الأقل قد خلعوا سراويلهم وجلسوا بملابسهم الداخلية، وفوق رأس هذا الزحام كانت يافطة صغيرة مكتوبة بخط اليد (محمود ملواني: المعالج الروحاني يخلصك من حصوات الكلى في دقائق)، قامة حسين الطويلة مكنته من أن يرى المشهد، طست ملئ بالماء والدم وقطن طبي يجلس إليه رجل عار من أسفل جالس على مقعد مختلف عن مقاعد المقهى، ورجل

أشيب يرتدي قفازًا طبيًا رخيصًا كلما مرر أصابعه على البطن العارية وعلى العضو الجاحظ بشدة أخذ الآخر يتأوه تصاعديا ويطقطق بلسانه.

زبون حسين لم يكن المعالج ولا أحد المتفرجين، بل رجل من الرجال الثلاثة الذين خلعوا سراويلهم تمهيدا لإجراء العملية، ولإقناعه بارتداء سرواله والتخلي عن دوره الذهبي في طابور معالج الحصوات اضطر حسين إلى تهديده:

- هذه أوامر شركة التوصيل، الوقت الزائد سيضاف إلى الفاتورة، وهذا سيُغضِب رئيس الشركة بشدة.

في مقعد سيارة حسين الخلفي أخذ الزبون يتلوى ويتقلب وهو يشد إبزيم حزامه، ثم تنهد أخيرا وهو يشد ملابسه على قميصه الداخلي المتسخ.

بمجرد أن انطلق حسين بسيارته قام الزبون نصف قومة وتدلى بنصف جسده العلوي على المقعد الأمامي وأخذ يحيط رقبته بخناق من أسئلة كثيرة عن المكان الذي سيذهبان إليه، ولكن حسين لم يجبه، إلا أنه لم يُخمد لسانه على الفور إلا بعد أن أخبره حسين:

- أنا مجرد سائق توصيل يا سيدي ولا أعرف إلا العنوان.

ونفخ حسين بضجر ليقطع عليه السبيل في التماس طرق أخرى لمضايقته، وتمدد أمامهما طريق أسفلتي أقل سوادا من رؤية حسين وضجره.

لكن القشة الزائدة على ظهر البعير أتت سريعا، فبعد نصف ساعة فقط طلب منه الزبون أن يركن السيارة لأن الحصوة تحركت.

بجوار شجرة على الطريق توقف حسين، قفز الزبون فوق حاجز الطريق الخرساني ووقف أسفلها جاعلا ظهره للطريق، دفع كفه بطول ذراعه إلى الشجرة كأنه يمنعها من السقوط فوقه، وأمسك

عضوه باليد الأخرى، وكفأ وجهه، لم يسمع حسين خرير بول بل تأوهات، تأوهات تغلظ وترق، تصل للشخير ثم تنحدر إلى الشكاية، وفي النهاية وبدون أن يشد سرواله جلس أسفل الشجرة وأخذ يبكي، فكر حسين أن يلتقط سلاحه ليريح هذا الكيان البائس من آلامه وينفذ مهمته في ذات الوقت ولكنه توجس، باق على النفق نقطتان من نقاط التفتيش المرورية، وحدسه القوي يلح عليه بأن هذه المهمة خطرة ومدبر لها بعناية، مهمة أخيرة، إما أن يحتملها للنهاية أو يوقعوا به وينهوا خدمته، اتهام بجريمة قتل.

ثم بدا لحسين أن يفتح الظرف بينما ينتظر انتهاء الرجل من بكائه، وضع الظرف بين ساقيه ولأول مرة في حياته فض الظرف بلا إحساس بالرغبة، أخرج الورقة وفك طياتها، كانت فارغة من الكتابة، فارغة تماما، ارتعد قلب حسين وغاضت الدماء فيه، ورقة فارغة، لا اسم ولا تهمة، ولا يمكن له أن ينفذ مهمة بلا تهمة لأنه لا يوجد بند في كتيب التعليمات يُعلمه ما الذي يفعله بورقة فارغة.

بعد أن عاد الزبون وبمجرد أن انطلق بالسيارة أخذ حسين يسأله، محاولا استشفاف أي تفاصيل عنه.

ولكن الزبون لم يرد عليه من شدة ألمه، لم يزد عن أن قال وكأنه يكلم نفسه:

- الغلطة غلطتك، كان يجب أن تدعني أجري العملية عند الملواني.

نقطة المرور الأولى أكدت شكوك حسين تجاه مهمته، فقد التقفه ضابطها بكثير من الشك والتفحص، وسأله عدة أسئلة جعلت الزبون ينكمش في مقعده بدأب رجل لا تخلو أموره من ريبة، أخرج حسين خط السير المزور لشركة التوصيل ففحصه الضابط بلا عناية ثم أخذ بطاقة الزبون وأرسلها مع المجند الشاب إلى غرفة الكمبيوتر، وأثناء الانتظار نسي الزبون آلامه تماما من شدة الكرب، ولكن البطاقة عادت ومر حسين بسيارته.

عنـد أول مطـب صناعـي بعـد النقطـة المروريـة الأولى وعندمـا قلـل حسين مـن سرعتـه فتـح الزبـون البـاب وقفـز، بكثير مـن الحنق والاستياء قـاد حسـين سـيارته خـارج الطريـق وتوقـف، وانتظـر، مـن خبرتـه كان يعلـم أنـه سـيعود، وبالفعـل، عـاد الزبـون وكان متعرقـا بشـدة.

بعـد خمسـة كيلومـترات مـن هروبـه الأول كـرر الزبـون الهـرب، ثـم عـاد بعـد وقـت أطـول ممـا اسـتغرقه في المـرة الأولى، عندمـا عـاد كان يائسـا ومحبطـا، سـأل حسـين:

- هل ستقتلني؟، أعلم انهم أرسلوك لقتلي.

قال حسين ببرود:

- لماذا تقول ذلك؟

- بطاقتي مزورة، ومع ذلك لم يقبضوا علي لأنهم يعرفونك.

- أنا مجرد سائق توصيل يا سيدي.

- هل تقسم بالله على ذلك؟

اندهـش حسـين قليـلا، كانـت هـذه المـرة الأولى منـذ أعـوام يطلب منـه أحـد أن يقسـم بـالله عـلى شئ، وبـدلا مـن أن يفعـل سـأله وقـد وجدهـا فرصـة جيـدة لاسـتنطاق الزبـون:

- ولماذا تحمل بطاقة شخصية مزورة؟

ولـم يـرد الرجـل، كان الحـوار عبثيـا، ومـا يـدور بعقـل زبونـه أسرع مـن قدرتـه عـلى كبحـه، فبعـد الكمـين الثـاني صـاح بـه الزبـون: قـف، فتوقـف حسـين، نـزل مـن السـيارة ولـم يخـطُ خطـوة أبعـد ثـم عـاد ودخـل وبـدا عليـه الاستسـلام التـام لسـكين قـدره الثلـم.

لـم يُتـم حسـين الطريـق، قبـل النفـق بكثـير انحـرف بسـيارته دون اعـتراض مـن زبونـه، توغـل في الصحـراء لمسـافة لا تُسـمع منـه دوي رصاصـة إلا صوتـا شـبيه بانفجـار إطـار سـيارة، لـم تنتصـب الطبنجـة في الدواسـة، كانـت جاحظـة، وشـعر بالرصاصـة محتبسـة فيهـا، محتقنـة،

آلمته عند انطلاقها، ألصق الطبنجة بصدره وأطلق في موضع القلب وشعر به ينفجر، نشيش الدماء كان واضحا في هدوء الصحراء وهي تهدئ من حرارة السبطانة، تندفق داخل ماسورة الإطلاق وتطفئ ظمأ السدود والأخاديد التي وجهت الرصاصة وكأنها نقوش في معبد وثني.

كان الرجل جلدا رغم بنيته المتهاوية، صرخ فيه: ألم أقل لك ألم أقل لك، ولم يسقط، حاول حسين أن يُسقطه بركلة، أطاش الرجل بذراعه فتمكنت أصابعه من طرف قميص حسين وتشبث به، بصعوبة فكك حسين أصابعه وخلص نفسه، ثم لكمه عدة لكمات حتى غاب عن الوعي، وخنقه بيده.

كان هذا الزبون الأسوأ على الإطلاق، لم يكن يستحق أمنية أخيرة، ولكن الموت حققها له بدلا من حسين، فبعد أن انتهي حسين من خنقه فوجئ بانفراج عضوه عن سيال مستمر من البول، ورغم انقطاع نفسه، خرج من فمه زفير نتن بعد أن انتهى، ثم سكن تماما.

لم يدفن الجسد، قيده وسحبه بسيارته على سرعة بطيئة جنائزية، ثم رمى عليه قبضتين من الرمل، وعاد قبل أن تسود السماء بالليل، وفي الطريق اتصل بإسحاق ..

لو كانت هذه هي المهمة الأولى لحسين لربح العالم عدة أرواح سُجلت باسمه في السماء.

***

ولأول مرة منذ تعارفا انقبضت عليهما الصالة ككف بخيلة من المسرات، حتى علب المشروب البارد التي أتى بها إسحاق من ثلاجته ضنت عليهما بالرغبة، أما مروحة الجدار فلم تكن تدور إلا لترفع الشراشف ولا تعود إلا لتهبط بها، وكلما ارتفعت الشراشف وهبطت ذكرت حسين بموجة شاطئ، بالنور والظلام، بانقباض القبضة

وانبساطها، بالموت والحياة، بجفن يرف، بكل الأفعال الثنائية التي يصنع تكرارها دائرة، المثلث دائرة والنقطة دائرة، وفوهة الطبنجة دائرة، لا يقطعها إلا مرور رصاصة، والرصاصة لا تعود، فعل أحادي، والأفعال الأحادية هي ما تجعل للأفعال الثنائية معنى وقيمة، الفعل الأحادي فعل إلهي، الفعل الثنائي فعل ثدبي، كل فعل ثنائي يعضد كل الأفعال الثنائية الأخرى، دورة الدماء دورة التنفس دورة الخراء، أما الفعل الأحادي فلا يعضده شيء، إنه يقف وحيدا، مطاردًا، تعيسا، مثل حسين.

- أغلق هذه المروحة.

نطق حسين، أخيرا، رد إسحاق بتذمر:

- الجو حار.

لم يكن إسحاق محتاجا لأن ينظر إلى وجه حسين مرة أخرى ليعرف أن الأمور معه ليست بخير، وأنه سيستجيب لرغبته رغم ما قاله عن الجو الحار، يغلق المروحة ويعود ليجلس، مطلقا زفرة قوية لينبه حسين إلى أن الليلة ستمر بلا طائل إن استمر الحال كما هو عليه، ولكن حسين لم ينتبه، لا إلى المروحة التي توقفت ولا إلى عصبية الزفرة، فكل ما حوله كان مظلما، الأسئلة التي تدور في ذهنه تدور مظلمة، وإجاباتها لا تضئ.

لم يعقد حسين هدنة مع أسئلته ليتناولا الحبوب المخدرة، جرعاها مع المشروب البارد، وسرعت الصودا من مفعولها، وانقضت أولى الأفكار المضحكة على حسين، قال:

- تصور أنني، في جزء من داخلي، لا زلت أعتقد أنك الشاب اليهودي.

ابتسم إسحاق.

- وأين ذهب أبان؟

- اختفى، ذهب إلى أمريكا ولم يعد، أو اختبأ في حضن أبيه، يحلم

بأن يعود إلى مدرسة سمعان محمولا فوق الرؤوس.

- أمريكا كانت أفضل بكثير من حضن أبي، ولكنها كانت تحتاج إلى أمواله، أما العودة إلى سمعان فمستحيلة، حتى لو لم أكن قد تركت المدرسة بإرادتي معتبرا أن خروجي منها أفضل ما حدث في حياتي.

- قلت لي من قبل أن معرفتك بي أفضل ما حدث في حياتك.

قهقه إسحاق وكأنه فوجئ ثم قال بلهجة من يريد أن يرضي جميع الأطراف:

- أنت الثاني، ثاني أفضل شيء حدث في حياتي.

رد حسين مهاجما، بلا داع، لإثارة الكدر ليس إلا:

- قل الحقيقة، أنا بالنسبة إليك مجرد جالب للحبوب، علاقتنا لا تتجاوز هذه الجدران، لم أحدث حتى الآن في حياتك يا إسحاق، أما سمعان وإسماعيل فحدثا في حياتك، حدثا بقوة، لذا يتبعهما فعل، سمعان تكرهه وإسماعيل تحبه.

فوجئ إسحاق، وسكت، ولم يكن سكوته بسبب المفاجأة بل للتفكير، هل سيجابه الصراحة بصراحة أم لا؟

- حتى لو افترضنا أن جزءًا من كلامك صحيح، أنا لا أكره سمعان ولا أحب إسماعيل.

- كما أنك لا تكرهني.

- بالضبط.

- ومع ذلك لا تحلم بقتلي؟

هز إسحاق رأسه وضغط على علبة المشروب البارد فصدرت منها طقطقة.

- هذه نقطة لم تفهمها للأسف يا حسين، الراحة التي شعرت بها في الحلم لم تكن راحة رجل تاقت نفسه إلى شيء ولم يستطع الحصول عليه فطغت رغبته حتى حلم به، أنا لم أرغب أبدا في

قتـل سـمعان، أقصـد رغبـة نابعـة عـن مشـاعر حقيقيـة، كالكراهيـة أو الحقـد أو حـتى القـرف، ولكـن بعـض الرغبـات لا يوجـد لهـا تفسـير وحـتى لـو أتيحـت لـك الفرصـة لتنفذهـا في الواقـع فلـن تفعـل، رغبـة شـاذة تمامـا كأن تحلـم بمعـاشرة أمـك أو أختـك وتشـعر بالمتعـة في ذلـك لأن الحلـم يخـبرك: لا إثـم في ذلـك.

هـذه الكلمـات المتلاحقـة الـتي قالهـا إسـحاق بصـدق تـام يقـترب مـن الوقاحـة هتكـت الصـورة الخياليـة لإسـحاق في ذهـن حسـين، ولـم تجعـل أمامـه مفـرًا إلا أن يسـأله:

- في الحقيقـة أنـا أتسـاءل يـا إسـحاق، إذا مـا وصلـت الأمـور بيننـا إلى أن أكـون حدثـا سيئا في حياتـك فهـل سـترغب في قتـلي؟

ولـم يبتلـع إسـحاق ريقـه عندمـا قـال، لـم يـرف جفنـه، كانـت نظرتـه ثابتـة، كسـطح معـدني تـدق عليـه الكلمـات برنـين مفـزع وهـو يقـول:

- لا تسـتطيع أن تصـل إلى مسـتوى حـدث سيء في حيـاتي يـا حسـين، لأن الأمـور عندمـا تصبـح معجمـة أمامـي أكـون أنـا هـو الحـدث السـيء، ويمكنـك أن تقـرأ التقريـر الطـبي للفـتى الإسرائيـلي إن أردت أحضرتـه لـك، وبـدون أن تتسـاءل، أو تُصعـب الأمـور عـلى نفسـك، أسـتطيع قتلـك إن رغبـت في ذلـك، فهـل ترغـب في ذلـك؟..

سقط القنـاع تمامـا، وتحـول الشـاب المرفـه الـذي لا يتجـاوز طموحـه كسـب مراهنـة فيمـن سـتخدره الحبـوب أولا إلى شـاب لا يسـتطيع أن يتنمـر بـه أحـد، بـل و يـرد عـلى التنمـر بتنمـر، ولدقائـق ظلـت أعينهمـا متشـابكة، اشـتباكًا كاشـتباك العظـام، لا نجـاة منـه إلا بالكـسر، وكان الحديـث المحتـد المتسـارع قـد جعـل مفعـول المخـدر ينحـسر قليـلا، وكلـل العـرق وجهيهمـا نتيجـة مبـاشرة لـصراع المخـدر في بسـط نفـوذه عـلى الدمـاء اليقظـة، ومـع توقـف المروحـة أصبـح الوضـع مأسـاويا، الهـواء صـار ثقيـلا، مسـتهلكا، كحـوار لا يزيـد عـن كلمتـين، شـهيق وزفـير، يتنفسـانه فيُعـاد إليهمـا، مـن رئـة إسـحاق إلى رئـة حسـين، دائـرة مغلقـة

للجنـون والرغبـة في الخـلاص.

ويهـدوء وتحـت العينـين الدهشـتين لإسـحاق أخـرج حسـين طبنجتـه، ذخرهـا برصاصـة واحـدة، ووضعهـا بينهمـا عـلى النضـد الخشـبي، بحيـث يكـون المقبـض في وضـع الالتقـاط مـن الناحيتـين.

- نعم أنا أرغب يا إسحاق في أن تطلق هذه الرصاصة على صدري.

***

عبـارة حسـين كانـت كفيلـة بتجميـد المشـهد إلى مـا لا نهايـة، أو إنهائـه بضحكـة صاخبـة مـن إسـحاق، ولكـن كلا الشـيئين لـم يحـدث، أخـذ إسـحاق يتأمـل الطبنجـة، كانـت المـرة الأولى الـتي يـري فيهـا سـلاحا عـن قـرب، وللمـرة الأولى لـم يخيـب القـرب ظنـه كمـا خيبـه في أشـياء كثـيرة، بـل كان سـببا في أن ينمـو لديـه شـعور تلقـائي بعـد أن ظـن أن المشـاعر التلقائيـة أصبحـت مسـتحيلة مـع طبيعـة حياتـه، فهـو لا يتذكـر مـتى كانـت آخـر مـرة شـعر بالجـوع لرائحـة طعـام شـهي، أو آخـر مـرة شـعر بالعطـش عندمـا رأى ثلاجـة مليئـة بالمرطبـات، أو الشـهوة لرؤيـة امـرأة عاريـة، كان متخمـا، لديـه فائـض مـن المشـاعر لأشـياء فعلهـا في حياتـه دون أن يرغبهـا، وعندمـا يحـدث مـا يجعلـه يرغبهـا لا يشـعر بالشـغف لهـا، لكنـه عندمـا رأى الطبنجـة شـعر برغبـة طبيعيـة تمامـا.

وليسـتنطق هـذه الرغبـة مـد إسـحاق يـده وتحسـس الأخمـص بباطـن كفـه وبرويـة شـديدة، بأصابعـه الرقيقـة أخـذ يمسـد عـلى السـبطانة، دار بهـا حـول المسـددتين والزنـاد والمطرقـة وحجـرة التذخـير، كان السـلاح يشـبه أي سـلاح خلـف زجـاج فاترينـة محـل للأسـلحة، ولكـن، كـم روح سـلكت طريـق الرصاصـة وصعـدت للسـماء؟

ولـم ينطـق حسـين بكلمـة أخـرى، قـال عبارتـه وانتظـر، تـرك التوتـر والكهربـاء المنثوريـن في الصالـة يتكفـلان باسـتحضار لحظـة القتـل الـتي تـأتي بالـدأب إن لـم يـأتِ بهـا الإلهـام والطبيعـة، تمامـا كلحظـة الـولادة،

مهارة يجب أن يتمتع بها منفذو القصاص الأحرار، إدراك اللحظة.

وحسين كان يدركها، ينتظرها، ويتركها تنضج، ويستمتع برائحة نضجها، بل ويرى رأسها المطل أحيانا، ويقود حسب رؤيته، فالزبون الذي يقود به بسرعة ٨٠ لا يشبه من يقود به بسرعة ١٢٠، إنه شئ أشبه بمواءمة القدر.

وقد لا تأتي اللحظة، عندئذ يأتي دور الدأب، فلحظة القتل إن ماتت قبل أن تشق عنها الغلاف سببت قتلا أكثر مما كان ينبغي لها أن تفعل.

ولكن لا دور للدأب الآن، حسين يشعر بسبطانة الطبنجة منتصبة، منتصبة بشدة وعلى وشك أن تطلق رصاصة حتى لو لم يشد الزناد، ولمسة إسحاق تفعل في سلاحه ما لا يستطيع أن يفعله هو إلا بالقتل، تهدئ من انتصاب السبطانة وتبرد الرصاصة، وأدرك حسين برهافته أن إسحاق قاتل من نوع مختلف، سلاح واحد وقاتلان، لا يفزعه إدراك هذا الوجود بقدر ما يجعله يشعر بالشهوة، شهوة عصبية، كأنها مسمار غليظ يدق في رأسه، ويثبت نظراته إلى إسحاق وهو يجرجر الطبنجة على سطح النضد إلى ناحيته، ثم يأخذها في يده بتراخ، فيجفل، ليس خوفا، بل كأن يدا غريبة لمست مكانا سريا في جسده، وتعلقت عيناه بوجه إسحاق، كان ملونا، متوردا ومليئا بالحياة، وجه قاتل حقيقي أو مقتول جيد.

كانت لحظة القتل قد اكتملت، ومع اكتمالها اكتمل شيء آخر، ولأول مرة، شهوة حسين الغائبة، ماء نضج واختمر وتكثف وتعكر بالنُطف وأخذ يدق وينبض مع دقات قلبه المتدافعة، أغمض حسين عينه وقرر أن لا يفتحهما، ليرى في العتمة الحمراء لجفنيه ما بدأ يشعر به فعليا أسفل سرته، وكأن نصفه السفلي كله مغمور بالكامل في دوائر لحمية شهية، دوائر رطبة تنقبض وتنبسط بل وتخور بنعومة.

ولم يرَ حسين إسحاق وهو يصوب، ولكن عندما انطلقت الرصاصة كان حسين راضيا، ومتعته كاملة، واللذة التي حصل عليها لم يسبق أن ذاقها من قبل في حياته.

يوم سلام وأيام حرب، وإيلاف لا تفقد [illegible] عقدتي عصية، تستدعي اليدين والأسنان، استدعتني بعد [illegible] من طردي، واستدعتني بعدها عدة مرات أيضا، [illegible] لفنا الصمت أطول مما تحدثنا، تكلمنا كثيرا حول [illegible] بالتفصيل، ليس هناك موضوع أنسب بين اثنين يتسامران [illegible] مقبلة، طلبت مني نصوصا وصححتها، احتفظت ببعضها وأعادت إلى البعض، وقال لي جبر ذات مرة أن النصوص التي تحتفظ بها تعدلها وتضعها في صندوق حليها الخاص.

بعد أيام جاءني منها طلب بنص جديد، كان هذا في تمام التاسعة صباحا، جاء جبر بالطبق الخزفي المزخرف، وعليه ورقة، ليست فارغة، بها رسالة بخط إيلات الملتف حول نفسه مثل يرقات، ولكن الخط هذه المرة كان مفكوكا، كشعر غجرية مسدته بالدهن والعنبر ثم تركته حرا، ومكتوب به جملة واحدة (أريد نصا إيروتيكيا) كان هذا حقيقيا تماما، لا تحتاج أن أفرك عيني لأراه، كل (ألف) كان مرسوما على هيئة عضو ذكري في المرحلة الأخيرة من تهيجه، يقذف منيا كفوهة بركان، حمم منوية بعضها يسيل ببطء على جلد الحرف المشكول، وبعضها يطير عاليا كأضواء المهرجانات، أربعة براكين متوهجة عصية على الكبح.

ابتلعت ريقي واحمر وجهي خجلا، لابد أن جبر لاحظ الرسم، حتى لو لم يقرأ وهذا مشكوك فيه، فالرسم كاف ليفهم، سألته:

- ما الذي تنتظره يا سيد جبر؟
- الكلمات يا بني، الكلمات التي ستكتبها.
- هذا النص يحتاج إلى وقت، السيدة تعرف ذلك.

- حسنا يا بني، المهم أن تكتبه لها كما تريد.

- اجلس يا عم جبر، ضع هذا الطبق، اجلس وأخبرني، متى كانت آخر مرة وظفتم فيها كاتبا مثلي؟

- لا أتذكر.

- لا تتذكر أم لا تريد أن تتحدث يا عم جبر؟

تنهد وقال:

- لقد تحدثت بما فيه الكفاية من قبل، نصحتك في بداية الأمر، أتذكر؟، قلت لك إنها امرأة ملعونة، قلت لك ما يكفي لإفزاع هذا الجدار لينخلع من مكانه وليهرع إلى السور ويحطمه وينطلق إلى مكان لا نجده فيه أبدا، ولكنك اعتمدت على قوة قلبك، ورفضت نصيحتي، بل وأخبرت السيدة بتفاصيل أحاديث دارت بيننا، وعايرتها بها، وهذا كثير صدقني، كثير جدا على أن أظل جالسا معك هنا ولا أشتمك أو أحطم هذ الطبق على رأسك، وكل ما في الأمر أنني لم أعد أريد أن أسدي لك النصح، لم أعد أرغب.

- ولماذا لا تشتمني أو تحطم الطبق على رأسي؟

- شئ ما يأخذ بيدي كلما فكرت في ذلك، أقول أنك معذور، فلو كنت في سنك وبرأسي مثل ما برأسك من قدرة على إثارة إعجاب السيدة إيلات لوثقت بقلبي كما فعلت أنت، بل وأكثر.

- إذن ساعدني، أريد أن أعرف كل شيء عنها، للمرة الأخيرة يا عم جبر، للمرة الأخيرة أرجوك أن تتحدث.

- عن أي شئ تريدني أن أتحدث، عن الطريقة الجيدة التي تأسر بها قلبها وتجعلها متيمة بك؟

- وهل تستطيع؟

- كنت، كنت أستطيع قبل سبع سنوات من الآن، أستطيع أن أخبرك عن نوع الورود التي تحبها، والطعام المفضل إليها، واللون الذي

تعشقه للأشياء، عن البلد الذي تحب أن تقضي فيه شهر العسل، لقد ربيت تلك الفتاة على يدي يا إسماعيل، ولكني لم أعد أعرفها، يمكنني أن أسرد لك عنها حتى الغد حقائق تبدأ من أول وجع دب في أسنانها اللبنية، متى كان وكيف عالجناه، ولا تنتهي عند أول تفاصيل دورتها الشهرية، ولكن ما قيمة الحقائق بعد أن فسد كل شيء، فيما مضى كنت أشعر أننا أحلام بالنسبة إليها، كنا نخشى أن نؤلمها مخافة أن تستيقظ منا فننتهي إلى العدم، وكثيرا ما كانت تطلب مجالستي لتقرأ لي الشعر والروايات، ولا تمكث في غرفتها أكثر من ساعة، تروح وتجيء، في الشتاء تبث الدفء بحركتها، وفي الصيف كانت ندى في كل مكان تتحرك فيه وتتكلم، أما الآن، لقد صرنا أفكارًا سيئة بالنسبة للسيدة إيلات يا إسماعيل، مجرد مزاج متكدر بعد وجبة ثقيلة الهضم، أو سعلة بعد دواء يحرق صدرها، لا يعني هذا أنها تحتقرنا بل أحيانا أظن أنها تريد أن تتناولنا بجدية ولكننا لم نعد نصلح لهذا، كأننا نتزلق من يدها، أو سقطنا من مدخنة مدفأة غرفة معيشتها وهي مطفأة، لم نحترق ولم نرحم هواء غرفتها من الرماد.

- ولكنني أشعر الآن أنني قريب جدا منها، أقصد قبل أن ترسل لي هذه الورقة، هذه الورقة وسخريتها وطلباتها الشاذة تخبرني بدأب أنها لم تحبني بعد، ولكنني ألمس قلبها، مثل طفل صغير يقفز ويقفز ولكنه ذات يوم سيمد يده ويطبع كل أصابع يده في السقف العالي الأبيض.

- اسمع كلامي يا إسماعيل، أنت لا تفهم، ولو ظللت هنا أعواما، أقصى ما قد يصل إليه شخص ما في قلب إيلات أن يكون فكرة انتحارية.

- بماذا تنصحني يا عم جبر؟

- بماذا أنصحك؟، أنصحك بأبعد الأمور عن ذهنك، أن تخبرها

بحبك لها طالما أنك متيقن أنها لا تحبك، فلئن تنبذك خير من أن تتحول إلى فكرة انتحارية في قلبها، عندئذ لا تلومن إلا نفسك،

أخبرها بحبك يا إسماعيل، ليس كلمات تكتبها ولا إشارة، أخبرها بكل ما في قلبك من ذل، هذا هو الطريق الوحيد للخروج من القصر بسلام، عبر قلبها، لأن قلبها مفتوح على الفراغ يا بني.

***

عندما أفكر، لماذا طلبت مني إيلات هذه النصوص، للوهلة الأولى - أعترف - أنني ظننت أنها رغبة من سيدة وحيدة لا تحب أن تناول الرجال ولا أن يتناولها الرجال إلا عبر قفاز من كلمات حمراء، ولكن الرغبة الحسية لا تفسر امرأة مثلها، الأمر أكبر من ذلك، ربما كانت تختبر قدرتي على كتابة نص كهذا، والقدرة تشمل الاستطاعة بما تحمله كلمة القدرة من أبعاد أخلاقية، صمودي أمام الضغط والإغراء، فالكلمات تخلع ملابسها كثيرا، والكلمات العارية لا يصح أن تجلس في مجلس الحكماء، وإيلات كانت الباب الوحيد إلى عالم لم أستطع الصمود حتى أراه، ولكن لماذا، وما التالي؟، لا يسعني إلا التفكير في ذلك، ما الذي كانت ستؤول إليه الأمور لو ظللت على إصراري لا ألين، ولم أعطها تلك النصوص، أفكر أنني فقدت العزاء الوحيد في حكايتي، وأن وجودي بجانبها كان من الممكن أن يطول للأبد لو ظللت في لعبة المقاومة مثابرا، مستمرا في الحياة بالقصر دون العودة إلى سمعان و(د) وحسين.

مكثت ثلاثة أيام في غرفتي لا أخرج منها إلا لأحضر العشاء مع جبر في جو مأتمي، في اليوم الرابع وبعد الظهر بقليل سمعت خطوات تهبط الدرج الخشبي المؤدي إلى البدروم، حسبتها خطوات جبر أو أحد خدم مطبخ القصر فلم أرفع رأسي، أصبحت الخطوات خلفي ثم توقفت، أحسست بتنفس شخص مألوف وإن كان وجوده في هذا المكان غريبا، وكالشمس عندما تنشر أشعتها على السائرين في صباح شتائي انتشر العطر الأخاذ تدريجيا، لم أرفع رأسي ولم أقم، لم تنطق بكلمة ولم تقترب أكثر مما اقتربت، لو اقتربت لاحترقت ولو بقيت طويلا لاحترقت أيضا، ولكني شعرت بلفح خافت على عنقي من الخلف، دافئ مبلل مثل لعقة من لسان شيطان عابث ومرح، ثم سمعت خطواتها وهي تبتعد وتصعد الدرج تاركة وجودها المشع وعطرها يخفتان وداخلي يعمه الظلام والبرد، ثم وجدت نفسي جالسا مستيقظا على سريري، وكان الليل ساج حول القصر، كان حلما

ليس إلا.

بقيت جالسا لدقائق أحاول السيطرة على نبضي وحمضية دمائي، في أنفي حديقة عطرها وفي عيني ألوان ثوبها التي عكستها الشمس على الجدران، قمت مترنحا، عممت وجهي ورأسي بالماء، دققت على الحائط بقبضتي، قفزت محاولا بلوغ سقف غرفة البدروم العالية، ولما ظلت مشاعري متأججة كما هي وضعت إبهام يدي اليمنى بين الباب وإطاره وأغلقت الباب عليها، لم أصرخ ولم أتأوه وإن طفرت الدموع من عيني، وكانت الدموع مثل قيء محتبس، تنتظر أن أضع أصابعي في حلقي لتنهمر.

تورم إصبعي قبل أن يطلع الصباح، في الصباح صعدت إلى المطبخ قبل مجيء الخدم، جلبت لنفسي إناءً وملأته بالثلج وغمست يدي فيه، وانتظرت أن يأتي جبر، جاء الخدم وانتشروا في المطبخ، وبدأوا يومهم الصاخب ولكن جبر لم يظهر، كلما اهتز الباب رفعت بصري متوقعا أن يكون خلفه، حاملا خبرا بأن إيلات تطلب رؤيتي، بوحي زيارتها لي بالأمس في الحلم، ولكني لم أكن واثقا، خفت أن يختلط الحنين بالنبوءة فيفسد عليّ التوقع، ولكن الحنين كثيرا ما يحل محل النبوءة، إنه يستدعي النبوءة، وكأنه يخط في حياتي كلمات لم يكن مقدرا لها أن تُكتب.

ثم ظهر جبر، أخيرا، بعد أن صرت تعيسا بشكل ملحوظ، وكأنه أراد أن يخفف من تعاستي، قال مهنئا:

- السيدة إيلات أمرت السائق بتجهيز نفسه للذهاب بك إلى المدرسة.

إن كان لي أن أكره جبر في أي لحظة فلن تكون سوى هذه اللحظة.

***

مكثت بقية الصباح متكدرا، واكتمل كدري قبل الظهيرة بقليل عندما عاد جبر ليخبرني أن السائق ينتظرني، فطلبت منه أن يستأذن

لي عند السيدة إيلات،

وجدتها تنتظرني خلف الباب، قالت بمجرد أن دخلت:

- سمحت لك بالخروج يا إسماعيل، وأعلم أنك لن تعود.

- ولماذا سمحت لي إذن؟

ابتسمت ولم تجب، كان في يدها دستة من الأقلام ذات الحبر السائل، الماركة المفضلة لديها zebraمحزمة بشريط شعر نسائي، مدت يدها بها، وهزتها لتحثني على أخذها.

- هذه هدية الوداع مني.

عندما مددت يدي والتقطتها واحتويتها بأصابعي ابتسمت إيلات برقة وقالت:

- كن هينا يا إسماعيل، صحيح أن هذه الأقلام مستعملة، ولكنها خاصة بي للدرجة التي تجعلني أرجوك في أن تحفظها بين عصبك وجلدك، لا تهدها لأحد ولا يمسها من جسدك غير أصابعك، ولو فرغت لا تلقها.

لم أخفِ فرحتي، كانت الأقلام الحقيقية والأوراق بضاعة نفيسة، قالت محذرة عندما لاحظت انفراج ملامحي:

- لا تهدر الهدية القيمة في كتابة رواية عني وعنك.

لم يبدُ الأمر حينها كأنها تريد أن تقول: اكتب رواية عني وعنك، فلا يوجد موضوع يمكنه أن يجعل إيلات على طبيعتها مثل الكتابة، لا أصناف الطعام الفاخرة ولا الموسيقى ولا حتى مآسيها الشخصية.

وعندما رأت حيرتي قالت مؤكدة:

- اكتب شيئا حقيقيا يا إسماعيل، ليس عني، ليس عنك، ولا حتى عن جدك الذي تحبه.

- عن أي شيء سأكتب إذن إن لم أكتب عمن أحبهم؟

- لا أحـد يسـتطيع أن يمـلي عـلى الكاتـب موضوعـه، ولا الكاتـب نفسـه، ولكـن الإغـراء شـديد يـا إسـماعيل، أن أكـون محبوبتـك وأن تكتـب روايـة عـني، فـلا شيء أجمـل مـن كتابـة روايـة إلا أن تُكتـب عنـك روايـة، ولكـني لا أريـد ذلـك.

خشـيت أن يـؤول الحـوار إلى دائـرة مفرغـة إن سـألتها: ومـاذا تريديـن إذن؟، فسـألتها:

- هل لي أن أعرف سرها؟

- سر ماذا؟

- الأقلام.

- الاقـلام؟، نعـم، سـأخبرك بسرهـا، لـم أعطهـا لـك إلا لأخـبرك عنهـا، هـذا الـسر الـذي أتمـنى أن تحفظـه إلى أن يمـوت معـك، الـسر الـذي أثقلـني، ولكـني أعلـم أنـك سـتحفظه، فأنـت رجـل حقيقـي يـا إسـماعيل، أليـس كذلـك؟

ابتلعـت إيـلات ريقـا ثقيـلا لا يـكاد يلحـظ مـدى ثقلـه إلا عيـني محـب مثـلي، كانـت خائفـة مـن إخبـاري، ثـم حسـمت أمرهـا أخـيرا بعـد صمت:

- هـذه الأقـلام بـين يديـك رأت مـني مـا لـم يـره ولـن يـراه رجـل، لقـد كتبـت بهـا في كل أجـزاء جسـدي يـا إسـماعيل، في كل مـكان بجسـدي، حسـب مزاجـي ووضعـي، وجهـي وأصابعـي، ومتجـردة مـن كل شيء في حـوض الاسـتحمام، متجـردة حرفيـا، وفي أشـد مواضعـي حميميـة.

ثـم سـكتت ونظـرت إلى وجهـي وابتلعـت ريقـا أثقـل عندمـا لاحظـت اتسـاع عيـني مـن الدهشـة، وكانـت عيناهـا مبتلتـين وصوتهـا أشـد خفوتـا وهـي تسـتطرد:

- لا أفهـم، ولكـني أشـعر بنفـسي حينهـا، أشـعر كثـيرا، الكتابـة رجـلي الأوحـد، وعندمـا أكتـب أنتـشي حرفيـا، أنتـشي بالكتابـة.

- إيلات.

ناديتها هامسا، وبخشوع، ولكن الكلمات في داخلي، عجيجها، كان يتدرج من (التينور) إلى (الصراخ).

- الكتابة على طين الجسد تشبه الكتابة المسمارية، ساحرة حتى لو لم تكن تفهمها، وهذه الأقلام في يدك، سوداء أو خضراء، هما اللونان اللذان أحبهما، لا أحب اللون الأزرق، أستعمل أقلام سائلة، أهون من تلك الجافة ذات البلية الدوارة، جربتها مرة، بقلم أزرق لكيلا أكره ألواني، إنه ذلك القلم الأزرق، مؤلم جدا، جعلني أكره الأزرق أكثر.

- هذا مخيف يا إيلات.

- الأمر مخيف معي أكثر يا إسماعيل، فأنا مثل صفحة بيضاء، ناصعة، هذه الخادمة القذرة أخبرت جبر، دخلت مرة ورأت جسدي الممهور بالكلمات. فصرخت.

- هذا هو السر إذن؟

- نعم، هذا هو السر في كل شئ، هل أدركت الآن لماذا طلبت منك هذه النصوص، هذا تأويل ما رغبت فيه منك دائما، إنها عشرة أقلام، كل قلم منها بإصبع منك، أرني أصابعك، نعم، اشرعها في الهواء أمامي، بالضبط.

مست أصابعي وهي تجذبها لترتبها في الهواء فانشفط قلبي بعيدا بعيدا ولم أستعده إلا بعد لحظات وأنا أسمعها تهمس:

- يا إلهي، ما بال هذا الإصبع المصاب؟

- حادثة بسيطة، دعك مني الآن، ولنتحدث في الأهم.

ابتسمت عندئذ ابتسامة خافتة شهية:

- قلنا الذي لا يُقال يا إسماعيل، فما الذي يمكن أن يقال بعده؟

- إيلات، هل أخبرت أحدًا بهذا قبلي؟

- أنت مجنون، لا أستطيع أبدا، لا أستطيع، لقد انتظرت طويلا

لأجـد مـن يليـق بإخبـاره، وهـو أنـت يـا إسـماعيل، أنـت مـن اخترتـه.

- ولهذا أريد أن اطلب منك شيئًا.

- نعم يا إسماعيل؟

- لا تخـبري أحـدًا بعـدي بذلـك، أعطيـني هـذه اللحظـة مـن حياتـك، أريـد أن أمتلكهـا للأبـد، أن أسـتعيدها مـرارا، أتصورهـا، وألوكهـا بـين أضراس قلـبي الطاحنـة، وليمـة لا تنتهـي.

نظـرت إلى عينهـا حينئـذ والـتي كان بوسـعها أن تقتـل رجـلا بالغـا بنظراتهـا، وتذكـرت حلمـي بهـا في هـذا الصبـاح، لـو أن شـخصا آخـر، رجـلًا أو امـرأة، أخـبرني بمـا أخبرتـني بـه لتـوي لاعتبرتـه شـذوذا، جنونـا عـلى الأقـل، مخزيـا في مجملـه، ولكـن لأنهـا هـي مـن تخـبرني، يصبـح الـسيء جيـدا، بـل أكـثر مـن جيـد، مثاليـا، علامـة عـلى الاكتمـال.

قالت بصوت انتقل إلى الهمس الكامل:

- هــذه اللحظــة لا أريدهــا أن تظــل فارغــة منــك يــا إسـماعيل، مـا تتصـوره اكتبـه، اجلـس عـلى هـذه المنضـدة واكتـب، أعـدك أن مـا تكتبـه لي سـأكتبه لـك، هنـاك، سـأتجرد هـذا المسـاء، هنـا في هـذه الغرفـة، وأضـع عطـوري لـك، وأكتـب النصـوص الـتي سـتكتبها الآن، مـرارا وتكـرارا عـلى جلـدي الأبيـض حـتى تشربـني حروفـك، تـشرب بياضي وأشرب مـن سـوادها.

- أريـد هـذه النصـوص أن تظـل في قلـبي يـا إيـلات، أريدهـا أن تـذوب في دمـي.

- اكتبها يا مجنون، هذا النصوص ستقتلك وتقتلني.

ولكـن كل هـذا كان كثـيرا عـلى قلـبي، وبـدأت أرتعـد، أشـعر أن أعضـائي لـم تعـد أعضـائي، وأن رأسي صغـير بـين أكتـافي، وأنـني أشـهق بـين جبلـين، أشـهق وأجـري، أفـر مـن نفـسي إليهـا.

- أنا تعيس جدا يا إيلات، أريد أن أبكي ولا أستطيع.

. الكتابة كالبكاء يا إسماعيل، كالمطر، لابد أن ترعدك تهدك. لابد أن تدق الأسطح بقطراتها القوية وتشق حلوق المزاريب لتدفقك. غير ذلك ستظل مثقلا، باردا، بلا سبب، بلا جدوى، اكتب يا إسماعيل. اكتب.

وكانت حزمة الأقلام قد سقطت من يدي وأنا أرتعد. وحين التقطتها واكتشفت عندئذ أنني أبكي. ليس من عيني. بل من ثقوب وجهي كلها، انهمر البكاء وبلل أصابعي وجعل الأقلام تنزلق مني. بإيعاز من إصبعي المصاب، وبإيعاز من ضعف قلبي وعشقي. لقد صارت حزمة الأقلام الآن في خيالي جزءًا منها. من جسدها. ولم يكن بإمكاني أن أمس جسدها دون أن ترتعد يداي. لم يكن باستطاعتي أن أرفع حزمة الأقلام إلا بعد أن أنزل على ركبتي تحتشد.

ولم أعد أعرف، هل أبكي أم أغرق. فماء الدموع المالح صار يقتحم أنفي وفمي، يخرج مني ويعود إلي. لأنه استمد الحياة من حزني، وصار كائنا كاملا، وصرت أنا مرادفه. مرادف العجز واليأس والحزن والرغبة المستحيلة، وحين أغشي علي لم أسقط على وجهي ولا جنبي ولا ظهري، سقطت في دموعي وملحي وأنفاسي. وكانت الأقلام هي القشة التي تعلقت بها يدي في عرض العدم الذي التف بي.

***

وكانـت المـرة الثانيـة الـتي حلمـت فيهـا بالرحلـة، لـم أسـتيقظ مـن الحلـم في الحلـم تحـت الشـجرة، بـل كنـت يقظـا أسـير في الصحـراء وكان لإيـلات وجـود طـاغ في حلمـي وبداخـلي إدراك أن في معـنى اسـمها حـل لغـز رحلـتي ونهايتهـا، وسـبيل عثـوري عـلى المثـل العجيـب المندثـر في رمـال الصحـراء أسـفل مـني، والـذي يربـط بـين علـو النخلـة وطيـب الثمـرة وقـوة سـعفها، وكانـت فيـه صفـة تغفـر لصفتـين، أو صفتـان تغفـر لصفـة، بـشرط أن الصفـة الجيـدة ليسـت هـي الثمـرة الطيبـة، عندئـذ اسـتيقظت في الحقيقـة، وعندمـا اسـتيقظت وجـدت نفـسي في القـصر، بينمـا قلـبي منطـوٍ عـلى لوعـة آخـر لقـاء بيننـا ..

وقال لي جبر أنني نمت يومين، جزء من نهار، وليل ونهار كاملين.

- انتظـرك السـائق كثـيرا يـا بـني، ولمـا طـال انتظـاره أرسـل في استعجالك، بحثـت عنـك في البـدروم فلـم أجـدك، قلـت لعلـك لا تـزال عنـد السـيدة ولكنهـا لـم تكـن في غرفتهـا، ثـم سـمعتها تحـادث السـائق بنفسـها في الحديقـة، رأيتهـا مـن نافـذة غرفـة المعيشـة، درت وخرجـت للحديقـة لأسـألها عنـك فلـم أجدهـا ولـم أجـد السـائق، وعندمـا عـدت مـن الحديقـة عـبر البـدروم وجدتـك نائمـا هنـا، حاولـت إيقاظـك. فرجوتـني أن أتـركك لأنـك متعـب، كان جسـدك محمومـا يـا بـني، كنـت ساخنا كسيخ الـشي، واضطـررت لإعطائـك دواءً خافضًـا للحـرارة فخَّفـت ارتعادتـك، السـيدة إيـلات سـألت عنـك عـدة مـرات، وزارتـك ليلـة أمـس، وهـي مـن أرسـلت السـائق لإحضـار الـدواء بعـد ذلـك، وأوصتـني أن أسـهر إلى جـوارك وألا أتـركك أبـدا، لـم أرهـا قلقـة بهـذا الشـكل منـذ وقـت بعيـد.

اسـتمر جـبر في الـكلام، خشـيت أن أسـأله عـن مـا لا أتذكـره، كيـف أفقـت مـن غشـيتي في غرفـة إيـلات، وكيـف جئـت إلى فـراشي، ومـررت بالمطبـخ في وضـح النهـار أمـام الخـدم دون أن يلاحظـوني؟

- عمَّ تبحـث؟، لعلـك جائـع، الخـدم انصرفـوا مبكريـن اليـوم، اليـوم

الخميس، ولكن اطمئن، بي من القوة ما يجعلني قادرا على أن أعد لك طعاما جيدا، سأتركك حتى تغتسل وترتدي ملابس جديدة بدلا من تلك المبللة بالعرق.

قبل أن ينصرف سألته:

- عم جبر، ألم يكن إلى جواري هنا حزمة أقلام؟

- نعم، خبأتها لك في العلبة المعدنية، خشيت أن يراها أحد الخدم فيأخذها، هذه الأقلام غالية، هيا انهض.

ولكني لم أقم على الفور، قمت بعد قليل، شاعرا بخفة لا حد لها وكأنني تناولت السحاب على طبق غذائي، وفي ريقي طعم الموز والزيتون من نكهة الدواء، اغتسلت بماء فاتر، اغتسلت جيدا، وقصصت أظافري، حتى إصبعي المصاب، تحايلت على ألمه حتى قصصت ظفره الناتئ، تحت الماء شرعت أصابعي كما فعلت إيلات بها، وتذكرت لمستها وانخطاف قلبي، لا لم أتذكرها بل تمثلتها، وانخطف قلبي إلى بُعد أستطيع أن أستعيده منه هذه المرة، وعندما عدت إلى جسدي وجدتني لا أزال تحت الدوش.

بعد أن تجففت ارتديت ملابس خفيفة ثم رقدت على ظهري، أتأمل إصبعي المصاب، بي من الخفة والطيش ما يلون الأشياء في عيني، منذ متى لم أقص أظافري، لا أتذكر، في طفولتي عند البيارات كنت أقرض أظافري بأسناني، وأتخيلها كما يحلو لي، أو كما يحلو لها أن تتخفى، أحيانا تشبه حيوانات، كلابًا وذئابًا، كلب بولدوج غبي متهدل الشدقين، أو كلب حراسة ضامر البطن، أحيانا تشبه أسماك، إبهامي المصاب قبل أن أقصه كان يشبه فقمة نهش الحوت الأزرق جانبًا منها.

الآن كبرت وامتلأت بالذكريات، صارت أصابعي تشبه أشخاصًا مألوفين لي بشدة ولكني لم أرهم من قبل، ربما رأيتهم في حلم، أو فقدت الذاكرة وأستعيدها الآن على هيئة خيالات، ربما كانت أصابعي

أشخاصًا متنكرين، مختبئين بوجوههم تحت الأظافر، أصدقاءً قدامى مخلصين، أقارب طيبين، أو زوجات من حيوات سابقة، أو ربما أحزانًا انعقدت كالدمل فواستها العظام بالسلاميات لتتشمم رائحة الفرح وهي تقبض على الأشياء المبهجة، من قال أن الوجوه فقط هي ما تبتهج، الأصابع كلها وجوه مبتهجة، حتى عندما قصصتها الآن بالتساوي، يبدون كما يبدو من أعلى طلاب مدرسة ثانوية في طابور الصباح، مهذبين ومتجاورين وصامتين رغم ما يحملونه بداخلهم من فوضى وصخب، والآن بعد أن اغتسلوا وتجهزوا بجدية، أشعر بهم ناضجين، مهمومين، يدور بينهم حديث لا أسمعه، وتربطهم ألفة لم أعتد عليها ...

وكانت شفاطات المطبخ تمتص روائح الطهي وتلقيه إلى الجهة القبلية حيث يقع باب البدروم ذو الشراعة العالية، ومن الشراعة العالية كانت الروائح الشهية تعود، يعود بها هواء قديم للغاية، قديم من قبل أن تتغير الاتجاهات ويصبح الجنوب شمالا والشرق غربا، هواء غفا لقرون من الزمان قبل أن تتبدل الأرض، ليستيقظ الآن، والآن فقط، من أجل أن يُشبع قلب عاشق يعرف جيدا طريقه، ويعرف أدواته أين خُبئت، عشرة أقلام محزمة بشريط شعر نسائي في علبة معدنية، ليكتب كل ما تشتهيه قلب سيدة يهب عليها نفس الهواء، يهب على معشوقة تتمطى في سعادة وتستعد لاحتضان الرؤى التي تصنعها في المُطلق، حروف انثالت على قلب عاشقها الأخير.

***

وكان الأكل باردا عندما تناولته، فقد مكثت ثلاث ساعات وأنا أكتب، قام جبر بتسخين الطعام عدة مرات، ونادي عليّ عدة مرات، ثم اضطر لأن يأكل وحده، ولم ينم رغم أنه التهم طبقين من المعكرونة، قال لي معتذرا بمجرد أن رآني داخلا عليه:

- لم أكن جائعا ولكني أكلت.

ثم نظر إلى وجهي كأنه لاحظ تغيرا أو يبحث عن سر غريب، وقال:

. هذه الليلة غريبة، لأول مرة منذ أعوام تحمل كل ملعقة طعم قبلة سلم بيتنا التي حكيت لك عنها، كل ملعقة بلا استثناء، حتى تخيلت أن الطعم لن يفارقني ولو وضعت الملعقة فارغة في فمي. كدت أن أفعل ولكني خشيت أن أفقد السحر.

ورغم السحر إلا أنه اندهش عندما شرعت الأوراق في وجهه وقلت له بثقة أن السيدة إيلات تنتظرها، قال لي أنها ولابد نائمة وستنزعج، ولكن ثقة عينيّ هزمت كل تردد لديه، وعندما عاد من هناك كانت الدهشة تملأ عينيه ويده فارغة وقلبه طائش لدرجة أنه وضع الطعام لي باردا ثم اعتذر عن ذلك بعد أن شرعت في الأكل، كانت المرة الثانية التي يعتذر لي فيها جبر في ليلة واحدة، هذا يستحق أن أتناول طعامًا نيئًا فضلا عن كونه باردا.

ولكنه كان ألذ طعام تناولته منذ جئت إلى القصر، وكانت كل كلمات جبر مضحكة، ما أراد أن يضحكني به، وما أراد أن يريني به مدى حزنه، كله كان مضحكا، حتى عندما بكى وهو يحكي لي كيف فارق محبوبة قبلة الدرج، ضحكت، ولكنه لم يغضب، واستمر في الحديث.

- وما الذي كان باستطاعتي أن أفعل أكثر مما فعلته يا بني، عملت وثابرت حتى أكرمني الله بالسيد فوظفني عنده، وبمجرد ما ادخرت ثمن الذهب، تقدمت لها فرفضني أبوها بحجة أن ابنته لا تعمل في خدمة البيوت، اعتبرتها إهانة وغادرت، ولكني في العام التالي كنت قد اشتريت شقة في كامب شيزار وعدت فرفضني للمرة الثانية بدعوى أن ابنته لن تتزوج خادما يبيت تحت أقدام أسياده، شتمته وشتمني وافترقنا، وبعد أسبوع واحد تزوجت ابن عطار شهير.

- ولم تتزوج أنت؟

- لا، سرقتني السكينة كما يقولون، ولم أجد بي ميلًا للنساء، كانت

امـرأة حيـاتي.

- على من تلقي اللوم في فراقكما يا عم جبر؟

- عليهـا، بعـد كل هـذه الأعـوام ألقي اللـوم عليهـا، لأنهـا وقفت معي ضـد أبيهـا، وأوهمتـني أن إصراري عـلى الحفـاظ عـلى وظيفـتي ممكن مع الحفـاظ عـلى حبهـا لي.

- لـم تسـأل عنهـا، ليـس معـك رقـم تليفـون تتصـل بـه في أنصـاف الليـالي ثـم تغلـق السـماعة بعـد أن يـرد ابنهـا البالـغ عليـك، أو تحصـل عـلى عنـوان بيتهـا لتسـافر مـن هنـا إلى الأسـكندرية فقـط لتقـف تحـت شرفتهـا، تتصيـد لحظـة خروجهـا فـلا تخـرج إلا ابنتهـا الـتي تهيج أشـجانك القديمـة مـن شـدة مـا تشـبه أمهـا.

قهقه جبر مندهشا:

- لا لا، ولا شيء من هذا، أنا رجل عاقل.

- رجـل عاقـل يكتفـي مـن حـب عمـره كلـه بسرقـة القبـلات مـن أطبـاق المعكرونـة بعـد أن ينـصرف الخـدم.

نظر إليّ معاتبا عندئذ:

- لـم أكـن متبتـلا طيلـة كل هـذا الوقـت يـا إسـماعيل، كانـت لي غـزوات جميلـة، تزوجـت مرتـين عرفيـا، الزيجـة الأولي مـن امـرأة مطلقـة والثانيـة امـرأة قبيحـة لدرجـة أنهـا لـم تجـد أحـدًا يتزوجهـا.

- هــذه جولــة لجمــع الحســنات في عالــم النســاء الكســيرات وليســت غــزوات يــا عــم جــبر.

- ومـع ذلـك أنسـتني هـذه الجولـة قبلـة الـدرج يـا إسـماعيل، ولـو لشــهور.

- أيهما أمتعتك وأنستك قبلة الدرج؟

- كلاهما أمتعاني يا إسماعيل.

- حتى القبيحة؟

- لا توجد امرأة قبيحة يا بني، ولكن يوجد رجل لا يبصر، كلاهما أمتعاني ولكني لم أنس قبلة الدرج.

- متى كانت آخر مرة مسست فيها امرأة؟

- هذا سؤال خبيث.

شرعت الشوكة تجاهه وكأنني سأطعنه بها إن لم يستجب لتهديدي.

- اعترف يا عم جبر.

رفع ذراعيه مستسلما وهو يقهقه:

- سأعترف سأعترف، آخر غزوة غير شرعية تقريبا كانت بعد طلاق السيدة إيلات، الجو هنا كان خانقًا باستمرار والرجل منا كما تعرف يحتاج إلى امرأة يفضفض لها.

ثم شرد ببصره.

- لن تصدقني إن قلت لك أن الوضع حينها لم يكن ليتحسن إلا بالتحاق السيدة إيلات بمدرسة سمعان، صحيح أن هناك نوبات ولكنها تبقى مجرد نوبات، من بعد هذه المرة اختزلت حاجتي إلى النساء في المعكرونة والسجائر.

ولدقائق ظل الحديث مستمرا، بل والضحكات، وسألته أسئلة أخرى وأجابني بما لا أتذكره، ثم خفق قلبي خفقة مفاجئة وشعرت بطنين في أذنيّ وهبط عليّ ثقلٌ مباغت، وكأن الهواء توقف عن إعطائي ما أتنفس به، شعرت بقطرة عرق تزحف ببطء على ظهري، وكنت أحتاج إلى جهد العالم لأتماسك لأسأله دون أن أجعله يلاحظ نبرة صوتي التي تغيرت:

- هل تقول أن إيلات درست في مدرسة أ.سمعان يا عم جبر؟

***

كم مرة أتي ذكر مدرسة أ.سمعان في حديث بيني وبينها، وما من مرة نوهت إيلات فيها إلى معرفتها بتفصيل من تفاصيل المدرسة،

لا الجغرافيا ولا التاريخ، حتى أنها طلبت مني ذات مرة أن أصف لها أ.سمعان وصفا دقيقا كأنها لم تره من قبل مطلقا.

أتى التذكر بطيئا، بطيئا جدا، وخافتًا في البداية كصوت الدماء في العروق عند قياس الضغط، ثم انهمرت التفاصيل والرؤى وعلاني الصخب بشكل لم أعد أستطيع معه أن أحدد بالضبط نوع المؤامرة التي تعرضت لها، هل أرسلني سمعان إلى القصر عن قصد، إلى إيلات لاستكمال تقويمي بعد أن يئس مني، أم أنه مجرد اختيار آخر، اختبار فشلت فيه أمام نفسي بعد أن كتبت إلى إيلات نصوصها، كل ما طلبته: (لابد أنك عزيز جدا وغال عند أ.سمعان، لماذا!، لأنه أرسلك إلى هنا، المكان الأفضل، لماذا الأفضل؟، ما هذا السؤال الغريب؟، لأنني هنا طبعا، إيلات).

ألم تقل ذلك لي، ألم يدر بيني وبينها حوار مشابه؟

وكان جبر في منتصف حديثه - إجابته، ضاعت مني تفاصيل قالها وحكاية قديمة:

- السبب هو السيد/ حسن، ظل مصرا على أن طريقة أمها في تربيتها هي السبب في كل ما حدث لها من مطبات بحياتها، تنشئتها على قراءة كتب الشعر والأدب والتي جعلتها تعيش في عالم من أحلام غير قابلة للتحقيق، قصص الأرانب وحكايات الجان والرومانسيات التافهة التي أفسدت أخلاقها، وجعلت تقبلها للعالم الحقيقي مستحيلا، بعد طلاق إيلات وحادثة انتحارها أصر أبوها على إلحاقها بمدرسة أ.سمعان الشنقيطي، كطريقة من طرق العلاج، طريقة أقل مهانة من زيارات الأطباء النفسيين، انغمست إيلات سريعا في حياة المدرسة، وتفوقت بشكل جعل سمعان يطلبها للتدريس براتب محترم بعد أن تخرجت، ولأنها لا تحتاج إلى المال رفضت العرض وإن بقيت صلتها بسمعان جيدة، وبينهما نقاشات طويلة، وكما سمعت ذات مرة فإنها تؤلف كتابًا سيجيزه أ.سمعان للتدريس

في المدرسة.

كتاب!، قلت في نفسي ساخرا: نعم كتاب في المجاز على الطريقة العصرية، الباب الأهم فيه (حالة إسماعيل - حالة مستعصية تم علاجها بالنصوص الإيروتيكية).

- ولكنك لم تخبرني بذلك من قبل يا عم جبر؟، لم تُشر إليه حتى؟

- لم تأتِ مناسبة لأخبرك به يا بني فقط، لم أتعمد ذلك.

في داخلي اشتبكت عشرات الشكوك الخلاقة، وفي نقطة التقاء كل شك بآخر كان وجه جبر المستتر كقواد عصريّ من الدرجة الممتازة، مساعد ماتادور محترف عرقب ظهري بأسهمه الملونة القاسية حتى أنهكني، بل واستطاع التبديل بين أدوار المساعدين الستة في حلبة المصارعة بمهارة، ليأتي بي في النهاية إلى الماتادور ليجهز عليّ بسيفه وزيه البراق وينال تصفيق الجمهور، بلا شفقة ولا ذنب ومن أجل غرض لا أعلمه.

وكنت منهكا بالفعل، أزفر ويخرج البخار والدم من أنفي، أتنفس خديعة القوى المهيضة، لا أستطيع أن أستجوب جبر أو ألومه حتى وإن أردت، يتسرب في الهواء خارج القصر وخارج قلبي السحر المتقن الذي مورس عليّ طيلة سنتين، تاركا بداخل الغرف العديدة والردهات والأثاث والأبهة المبالغ فيها صرخات مجنونة وصورًا شتى للانتقام، ولكن، لا صورة منها قابلة للتحقيق في وجود قلبي الضعيف، وفي وجود إيلات، الماتادور العظيم، البهي، الممشوق، التي تقف بأعلى، تدور بزيها الصاخب لتحيي الجمهور المهتاج وتسل سيفها وتأتي إليّ، والعالم يكتسي باللون الأحمر، يصبغ كل شئ، حتى وجه جبر المتملق المتسائل.

- ماذا بك يا إسماعيل؟

- لا شئ يا عم جبر، الصبح قريب، وأريد أن أنام قبل مجيء

الخـدم.

وقمـت، سرت بينمـا يتأملـني مشـفقا، هبطـت الـدرج إلى البـدروم، لا شيء عالـق بقلـبي مـن هـذا الظـلام إلا حديـث واحـد دار بيـني وبينهـا ذات مـرة، حديـث واحـد لا يفتـأ يتكـرر في ذاكـرتي.

كان عندما سألتني:

- بماذا أخبركم الأستاذ سمعان عن النص إذا احتوى سردًا لأحداث؟

- أخبرنا أن اسمه حكاية.

- هـذه تسـمية بدائيـة للغايـة يـا إسـماعيل، تحمـل مـن التهكم أكـثر مما تحمـل مـن التعريـف، ولكـني سـأخبرك عـن النـص إذا سرد أحداثـا، يطلـق عليـه أسـماء عديـدة حسـب طولـه وقـصره، القصـة النوفيـلا الروايـة، وإن كنـت أفضـل التسـمية السـاحرة القديمـة: الروايـة، كل النسـاء يحببن الروايـة، وأنـا رغـم كراهيـتي للنسـاء أحـب الروايـة.

أخـذت أردد الكلمتـين بخفـوت (الحكايـة - الروايـة) وكأنـني أثمنهمـا بلسـاني، وتبرعـت إيـلات بالإجابـة وكأنهـا قـرأت السـؤال في عيـني:

- الحكايـة عنـصر أولي مـن عنـاصر الروايـة يـا إسـماعيل، مـا هـي الحكاية، كيـف تحكيهـا، مـن أيـن تبـدأ وكيـف تنتهي، هـي بعـض العنـاصر الأخرى.

- مثل الجرائد؟

- الجرائـد تحتـوي عـلى أخبـار وحكايـات تحـدث للنـاس، ولكـن لا يمكن أن نقـول عـن الجرائـد أنهـا روايـة، فالروايـات حكايـات لـم تحـدث.

- حكايات منسوجة بالكذب؟

- يـا إسـماعيل، إذا كان مـا نسـمعه غـير مـا نقولـه ومـا نـراه غـير مـا نحكيـه حـتى لـو حرصنـا عـلى الدقـة في النقـل، فكيـف تضمـن لي أن الحكايـة تخلـو مـن الكـذب وأنهـا نقـل أمـين للواقـع، حقيقـة الأمـر يـا إسـماعيل أن الروايـات هـي حكايـات فيهـا مـن الحقيقـة أكـثر ممـا ينبغي للحكايـات.

ثم صمتت، لطالما أحببت هـذا الصمت وعرفته، وانتظرت ما يأتي بعده.

- ولكن دعنا من نقاشات أ.سمعان العقيمة لأصف لك ما يجب أن تكون عليه الرواية إذا كنت تفكر في كتابتها، فالرواية كائن ماكر جدا وفوضوي يا إسماعيل، فهي ليست صفحة جريدة ميتة، ولكنها في اقتحامها لحياتك - سواء كنت كاتبا لها أو قارئا - تتبع الطريقة التي تتبعها ورقة جريدة مهملة، أقل حتى من أن تُقرأ، ورقة قديمة لفت فيها شطائرك في عودتك إلى منزلك، ووضعتها على مائدتك التي تتناول عليها طعامك، وبينما تأكل شرعت في قراءة أسطر الجريدة القديمة، ستكون رؤوفة بك في البداية تلتقط أنفاسك التي تبعثرها عليها وتعيدها إليك بود، ثم فجأة تصبح محايدة توطئة لقسوتها القادمة، قسوة مرة المذاق ولكنك لا تستطيع الاستغناء عنها حتى بعد أن تنتهي من طعامك، تبعثر لك ملابسك وتضعك في حالات الجمود والذهول والتقمص والبكاء والرعدة والكشف، ثم في النهاية تفاجئك بنعيك أنت مسطورا على صفحة الجريدة القديمة، هذا ما ينبغي أن تكون عليه الرواية يا إسماعيل، هذا ما ينبغي أن تكون عليه الرواية ....

وكنت أهذي وأنا أستعيد الكلمات (وهذا ما ينبغي أن تكون عليه الرواية يا إسماعيل).

بين هناك ألم وتأوه، ودوي ناتج من إطلاق رصاصة في شقة مغلقة، وارتد السلاح ارتدادا وميضيا إلى ذراع إسحاق فتسبب في رضة مؤلمة وتناثر من المنضدة نثارٌ خشبيٌ وغاصت الرصاصة في طبقة الرمل بعد أن ثقبت البلاط أسفل المنضدة، ولدقيقة طفت الأشياء والمسموعات والمشاعر طفوا مظليا، وفي هذه الدقيقة عاش حسين حياة كاملة، انجذب جسده ثم انجمع على بعضه وارتعش عدة مرات ثم عاد لارتخائه بعد أن تخلص من أرقه المحتبس وقذف كل ماء شهوته في سرواله.

وعندما عاد كل شيء لموضعه عاد أشد ثقلا، واختلطت رائحة البارود ورائحة نشارة خشب طازجة برائحة أخرى خاصة للغاية، رائحة شفافة كأن كائنات من زجاج ولدت في التو، هل هذا ما يشعر به الرجال، غرابة الوجود وغرابة الهدف وغرابة البداية، القدرة على رؤية الأبجديات والتساؤلات الأولية، وكأن العالم لم يبدأ من خلية، بل بدأ من رجل انفصل لتوه عن امرأة.

في هذا المكان منذ سنتين رأى حسين أنه سيقتل إسحاق، كان يعتقد حينها أنه مُسير، لا اختيار له في القتل، يعطونه ورقة فيها الاسم والتهمة وكل ما عليه أن يضع الإطار الاسود، ثم حاول (د) أن يحرره، أن يجعله مخيرا، ولكنه رفض، أكان غبيا عندما رفض وأضاع الجائزة؟، كان يقول لنفسه حينها ما الذي يمكن أن تكسبه بفتح العينين يا حسين؟، مزيدًا من الناس والضوء والليل والبيوت، مزيدًا من الوعي بعد فعل قتل كنت مساقا إليه، لا، لم يحتج إلى فتح العينين ليلاحظ أن هناك شيئًا غريبًا في الحكاية، ولكنه احتاج لمزيد من فتح العينين ليتمكن من القبض عليها، غرابة مراوغة كقطعة

صابون سقطت من يده أثناء دش ساخن، يتحسس العثور عليها بيدين عمياوين، عبر آخر مكالمة دارت بينه وبين أمه، وآخر مكان يتذكر أنه خبأ فيه كتيب التعليمات، وآخر طعام اشتراه لنفسه، وآخر مرة أيقظه منبه من نوم عميق، كأن القتل يمحو الأحداث البسيطة من حياته، وفي كل مرة تجول فيها في زحام الناس كان ممتنا لنفسه على الحركة التي منحها للأحياء بقتل الأموات، مع إدراكه أن الأحياء غير قادرين على استيعاب هبته التي وهبها لهم، لهذا ظل الأحياء كالأموات: لحمًا وجلدا، بينما حسين جالس على رمانة الميزان بينهما، يتأمل الناس ولا يرى فارقا، وبسخط لا حد له، يتأملهم كفأر وقع في مصيدة مات صاحبها، لن يقتله ولن يُطلقه.

أما الآن، وبعد ما عاشه صار قادرا على رؤية الحركة، ليس في الأحياء فقط، بل في الأموات أيضا، وكل ما عليه أن يرتب ذهنه قليلا في هذه اللحظة الغريبة.

فتح حسين عينه فرأى إسحاق ممسكا بكف يده الذي ارتض، مباعدا ما بين ساقيه وناظرا بدهشة إليه فسأله بخشونة وبكثير من الخيبة:

- لماذا أطلقت الرصاصة على المنضدة؟

ولم يكن ثمة إجابة، لا الآن ولا بعد ذلك، فالأمر قد انتهى، وكل ما عليهما أن يعالجا الأثر الجانبي للحدث.

مد حسين يده ليأخذ السلاح الذي أسقطه إسحاق، فوضع إسحاق قدمه ليمنعه، حاول حسين أن يصنع من السلاح عتلة لإزاحة القدم، وكلما حاول كلما تمكن الرفض من إسحاق وداس أكثر فأكثر، تحول السلاح إلى كائن ثالث بينهما، لا خطة له ولا هدف، لم يوسوس إلى إسحاق قائلا : احذر فلو أتيحت له الفرصة ليأخذ سلاحه سيقتلك، ولم يوسوس لحسين: لو تركت له سلاحك سيظن أنك سهل المنال، هكذا السلاح في أي لعبة بين رجلين، حتى لو لم تتوفر نية القتل،

تظل نية التملك والإحراز أقوى بكثير، بل ربما هي ما تؤدي إلى القتل.

وكان هناك حوار ما بينهما، جنين حوار، ليس فاعلًا ومفعولًا به أو مبتدأ وخبرًا، كتلة مهروسة من الكلمات وحروف الجر، كلها فاعل ومبتدأ وكلها تريد أن تجعل الطرف الآخر مفعولًا به وخبرًا، ثم أدرك حسين في خضم محاولاته أن الطريق إلى سلاحه ليس بهزيمة القدم التي تقيده إلى الأرض، وإنما بهزيمة الجسد بأكمله.

كان حسين هو البادئ وبدفعة واحدة أزاح جسد إسحاق بالكامل من فوق الكنبة ومن فوق سلاحه، وانحنى وأخذ سلاحه، ثم حاول إسحاق أن يكرر ما فعله حسين، ولكنه كان راسخا، بلا تشبث، ولم ينل إسحاق إلا من القميص الذي يرتديه، مسببا تطاير الأزرار الخمسة كطلقات خردق طائشة في الأنحاء الأربعة، دفعه حسين بسهولة كما يدفع ثقلا بزنة ٩٠ كيلوجراما على بنش رفع أثقال، ثم تحول من وضع الاستلقاء إلى الغشيان مثبتا إسحاق إلى مسند الكنبة الفوتيه بذراع واحدة.

وكأن ما يحدث حلم غريب، تحول الدفع والجذب فيه إلى ريشة رسام هادئ ترسم المشهد ببطء، يمحو أكثر مما يُثبت، ويكفئ إسحاق على وجهه ماضغا الوسائد في شتائم لا حصر لها لا تردع بقدر ما تضيف الملح ليستمر المشهد، ويدرك حسين أنه يُفتن، للمرة الأولى يفتنه بقاء شخص على قيد الحياة، تفتنه الحياة والاختلاجات والشراسة، ويرغب في إخمادها ولكنه عاجز عن ذلك، عاجز عن القتل رغم قدرته على القسوة والسحق والامتهان.

كان هذا قدر اسحاق، أن يُقتل بدون كراهية ولا رغبة أكثر من رغبة حسين في إزالة احتقان الرؤية الجلية، إزالة الشوك العالق في حلق سلاحه، وتوجه تفكير حسين تلقائيا إلى الطبنجة الملقاة، وإلى الرصاصة المخبأة في جيب الحقيبة، ثم إلى قلب إسحاق الذي ينبض

بقـوة، مـدركا أنـه لـم يكـن مخـيرا ولا في لحظـة واحـدة مـن حياتـه، كان مسـيرا، مسـيرا منـذ البدايـة.

# الفصل السابع

## إسماعيل الكاتب

ستفعل، ستنساها، اطمئن، عشرون دورة حول المضمار الواسع حتى تسعل عرقا من فمك وتنسى ماذا كان طعام إفطارك هذا الصباح، مائة من تمارين الضغط حتى تستنفر عضلاتك المختبئة خلف جلدك فتنسى أسماء الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، والقانون الأول للجاذبية، وعددًا لا تتذكره من التمارين الأخرى حتى يخفق قلبك بقوة ترتعش بها المرئيات أمام عينك وتنسى أسماء أقاربك من الدرجة الأولى، وستستلقي عندئذ مرتاحا على العشب الطازج بالندى، ستتمثل رقدتك أسفل مشرط الجراح، وستغمض عينك منتشيا، فلن يكون ذلك الاسم - اسمها - من بين هلوساتك عندما يتمكن البنج من عروقك..

لقد اختبأ بعيدا تحت الجلد.

إسماعيل الكاتب

لم تخرج إيلات من عالم غرفتها مدة ثلاثة أيام، وكنت أنا حبيسا بالخارج، يأكل قلبي كل لحظة آكلٌ مختلف، الشك والخديعة واللامبالاة، حتى اليقين صار يلتقط فتات ما يسقط من قلبي، ليعاود قلبي ميلاده ويعاود الشك التهام وجبته الأثيرة.

في هذه الأيام الثلاثة استعدت كل الأحاديث التي دارت بيننا، لُكتها وسجلت الكثير منها في أوراقي، وقسمتها إلى مراحل، بداية: سخريتها وحرصها على الظهور بمظهر شخص لا جدال في فهمه للأدب، هذه المرحلة كانت الأنسب لشكوكي، ثانية: بدأت تصبح أكثر لطفا وتلقائية، وروحها أكثر خفة وغفرانا لي في النصوص التي تعجبها، وكانت تسألني دائما عن تفاصيل قصة حبي لهاجر وفي أوقات نادرة تبث إليّ شكواها من طليقها وهذه هي المرحلة الأنسب لعشقي لها، ثالثة: بدأت الأمور تتفلت، مرحلة النصوص السرية التي طلبتها، هذه المرحلة المناسبة لكل شيء، لعشقي وشكوكي، جموحي وإحجامي، خوفي منها واطمئناني إليها، الحب بلا التباس ولا خديعة، بقلب مكشوف للطعنات، وضمادات مهترئة، حتى ما أخبرني به جبر فيما بعد، بعد تلك الليلة، أن إيلات كانت تنتظر نصوصي، فعندما دق الباب فتحت على الفور وكانت مرتدية ومتزينة ومتعطرة بشكل جعله يخجل منها.

في اليوم الأول استيقظت بسلام غريب يجوب قلبي، بلا سبب، حتى حادثة الحماقة التي هرست فيها إصبعي دون مبالاة لم أعد نادما عليها، كانت روحا مناسبة للحياد، ولأتساءل بيني وبين نفسي هل ستُخلد كلمات البشري في دنيا صنعها الله، في ذات الوقت الذي صعدت فيه كلماته الى السماء، أم ستنتظر أن تقدسها عينا امرأة لم تأبه بالكلمات ولا بي، كيف بدأ العالم كبيرا عند البيارات، وانتهى إلى قلب امرأة لا أستطيع أن أنالها ويفصل بيننا سقف واحد، ومتى ذهبت الكلمات - التي ولدت في قلبي لتُخلد - لتحظى بالموت على

عتبة سيدة لا تُحسن كسر بيضة لتقليها.

في ذلك النهار تذكرت حديثنا عن نهاية العالم، عندما قالت لي:

- هل تعلم لماذا رفع الله الحروف يا إسماعيل، ليس أن يوم القيامة قريب، بل فعل كما يفعل الكاتب عندما يحرق مخطوطاته قبل موته ضنا بها.

- ولكن الله لا يموت.

- ولكنه اقتنع أن البشر لا يقرءون يا إسماعيل، وإنما يتفاخرون بامتلاك النصوص ويظنون أن امتلاكها هو غاية الغايات، لذا أخبرتك أنها فكرة عقيمة أن تفكر في نشر ما تكتبه، وأن تصبح عصارة روحك ملكا لأحدهم ببعض الدولارات.

- ربما أقوم بطرح كتبي على نفقتي ودون ثمن.

- وما الفائدة، هل هذا كاف لتجعل الناس يحترمون كتاباتك كاحترامهم للكتب السماوية، وأن لا ينتهي بها الأمر كورق للمراحيض؟

- هذه مبالغة في التوقير، لا أريد أن يحترم الناس كتبي، أريدهم أن يقرءوها

ابتسمت وقالت:

- اليوم، أنت رفيق سيئ يا إسماعيل، أسوأ من طبق طعام فارغ ملئ بالنقوش، وأسوأ من الموت دون أن تتم قراءة كتاب مشوق، وأسوأ من ...

وظلت تذكر أشياء سيئة كثيرة دون أن تفقد ابتسامتها.

في اليوم الأول قرأت الكتب التي أعارتها لي، ونمت وأنا أقرأ.

وفي اليوم الثاني استيقظت بلا سلام وبكثير من الندم، وهاجمتني كآبة لا سبيل للتخلص منها إلا بالخروج إلى الشمس، خرجت من البدروم إلى الحديقة، وتتبعت أكمة الشجيرات التي رسم لها السود حدودها، وحييت الحارسين اللذين يعرفاني جيدا، وسرت على ممر

الحصى الأبيض أمام بوابة القصر، نظرت إلى انعكاسي في زجاج الباب الكبير كما تنظر ظبية إلى ظل أسد يتربص بها في العشب الطويل، ثم دقت خطواتي على الطريق الأسفلتي المؤدي إلى الجراج المظلم أسفل القصر، وتجاوزته إلى مخزن الأدوات الخشبي وأجولة الفحم وبيت الديزل، ثم سرت على الخطوط الفاصلة الصغيرة بين أحواض الورد العديدة، وتخيلت قبري هناك، حيث ستشرق عينا إيلات يوميا عليه، لم أكن ناسيا تحذير الحارسين وجبر لي عدة مرات، منطقة أحواض الزهور منطقة محرمة إلا على البستاني لأن نوافذ غرف السادة تطل عليها، كانت نافذة إيلات مغلقة في وجهي باردة والشمس دافئة على ظهري، وما بين النقيضين تملكتني رعدة وقشعريرة، وكان شعري جافا كالقش عندما مسحت عليه لأكفكف من رعدتي، وتذكرت المرة التي رأيت فيها ثعبانا طائرا فوق أراضي الأرز التي حُصدت، كان الوقت قيظا، وهزمت الذكرى برودة أطرافي ورعدتي، وبقيت نافذة إيلات باردة، ثم تناولت غذائي مع الحارسين في هذا اليوم وعلموني كيف أقذف النرد بطريقة تجعله يأتي على الوجه الذي أريد.

في اليوم الثالث تناومت عندما شدت اليقظة معصمي، تثاقلت، مضغت طعم نجوم درب التبانة في فمي، ولم يكن طعمها لبنيا ولا متألقا، كان طعمها كطعم كهرباء فاسدة، أضاءت من قبل لعشرات من الإسماعيل الذين حاولوا الفوز بقلب إيلات واحدة (واحدة فقط)، ولم يفلحوا، إيلات التي كانت في غرفتها العالية، تنقش النص الأخير على جسدها، إلى جانب العديد والعديد من نقوش عشاقها الآخرين،

ورغم تصوري هذا لم أشعر بالغيرة ولا بالحقد بل أخذت ألوم نفسي: هل أحببتها حقا؟، ولكن كيف يكون حب امرأة مثلها، بالخفة الفخورة التي تجعلني لو أود أن أشركها نظرات عيني إلى الأشياء

منـذ ولـدت وحـتى التقيتهـا؟، لـم يـدر بداخـلي هـذا الخاطـر مـرة إلا وارتعـدت، فلـو حـدث ورأت بعينيهـا كيـف نشـأت وأيـن ولـدت، وكيـف دفعـني القـدر إليهـا، دون أن يهيئـني، كطائـر بـلا ريـش، كسـمكة بـدون خياشـيم أو زعانـف، كحجـر يهـوي ويحمـل عـلى كتفيـه ثقـل كل جبال العالـم، لا خيـار، ولا أحـد يسـتطيع أن يلومـني، أحببـت إيـلات، أطعمت حبهـا، سـقيته غضبـا، تنفسـته، لا لا، كان هـذا جـزءًا مـن تسلسـل الحياة ليـس إلا، أن أحبهـا وأن تنـكل بي في حبهـا..

ولكـن حـتى كلمـة تسلسـل أو دورة الحيـاة تبـدو كلمـة مضحكـة، مغرقـة في المثاليـة، فلـم تكـن إيـلات معـي وأنـا أخـوض في كـدر حيـاتي وصفائـه، كنـت وحيـدا ولـم تتبـدد وحـدتي بعـد أن عرفتهـا، تعيسـا بشـكل مـا واتخـذت تعاسـتي شـكلا آخـر، للدرجـة الـتي تجعلـني أتسـاءل: مـاذا لـو لـم يمـت والـدي في حادثـة لـم أعـرف تفاصيلهـا، مـاذا لـو عاشـت جـدتي ولـم يبـدأ جـدي باصطحـابي معـه إلى البيـارات حـتى لا يتركـني وحـدي، مـاذا لـو وجـدت الأسـماك حيلـة للهـروب مـن السـدود ولـم يحـترف جـدي اصطيادهـا، كيـف يمكـن أن يعيـش الإنسـان في عالـم تتسـاوى أكـبر كوارثـه مـع أنفـس هدايـاه، فـلا يمكـن التفريـق بينهمـا أحيانـا، كلغـم في طـرد بريـدي تفـوح منـه رائحـة رسـالة معطـرة.

***

لـن أنـسى أبـدا النـص الـذي تشـجعت بـه عـلى مواجهتهـا، كتبتـه وصححتـه وشـكلته جيـدا، لـم يدهشـني أنـني أصبحـت أمتلـك مـن الفطنـة مـا يجعلـني قـادرا عـلى أن أكتـب نصـا لا يـؤذي عينهـا، ولـم أتفاجـأ عندمـا أخـبرني جـبر في اليـوم الرابـع أن السـيدة تتأهـب للسـفر خـارج البـلاد، فدائمـا مـا تسـبقني بخطـوة إلى المجهـول في علاقتنـا.

- إلى أين يا عم جبر؟

- أسبانيا أو فرنسا، لم تلتقط أذناي الاسم جيدا.

- هل يمكنني أن أودعها قبل أن تسافر؟

- طبعا، سأخبرها.

بعد دقائق جاء واصطحبني وتركني أمام الباب.

- سأغادر يا إسماعيل، وأظن أنني لن أعود على الفور، أخبرني هل يوجد شيء أستطيع أن أفعله لك لتكون مرتاحا حتى عودتي؟

كدت أن أخبرها سأكون مرتاحا لو بقيتِ ولم تسافري.

- تمنيت أن يكون بيدي أن أجبرك على البقاء.

- ولو بقيت؟

- لو بقيت..

ولكني لم أُتم العبارة، جاشت عواطفي، وأخذت أقبض يدي وأفردها، أفتح فمي وأغلقه، وأضغط على أسناني وكأنني أمضغ صخورا، وتصطك المرئيات بعيني فينبعث منها وميض، كل المرئيات عداها، وأهرب بعيني من عداوة المرئيات إلى رؤيتها، ولو تركتني على هذه الحال طويلا لانفجر قلبي حسرة وغيظا،

ورأفة بي، رأفة بي فقط همست برقة:

- افهمني يا إسماعيل، لن تكون الحال كما كانت في السابق.

قلت عندئذ بسخرية مُرة:

- وما هو الحال الذي كنا عليه في السابق؟

- أقصد، الأحاديث والكتابة والنقاشات، لقد هُتك شيء ما بيننا، ولم أعد أستطيع الاستمرار، لا أستطيع فعلا، أشعر بشعور غير مريح، أنا آسفة يا إسماعيل، آسفة فقط، لا أقدر أن أستمر بعد أن كشفت لك أحد أسراري الموجعة، أعتذر، لا أقدر لا أقدر، لا أتقن الهروب وأتقن الإشارة لنفسي بخفة كما اكتشفت عني من قبل، وأتقن المكوث متوارية أيضا، وهذا ما أعول عليه الآن، أنا لست بخير ولست على ما يرام، لا أبرر رحيلي ولا أضع له مسوغات، أنا فقط أرحل من حياتك، وأرجوك أن لا تسمح لرحيلي بأن يسبب لك

خللا لا تستطيع تداركه.

- إلى أين سترحلين؟

- تقصد المكان؟، عبور الشارع بعيدا عن القصر وعنك يعتبر رحيلًا لي يا إسماعيل، ما زاد عن الرحيل تذكرة طائرة إلى السويد وأمل باهت لشراء قبعات قش ملونة والتقاط صورا فوتوغرافية لامرأة سعيدة أسفل أكبر شجرة مُعمرة في العالم.

- تعرفين ما أفكر فيه الآن، ما كان علي أن أعطيك تلك النصوص.

- يا إسماعيل ما مر قد مر، ولم أكن لأتوقف حتى أحصل عليها، إيلات التي تراها الآن ليست إيلات التي كانت تطلب منك النصوص، وقد أحسنت صنعا بأن أعطيتها ما تتوق إليه، إيلات الأخرى لا سبيل للتخلص منها إلا بالموت.

قلت لها بذل وضراعة:

- يمكنني أن أكتب لها النصوص التي تحبها إلى ما لا نهاية إن كان السبيل إليك يمر من خلالها.

ردت في أسف:

- لم تعد تحتاج إلى النصوص منك أنت.

دعست الكلمات قلبي، ولاحظت إيلات شحوبي فقالت:

- هل رأيت يا إسماعيل مقدار صدمتك؟، أرى ذلك على وجهك، سأرحل يا إسماعيل بعيدا عن هنا لأتخلص قليلا من إيلات الأخرى، ولتهيئ أمورك وتعتاد على غيابي، وهل تعرف ما أفكر فيه الآن، أفكر أنني ابتعدت كثيرا عن الطريق الذي اخترته لنفسي بعد طلاقي، فأنا أريد أن أكون قديسة يا إسماعيل، قديسة من طريق يضمن لي أن لا أتشوه، موت هادئ بإرادتي ولكن مُصدقًا عليه من قبل السماء، هذا عالم قاس للغاية، لن يسمح لك بالموت ولا حتى بحادث سيارة أنت الوحيد فيها فضلا عن شق أوردة معصمك في بانيو ماء بارد،

أحيانا أفكر أنه لا مفر من أن ألغم جسدي وأفجره لأتخلص من هذا الهاجس، أتعلم ما هذا الهاجس؟، سأخبرك به: إنني لن أتخلص ولو بالموت من عذاباتي.

لا تلتفت بوجهك عني يا إسماعيل، لا تحرم امرأة من النظر إلى عيني عاشقها حتى لو لم تكن تحبه، إنها المرآة السحرية التي تتوق إليها جميع النساء، المرآة التي تهتف دائما: يا أميرتي لا يوجد من هو أجمل منك في العالم، هل تعرف؟، رغم كل المرايا التي تملأ القصر، عينك هي المرآة الوحيدة التي أرتاح في النظر إليها، ولكن خلف كل راحة لعنة، وما من مرة رأيت وجهي في عينك إلا هرعت إلى مرآة لأتأكد، وأجدني أتساءل، هل سيأكل الدود هذا الوجه، الأنف والشفتين والوجنتين، تلك الجبهة وما يتستر خلفها من أفكار وذكريات، مثل أشباح ولصوص وشحاذين وموظفي بريد، هذه الذكريات التي تقف كستار أسود بيني وبين الضوء، لدرجة أنني أجد نفسي دائما ما أفعل في خلوتي، أبحث عن ريموت الإضاءة بالغرفة، أضغط على الأزرار، ثم أكتشف أن كل أنوار الغرفة مضاءة ولكنها معتمة.

ولم يكن هذا مقدرا له أن يتم الأمر بهذه الطريقة، قمت وبطريقة خرقاء بإخراج الورقة التي كتبت فيها نصي الأخير من جيبي، وفضضت طياتها وقلبي يدق، ثم خفتت حركتي حتى ماتت وتيبست يدي على الورقة، ولم يعد متبقيا مني إلا روحي وهي ترتعد بداخلي مثل ضوء شمعة في بيت كل نوافذه مفتوحة على الحزن، وبخفة جذبت إيلات الورقة من يدي وأشرقت عليها.

- ما هذا؟ كتبت نصًا جديدًا من أجلي، تعال يا إسماعيل، تعال لنجلس في الشرفة، تبعتها بآلية، وعندما وصلت إلى سور الشرفة الحديدي نظرت إلى أحواض الزهور، وفكرت في تراخ، كنت هناك أول أمس، سرت هناك وانطبعت خطواتي على الطين، وها قد أزال

البستاني أثر خطواتي، وكلماتي أيضا، ها هي تنطبع على عينيْ إيلات، ثم ستأتي الكلمات الجديدة للكاتب الذي سيأتي بعدي وتزيل أثرها، وهكذا الأمر، لا شيء باق، لا أحد باق إلا إيلات، لا أحد باق إلا من يملك السيطرة على قلبه.

سمعتها تقرأ بصوت خافت، كأن الكلمات ليست كلماتي:

«في كل صباح أحاول أن أخونك، أعددت لذلك نصا مستديرا، كفيلا بأن يحيط بكينونتك في داخلي، نصا متكاملا يشبهك ويضادك، كفيلا بنزعك مني كجرثومة، قويا مجدولا بهيا، منتظرا أن تفارق عش صدري، عسى أن يحضرني النص حينئذ فأباغتك».

في ذلك الصباح شعرت بك تتكئين على عينيّ، تشاهدين المارة معي، كدت أن أنجح، شعرت بك، وقبل أن أنطق بتعويذتي سمعت من يقول خلفي: انظر هذا الرجل الغريب كيف يسير ويتكلم مثل امرأة!

عندئذ، عرفت، أنني بقدر ما أجتهد لأخونك، بقدر ما أكونك!

ساد صمت لم أعرف خلاله هل أعجبها النص أم لا، ولم أرفع وجهي لأتبين ولكني سمعت صوتها:

- يا إلهي هذا النص جميل فعلا، من أجمل ما قرأت يا إسماعيل.

عندئذ وكأنني تلقيت حكما ببراءتي رفعت رأسي فرأيت على عينها غشاءً رقيقًا من الدموع.

- أترى الآن، بمجرد أن استشعرت غيابي أشرق ذهنك وكتبت نصا جميلا، وهذا ما يجعلني مُصرة على قراري الفردي، من أجل نصوصك، ورواياتك التي ستكتبها.

ثم نظرت إلى وجهي نظرة سريعة وابتسمت.

- أتعلم يا إسماعيل كنت أتمنى أن أكون مثلك، قلبًا ضعيفًا وعينًا تحمر بسرعة عندما تكتم دموعها، ما أبهاك وأنت تكتم دموعك

مثل رجل، ما أبهاك بحيث لو بقيت هنا لساعة واحدة قد أقع في غرامك بالفعل، نعم، ابتسم يا عزيزي، ابتسم وهون على نفسك، يا ربي، انظر إلى ملامحك، عندما أرسلوك إلى هنا لم أتوقع قط أن يحصل كل هذا، هل تظن أن كتاباتك هي التي أسرتني؟، لا طبعا..

ثم قطعت كلماتها وهتفت بقلق:

- هل أنت بخير؟

- لا تقلقي، أنا بخير، بي من القوة والعنفوان بحيث لو طعنني أحد الآن قد أخور حتى أشقه بصوتي.

في عينيها التمع عبث خفيف، وتوزعت كهرباء ضحكة في نبرة صوتها وهي تقول:

- أطعنك أنا؟

- تريدينني أن أفزعك؟

- نعم، هيا أفزعني، هيا.

تضاحكنا، وساد السلام بيننا، لقد توقف الكون عن التمدد أخيرا.

قلت لها:

- أريد أن أصافحك الآن وأغادر القصر.

- إلى أين؟

- ليس لمكان معين، بل لهدف لن يتحقق إلا بمغادرة القصر.

- وما هو؟

- أن أترك الكتابة.

- لقد ولدت لتصبح كاتبا يا إسماعيل، ما الذي تستطيع أن تفعله غير الكتابة؟

- قد أنضم لأستاذ سمعان، أو أصبح قاتلا.

- لا فارق كبير بين الأمرين صدقني، هل تجد أنت فارقا؟

ولم أجبها، بل أخذت أتساءل: كيف وصلت الأمور بيني وبينها إلى ما وصلت إليه، كيف؟، بعد أن وصلت إلى تلك النقطة التي ظننت أنه لا انحدار بعدها وإنما صعود، بينما المشهد لا يزال طازجا في قلبي.

- هل لا زلت تريدينني أن أكتب لك نصا في الحب؟

سألتها فابتسمت وقالت:

- أي امرأة حمقاء قد ترفض نصا في الحب من الكاتب الأخير في العالم يا إسماعيل؟

- حسنا، سأكتب لك النص الذي وعدتك به.

- نصا مثاليا يا إسماعيل؟

ثم سرحت بفكري قليلا، استعدت أيامي الأولى في القصر.

- سأتدبر أمر إرسال النص إليك بعد أن أغادر القصر.

- لا زلت مصرا على مغادرة القصر؟

- نعم، لن أظل هنا دقيقة واحدة بعد مغادرتك.

- أرجوك لا تفعل يا إسماعيل، ستخسر شهادتك، ستخسر خمس سنوات من عمرك بسبب رعونتي.

- لماذا؟، الشهادة معي.

- الشهادة التي بحوزتك لم يتم تسجيلها على موقع وزارة الداخلية، ووزارة التعليم العالي.

- وكيف عرفت؟

- ما أقوله هو الحقيقة، سمعان لم يستطع تسجيل شهادتك إلا بتقرير مني يُضم إلى ملفك.

- وما علاقتك بسمعان؟

- علاقة وثيقة جدا، إنه يرسل لي الطلبة الذين يعجز عن التعامل

معهم ضمن منظومة التدريس.

- لم تخبريني بذلك يا إيلات.

- تركت لك إشارات لتفهم ولكنك تغافلت، أعرف أنك فهمت وتغافلت.

- قلبي كان أعمى يا إيلات، لم أعرف إلا قبل أيام فقط، قبل أيام، بعد أن حدث كل شيء.

- ليس بيني وبينك إلا الخير يا إسماعيل، ويمكنك أن تسأل جبر عن الطلبة الذين سبقوك، كيف سحقتهم ببساطة في جلستين على الأكثر، ولكن ها أنت ذا، لم أرغب في إيذائك حتى، وفي التقرير الذي كتبته لسمعان حاولت ألا أوذيك أيضا، أوصيت أن تظل بالمدرسة، يمكنك أن تكتب هناك بشكل سري، تمارس دورك كمدرس لمادة الأدب العربي، مدرس تحت الرقابة، وقد نلتقي بعضنا مرة.

لماذا لا تذبح هذه السكين، لماذا تحز رقبتي، تؤلمني وتُغرق صدري بلون الدم وبلله ولكنها لا تسحب مني الروح، لو قيل لي هذا قبل أيام لمت من المفاجأة، ولكن ها أنا ذا، جالس معها في الشرفة، كأننا نحتسي الشاي معا، هادئان مثل فرخين في عش واحد، قرر أحدهما أن يجرب الطيران بينما يحذره أخوه من الثعابين والموت المتربص به.

- كيف سيصل تقريرك عني إلى سمعان؟

- ببساطة لن يصل هناك إلا بعد مغادرتك القصر بشكل شرعي.

- وكيف تكون هذه المغادرة بشكل شرعي؟

- تنتظر السيارة التي أتت بك، سيتسلم ظرف التقرير مغلقا من جبر، ويسلمه إلى سمعان.

ثم سكتت قليلا وقالت بصوت هامس:

- أعرف أنك لن تستمع لي، منذ قرأت أول نص لك وأنا أعرف أنك

مختلف، ولكن الخيارات ليست مفتوحة أمامك، لذا قلت لك قبل قليل: ابق هنا كما تشاء يا إسماعيل، لن يضايقك أحد، أريدك أن تفكر طويلا ولا تتعجل، ما قيمة امرأة مثلي في حياتك، ما قيمة مائة امرأة أفضل مني في حياة وفي زمان يمكنك أن تصبح فيه نبيا بدلا من أن يتخذ منك سمعان خرقة لمحو الشبيهين بك، لقد آذيتك بشدة لمصلحتك الشخصية، لتنفر مني ومن سمعان، ولكنك أحببتني.

- نبي!

- نعم، كما أخبرتك من قبل، لا أنت ولا جدك تعرفان الحكاية الحقيقية للمجاز، أنا أعرفها، المجاز أحتقر أولا في قلوب البشر، ثم رُفعت الحروف المقدسة، وأنت الوحيد، أنت الذي قد يجعل الله يرغب في إعادة حروفه إلى كتابه مرة أخرى، اكتب ما يجعل الله يغار منك.

ثم قالت بعد أن مضغ الصمت العجوز قلبي:

- فكر يا إسماعيل في كل ما عرفته ومررت به، وعندما تصل إلى قرار لا تنظر خلفك.

وصمتت إيلات، فنظرت إلى أحواض الزهور، كان الممر بين الحوض الأبيض والأحمر مؤلما للقلب، والممر بين الأحمر والبنفسجي مثيرا للذكريات، والممر بين البنفسجي وزهور التيوليب متوحشا، وأخذت الممرات بين الأحواض تقص قلبي كورقة ملونة يعدونها لزينة السقف في احتفال لن أدعى إليه، تقصه وكأنها تريد أن تصنع منه قلبا جديدا ليكون مستعدا لخوض مفاجآت جديدة، أن تستبدل قلبي الذي هو مزيج من قلب طائر وثعلب وكلب أليف بقلب آخر، ليس قلبًا بالمرة وإنما كما قالت إيلات: رأس، رأس صلب كقحف قرموط، لا يموت إلا بضربات الهراوة.

- يجب أن أخوض التجربة كاملة يا إيلات، وإلا طاردني ما تركته منها في أحلامي بقية عمري.

- يبدو أنك اشتقت إلى سمعان؟

- لا أخفيك خبرا، أشتاق أن أراه بعيني الجديدة، وأن أناقشه من جديد، ومن يعلم!، ربما أحببته، كان الصادق الوحيد في حكايتي.

- ستنتظر السيارة التي أتت بك؟

- نعم، سأنتظرها.

- إذن يمكنك تسليم هذا الظرف يدا بيد دون أن تفتحه.

من حقيبة يدها أخرجت ظرفا مطويا مغلقا على رزمة من الورق، أعطته لي، كان وداعا رسميا، لم تتصافح الأعين ولا الأيدي، لم تقل عبارة مميزة أتذكرها، ربما قالت: وداعا يا إسماعيل، تذكرني بالخير، أو قالت: إلى اللقاء يا إسماعيل، كن بخير، ولكني لم أحفظ: أي عبارة قيلت لأعرف أي عبارة أضمرت.

لم يعد لمدلولات الكلام قيمة إذا اقترن برحيلها، بالذات إذا اقترن برحيلها.

***

عندما قلت لجبر هازلا: أرجو أن تبلغ تحياتي للكاتب الذي سيأتي بعدي، رد قائلا: أنت الأخير يا بني، نظرت لوجهه، فأدركت، جبر يشبه سمعان، وليس إيلات، فإيلات كان لديها من الحرية ما جعلها تفعل ما يروق لها ثم تضعه ضمن الخطة المبيتة لطعني، أما سمعان فكان يطعنني مكرها، ومن يدري، ما الذي سأجده كلما توغلت أكثر في نسيج هذه المتاهة؟

- السيدة إيلات أبلغت المدرسة أنها لن تختبر طلابا آخرين.

لم يروّعني معرفة جبر بالاختبار، كان ممشوقا متحفزا كما ينبغي لمساعد ماتادور أنهى مهمته بنجاح، أما أنا فذبيحة جيدة، متأنق، حقيبتي في يدي، والكتب التي أهدتها لي إيلات في كرتونة على الأرض وفوقها علبة الكحك المعدنية وبها الأقلام، ونحن واقفان أمام بوابة القصر، ظل القصر يرطب ظلينا بلعقات من هواء بارد، الحارس لا يبدو فضوليا أما حسين (كان اسمه حسين، أتذكره منذ سنتين) لا يبدو متعجلا، لم يدق كلاكس سيارته ليتعجلني، كل شئ كان يتثاءب ليخلد إلى نوم القيلولة، أنا نفسي كنت أتثاءب وأنا أسمع إسماعيل يقول من فمي ولساني:

- كن إلى جوارها، لا تتركها، أنا متأكد أنها ستعود إلى نشاطها قريبا.

نشاطها، الكلمة الأنسب، كبركان، كشخص سري، كقاتل متسلسل، ابتسم جبر، وكأنه يستطيع أن يتركها، حتى لو تركته هي.

شد على أضلعي بذراعين واهنتين لينهي الوداع، وضغطت على ظهره بذراع واحدة، وعندما ولجت في السيارة ظل ممسكا بابها ليغلقه خلفي كما يفعل مع السادة، كان هذا وداعا فوق ما أتمنى، وعندما قال حسين: هل سننطلق الآن أم ننتظر قليلا، لم ينتظر إجابتي، وظللت رافعا يدي بالتحية لجبر حتى غيبني الشارع الكبير.

***

سألتني الدكتورة عالية:

- في الحلم الذي تحلم فيه أننا اتهمناك بقتل إسحاق، ما الذي يحدث بعدها؟

- لا شيء، أستمر في النوم، بلا أحلام.

- ولكنك واع أنك نائم، وتعلم رغم اتهامنا لك بقتل إسحاق أنك لم تقتله، أنت واعٍ إذن؟

- نعم.

- لماذا اسم إسحاق بالذات هو ما نتهمك بقتله؟

- لا أعرف.

- ربما يكون حسين هو من أخبرك عنه؟

- لا.

- أو سمعت حسين يصرخ باسمه وهو في الغرفة المجاورة لك؟

قلت متذمرا:

- إن كان هناك شخص سيصرخ سيكون أنا، عندما يشرع حسين في قتلي مرة أخرى.

- ألا تجد ذلك غريبا؟

- ألا وهو؟

- أن تعرف اسم الشخص الذي تبرع حسين بالاعتراف بأنه قتله.

- هل قال حسين أنه قتل شخصًا اسمه إسحاق؟

- نعم، وطلب منا أن نحاكمه.

- إذن أنتم تعرفون أن حسين قاتل ومع ذلك تضعونه حرا في الغرفة المجاورة لي.

- لن يستطيع قتلك.

- قتل قبلي الكثير يا دكتورة عالية.

- حسين لم يقتل أحدًا في حياته.

- ولكنه أخبرني بذلك.

- متى، أين؟

- بعد أن أخذني من القصر.

كان هـذا هـو اليـوم الـذي التقيـت فيـه بالدكتـورة عاليـة، يـوم أن خرجـت مـن القـصر بصحبـة حسـين، الظـل بـارد والنـدى يصنـع تحـت الأشـجار دوائـر مـن مـاء تجففهـا إطـارات السـيارات جيئـة وذهابا، حسـين كان يرتـدي ملابـس شـتوية خفيفـة، أمـا أنـا فارتديـت ملابـسي الصيفيـة الـتي اشـتريتها مؤخـرا، بمجـرد أن غـادرت السـيارة نطاق المبـاني الفاخـرة غرقـت في إغفـاءة، حسـين كان سـائقا جيـدا، وحريصـا، ربي إغفـاءتي حـتى صـارت نومـا مسـتحكما.

عندمـا اسـتيقظت كانـت السـيارة متوقفـة، النوافـذ مفتوحـة، والعشـب يمـلأ الأفـق حولهـا، ومسـدس مصـوب إلى رأسي، وخلفـه يـد حسـين وعينـاه.

- جيـد أنـك اسـتيقظت بنفسـك، لـم أحـب إيقاظـك، نومـك عميـق لدرجـة أنـني فكـرت أن أدفنـك بهـذا النـوم دون أن أقتلـك، أيـا كانـت الوظيفـة الـتي كنـت تقـوم بهـا في هـذا القـصر فلابـد أنهـا كانـت ترهقـك بشـدة.

حاولت أن أنهض فثبت الماسورة الباردة في صدري ليمنعني.

- لماذا توقفنا؟

- لأننا وصلنا.

- إلى المدرسة؟

- لم آخذك لتوصيلك إلى المدرسة.

نظرت حولي، واستعدت الكلمات التي قالها عن قتلي.

- لا أفهـم لمـاذا أتيـت بي إلى هنـا، ولكـني متأكـد أن الأمـر اختلـط عليك، لسـت إلا طالبًا في مدرسـة سـمعان.

- ابدأ يا إسماعيل، فسواء كنت طالبًا في مدرسة أو موظفا يكتب النصوص في قصر فلن تكون الصدفة فقط هي ما وضعتك في طريقي.

- لماذا تقول إذن أنك ستقتلني؟

- لأتوقف عن كراهيتك، لم يكن هذا سببًا كافيًا في اعتقادي، ولكن اللعنة على الأسباب، قلت لنفسي ذلك مرارا، اللعنة على الأسباب، ولكني قاتل سيء، كان لابد أن أجد سببا، ولهذا بحثت، ذهبت إلى بيت جدك وعثرت على أوراقه، وتسللت إلى مدرسة سمعان وحصلت على النسخة الأصلية من شهادة تخرجك، النسخة الخاصة بالمدرسة، وسجل المتخرجين، هل تعرف ما الذي وجدته، السجل الخاص بالمتخرجين كان فيه تسعة أسماء، كل الأسماء التسعة كان بجوارها اسم واحد: إيلات.

- إيلات!

- في البداية اعتقدت أن إيلات مؤسسة ما، ذهبت إلى القصر وراقبته من بعيد، شاهدت تلك المرأة تخرج وتدخل في سيارة، لا أحد يخرج ويدخل غير هذه المرأة وبعض الموظفين، وتكلمت مع الحارس، لم يكلفني الأمر أكثر من علبة سجائر لأعرف اسمها: الدكتورة عالية، وعندما سألت الحارس عن إيلات فقال أنه لم يسمع بهذا الاسم.

- لماذا تخبرني بكل هذا، لماذا تبحث عني في الأساس؟

- في الواقع يا إسماعيل أنت تتكلم مع أغبى قاتل خلقه الله، نعم، عندما وضعوك بيدي في المرة الأولى كنت أبحث عن فتاة، إيلات، الوصول إليها كان سيغير حياتي تماما، وعندما أيست وضعوك في طريقي كإشارة جيدة للوصول إليها، ولكني لم أنتبه، رغم أنني أوصلتك إليها بنفسي، وجودك سبب لي الفشل في مستويات كثيرة يا إسماعيل، أنت أفسدت حياتي، أفسدت مهامي، وخدعتني، وسخرت مني.

كانت يده ترتعد من الغضب واليأس، ولكني لم أكن خائفا، بل مضطربا، حائرا، شعرت بالقلق على إيلات، ولكنها في أسبانيا، وأنا سأموت، وعندما أموت لن يعود بإمكاني أن أشعر بالقلق ولا بالحب، كانت برودة السلاح على جبهتي لا تجعلني أشك لحظة أنه السلاح الذي سيُنهي حياتي، لا تبدو لمسته كلمسة يد باردة، أو قطعة من الثلج، لفحت ذاكرتي برودة أشياء كثيرة من حياتي، الندى والسمك الخارج من الماء والعشب عند البيارات وأرضية المطعم في الشتاء على قدمي الحافية، وطعم الهواء في صدري في المرة الأولى عندما طلبت مني إيلات نصا إيروتيكيا، كل شئ كان باردا في حياتي، ثم أدركت السر في تلك البرودة، سرًا جعلني لا أكره حسين في هذه اللحظة حتى لو كان قاتلي، لقد عشت طويلا جدا، وكلها أوقات لم تكن ملكي، جئت متأخرا في كل مرة، والرصاصة التي سيطلقها حسين قد انطلقت بالفعل، سمعت دويها وشعرت بوطأتها على جبهتي، الدائرة التي رسمتها، والمسار الذي مرت من خلاله في مخي، رصاصة باردة، لأنها انطلقت من وقت بعيد، ثم شعرت بالرغبة في أن أقيء، هجمت الروائح وأحاسيس الجلد، صُبت فوق رأسي حياة كاملة، أكثر من حياة، ذكر وأنثى، الطعن في اللحم والرغبة الجارفة في الاحتواء بين الفخذين، واحتشد في فمي جنود من لعاب كلهم متأهبون لتذوق طعم مئات الأشياء التي كانت على وشك أن تأتي، احتشدوا ودفعوا شفتي ليخرجوا ويتساقطوا، وأخذ جدار معدتي يتحرك كبطن دودة تحفر في الذاكرة. وبعدد الموتى الذين دفنهم حسين، بل أكثر، انبعث رجال وأحاطوا بنا في بطء ونظام شديدين، وكانت رؤيتهم أشد وطأة على حسين، لم يهاجموا رؤيته فقط، بل روحه، اقتربوا منا، وعندما لمس واحد منهم يد حسين وربت آخر على كتفه ساد الظلام.

***

فيما بعد أخبروني أن حسين قاومهم، حاول الهرب، أسقط أربعة

رجال في طريقه قبل أن يتمكنوا من السيطرة عليه، ثم أعطوه عقارا منوما ليوقفوا نزيف السباب الذي سال من فمه.

استيقظت في مكان رطب تملؤه روائح كثيرة وغريبة، وعندما فتحت عيني رأيت سقف الغرفة التي أكتب فيها الآن، مستكشفا وضعي ببطء، كان الباب مفتوحا، والممر أبيض، والضوء الذي يأتي منه يجعل عينيّ تدمعان، سمعت صوتها في الممر، ورأيت ظل من تحاور معه، حسبتها جزءًا من حلم، ولكنها دخلت، لم تغلق الباب خلفها، تحركت بثقة سيدة تعرف كيف تجذب النظر، جاءت ومدت يدها لتصافحني:

- مرحبا يا إسماعيل.

رغم الضوء الخافت كان وجهها قريبا بشكل لا يدع للشك مكانًا، الوجه الذي جعل قلبي يدق والدنيا تدور بي، آخر شخص أتوقع وجوده في هذا المكان، وجه إيلات

جلست على مقعد بجانب فراشي، ثم قالت وهي تبتسم:

- لا تنظر إليّ هكذا، لست هنا للتحقيق معك في جريمة قتل.

قلت بلسان ثقيل لا يطاوعني.

- إذن أنت هنا لمناقشة الطريقة التي أفضل إعدامي بها؟

صهللت ضحكتها وضايقني هذا، فقلت لها هامسا:

- لماذا قطعت مشروع سفرك إلى أسبانيا وجئت إلى هنا؟

اندهشت، ونظرت لي بنظرة غريبة.

- أسبانيا، يسمع منك ربنا.

قالت ثم تنهدت وكأنه أمل بعيد:

- في الواقع أنا هنا لزيارتك والاطمئنان عليك.

- أنا بخير، هناك شخص حاول قتلي ولكني بخير.

- من؟

- حسين، السائق الذي كان يقوم بتوصيلي، ولولا أن رجال الشرطة...

انتبهت عندئذ أنني لست في مستشفى ولا في مركز للشرطة فاعتدلت جالسا وسألتها:

- أين أنا؟

ابتسمت برقة وهي تقول:

- أنت معي.

- هذا يكفيني.

عدت للرقود عندما هاجم الصداع رأسي، ثم سألتها دون أن أفتح عينيّ:

- لماذا حاول حسين قتلي؟

- أنت شخص هام يا إسماعيل، الجميع سيحاولون قتلك، يجب عليك أن تعتاد على هذا.

تذكرت عندئذ أن حسين يبحث عنها فهتفت:

- كوني على حذر أنتِ أيضا، حسين يبحث عنك لسبب لا أعلمه.

سمعت حركتها وهي تقوم.

- اطمئن عليّ يا إسماعيل، هذا كارت به رقم تليفوني إن أردت أن تتصل بي في أي وقت.

- ألن تأتي مرة أخرى؟

- إن أردت، ولكن أولا لديك قائمة طويلة من المحظورات وضعها الأطباء وعليك أن تتبعها، في الزيارة القادمة أتمنى أن تكون في خير حال.

- أين أنا؟

- أنت في المقر الرئيسي للجنة الاختبار يا إسماعيل.

***

الليلة الأولى التي قضيتها في الغرفة كنت أفكر في موضوع واحد، لقائي بإيلات، اللقاء الغريب، لا شك أن رؤيتها سممت قلبي بعد أن وطنت نفسي على غيابها، وطافت أسئلة كثيرة في فضاء ذهني الخاوي، أسئلة جائعة رغم غياب الإجابات، استحالتها بلفظ أدق، ولكن ليس هذا ما فكرت فيه، بل فكرت في نظرتها، كانت إيلات تنظر إلى وجهي وعيني دون أن يبدو عليها أنها رأتني من قبل.

لماذا عاملتني بهذه الرقة الغريبة، وفي ذات الوقت تجاهلت تاريخنا المشترك، كأنها لم ترني من قبل، لماذا قدمت نفسها لي باسم آخر غير إيلات، فعلى الكرسي الذي كانت جالسة عليه تركت كارتًا مطبوعًا بخط ذهبي، رقم تليفون أرضي واسم، الدكتورة عالية، محاضرة الأدب العربي بجامعة عين شمس، لم أندهش، لقد كشف لي حسين هذا الجزء من الكواليس، ولكن ما هي اللعبة هذه المرة، وهل ينبغي علي أن أجاريها؟، وكيف؟

في صباح اليوم التالي زارني أستاذ سمعان، لم يصافحني، مكث قليلا، ولكن وجوده قلل من غربتي التي شعرت بها بعد زيارة إيلات (أو الدكتورة عالية)، ثم (د) الرجل الذي اختبرني قبل خمس سنوات، ناداه الحارس بسيادة المدير.

كنت مشوشا، واضطررت لارتداء نظارة شمسية لأخرج إلى الساحة في اليوم الثالث، وفي الساحة فوجئت بوجود شخص آخر سبقني إلى الخروج هناك، يرتدي نظارة شبيهة، لم أتعرفه في البداية، ولكنه عرفني.

وحاول قتلي للمرة الثانية، ولكن خنقًا، كان حسين.

***

- لماذا قلتِ أن حسين لن يستطيع قتلي؟
- لدي أسبابي.

- أسباب لم يأتِ الوقت بعد لأعلمها؟

- لا تتعجل.

- هل تعرفين أنني أحيانا أفكر في أن كل هذا الغموض لا يفسره إلا شيءٌ واحد فقط.

- ما هو؟

- أنني ميت الآن، يبدو هذا لي كتفسير لكل شيء، الخفة التي شعرت بها عندما استيقظت، لون جلدي الذي لا يشبه آخر مرة رأيته فيها في القصر، وعيني المرهفة للضوء المبهر، نصوصي التي لم أعثر عليها، والعزلة التي وضعتموني فيها، كابينة التليفون، وصوتك في الهاتف.

- وكيف تموت دون أن تتذكر؟

- حسين أطلق رصاصته، ولكني لم أسمع دوي رصاصة، يقولون أن المقتول لا يسمع دوي الرصاصة التي تقتله، ولو كنت متأكدا أنه أطلق رصاصته فسيكون هذا هو الدليل على أنني مت بالفعل، وانتقلت إلى الجنة.

- الجنة مرة واحدة.

- الجنة توجد في البرزخ أيضا، لا أعلم كيف يجعلون القتلى في الجنة يعرفون أنهم قُتلوا، ولكن أعتقد أنه لا توجد طريقة أجمل من هذه، كراهية قاتلي في غرفة بجواري لا تستطيع أن تقتلني مرة أخرى، وشخص مألوف يقنعني أنني حي ثم يتدرج معي في كشف الحقيقة، وعندما اكتشف أنني ميت ولم أعد في الدنيا يرفعون الجدران عن مساحة الجنة الشاسعة ونعيمها.

- إذن كيف الحال حولك الآن، هل انزاحت الجدران؟

- لا، فأنت لم تخبريني بالحقيقة بعد.

- وهل أنا مألوفة لك؟

- بالطبع.

- وفي درجه؟

- وهي درجة.

- هل أشبه أمك أم جدتك أم مدرسه اللغة العربية في المرحلة الابتدائية؟

قهقهت.

- لا... بل مدرسة الحساب.

قالت متذمرة:

- أكره الحساب.

ثم قالت بجدية:

- هيا يا إسماعيل، تعلم أن الميت سواء كان ميتا على سريره أو قتيلا، يُدفن، ويُسأل، ويرى مقعده في النار أو الجنة، ويعذب في القبر أو يُنعم، ما تقوله افتراض مضحك، هل لديك تفسير آخر؟

- لدي تفسير مستحيل بعض الشئ.

- ما هو؟

- إنكم فقدتم الذاكرة، جميعكم فقدتم الذاكرة وأنا الوحيد الذي يحتفظ بذاكرته وذكرياته.

لبثت قليلا حتى فهمت، ثم صهللت ضحكتها.

- بالله عليك، هذا افتراض أسوأ من سابقه، دخول الجنة أسهل.

- إذن لا يوجد تفسير؟

- بل يوجد.

- ما هو؟

ترددت قليلا قبل أن تقول:

- قريبا يا إسماعيل، سنتحدث كثيرا، وسأخبرك بكل ما تريد.

***

العالم ليس بسيطا كما يبدو عليه، حتى لو ظهر بسيطا مع تذليل المستحيلات لخلق معجزة بحجم قدرات البشر، الصعود للفضاء، عاصفة في فنجان، أو طفل أنابيب، أو أول رسالة أرسلت بلغة مورس، ما الذي قالته أول رسالة بلغة مورس (زوجتك في مرحلة نقاهة)؟، لا لا، (ما فعل الله)؟، نعم، وما بين (نقاهة زوجتك) و (فعل الله) مصاعب يجب تذليلها، ومن ضمن هذه المصاعب التقريب بين عقلين كعقلك يا عالية وعقل سمعان.

- كل عضو في اللجنة لديه اعتراضات على طريقة العمل يا سيادة المدير وعليه أن يبتلعها بجرعة ماء أو بدونها، لمصلحة القضية ليس إلا، بدلا من أن يتصرف بتلك الطريقة.

- لا أتكلم عن الاعتراضات دكتورة عالية، صاحبك مصدوم مما فعله حسين معه، فمن الضروري أن تكون الأمور بينك وبينه جيدة وإلا لن يأتيَ مرة أخرى، سمعان شخص عنيد، ولا أحد في هذه المنظومة يستطيع إجباره على المجيء ضد إرادته.

- أولا سمعان ليس صاحبي، ثانيا: هذا أفضل، أنا أقول أن غيابه أفضل، بل وسأخبرك بما أعتقده، خطوط السيد سمعان الحمراء وهواجسه هي ما ستفسد التجربة.

- هذا القول مبكر جدا يا بروفسير، كلنا نتوقع الفشل في التجربة الأولى، حتى من اخترعوا العقار.

- أفهم، مع أن ذلك لا ينفي أنه كانت هناك إمكانية لحدوث معجزة خاصة مع قوة النماذج ونقائها، لولا سمعان.

- معجزة!، نحن في زمن شرير أ.عالية، وبشرٍ نعالج بعضًا من شره،

كلنا لديه هواجس وخطوط حمراء، ليس سمعان وحده، هيا، الحقي به، إنه رجل طيب، سترضيه أي كلمة.

- منذ قليل كنت تتكلم عن صلابة رأسه.

- نعم، هاتان صفتان لا تنفصلان.

- ليست هذه هي المرة الأولى يا سيادة المدير، ولكني أفكر هذه المرة جديا أن أخبره أن الطريقة التي يتجاهل بها نداء الناس لا تجعله مهمًا بقدر ما تثير شفقتهم.

- أعلم أنك لن تفعلي، أنتِ عاقلة.

- بمناسبة العقل، متى سنخبر حسين وإسماعيل بالحقيقة؟

- عندما يكونان مستعدين لها، وهذا يتوقف عليك وعلى أستاذ سمعان، على علاقتك بإسماعيل وعلاقة سمعان بحسين.

- وهل من الضروري عزلهما عن العالم الخارجي كل هذا الوقت؟

- هذه توصيات العلماء، قالوا أن العزل ضروري لمعالجة الآثار الجانبية، حسين وإسماعيل لا يستطيعان الخروج إلى العالم الآن، لا أحد يعلم ما الذي شاهداه أثناء إجراء التجربة عليهما، لابد أن يتطهرا، ينسيا قبل أن يعودا لحياتهما، وإلا اختلط عليهما كل شئ، ما عاشاه حقيقة، وما شاهداه، التعليمات تقول ذلك، يجب أن يناما بعمق، ويحلما، يطالعا ويمارسا الرياضة والحب، هذا مذكور في نسخة التعليمات المترجمة حرفيا عن النسخة الأصلية.

- النسخة الأصلية، نُعدهم لتجربة مقدسة بتوصيات لا تخلو من ريبة يا سيادة المدير.

- توصيات الخبراء يا دكتورة.

- نعم، للأسف، كلما تذكرت ذلك تذكرت خيبتنا، اليهود يستنبطون علماء ونحن نستنبط أنبياء.

- اليهود لا علاقة لهم بالمشروع دكتورة عالية، ثم إن هذا عادل

إلى حد ما، لا تنسيْ أن أكثر من نصف أنبياء الدنيا من نسلهم، لقد اكتفوا وشبعوا، بينما نحن لا نزال في أول الطريق.

ثم دقة على المكتب الخشبي وتهديد مشوب بابتسامة.

- ثم إن هذه الجمل الاعتراضية ليست في صالحك كعضو رئيسي في اللجنة.

- غصبًا عني يا سيادة المدير، لا أطيق هؤلاء القوم، اعتبرها وراثة، لا تنس أن جد جد جد جدي كان فلسطينيا.

- لم أنس، والآن، هل ستلحقين بأستاذ سمعان؟

- قبل أن أفعل، أريد إجابة على سؤالي.

- أي سؤال؟

- متى يمكنني إخبار إسماعيل بالحقيقة؟

- وقت ما تشائين، مع تحملك المسئولية الكاملة.

علاج الآثار الجانبية للعقار!، هل هي جملة كافية لتبرير حبس اثنين من المواطنين كُل في زنزانة منفردة؟، يجب أن يخرج هذان الشابان إلى العالم، يجب أن يستيقظا

هذا ما كانت عالية مقتنعة به، نظرات إسماعيل المخدوع، والكبرياء الجريح الذي يتعامل به حسين مع الجميع، من يدري، ربما تكون تلك الآثار الجانبية هي ما يحتاجه اكتمال التجربة، حتى لو كان اعتقادها هذا سيسبب لها المشاكل في مجال عملها، فلن يكون أسوأ من علاقتها المتوترة بسمعان، ورأيها في العلماء اليهود الذين استنبطوا العقار.

اتجهت رأسا إلى حجرة إسماعيل في الجزء البعيد من المبنى، دقت باب الغرفة وسمعت صوته يقول تفضل.

كانت ترتدي ثوبا أبيض، وتضع عطرا مميزا، انتبهت لهذا الآن فقط عندما رأت إسماعيل جالسًا على منضدة الكتابة فخفق قلبها خفقانا

مثيرا ولكنها وأدته، لا ينبغي للعالِم أن يقع في حب تجربته.

في الضوء الكابي للغرفة تفحصها إسماعيل، ابتسمت له، فسألها بدهشة:

- من أنتِ؟

- أنا الدكتورة عالية يا إسماعيل، ألا تتذكرني؟

***

تفخر الدكتورة عالية أنها تمتلك قلبا قويا، ولدت ابنتها بدون رفقة من أحد، بعد أن طُلقت في سن مبكر من زواجها، وتعرضت طيلة حياتها كمطلقة شرقية لمضايقات وصدمات صمدت أمامها بدون خدش يُذكر، ولكن كل ما تعرضت له لم يصدمها بالقدر الذي شعرت به مع نظرة إسماعيل بعد أن أخبرته باسمها، وطريقته في الكلام وهو ينتفض قائلا:

- لا.. لست الدكتورة عالية.

في لحظة واحدة فقدت الدكتورة عالية صوتها، فقدت أبعاد المكان، جغرافيته، أين تقف، استعادت فزع الصغار عندما يتوهون، أو يقابلون مجنونا لأول مرة في الشارع، استعادت كل حواراتها الهاتفية مع إسماعيل، ضحكاتهما، وتساءلت: كيف رآها اسماعيل، ما سبب صدمته.

استدارت الدكتورة عالية وانصرفت، كأنها أخطأت الباب في مكان عام، شعرت بالخزي، وقاومت دموعها وهي تسير في الممر حتى وصلت إلى مدخل المبنى المهيب.

زيارتها تلك أودت بإسماعيل إلى حافة الجنون، والأيام التالية ملأها بالهياج والصراخ والدق على جدران غرفته، فمُنعت الدكتورة عالية من زيارته والتحدث معه في الهاتف، وكأنها ارتكبت خطيئة لا تُغتفر. عزاها مدير المؤسسة: ما فعله إسماعيل معك يا دكتورة عالية

أقل بكثير مما حاول حسين فعله مع سمعان، فبمجرد استيقاظه ومعرفته بهوية مُحدثه حاول أن يقتله، ولكنها لم تفرح بالتعزية بقدر ما أغضبتها، لماذا أنكرها إسماعيل، كأنها لابد أن تعرف حكايته من جديد.

ما قامت به الدكتورة عالية طيلة يومين لم تحبه ولم تحبذه، ولكن كأنها حُبست برفض إسماعيل الكلام معها، فقررت أن تجعل هذا الحبس ماديا، اعتذرت عن الذهاب إلى العمل وأغلقت على نفسها باب غرفتها، واحتاجت إلى كثير من التجريد والقسوة لتفكر، إنها تعلم أن إسماعيل فقد وهمًا، وهي تملك حقيقة هذا الوهم، ولكن من يحتاج إلى الحقيقة للتعامل مع احتياجاته العاطفية، الوهم هو ما نفقده في الناس، مجازهم لا حقيقتهم، فما فقدته في والدها عندما مات لم يكن والدها وإنما لحظات سعادتها معه، لقد مرت بهذه اللحظات من قبل عندما فقدت أباها واكتشفت خيانة زوجها، وتعلم أن الاقتراب من إسماعيل في هذه اللحظات خطر، كالاقتراب من الحيوانات الجريحة، ليس لأنها تعض أو تعقر ولكن لأن الإنسان الجريح يبث حبه كالعدوى، كالطاعون، وهي لا تريد أن تقع في حب لا طائل من ورائه.

في صباح اليوم الثالث أرسل لها مدير المؤسسة خطابًا كتبه إسماعيل إليها، ورقة شطب فيها أكثر مما كتب.

((لا أعرف كيف أخبرك بالأمر، ولكن السيدة التي زارتني منذ يومين ليست أنتِ، أعرف ذلك ولم أنس وجهك منذ رأيته في اليوم الأول في لقائنا، وإن كنت أنتِ في الحقيقة من زرتني في المرة الثانية فسيكون الأمر أصعب من أن يتحمله عقلي، ولا يقدر أن يقوم بهذه الخدعة إلا الله أو الشيطان، فإلقاء الشبه لعبة شيطانية أو إلهية، وبسببها أعدم أشخاص لا علاقة لهم بما أعدموا من أجله على مر التاريخ، وإن كان لابد من إخبارك فأخبريني أولا هل قُتل سيدنا عيسى على

الصليب أم شبيهه، وهل السيدة ذات الخمسين عامًا التي زارتني، ترتدي نظارات، وبها لفحة من سمار، هي أنت أم شخص آخر، أرجوك، سأجن، أو أرسلي لي صورة حقيقية لك كما رأيتك منذ أسابيع، صورة شبيهة بوجهك الذي أعرفه)).

## حسين - القاتل

كان يـزوره ذلـك الرجـل الـذي يطـرح عليـه سـؤالا واحـدا ويسـجل إجابتـه وينـصرف، كل يومـين:

- ما الذي ستفعله عندما تخرج من هنا؟

في المـرة الأولى حـدق حسـين في عينـه ثـم قـال بلهجـة يطفـر منهـا الحقـد:

- سأقتل إسماعيل، سأقتل أولاد الـزواني، ومنهـم الرجـل الذي أرسـلك، وقد أقتلك أنـت أيضا.

اضطـروا إلى تكتيفـه، وظـل يسـب كأنمـا انتابتـه حمـى، ونـام نومـا عميقـا.

عندمـا اسـتيقظ كان أهـدأ حـالا، شـعر حسـين بأنـه أصبـح خاويـا مـن التضـادات والمترادفـات الـتي أعمتـه عـن رؤيـة الـشروخ الدقيقـة، أعمتـه عـن حقيقـة موظـف الخـروج عـلى المعـاش الـذي التقـاه في بدايـة توظيفـه، وأعطـاه كتيـب التعليمـات، وجهـاز الاسـتقبال، وحـكى لـه بضـع ذكريـات عـن القتـل، الآن فقـط يـدرك أن هـذه الذكريـات عـن القتـل كاذبـة، وأن الرجـل لـم يقتـل إنسـانا في حياتـه، مجـرد عامـل تسـليم مخـادع، بينمـا الأخبـار الـتي أدمـن عـلى مطالعتهـا قبـل أن يسـجنوه تُظهـر كيـف يكـون القاتـل، وكيـف يكـون الموظـف القاتـل، ومـن بـين مائـة بـل ألـف مـن القتلـة ظهـرت صورهـم عـلى المواقـع، وتـداول النـاس أسـماءهم كبصقـة يوجـد موظـف واحـد، موظـف تلـو آخـر لهـم نظـرات متشـابهة، نظـرات لا تسـتجدي، نظـرات أشـخاص يعرفـون قيمـة أنفسـهم جيـدا ولكنهـم خُدعـوا، وفقـدوا السـيطرة وضحـي بهـم، أسـلافه الذيـن سـبقوه.

ولكن ساعته لم تحن بعد، تنبئه بذلك الطريقة التي أمسكوه بها والغرفة التي يحبسونه بها الآن، غرفة صغيرة بلا قضبان، نافذة يمكنه كسرها بضربة واحدة أو بالأثقال التي زودوه بها لممارسة رياضته، وحارس ضعيف، موظف أكثر منه حارس، على أسوأ تقدير سيتدرجون في سجنه والتمثيل به، وحتى ينضم وجهه إلى تلك الوجوه المميزة، خلال شهر أو شهرين لن يقتلوه، أولا سيدير المجتمع عن القتل والقتلة الملوثين بالدم حديثا شيقا مليئًا بالكفر والتجديف، ثم سيرتقي إلى السماء عندما يرغب في الموت، كرغبة نبي أو رسول وبوسيلة أقل سهولة عن القتل برصاصة، لا يزال جزء كبير من الحياة بانتظاره وعليه أن يعيشه بكل مخاطره.

- أريد أن أعود لمهنتي، أخبرهم بذلك، عندما أخرج من هنا أريد أن أعود لممارسة مهمتي.

سجل الرجل إجابته في حيادية كلمة كلمة وانصرف، لم ينم حسين بعد أن انصرف، ظل يمارس الرياضة بعنف أقرب إلى الشبق، بعنف حتى ارتجفت عضلاته وتجاوز بها نقطة الوهن والرضوخ، وشعر بالخفة، لدرجة جعلته قادرا على أن يرى مستقبله بوضوح تام، سيعيش طويلا، أطول مما يتوقع هو ومما يتوقع من سجنوه، سيقتل أكثر مما قتل حتى يصبح الأمر كما قال له إسحاق: رغبة شاذة تماما كأن تحلم بمعاشرة أمك أو اختك وتشعر بالمتعة في ذلك.

بعد ثلاث ساعات من التمرينات نام، نام نوما أعمق مما نام في حياته كلها.

- ما الذي ستفعله عندما تخرج من هنا؟

- أريد ان أزور قبر أبي، وقبر أمي.

لم يرتعد وجه الرجل شفقة وهو يسجل الإجابة، فهو لا يعرف حسين، ولا يعرف أن أباه وأمه لم يَمُتا بعد، لقد أمروه أن يسجل

الإجابات إلى أن يصل للإجابة المنشودة،

في المرة الرابعة أجاب:

- قل لهم أريد أن أصبح أنا موظف تحرير الأظرف، أريد كتابة الأسماء، أستطيع أن أفعل ذلك بكفاءة، أعرف التهم وأعرف كيف تنطبق هذه التهم على الأشخاص، لن أخطئ.

ولم يسجل الرجل الإجابة، ليس لأنها طويلة، قال في شك:

- لم تعد تريد أن تقتل أحدا؟

لا، لم يعد يريد أن يقتل أحدًا، كم شخصًا يمكنه أن يقتله في حياته بطريقة أيامه الخوالي، كم ظرفًا يمكن أن يكتبه في هذه الحياة بالمقابل، وربما يكرسون تحت يده عشرات القتلى، سيكتب الأسماء لهم بخط لا حد لروعته، بلا خطأ.

وإسماعيل أيضا لم يعد يرغب في قتله، حتى بعد أن عرف أنهم وضعوه في الغرفة المجاورة، ببكائه المثير للشفقة، المخزي لرجل، وصرخاته ونداءاته على أشخاص وهميين والتي لا تليق إلا بمجنون، حتى يُبح صوته وتخفت قوته.

لا ينفك عن جملة واحدة يقولها:

- إيلات إيلات، لماذا تركتني؟

***

## عالية - أستاذة الأدب العربي

الرسالة الأولى (من د.عالية إلى إسماعيل):

أعلم أنك ستلعنني بعد قراءة هذه الرسالة يا إسماعيل، ولكن كيف يمكن أن تُقال الحقيقة إن كانت بهذا التعقيد، وكما قلت من قبل، إنها سعادة لم يكن مقدرا لها أن تستمر، أنت لم تلتق بهذه المرأة، لم تعش في القصر معها، كل ما عشته كان حلمًا، حلمًا بالمعنى الحرفي، بعد أن وضعك أطباؤنا وعلماؤنا في سبات طويل، هذه التقنية التي استنبطها الغربيون لحل مشاكل العلم المستعصية ويحلو لي أن أسميها (الحل بواسطة الحلم).

لا أفهم في الأجزاء العلمية رغم أنهم شرحوا لي من جوانبها الكثير، وبالنسبة للأحلام فمعلوماتي بسيطة، أعلم أن الإنسان يمكن أن يحلم في الليلة الواحدة ما يقرب من ثلاثة إلى خمسة أحلام وربما أكثر، ومن المنطقي أن ترتبط هذه الأحلام ببعضها، والعلماء استطاعوا التحكم في طول مدة الأحلام أثناء النوم بل والتحكم بمحتواها، يستخدمون لذلك حبوبًا قريبة من حبوب الباربيتورات ليجعلوا الأحلام أقل هلوسة وأكثر واقعية، كما أن مزيجًا من البنزدرين المنبه والنيبومال المسكن (لاحظ طرفي النقيض) تستطيع أن توقعك في نوم طويل بلا أحلام، والحرمان من الأحلام أثناء النوم يُضاعف مدة الأحلام في فترة النوم التالية، أي أن نومًا هادئًا بلا أحلام سيوقعك في فترة أحلام أطول في الليلة التالية، والباحثون يقولون أن باستطاعتهم فعل الأمر المضاد، أي صنع أحلام خلال فترة النوم كلها، دون المرور بمراحل النوم المختلفة، واليقظة النهائية.

الفترة التي نمت فيها يا إسماعيل اختصرنا خلالها سنين من التعليم

والإقناع لصاحب الموهبة الجديرة وهو أنت وحسين، عقلك أنت وهو كانا في حلم واحد، حلم تفاعلي إن صح إطلاق اللفظ، وكنت أنا وأستاذ سمعان نلقنكما ما نرغب فيه عبر فترات تداخل قصيرة، الأستاذ سمعان باعتبار التلقين الديني وأنا باعتبار التلقين الأدبي

ولكن لماذا؟، لماذا فعلنا بكما هذا، الإجابة ببساطة: التجربة تمت لتهيئتكما لكتابة نصوص تُجمع في كتاب ديني سنعده بحيث يأخذ المكانة الأولى عند المسلمين، كتاب يحتوي على تعاليم القرآن وحكاياته وقصصه، يمكنك أن تقول: مشروع لإعادة كتابة القرآن بلفظ بشري، لفظ قريب جدا من اللفظ الإلهي، ولكنه قابل للبقاء على الورق.

الأستاذ سمعان يراهن على حسين أقوى مما أراهن أنا عليك، على إنقاذ العالم الإسلامي، النتيجة كانت أفدح مما تخيلنا جميعا يا إسماعيل، رفع الحروف أزاح ثقل العالم إلى وضع انحراف لا يمكننا جميعا تقبله، والحكايات عن نهاية العالم دفعت العقول إلى الوضع المتفجر، الأخبار ليست كما تسمع وكما ترى، يوميا هناك أرقام عن قتلى أبرياء وغير أبرياء، هناك تهديدات من دول كبرى باستعمال الأسلحة ضد دول عربية عديدة امتلأت بالجماعات الأصولية التي تنادي بجهاد آخر الزمان، الوضع ملتهب ونحن نحاول هنا إيقاف عداد يوم القيامة بمعناها الحرفي

كما قلت لك، كان مقررا أن تقوما أنتما الاثنان بتأليف النصوص، ولكن أثناء خضوعكما للعقار رفض أحدكما الاتصال بالآخر، أحدكما أو كلاكما، مؤشرات الرفض لدى حسين كانت أقوى، وتمثل هذا الرفض في إخضاع رجل في الحلم يسمى إسحاق (حتى الحلم له قانون، لاحظ أن إسحاق يجمع بين حروفي اسميكما)، لهذا قررت اللجنة أن واحدًا منكما فقط هو من سيكتب النص الذي نرغب في كتابته، وبدا هذا أنسب للمشروع كأنها فكرة كانت تائهة عن الجميع.

سمعان الشنقيطي يقول أن حسين هو الأنسب للكتابة، فقد تعلم اللغة وأصولها بشكل جيد على يد عمه الفقيه الأزهري الصعيدي، وعنده عناية باللفظ وتفان يجعل من المستحيل أن ينسب جهد الكتابة لنفسه، عكسك تماما، أنت نرجسي، وكل التوقعات كانت تشير إلى أنك سترفض إلا إذا وعدناك أن ننسب الكتاب لك في مرحلة ما من حياتك، ولكنني استطعت إقناعهم بأنه يمكنك التضحية وأنك الأفضل، أنت أقل تحررا من المخاوف وأكثر حبا، وهذا ما نحتاجه، كتابًا في الحب وليس في الحيادية.

هذه هي المناقشات الأولية، ولكن يمكنك القول يا إسماعيل أن الأفضل لكتابة النصوص سيتحكم في اختياره أمور عدة، أنت من استيقظ أولا وهذه نقطة في صالحك، ولكن الأطباء قالوا أن حسين هو من أيقظك، هذه نقطة جيدة جدا في صالحه هو، وكادت أن ترجح كفته، ولكن من الواضح أن حسين هو من قتل إسحاق، وهذه صفة سيئة، صفة الإقصاء، القتل، في النهاية وبعد مناقشات طويلة مضنية اختلفنا أنا وأستاذ سمعان فيها اختلاف أدى إلى الضغينة اتفق رأي اللجنة على تعويم القرار باختيار أحدكما وتُرك الأمر لمجهودي أنا وسمعان.

والآن يا إسماعيل، بعد ما عرفته، أتمنى أن توافق، نحن نقدم لك فرصة على طبق من ذهب، فرصة حياة حقيقية، الخلود في ملعقة من فضة، حياة مليئة بالكفاح والمخاطر، ولا تظن أن وجود أ.سمعان معنا سيمنع الأصوليين من مهاجمتنا وتكفيرنا، ولكننا وضعنا قصة حياة مقنعة ووافية لك، هل تعلم يا إسماعيل عدد الكتب التي كتبها المسلمون بعد القرآن، والصحاح، والمسانيد، وظل المسلمون يقدسونها في وجود القرآن، كتب كتبها أصحابها بمجهود فردي، ومع وجود تاريخ مشرف، لكن كتابنا، كتابك أنت ستتوافر له مزايا لم تتوفر لكتاب منها.

اطمـئن، سـنكون خلفـك يـا إسـماعيل، عـلى مسـافة آمنـة، نسـاعدك عـلى تجـاوز كل معـاركك منتـصرا، ومـا سـيقوله المنصفـون عنـك في النهايـة هـو الفيصـل: السيد المبجـل، الـذي جعـل بكتاباتـه من العالـم مكانـا أكـثر سـلاما، لغتـه الـتي فككـت لغـة التعصـب كمـا تُفـكك قنبلـة موقوتـة، سـترقب عينـك وأنـت تـرى المدينـة الـتي ستنشـأ في الصحـراء حـول مدرسـة سـمعان عندمـا تصبـح مُلهمـا مـن ملهمـي الطلبـة فيهـا، والمدينـة الصغـيرة الـتي سـتقوم عـلى عظامـك ودمائـك وذكرياتـك حولهـا، كلهـا سـتقوم عـلى أكتـاف النـص الـذي ستكتبه في الحـب، إليهـا، إلى سـيدة القـصر الـتي رفضـت أن تخـبرني باسـمها.)

***

الرسالة الثانية ( من إسماعيل إلى عالية):

(حلمـت حلمـا سـخيفا، طويـلا جـدا أطـول مـن يكـون حلمًا، بطول ست سـنوات، الحلـم كان حقيقيـا، ولـو أن شـخصًا مـا طعنـني في الحقيقـة ما تألمـت عنـد اسـتيقاظي كمـا أتألـم الآن، وألمـي هـذا دليـل عـلى أنكـم أحسـنتم، وأرى أن مهارتكـم لـم تفقـد حدتهـا حـتى في لحظـة النهايـة، حلقتـم لحيـتي، وتاريـخ الحائـط أزلتمـوه لتزيـدوا مـن بلبلـتي، وسـاعتي تلاعبتـم بهـا، إنهـا تشـير إلى الصفـر، صفـر في اليـوم وفي الشـهر وفي السـنة، والوقـت مشـابه لوقـت قديـم ولكنكـم مدسوسـون في كواليسـه.

كيـف صنعتـم الخدعـة، لا تتوقعـي أن أصـدق هـذه التخاريـف حـول العقـار والتجربـة، مـا عشـته بالفعـل، أو مـا تظنـون أنـني عشـته، كان حقيقيـا، بغـض النظـر عـن وجودكـم في الكواليـس، كاللصـوص، والآن تخرجـين أنـت منهـا الآن لتضعـي أمامـي خياريـن تعتقديـن أنـني حـر في اتخـاذ أحدهمـا، مـا أدراني أنكـم لا تزالـون هنـاك، حـتى لـو رفضـت وغـادرت، لـو أن مـا فقدتـه مـن عمـري كان سـنة أو أقـل أو أكـثر قليـلا لـكان مـن السـهل اتخـاذ قـرار، ولكـني أشـعر بالسـت سـنوات رازحـة في قلـبي، كل سـنة منهـا مـلأت قلـبي بالحجـارة والأنقـاض والحطـام المؤذي،

هل لبثت نائما ست سنوات، أم أنها مدة في الحلم؟، أنتم تتلاعبون بعقلي، وست سنوات مدة كبيرة لإجراء تغييرات اعتيادية متوقعة تسير في طريقيْ الخداع والحقيقة بالتوازي، مات جدي ولكن ربما تقتلونه أو تخفونه عني، سأظل ضائعا باختياركم حتى تُخرجوني وتسمحوا لي بأن أجد نفسي، وعندما تضعون أمامي خيارين تظنون أن كليهما تأثيره على حياتي أكبر مما تتخيلون، أن لا أعرف الحقيقة إلا من خلالكم، هل هذا ثمن عادل للأشياء التي قد تمنحونها لي، تبدأ بمرتب ثابت وقد تنتهي بالخلود؟، كيف تتوقعون أن تُخدع هذه الحشود التي تتكلمون عنها بكتاب يكتبه شخص مغيب مثلي، مع كونه سردا قابلا للاستدراك والنقد والاحتقار.

هل تريدين أن تعلمي كيف أراكم الآن، ستندهشين لو عرفت، حقيقتكم أقل بكثير من مجازكم، وأنتم أقل من حقيقتكم بكثير، أنتم لصوص، سرقتم ست سنوات من حياتي، حتى لو كان التاريخ على الحائط يشير إلى عكس ذلك، هل تظنون أنني لا أستطيع إدراك الفارق بين الحقيقة والمجاز؟، أعرف ما مررت به جيدا، وأعرف كيف أنتقم له، وأشعر بالرغبة في إنهاء متعتكم بشكل سيء، في إفساد المشهد الذي سينزاح الستار عنه الآن، رغبة جارفة.

أرفض عرضكم الكريم، واسمحي لي أن أقول، أنتم مجانين، كان بمكنكم أن تطلبوا مني ذلك مباشرة، دون المرور بتلك التجربة كما تسمونها، دون الانضمام للمدرسة، والعمل في القصر، وانتهاكي بتلك الطريقة، بل وسأخبرك بالحقيقة المرة، الحياة التي جعلتموني أعيشها بتخطيطكم هي السبب في رفضي).

***

الرسالة الثالثة (من إسماعيل إلى عالية):

(أرجوكِ سأجن، لم أستطع النوم، أكتب هذه الرسالة بعد ساعة من تسليمي الرسالة السابقة، هل يمكن أن يحلم الإنسان بأشياء لم

يتعلمها ولم يعرفها في حياته قط، هل يمكن أن يرى وجوها يحبها ويكرهها، هل يمكن أن يحلم حلما طويلا جدا، بطول ست سنوات دون أن يدرك أنه حلم، حاولي أن تساعديني، أرسلي لي كتبًا، روايات، صورًا مطبوعة من الأخبار التافهة، أخبار الممثلين وجرائم القتل، أرسلي صورة من شهادة ميلادك وميلاد ابنتك، صورة ضوئية لكما في مكان به عشب وماء، اطلبي منهم أن يُخرجوني أو يقتلوني، لم أعد أحتمل).

***

قبل منتصف الليل في نفس اليوم دق جرس هاتفها، من الكلمات الأولى تبينت صوت إسماعيل.

- أعتذر عن اتصالي في وقت متأخر.

ورغم صوتها الغارق في زبد النوم قالت لترفع عنه الحرج:

- لا عليك يا إسماعيل، أنا أنام في وقت متأخر.

- أرسلت لك اليوم رسالتين ردا على رسالتك.

- سأستلمهما في الصباح.

كان صوت إسماعيل حزينا، خشنا كأنه صرخ كثيرا ولا يجد من يواسيه.

- كان هذا ضروريا يا إسماعيل، كان الأمر يستحق.

- اقرأي الرسالتين.

- حاضر.

- كم أعطوك من وقت قبل أن تخبريهم بنتيجة حوارنا؟

- كل الوقت يا إسماعيل، كل الوقت.

- هل يمكنني الاتصال بجدي أثناء ذلك؟

- لا.

- على الأقل أخبريني إن كان حيا أم ميتا كما أوهمتموني.
- غير مسموح لي يا إسماعيل بغير ما قلته لك في الرسالة.
- ولا حتى سؤال عام.
- ما نوع السؤال؟
- كنت أريد أن أسألك بصفتك أستاذة في اللغة عن معنى كلمة؟
- أي كلمة؟
- هل تعدينني بالإجابة؟
- إن كانت الإجابة تهمك أعدك أن أبحث لك.
- وعدك كافٍ لي.

ثم ابتلع إسماعيل ريقه، سمح لها سكون الليل بسماع حركة الريق في حلقه قبل أن يقول:

- ما معنى كلمة إيلات؟

***

بعد مكالمة الليل وقراءة الرسالتين اللتين أرسلهما إسماعيل أرسلت له عالية مجموعة من الكتب التي تتحدث عن الأحلام، وصورة ضوئية لشهادة ميلادها، وصورة ضوئية لابنتها في حديقة.

(أرجوك لا ترفض يا إسماعيل، لا تخذلني، رسالتاك سببا لي صدمة، سمعان لم يرضَ بك من البداية، ويترقب هذا الرفض ليملأ أسماع القائمين على المشروع بما سبق وقاله عن الأدب وقيمته، هل تعتقد أن مشروعًا كهذا يمكن أن يخلو من شخص مثلك، أرجوك أرسل لي بما يطمئنني، اتصلت بك مرارا ولكن الحارس أخبرني أنك أغلقت الباب على نفسك وترفض الحديث.

أنا أيضا أغلقت على نفسي من شدة الإحباط، عاودتني نوبات البكاء القديمة بعد أن تطلقت ثم فقدت أبي، ولكن كما ترى، لا مفر من

أ. عمر، الإنسان منا بما وعد، سألتني عن معنى كلمة إيلات ولأنني أشبع شغفي في أسئلة الطلبة الذين يشبهونك فلم أضيع وقتي في أن أجمع لك معلومات عن تلك البلد الساحلي القديم، لقد سألتني عن معنى، وها هي ذي الإجابة:

إيلات كما في قاموس الكتاب المقدس اسم عبريّ معناه شجرة البطم أو البلوط.

وفي (المعجم الجامع لما صرح به وأبهم القرآن من مواضع) لفظ آيلة هو نسخ حرفي للاسم القديم الوارد في العبرية التوراتية بشكل إيلت والذي هو جمع مؤنث من أيل بمعنى شجرة كبيرة أو نخلة أو غزال أو وعل أو كبش، ولكن الأرجح أنها تعني واحة نخيل.

كما ترى، إيلات تعني كل ما هو يتفرع عند رأسه سواء بالفروع أو بالقرون، وهذه نظرة مبدئية تحتاج إلى بحث ولكني أرجو أن تكون مفيدة لك،

كل تحياتي)

***

الرد الذي أرسله إسماعيل كان مريبا نوعا ما لمدير المؤسسة، رسمي ومبهم

(أشكرك جدا على اهتمامك بالرد، أتمنى أن يُتاح لي الوقت عندما أخرج من هنا لأقوم بهذا البحث، والحقيقة أنني لم أرَ من معاني الأسماء التي أرسلتها إلا العلو، فالنخل عالٍ، والشجر، والوعول والكباش تعشق الصعود فوق المرتفعات العالية، وهذا قريب من اسمك: العالية فهل هناك رابط بين اسمك واسم إيلات؟، اسم قديم لعائلتك، معنى لاسم قديم أو ما شابه؟

رغم ذلك ما ذكرتيه عن واحة النخيل جعلني تواقا إلى معرفة المزيد عن علاقة الاسم بالصحراء والشجر والعرب القدامى،

وبصفتك أستاذة في الأدب العربي لن يستلزم الأمر مجهودا طائلا.

طلب صغير أرجو أن لا يكون وقحا: أرجو أن ترسلي لي صورة لك، صورة ضوئية واضحة).

***

الرسالة التي أرسلتها عالية بعد هذه الرسالة كان مدونا بها قصائد كثيرة من قصائد العرب عن الصحراء، وصورة حديثة واضحة لها حرص مدير المؤسسة على محو التاريخ في خلفيتها.

(لماذا يؤرقك هذا الاسم، للدرجة التي تصرفك عن مناقشة ما تحدثنا بشأنه، وعلى كُل، رغم غرابة طلبك إلا أنني لا يمكنني إلا أن أستجيب له، على وعد بأن تخبرني يوما ما بالسبب الذي جعلك تطلب صورة لي، أما العلاقة بين اسمي وهذا الاسم الغريب فأعتقد أن البحث في تاريخ عائلتي سيكون بلا جدوى، فعائلتي ذات أصول متنوعة من أقصى المشرق العربي إلى أقصى المغرب.

بالنسبة لما طلبته من معلومات عن علاقة لفظ إيلات بالصحراء لم أجد عنه إلا أن اسم إيل ارتبط بأسماء الملوك في سوريا (الملك حزائيل) وهو مأخوذ من اسم الإله إيل، ويُظن أنه كان اسم إله الصحراء).

***

(من عالية إلى إسماعيل):

لماذا لم ترد على رسالتي السابقة؟، ألم تخبرك سيدة القصر أنه ليس من اللائق أن تترك امرأة تنتظر، على كُل سأسامحك وأتمنى أن لا يكون بسبب شيء أغضبك مني، أقصد شيئًا جديدًا بالطبع، الكتابة ترهقني يا إسماعيل، لقد صرت عجوزا، كما أنني أريد أن أسمع صوتك لأطمئن عليك، المرة الأخيرة التي سمعته فيها كانت أسوأ نبرة صوت سمعتها في حياتي، أسوأ حتى من نبرة صوت زوجي

وهـو يناديـني، أو يطلـب أن أضـع لـه طعامـه، هـل مـن الممكـن أن تعـود مكالماتنـا الهاتفيـة مـرة أخـرى، بغـض النظـر عـن المشروع الـذي نتناقـش فيـه، أرسـل إلي الـرد أرجـوك.

لـدي خـبر سيء، وقـد يكـون جيـدا، بالأمـس أرسـل إليّ مدير المؤسسـة صـورة مـن تقريـر الخـبراء بعـد دراسـة الحالـة النفسـية الـتي استيقظت بهـا أنـت وحسـين، ورقـة واحـدة، لابـد أنه أرسـل صـورة منهـا إلى سـمعان أيضـا، وسـأحاول أن أختـصر لـك مـا فيهـا، الأخطـاء والتوصيـات، أن لا تتـم التجربـة التاليـة إلا عـلى نمـاذج تجـاوزت سـن الأربعـين، وفي غـير وجـود جنـس مختلـف للتلقـين (إمـا إنـاث أو ذكـور)، خضـوع الملقنـين لدراسـة الحالـة النفسـية لهـم جيـدا، وعلاجهـم في حالـة صعوبـة الاسـتغناء عنهـم، وجـود ملقـن في علـم مـن العلـوم خـارج الموضـوع المُعنى بـه: الفيزيـاء، الكيميـاء، الفلـك .. وبـلا بـلا.

أتسـاءل: هـل هـذا مـا كان ينقصكمـا فعـلا يـا إسـماعيل لتنجحـا؟، لا يهـم الآن، مـا يهـم أن التقريـر يؤكـد فشـل التجربـة، وأن الإفـراج عنكمـا وشـيك، وأن الاسـتغناء عـني أنـا وسـمعان سـيكون قبـل عثورهـم عـلى نمـاذج التجربـة الجديـدة.

لا أخفـي عليـك يـا إسـماعيل، أنـا غاضبـة، غاضبـة لاسـتغنائهم عـني وغاضبـة لأنـني سـعيدة بذلـك، لـم أكـن لأتحمـل تجربـة أخـرى ولكـني كنـت أكابـر، لـم يعـد بإمـكاني أن أشـارك في إنقـاذ العالـم، هللويا.

مـا الـذي سـأفعله الآن، مـا الـذي يفعلـه مُنقـذ سـابق للعالـم، سأكتب كتابًـا جديـدًا للدراسـة عـلى طلبـة الأدب في الجامعـة، سأسـميه (المجاز في العقيـدة وفي الأدب) وسـأجعل إهـداءه لـك، سـأجرب اثـني عـشر طعمـا جديـد للشـاي المفضـل لي، لـم أجربهـم عندمـا كنت منهمكة بالعمـل في المؤسسـة، سـأقابل سـبعة عـشر خاطبـا جـددًا لابنـتي الجامعيـة وأرفضهـم، إنهـا جميلـة يـا إسـماعيل، بـل فاتنـة، لـو رأيتها لكنـت الخاطـب الثامـن عـشر

وسأنام كثيرا، فأنا الآن أنام وأحلم، وأدون أحلامي، لقد غيرتني يا إسماعيل).

***

من إسماعيل إلى عالية:

(أعتذر عن تباطئي في الرد على رسالتك الأولى السابقة، سعيد بسعادتك، وأتمنى لك التوفيق في كتابك الجديد، وأن تجدي حاطما مناسبا لابنتك الجميلة، الإفراج عني أنا وحسين أعتقد أنه سيأخذ وقتا، أخبرني مدير المركز بذلك، أما عن التقرير الذي أخبرتني عنه ولكي تكون الصورة مكتملة لديك فقد زارني أحد الخبراء الأجانب. وتحدثنا كثيرا في وجود مترجم، أخبرني أن معظم الذين خضعوا للتجربة كانوا علماء وقد حكوا حكايات مذهلة عند استيقاظهم، إلى أن اكتشفوا أن تذكر الحلم يُضعف كثيرا من أثر التجربة، وهذه فرضية لم يتأكدوا منها بعد بشكل تام، قال لي أن غلطتي (أو - خطيئتي - هكذا ترجمها المترجم الذي يبدو أنه مصاب بالاكتئاب) أنني حكيت لك، فمن يحكي يتذكر، وأعتقد أن ما قاله - بخصوص التذكر - صحيح مائة بالمائة، فبالأمس قابلت حسين في الممر خارج غرفتينا، نظر لي طويلا ولكنه لم يتذكرني، لم أرَ في عينه العداوة القديمة، يبدو أننا سنصبح أصدقاء.

لهذا السبب تحديدا أعتذر عن مواصلة مكالماتنا الهاتفية، صوتك في الهاتف يشبه صوتها في الواقع، وأنا أريد أن أجد الفارق بين الحلم والواقع في الوقت القريب، وإلى ذلك الحين لدي أشياء لأنجزها، ولا تقل أهمية عن استكشاف اثني عشر طعمًا للشاي، كل يوم أخرج صورتك وأتأملها وأحاول إقناع نفسي، لا، ليست إيلات، إيلات لا ترجوني لأكتب لها نصا بعد كل ما حدث بيننا، إيلات في أسبانيا، في الحلم، أو الحقيقة، وما كان في استطاعتي أن أرفض لها طلبا بكتابة نص، نصا في الحب، أنا الآن عاكف على كتابته، كما يجب أن يكون،

خاليا من الأخطاء، فظائع الهمزات المضطربة في أماكنها على الألف، والأخطاء الناتجة عن عدم التميز بين الألف والياء اللينة في أواخر الكلمات، نصا بالشدة فوق أحرف كلماته، فالشدة حرف كامل كما قالت لي من قبل مرارا وتكرارا، يا إلهي... كيف كنت أكتب بهذه الطريقة إليها، كيف كنت أخدش قلبها قبل بصرها.

ولكن عزائي أن الله عز وجل من فوق العرش سيتقبل مني الكلمات بمجرد أن أكتبها، على معانيها لا على أشكالها، حتى لو كتبتها بألف طريقة خاطئة سيعرفها ولن ينتظر مني أن أصحح أخطائي ليحبني، هل أحبني الله؟، نعم بالتأكيد وإلا ما كنت التقيت بإيلات في هذا الزمن الغريب، وربما ساقني إليها لأومن به، أومن به وأومن بها، وأومن أيضا بأن بعض البشر لن يرضوا بأقل من أن نخاطبهم كالآلهة وأن الله فقط هو من سيقبل منا أن نخاطبه كما نخاطب البشر، ويستجيب رغم ذلك، كم أحببتها، وكم سأكرهها الآن لغيابها، ولكن ما بقلبي سيظل باقيا بقلبي، لا يتغير، أحمد الله عليه حمدا مليئا بكل أخطاء اللغة، عمدا، ليتقبلني..).

***

من عالية إلى إسماعيل:

(حسنا يا إسماعيل، أتمنى أن تجد نفسك سريعا وأن تجد قلبك قبل أن تجد نفسك، لا تنس البحث عنه أيضا بدلا من أن تلتمسه في آخر حياتك في الأغاني القديمة التي أمتلك منها الكثير.

من واجبي أن أحذرك من الخبراء الأجانب وما يقولونه، أعتقد أنهم يستمتعون بفشلنا، ولك أن تعرف أنهم رفضوا أن يعطونا العقار إلا بعد إشراف جزئي منهم ، وتأكيد أننا لن نستخدمه إلا للغرض الذي ذكرناه، للكتابة والتأليف.

ما فهمته من رسالتك الأخيرة أن إيلات هي سيدة القصر، وليس كيانًا أو مكانًا، ولقد بحثت طويلا عن الأحلام وإيلات فلم أستطع

أن أصل إلى شيء يربط بينهما، نصيحتي التي أعلم أنك لن تلقيَ لها بالا، اسع خلف حلمك الذي رأيته ولا تتحرر منه أرجوك، فلعل هذا يكون أول التفاهم بيننا حول موضوعنا الذي قتلته برفضك الغريب، الأحلام هامة جدا يا إسماعيل، إنها ليست حصة تدبير منزلي ولا تقل أهمية عن اليقظة، الأحلام كانت سببا مباشرا في حصول عالمين على جائزة نوبل، لا أتذكر من الذي قال ذات مرة أن اليقظة درجة واحدة: عندما نستيقظ من نومنا كل صباح، ولكن النوم درجتان لليقظة، أول درجة منها عندما نغيب عن العالم فوق أسرتنا كل ليلة.

ملحوظة: وجدت معلومات جديدة عن اسم إيلات تبتعد تماما عن استنتاجي (التفرع عند الرأس) وتقترب نوعا ما من استنتاجك (العلو).

( قال الأصمعي في معنى جبرائيل وميكائيل معنى إيل الربوبية فأضيف جبر وميكا وعزرا إليه.

ويرى بعض المفسرين أن كلمة إل ما هي إلا الآلهة باللغة العبرانية كما في أسماء الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وكما في إسماعيل وإسرائيل عليهم جميعا السلام، وذكر مجاهد أن إل هو اسم من أسماء الله عز وجل، وذكر الأزهري أن أصله من الأليل وهو البريق)).

كل تحياتي.

***

كان حسين قد اعتاد على النوم في الصخب الذي يصنعه إسماعيل في نوبات هياجه، والموظف الذي يحرسهما يغفو أحيانا، لذا لم يكونا مستيقظين في هذه الليلة التي وصلته فيها الرسالة الأخيرة للدكتورة عالية، عندما اكتشف إسماعيل جزءًا من الحقيقة، كم عمرًا عليه أن يعيشه في الحلم ليعرف الحقيقة كاملة، ولكن مساءه الأول الذي تحرر فيه كان مشهودا، ظل يضحك ويبكي حتى اختلط عليه الأمر،

لماذا يضحك ولماذا يبكي، ثم صار يبكي بذيول ضحكات، ويضحك بذيول من بكاء.

وبعد أن توقف إسماعيل عن الضحك والبكاء ساد هدوء عميق، تألق ضوء جميل وكأن العالم عاد ليتنفس من جهاته الأصلية مجددا.

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية.

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.

ابعت لنا على:

**kayanpub@gmail.com**

**info@kayanpublishing.com**

أو زور موقعنا:

**www.kayanpublishing.com**

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتابنا الثقافية:

kayan_publishing

Kayan.publishing

kayanpublishing

Kayanpublishing

KayanPublishing

+KayanPublishing

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm